

الميزان

في تفسير القرآن

ج ١٦

الجزء السادس عشر

مَكْتَابُ

الْمِلَازِ

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

لِوَلَّيْهِ

الْأَسْتَاذِ الْعَلَّامَةِ

السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ حَسَنِ الطَّبَّاطَبَايَا

شبكة كتب الشيعة

لغز الطبع ونشر

إشراف محمد الخوئي
مجلد

دار الكتب الإسلامية

طهران - سوق السلطاني

١٣٨٨ هـ ق

مطبعة العيدري بطهران

shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القصص مكيّة وهى ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ
مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ
الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ
الْوَارِثِينَ (٥) وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ
مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ
فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)
فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا
كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ
عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ
فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠)
وَقَالَتِ لَأُخْتِهِ قُصِّيه فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَمْنَا
عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ وَهُمْ

لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلْيَعْلَمْ أَنَّ
وَعَدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ
حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) .

﴿بيان﴾

غرض السورة الوعد الجميل للمؤمنين وهم بمكة قبل الهجرة شذمة قليلون
يستضعفهم فراغة قریش وطاقاتها واليوم يوم شدة وعسرة وفتنة بأن الله سيمنهم
ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ويمكن لهم ويرى طغاة قومهم منهم ما كانوا يحذرون
يقص تعالى للمؤمنين من قصة موسى وفرعون أنه خلق موسى في حين كان فرعون في
أوج قدرته يستضعف بني إسرائيل يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم فرباه في حجر عدوه
حتى إذا استوى وبلغ أشده نجاه وأخرجه من بينهم إلى مدين ثم رده إليهم رسولا
منه سلطان مبين حتى إذا أغرق فرعون وجنوده أجمعين وجعل بني إسرائيلهم
الوارثين وأنزل التوراة على موسى هدى وبصائر للمؤمنين .

وعلى هذا المجرى يجري حال المؤمنين وفيه وعد لهم بالملك والعزة والسلطان
ووعد للنبي ﷺ برده إلى معاد .

وانتقل من القصة إلى بيان أن من الواجب في حكمة الله أن ينزل كتابا من
عنده للدعوة الحقّة ثم ذكر طعنهم في دعوة القرآن بقولهم : لولا أوتي مثل ما أوتي
موسى والجواب عنه ، وتعلمهم عن الإيمان بقولهم : إن تتبع الهدى معك تتخطف
من أرضنا والجواب عنه وفيه التمثيل بقصة قارون وخسفه .

والسورة مكيّة كما يشهد بذلك سياق آياتها ، وما أوردناه من الآيات فصل من
قصة موسى وفرعون من يوم ولد موسى إلى بلوغه أشده .

قوله تعالى : « طسم تلك آيات الكتاب المبين » تقدم الكلام فيه في نظائره .

قوله تعالى : « تتلو عليك من نباء موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » « من » للتبويض و « بالحق » متعلق بقوله : « تتلو » أي تتلو تلاوة متلبسة بالحق فهو من عندنا وبوحي منا من غير أن يداخل في إلقائه الشياطين ، ويمكن أن يكون متعلقا بنبا أي حالكون النبا الذي تتلوه عليك متلبسا بالحق لا مرية فيه .

وقوله : « لقوم يؤمنون » اللام فيه للتعليل وهو متعلق بقوله : « تتلو » أي تتلو عليك من نبا هما لأجل قوم يؤمنون بآياتنا .

ومحصل المعنى : تتلو عليك بعض نبا موسى وفرعون تلاوة بالحق لأجل أن يتدبر فيه هؤلاء الذين يؤمنون بآياتنا ممن اتبعوك وهم طائفة أنلاء مستضعفون في أيدي فراعنة قريش وطغاة قومهم فيتحققوا أن الله الذي آمنوا به وبرسوله وتحملوا كل أذى في سبيله هو الله الذي أنشأ موسى عليه السلام لا حياء الحق وإجاء بني إسرائيل وإعزازهم بعد ذلتهم هاتيك الدلة يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم وقد علا فرعون وأنشأ فيهم مغالب قهره وأحاط بهم بجوره .

أنشأ والجو ذلك الجو المظلم الذي لامطمع فيه فرباه في حجر عدوه ثم أخرجه من مصر ثم أعاده إليهم بسلطان فأنجا به بني إسرائيل وأفتى بيده فرعون وجنوده وجعلهم أحاديث وأحلاما .

فهو الله جل شأنه يقص على نبيه قصتهم ويرمز له ولهم بقوله : « لقوم يؤمنون » أنه سيفعل بهؤلاء مثل ما فعل بأولئك و يمن على هؤلاء المستضعفين و يجعلهم أئمة و يجعلهم الوارثين حذوما صنع ببني إسرائيل .

قوله تعالى : « إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم » الخ العلو في الأرض كناية عن التجبر والاستكبار ، والشيع جمع شيعه وهي الفرقة قال في المجمع : الشيع الفرق وكل فرقة شيعه وسموا بذلك لأن بعضهم يتابع بعضا . انتهى وكان المراد بجعل أهل الأرض - وكأنهم أهل مصر واللام للعهد - فرقا إلقاء الاختلاف بينهم لئلا يتفق كلمتهم فيثوروا عليه ويقبلوا عليه الامور على ما هو من دأب الملوك في بسط القدرة و تقوية السلطة ، واستحياء النساء إبقاء حياتهن .

ومحصل المعنى أن فرعون علا في الأرض وتفوق فيها بيسط السلطة على الناس وإنفاذ القدرة فيهم وجعل أهلها شيعاً وفاقاً مختلفة لانجتماع كلمتهم على شيء وبذلك ضعف عامة قوتهم على المقاومة دون قوته والامتناع من نفوذ إرادته .

وهو يستضعف طائفة منهم وهم بنو إسرائيل وهم أولاد يعقوب عليه السلام وقد قطنوا بمصر منذ أحضر يوسف عليه السلام أباء وإخوته وأشخصهم هناك فسكنوها وتناسلوا بها حتى بلغوا الألوف .

و كان فرعون هذا وهو ملك مصر المعاصر لموسى عليه السلام يعاملهم معاملة الأسراء الأرقاء ويزيد في تضعيفهم حتى بلغ من استضعافه لهم أن أمر بتذبيح أبنائهم واستبقاء نسائهم وكان فيه إفناء رجالهم بقتل الأبناء الذكور وفيه فناء القوم .

والسبب في ذلك أنه كان من المفسدين في الأرض فإن الخلقة العامة التي أوجدت الإنسان لم يفرق في بسط الوجود بين شعب وشعب من الشعوب الإنسانية ثم جهز الكل بما يهديهم إلى حياة اجتماعية بالتمتع من أمتعة الحياة الأرضية ولكل ما يعادل قيمته في المجتمع وما يساوي زنته في التعاون .

هذا هو الإصلاح الذي يهتف به الصنع والايجاد ، و التعدي عن ذلك بتحرير قوم وتعبيد آخرين و تمتيع شعب بما لا يستحقونه و تحريم غيرهم ما يصلحون له هو الإفساد الذي يسوق الإنسانية الى البعد والهلاك .

وفي الآية تصوير الظرف الذي ولد فيه موسى عليه السلام وقد أهدقت الأسباب المبيدة لبنى إسرائيل على إفنائه .

قوله تعالى : « ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض إلى قوله - ما كانوا يحذرون » الأصل في معنى المنّ - على ما يستفاد من كلام الراغب - الثقل ومنه تسمية ما يوزن به منّا ، والمنّة النعمة الثقيلة ومنّ عليه منّا أي أنقله بالنعمة . قال : ويقال ذلك على وجهين أحدهما بالفعل كقوله : « ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا » أي نعطيهم من النعمة ما ينقلهم والثاني بالقول كقوله : « يمنون عليك أن أسلموا » وهو مستقبح إلا عند كفران النعمة . انتهى ملخصاً .

وتمكينهم في الأرض إعطاؤهم فيها مكاناً يملكونه ويستقرّون فيه ، وعن الخليل أن المكان مفعّل من الكون و لكثرتة في الكلام أُجري مجرى فعال . فقيل : تمكن و تمسكن نحو تمنزّل انتهى .

وقوله : « ونريد أن نمنّ » الخ الأَنسب أن يكون حالا من « طائفة » و التقدير يستضعف طائفة منهم و نحن نريد أن نمنّ على الذين استضعفوا الخ و قيل : معطوف على قوله : « إنّ فرعون علا في الأرض » والأوّل أظهر ، و« نريد » على أيّ حال لحكاية الحال الماضية .

و قوله : « و نجعلهم أئمة » عطف تفسير على قوله « نمنّ » وكذا ما بعده من الجمل المتعاقبة .

و المعنى أن الظرف كان ظرف علوّ فرعون ، و تفرّقه بين الناس و استضعافه لبني إسرائيل استضعافاً يبيدهم ويفنيهم و الحال أنا نريد أن ننعم على هؤلاء الذين استضعفوا من كلّ وجه نعمة تثقلهم وذلك بأن نجعلهم أئمة يقتدى بهم فيكونوا متبوعين بعد ما كانوا تابعين ، و نجعلهم الوارثين لها بعد ما كانت بيد غيرهم ونمكّن لهم في الأرض بأن نجعل لهم مكاناً يستقرّون فيه و يملكونه بعد ما لم يكن لهم من المكان إلاّ ما أراد غيرهم أن يبوّءهم فيه ويقرّهم عليه ، و نري فرعون وهو ملك مصر و هامان وهو وزيره و جنودهما منهم أي من هؤلاء الذين استضعفوا ما كانوا يحذرون وهو أن يظهروا عليهم فيذهبوا بملكهم ومالهم وسنتهم كما قالوا في موسى وأخيه لما أرسلوا إليهم : « يريدان أن يخرجاك من أرضك بسحرهما ويذهبا بطريقتك المثلّى » طه : ٤٣ .

والآية تصوّر ما في باطن هذا الظرف الهائل الذي قضى على بني إسرائيل أن لا يعيش منهم متنفّس ولا يبقى منهم نافخ نار وقد أحاطت بهم قدرة فرعون الطاغية وملاّ أقطار وجودهم رعبه وهو يستضعفهم حتّى يقضى عليهم بالبيد هذا ظاهر الأمر وفي باطنه الإرادة الإلهية تعلّقت بأن تنجيهم منهم و تحوّل ثقل النعمة من آل فرعون الأقوياء العالين إلى بني إسرائيل الأذلاء المستضعفين وتبدّل من الأسباب ما كان على بني إسرائيل لهم وما كان لآل فرعون عليهم والله يحكم لامعقّب لحكمه .

قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم » إلى آخر الآية ، الإيحاء هو التكليم الخفي ويستعمل في القرآن في تكليمه تعالى بعض خلقه بنحو الإلهام والإلقاء في القلب كما في قوله : « بأن ربك أوحى لها » الزلزال : ٥ ، وقوله : « وأوحى ربك إلى النحل » النحل : ٦٨ ، وقوله في أم موسى : « وأوحينا إلى أم موسى » الآية أو بنحو آخر كما في الأنبياء والرسل ، وفي غيره تعالى كما في قوله : « إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » الأنعام : ١٢١ ، والإلقاء الطرح ، واليم البحر والنهر الكبير .

وقوله : « وأوحينا إلى أم موسى » في الكلام إيجاز بالحذف والتقدير وحبلت أم موسى به - والحال هذه الحال من الشدة والحدة - ووضعته وأوحينا إليها الخ . والمعنى وقلنا بنوع من الإلهام لأم موسى لما وضعته : أرضعيه مادمت لاتخافين عليه من قبل فرعون فإذا خفت عليه - أن يطلع عليه آل فرعون فيأخذوه ويقتلوه - فألقيه في البحر وهو النيل على ماوردت به الرواية ولا تخافي عليه القتل ولا تحزني لفقدته ومفارقته إيتاك إننا رادوه إليك بعد ذلك وجاعلوه من المرسلين فيكون رسولا إلى آل فرعون وبني إسرائيل .

فقوله : « إننا رادوه إليك » تعليل للنهي في قوله : « ولا تحزني » كما يشهد به أيضاً قوله بعد : « فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن » والفرن بين الخوف والحزن بحسب المورد أن الخوف إنما يكون في مكروه محتمل الوقوع والحزن في مكروه قطعي الوقوع .

قوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً » إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، الالتقاط إصابة الشيء وأخذه من غير طلب ، ومنه اللقطة واللام في قوله : « ليكون لهم عدواً وحزناً » للعاقبة - على ما قيل - ، والحزن بفتحين والحزن بالضم فالسكون بمعنى واحد كالسقم والسقم ، والمراد بالحزن سبب الحزن فإطلاق الحزن عليه مبالغة في سببته لحزنهم .

و الخاطئين اسم فاعل من خطيء بخطأ خطأ كعلم يعلم علماً كما أن المخطيء

اسم فاعل من أخطأ يخطئ إخطاءاً ، و الفرق بين الخاطيء و المخطيء على ما ذكره الراغب - أن الخاطيء يطلق على من أراد فعلاً لا يحسنه ففعله قال تعالى : « إن قتلهم كان خطأ كبيراً » وقال : « و إن كننا لخطئين » ، و المخطيء يستعمل فيمن أراد فعلاً يحسنه فوقع منه غيره و اسم مصدره الخطأ بفتح الحاء قال تعالى : « و من قتل مؤمناً خطأً النساء ٩٢ والمعنى الجامع هو العدول عن الجهة . انتهى ملخصاً .

فقوله : « إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين » أي فيما كانوا يفعلونه في أبناء بني إسرائيل و موسى تحذراً من انهدام ملكهم و زهاب سلطانهم بيدهم إرادة لتغيير المقادير عن مجاريها فقتلوا الجمّ الفغير من الأبناء و لا شأن لهم في ذلك و تركوا موسى حيث التقطوه و ربّوه في حجورهم و كان هو الذي بيده انقراض دولتهم و زوال ملكهم . والمعنى فأصابه آل فرعون وأخذوه من اليمّ و كان غاية ذلك أن يكون لهم عدواً و سبب حزن إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين في قتل الأبناء و ترك موسى : أرادوا أن يقضوا على من سيقضي عليهم فعادوا يجتهدون في حفظه و يجدّون في تربيته . و بذلك يظهر أن تفسير بعضهم كونهم خاطئين بأنهم كانوا مذنبين فعاقبهم الله أن ربّي عدوهم على أيديهم ليس بسديد .

قوله تعالى : « وقالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون » شفاعه من امرأة فرعون و قد كانت عنده حينما جاؤا إليه بموسى - و هو طفل ملتقط من اليمّ - تخاطب فرعون بقوله : « قرّة عين لي ولك » أي هو قرّة عين لنا « لا تقتلوه » وإنّما خاطب بالجمع لأن شركاء القتل كانوا كثيرين من سبب و مباشر و آمر و مأمور .

وإنّما قالت ما قالت لأن الله سبحانه ألقى محبة منه في قلبها فعادت لا تملك نفسها دون أن تدفع عنه القتل و تضمّه إليها قال تعالى فيما يمنّ به على موسى ﷺ : « وألقيت عليك محبة منّي و لتصنع على عيني » طه : ٣٩ .

وقوله : « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » قالته لما رأته في وجهه من آثار الجلال

وسماء الجذبة الإلهية ، و في قولها : «أو نتخذ ولدًا» دلالة على أنهما كانا فاقدين للإبن .

وقوله : «وهم لا يشعرون» جملة حالية أي قالت ما قالت وشفعت له وصرفت عنه القتل والقوم لا يشعرون ماذا يفعلون وما هي حقيقة الحال وما عاقبته ؟
قوله تعالى : «وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين» الإبداع بالشيء إظهاره ، والربط على الشيء شدة وهو كناية عن التثبيت .

و المراد بفراغ فؤاد أم موسى فراغه وخلوه من الخوف والحزن وكان لازم ذلك أن لا يتوارد عليه خواطر مشوشة و أوهام متضاربة يضطرب بها القلب فيأخذها الجزع فتبدي ما كان عليها أن تخفيه من أمر ولدها .
و ذلك أن ظاهر السياق أن سبب عدم إبدائها له فراغ قلبها و سبب فراغ قلبها الربط على قلبها و سبب الربط هو قوله تعالى لها فيما أوحى إليها : «لاتخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك» الخ .

وقوله : «إن كادت لتبدي به لولا» الخ «إن» مخففة من الثقيلة أي إنَّها قربت من أن تظهر الأمر وتفشي السر لولا أن بُتِّنا قلبها بالربط عليه ، وقوله : « لتكون من المؤمنين » أي الواثقين بالله في حفظه فتصبر ولا تجزع عليه فلا يبدو أمره .
والمجموع أعني قوله : «إن كادت لتبدي به» إلى آخر الآية في مقام البيان لقوله : «وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً» ومحصل معنى الآية وصار قلب أم موسى بسبب وحيها خالياً من الخوف والحزن المؤدبين إلى إظهار الأمر، لولا أن بُتِّنا قلبها بسبب الوحي لتكون واثقة بحفظ الله له لقربت من أن تظهر أمره لهم بالجزع عليه .

و بما تقدّم يظهر ضعف بعض ما قيل في تفسير جمل الآية كقول بعضهم في «وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً» أي صفرًا من العقل لمادهما من الخوف و الحيرة حين سمعت بوقوع الطفل في يد فرعون ، و قول آخرين : أي فارغاً من الوحي الذي أوحى إليها بالنسيان ، و ما قيل : أي فارغاً من كل شيء إلا ذكر موسى أي صار فارغاً له . فإنَّها

جميعا وجوه لا يحتمل شيئا منها السياق .

ونظير ذلك في الضعف قولهم : إنَّ جواب لولا محذوف و التقدير لولا أن ربطنا على قلبها لأبدته وأظهرته ، والوجه في تقديرهم ذلك ما قيل : إنَّ لولا شبهة بأدوات الشرط فلها الصدر ولا يتقدّم جوابها عليها . وقد تقدّمت المناقشة فيه في الكلام على قوله تعالى : « ولقد همّمت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه » يوسف : ٢٤ .

قوله تعالى : «وقالت لأخته قصّيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون» قال في المجمع : القصّ اتّباع الأثر ومنه القصص في الحديث لأنّه يتّبع فيه الثاني الأوّل . وقال : ومعنى بصرت به عن جنب أبصرته عن جنبه أي عن بعد . انتهى .

والمعنى وقالت أمّ موسى لأخته اتّبعي أثر موسى حتّى ترين إلّهم يؤلّ أمره فرأته عن بعد وقد أخذه خدم فرعون وهم لا يشعرون بأنّها تقصّه وتراقبه .

قوله تعالى : و حرّمتنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه وهم له ناصحون ، التحريم في الآية تكوينيٌّ لا تشريعيٌّ ومعناه جعله بحيث لا يقبل ندي مرضع ويمتنع من ارتضاعها .

و قوله : «من قبل» أي من قبل حضورها هناك ومجيئها إليهم والمراضع جمع مرضعة كما قيل .

وقوله : «فقالت هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه وهم له ناصحون» تفرّيع على ما تقدّمه غير أنّ السياق يدلّ على أنّ هناك حذفاً كأنّه قيل : وحرّمتنا عليه المراضع غير أمّه من قبل أنّ تجيء أخته فكلّما أتوا له بمرضع لترضعه لم يقبل نديها فلمّا جاءت أخته ورأت الحال قالت عند ذلك لآل فرعون : هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لنفعكم وهم له ناصحون .

قوله تعالى : «فرددناه إلى أمّه كي تقرّ عينها ولا تحزن ولتعلم أنّ وعد الله حقّ» ولكن أكثرهم لا يعلمون » تفرّيع على ما تقدّمه مع تقديره يدلّ عليه السياق ، و المحصل أنّها قالت : هل أدلّكم على أهل بيت كذا فأنعموا لها بالقبول فدلتهم على أمّه فسلموه إليها فرددناه إلى أمّه بنظم هذه الأسباب .

وقوله : « كي تقر عينها ولا تحزن وتعلم » الخ تعليل للرد والمراد بالعلم هو اليقين بالمشاهدة فانها كانت تعلم من قبل أن وعد الله حق وكانت مؤمنة وإنما أريد بالرد أن توفى بالمشاهدة أن وعد الله حق .

والمراد بوعده الله مطلق الوعد الالهي بدليل قوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أي لا يوقنون بذلك ويرتابون في مواعده تعالى ولا تطمئن إليها نفوسهم ، ومحصله أن توقع بمشاهدة حقيقته هذا الذي وعدها الله به أن مطلق وعده تعالى حق .

وربما يقال : إن المراد بوعده الله خصوص الوعد المذكور في الآية السابقة : « إننا رادوكم إليك وجاعلوه من المرسلين » ولا يلائمه قوله بعد : « ولكن » الخ على ما تقدم .
قوله تعالى : « ولما بلغ أشده واستوى آتيناها حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين » بلوغ الأشد أن يعمر الإنسان ما تشدد عند ذلك قواه ويكون في الغالب في الثمان عشر ، والاستواء الاعتدال والاستقرار فالاستواء في الحياة استقرار الإنسان في أمر حياته ويختلف في الأفراد وهو على الأغلب بعد بلوغ الأشد ، وقد تقدم الكلام في معنى الحكم والعلم وإيتائهما ومعنى الاحسان في مواضع من الكتاب .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض » قال : يوسف وولده .

أقول : لعل المراد بنو إسرائيل ، وإلا فظهور الآية في خلافه غير خفي .
وفي معاني الأخبار بإسناده عن محمد بن سنان عن المفضل بن عمر قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نظر إلى علي والحسن عليهما السلام فبكى وقال : أنتم المستضعفون بعدي . قال المفضل : فقلت له : ما معنى ذلك ؟ قال : معناه أنكم الأئمة بعدي إن الله عز وجل يقول : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في

الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين، فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة .
اقول : و الروايات من طرق الشيعة في كون الآية في أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيرة وبهذه الرواية يظهر أنها جميعا من قبيل الجري والانطباق .
 و في نهج البلاغة : لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها وتلاعقب ذلك « و نريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض و نجعلهم أئمة و نجعلهم الوارثين » .

و في تفسير القمّي في قوله تعالى : «وأوحينا إلى أمّ موسى » إلى آخر الآية حدّثني أبي عن الحسن بن محبوب عن العلاء بن رزين عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : إنّه لما حملت به أمّه لم يظهر حملها إلّا عند وضعها له وكان فرعون قد وُكِّل بنساء بني إسرائيل نساء من القبط يحفظنهنّ و ذلك أنّه كان لمّا بلغه عن بني إسرائيل أنّهم يقولون : إنّه يولد فينا رجل يقال له : موسى بن عمران يكون هلاك فرعون و أصحابه على يده فقال فرعون عند ذلك : لأقتلنّ ذكور أولادهم حتّى لا يكون ما يريدون و فرق بين الرجال والنساء وحبس الرجال في المحابس .

فلما وضعت أمّ موسى بموسى نظرت إليه وحزنت عليه واغتممت وبكت وقالت : يذبح الساعة فعطف الله عزّ وجلّ قلب الموكلّة بها عليه فقالت لا أمّ موسى : مالك قد اصفرّ لونك ؟ فقالت : أخاف أن يذبح ولدي فقالت : لا تخافي وكان موسى لا يراه أحد إلّا أحبّه وهو قول الله : « وألقيت عليك محبة منّي » .

فأحبّته القبطيّة الموكلّة بها و أنزل الله على أمّ موسى التابوت ، ونوديت ضعيه في التابوت فألقيه في اليمّ وهو البحر ولا تخافي ولا تحزني إنّنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فوضعت في التابوت وأطبقته عليه وألقته في النيل .

وكان لفرعون قصر على شطّ النيل متنزّه فنظر من قصره - ومعه آسية امرأته - إلى سواد في النيل ترفعه الأمواج والرياح تضربه حتّى جاءت به إلى باب قصر فرعون فأمر فرعون بأخذه فأخذ التابوت ورفع إليه فلما فتحه وجد فيه صبيّاً فقال : هذا إسرائيليّ فألقى الله في قلب فرعون محبةً شديدة وكذلك في قلب آسية .

و أراد فرعون أن يقتله فقالت آسية : لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذة ولداً
وهم لا يشعرون أنه موسى .

وفي المجمع في قوله تعالى : « قرّة عين لي ولك لا تقتلوه » عن النبي ﷺ : والذي
يحلف به لو أقرّ فرعون بأن يكون له قرّة عين كما أقرّت امرأته لهداه الله به كما هداها
ولكنه أبى للشقاء الذي كتبه الله عليه .

وفي المعاني بإسناده عن محمد بن نعمان الأحمول عن أبي عبد الله عليه السلام في قول
الله عزّ وجلّ : « فلما بلغ أشده واستوى » قال : أشده ثمان عشر سنة « واستوى »
التحى .





وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَاصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ نَقْتُلَكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) .

﴿بَيَان﴾

فصل ثان من قصة موسى عليه السلام فيه ذكر بعض ما وقع بعد بلوغه أشده فأدّى إلى خروجه من مصر وقصده مدين .

قوله تعالى : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » الخ لاريب أن المدينة التي دخلها على حين غفلة من أهلها هي مصر ، وأنه كان يعيش عند فرعون

و يستفاد من ذلك أنَّ القصر الملكيَّ الَّذِي كان يسكنه فرعون كان خارج المدينة و أنَّه خرج منه و دخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، و يؤيد ما ذكرنا ما سيأتي من قوله : « و جاء من أقصى المدينة رجل يسعى » على ما سيجيء من الاستظهار .

و حين الغفلة من أهل المدينة هو حين يدخل الناس بيوتهم فتعطل الأسواق و تخلو الشوارع والأزقة من المارة كالظهيرة وأواسط الليل .

وقوله : « فوجد فيها رجلين يقتتلان » أي يتنازعان ويتضاربان وقوله : « هذا من شيعته وهذا من عدوه » حكاية حال تمثل به الواقعة ، ومعناه أن أحدهما كان إسرائيلياً من متبعيه في دينه - فإنَّ بني إسرائيل كانوا ينتسبون يومئذ إلى آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ^{عليهم السلام} في دينهم وإن كان لم يبق لهم منه إلا الاسم وكانوا يتظاهرون بعبادة فرعون - و الآخر قبطياً عدوًّا له لأنَّ القبط كانوا أعداء بني إسرائيل ، ومن الشاهد أيضاً على كون هذا الرجل قبطياً قوله في موضع آخر يخاطب ربه : « ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون » الشعراء : ١٤ .

و قوله : « فاستغاثه الَّذِي من شيعته على الَّذِي من عدوه » الاستغاثة الاستنصار من الفوت بمعنى النصرة أي طلب الإسرائيلي من موسى أن ينصره على عدوه القبطي .

وقوله : « فوكره موسى ففضى عليه » ضميراً « وكره » و « عليه » للَّذِي من عدوه و الوكر - على ما ذكره الراغب وغيره - الطعن والدفع والضرب بجمع الكف ، والقضاء هو الحكم والقضاء عليه كناية عن الفراغ من أمره بموته والمعنى فدفعه أو ضربه موسى بالوكر فمات ، وكان قتل خطأ ولولا ذلك لكان من حقَّ الكلام أن يعبرَ بالقتل .

وقوله : « قال هذا من عمل الشيطان إنَّه عدوٌّ مضلٌّ مبين » الإشارة بهذا إلى ما وقع بينهما من الاقتتال حتَّى أدَّى إلى موت القبطي وقد نسبته نوع نسبة إلى عمل الشيطان إذ قال : « هذا من عمل الشيطان » و « من » ابتدائية تفيد معنى الجنس أو نشوئية والمعنى هذا الَّذِي وقع من المعادة و الاقتتال من جنس العمل المنسوب إلى

الشیطان أوناş من عمل الشیطان فأنه هو الذي أوقع العداوة و البغضاء بينهما وأغرى على الاقتتال حتى أدى ذلك إلى مداخلة موسى وقتل القبطي بيده فأوقعه ذلك في خطر عظیم وقد كان يعلم أن الواقعة لا تبقى خفية مكتومة و أن القبط سيثورون عليه و أشرافهم و ملاؤهم و على رأسهم فرعون سينتقمون منه ومن كل من تسبب إلى ذلك أشد الانتقام .

فعند ذلك تنبه ﷺ أنه أخطأ فيما فعله من التركيز الذي أورده مورد الهلكة ولا ينسب الوقوع في الخطاء إلى الله سبحانه لأنه لا يهدي إلا إلى الحق والصواب ففطن أن ذلك منسوب إلى الشيطان .

وفعله ذاك وإن لم يكن معصية منه لوقوعه خطأ وكون دفاعه عن الإسرائیلی دفعا لكافر ظالم ، لكن الشيطان كما يوقع بوسوسته الإنسان في الإثم والمعصية كذلك يوقعه في أي مخالفة للصواب يقع بها في الكلفة والمشفقة كما أوقع آدم وزوجه فيما أوقع من أكل الشجرة المنهية فأدى ذلك إلى خروجهما من الجنة .

فقوله : « هذا من عمل الشيطان » اتزجار منه عما وقع من الاقتتال المؤدّي إلى قتل القبطي ووقوعه في عظیم الخطر وندم منه على ذلك ، وقوله : « إنه عدو مضل مبين » إشارة منه إلى أن فعله كان من الضلال المنسوب إلى الشيطان وإن لم يكن من المعصية التي فيها إثم ومؤاخذة بل خطأ محض لا ينسب إلى الله بل إلى الشيطان الذي هو عدو مضل مبين ، فكان ذلك منه نوعا من سوء التدبير وضلال السعي يسوقه إلى عاقبة وخيمة ولذا لما اعترض عليه فرعون بقوله : « وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين » أجابه بقوله : « فعلتها إذا وأنا من الصّالّين » الشعراء : ٢٠ .

قوله تعالى : « قال ربّ إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنّه هو الغفور الرحيم » اعتراف منه عند ربّه بظلمه نفسه حيث أوردها مورد الخطر وألقاها في التهلكة ، ومنه يظهر أن المراد بالمغفرة المسؤولية في قوله : « فاغفر لي » هو إلغاء تبعه فعله وإنجاؤه من الغم وتخليصه من شرّ فرعون وملاؤه كما يظهر من قوله تعالى : « و قتل نفساً » فنجيناك من الغم : طه : ٤٠ .

و هذا الاعتراف بالظلم و سؤال المغفرة نظير ما وقع من آدم و زوجه المحكي
في قوله تعالى : « قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن من الخاسرين »
الاعراف : ٢٣ .

قوله تعالى : « قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين » قيل :
الباء في قوله : « بما أنعمت » للسببية والمعنى رب بسبب ما أنعمت عليّ ، لك عليّ أن
لا أكون معيناً للمجرمين فيكون عهداً منه لله تعالى وقيل : الباء للقسم والجواب محذوف
والمعنى أقسم بما أنعمت عليّ لا توبن أو لا تمتنع فلن أكون ظهيراً للمجرمين ، وقيل :
القسم استعطائي وهو القسم الواقع في الإنشاء كقولك بالله زربي ، والمعنى أقسمك أن
تعطف عليّ وتعصمني فلن أكون ظهيراً للمجرمين .

والوجه الأوّل هو الأوجه لأنّ المراد بقوله : « بما أنعمت عليّ » - علي
ما ذكره - إمّا إنعامه تعالى عليه إذ حفظه وخلصه من قتل فرعون وردّه إلى أمّه ،
وإمّا إنعامه عليه إذ قبل توبته من قتل القبطي و غفر له بناء على أنّه علم مغفرته تعالى
بإلهام أو رؤيا أو نحوهما وكيف كان فهو أقسام بغيره تعالى ، والمعنى أقسم بحفظك إمّا
أو أقسم بمغفرتك لي ، ولم يعدد في كلامه تعالى حكاية قسم من غيره بغيره بهذا النحو .
وقوله : « فلن أكون ظهيراً للمجرمين » قيل : المراد بالمجرم من أوقع غيره في
الجرم أو من أدّت إعاقته إلى جرم كإسراييليّ الذي خاصمه القبطي فأوقعت إعاقته
موسى في جرم القتل فيكون في لفظ المجرمين مجاز في النسبة من حيث تسمية السبب
الموقع في الجرم مجرماً .

وقيل : المراد بالمجرمين فرعون و قومه و المعنى أقسم بإي نعامك عليّ لا توبن
فلن أكون معيناً لفرعون و قومه بصحبته و ملازمتهم و تكثير سوادهم كما كنت أفعله
إلى هذا اليوم .

وردّ هذا الوجه الثاني بأنّه لا يناسب المقام .

و الحق أن قوله : « رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين » عهد من

موسى ﷺ أن لا يعين مجرماً على إجرامه شكراً لله تعالى على ما أنعم عليه ، والمراد بالنعمة وقد اُطلقت إطلاقاً الولاية الإلهية على ما يشهد به قوله تعالى : « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » النساء : ٦٩ .

وهؤلاء أهل الصراط المستقيم مأمونون من الضلال والغضب لقوله تعالى : «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» الفاتحة: ٧ ، وترتب الامتناع عن إعانة المجرمين على الإِنعام بهذا المعنى ظاهر لاسترة عليه .

ومن هنا يظهر أن المراد بالمجرمين أمثال فرعون وقومه دون أمثال الإسرائيليين الذي أعانه فلم يكن في إعانته جرم ولا كان وكز القبطي جرمًا حتى يتوب ﷺ منه كيف ؟ وهو ﷺ من أهل الصراط المستقيم الذين لا يضلون بمعصيته ، وقد نصَّ تعالى على كونه من المخلصين الذين لا سبيل للشيطان إليهم بالإغواء حيث قال : « إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً » مريم : ٥١ .

وقد نصَّ تعالى أيضاً آناً بأنه آناه حكماً وعلماً وأنه من المحسنين ومن المتقين من أمره أن لا تستخفه عصبية قومية أو غضب في غير ما ينبغي أو إعانة ونصرة لمجرم في إجرامه .

وقد كرر « قال » ثلاثاً حيث قيل : « قال هذا من عمل الشيطان » « قال رب إنني ظلمت نفسي » « قال رب بما أنعمت علي » وذلك لاختلاف السياق في الجمل الثلاث فالجملة الأولى قضاء منه وحكم ، والجملة الثانية استغفار ودعاء ، والجملة الثالثة عهد والتزام .

قوله تعالى : « فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي استنصره بالأُمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين » تقييد « أصبح » بقوله : « في المدينة » دليل على أنه بقي في المدينة ولم يرجع إلى قصر فرعون ، والاستصراخ الاستغاثة برفع الصوت من الصراخ بمعنى الصياح ، والغواية إخطاء الصواب خلاف الرشد .

و المعنى فأصبح موسى في المدينة - ولم يرجع إلى بلاط فرعون - والحال أنه خائف من فرعون ينتظر الشر ففاجأه أن الإسرائيليين الذي استنصره على القبطي

بالأُمس يستغيث به رافعا صوته على قبطي" آخر قال موسى للإسرائيلي" توبيخا وتأنيبا: إنَّكَ لغويٌ مبينٌ لاتسلك سبيل الرشد و الصواب لأنَّه كان يخاصم ويقتتل قوم ليس في مخاصمتهم والمقاومة عليهم إلَّا الشرُّ كلُّ الشرِّ .

قوله تعالى : « فلما أراد أن يبطش بالَّذي هو عدوُّ لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأُمس » إلى آخر الآية ذكر جلّ المفسرين أن ضمير « قال » للإسرائيلي الذي كان يستصرخه وذلك أنه ظنَّ أن موسى إنما يريد أن يبطش به لما سمعه يعاتبه قبل بقوله : « إنَّكَ لغويٌ مبينٌ » فهاله ما رأى من إرادته البطش فقال : « يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأُمس » النخ فعلم القبطيُّ عند ذلك أن موسى هو الذي قتل القبطيُّ بالأُمس فرجع إلى فرعون فأخبره الخبر فأمروا بموسى وعزموا على قتله .

وماذكروه في محله لشهادة السياق بذلك فلا يعبوء بما قيل : إنَّ القائل هو القبطيُّ دون الإسرائيليِّ هذا و معنى باقى الآية ظاهر وفي قوله : « أن يبطش بالَّذي هو عدوُّ لهما » تعريض للتوراة الحاضرة حيث تذكر أن المتقاتلين هذين كانا جميعا إسرائيليَّين ، وفيه أيضاً تأييد أنَّ القائل : « يا موسى أتريد » النخ الإسرائيلي دون القبطيُّ لأنَّ سياقه سياق اللوم والشكوى .

قوله تعالى : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » النخ الائتمار المشاورة ، والنصيحة خلاف الخيانة .

والظاهر كون قوله : « من أقصى المدينة » قيّدا لقوله : « جاء » فسياق القصة يعطي أنَّ الائتمار كان عند فرعون وبأمر منه ، وأنَّ هذا الرجل جاء من هناك وقد كان قصر فرعون في أقصى المدينة وخارجها فأخبر موسى بما قصدوه من قتله وأشار عليه بالخروج من المدينة .

و هذا الاستثناس من الكلام يؤيد ما تقدّم أن قصر فرعون الذي كان يسكنه كان خارج المدينة ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين »
فيه تأييد أنه ما كان يرى قتله القبطي خطأ جرماً لنفسه .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي قال : فلم يزل موسى عند فرعون في أكرم كرامة حتى بلغ مبلغ الرجال وكان ينكر عليه ما يتكلم به موسى ﷺ من التوحيد حتى هم به فخرج موسى من عنده ودخل المدينة فإذا رجلان يقتتلان أحدهما يقول بقول موسى والآخري يقول بقول فرعون فاستغاثه الذي من شيعته فجاء موسى فوكل صاحب فرعون فقضى عليه وتوارى في المدينة .

فلما كان الغد جاء آخر فتشبت بذلك الرجل الذي يقول بقول موسى فاستغاث بموسى فلما نظر صاحبه إلى موسى قال له : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس فخلني عن صاحبه وهرب .

وفي العيون بإسناده إلى علي بن محمد بن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا ﷺ فقال له المأمون : يا ابن رسول الله أليس من قولك : إن الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى . قال فأخبرني عن قول الله : « فوكله موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان » قال الرضا ﷺ : إن موسى ﷺ دخل مدينة من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها وذلك بين المغرب والعشاء فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فقضى على العدو بحكم الله تعالى ذكره فوكله فمات قال : هذا من عمل الشيطان يعني الاقتتال الذي وقع بين الرجلين لاما فعله موسى ﷺ من قتله «إنه» يعني الشيطان «عدو» مضل مبين .

قال المأمون : فما معنى قول موسى : «رب إنني ظلمت نفسي فاغفرلي» ؟ قال : يقول : وضعت نفسي غير موضعها بدخول هذه المدينة فاغفرلي أي استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلوني فغفر له لأنه هو الغفور الرحيم . قال موسى ، رب بما أنعمت

عليّ من القوة حتّى قتلت رجلاً بوكزة فلن أكون ظهيراً للمجرمين بل أجاهدهم بهذه القوة حتّى ترضى .

فأصبح موسى عليه السلام في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه على آخر قال له موسى إبتك لغويّ مبين قاتلت رجلاً بالأمس وتقاتل هذا اليوم لاؤدّ بنك وأراد أن يبطش به فلمّا أراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما وهو من شيعته قال : يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ إن تريد إلّا أن تكون جباراً في الأرض و ما تريد أن تكون من المصلحين . قال المؤمنون : جزاك الله عن أنبيائه خيراً يا أبا الحسن .





وَلَمَّا نَوَّجَهُ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٣)

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٤) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٥) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٦) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٧) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَجْدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٨) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَانِقُولٌ وَكَيْلٌ (٢٩) .

﴿ بيان ﴾

فصل ثالث من قصته ﷺ يذكر فيه خروجه من مصر إلى مدين عقيب قتله القبطي خوفًا من فرعون وتزوجه هناك بابتنة شيخ كبير لم يسم في القرآن لكن تذكر

روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام وبعض روايات أهل السنة أنه هو شعيب النبي المبعوث إلى مدين .

قوله تعالى : « ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل » قال في المجمع : تلقاء الشيء حذاؤه ، ويقال : فعل ذلك من تلقاء نفسه أي من حذاء داعي نفسه . وقال : سواء السبيل وسط الطريق انتهى .

و مدين - على ما في مراصد الاطلاع - مدينة قوم شعيب وهي تجاه تبوك على بحر القلزم بينهما ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البشر التي استقى منها موسى لغنم شعيب عليه السلام انتهى ، ويقال : إنه كان بينهما وبين مصر مسيرة ثمان وكانت خارجة من سلطان فرعون ولذا توجه إليها .

والمعنى ولما صرف وجهه بعد الخروج من مصر حذاء مدين قال : أرجو من ربّي أن يهديني وسط الطريق فلا أضلّ بالعدول عنه والخروج منه إلى غيره . والسياق - كما ترى - يعطي أنه عليه السلام كان قاصداً لمدين وهو لا يعرف الطريق الموصلة إليها فترجى أن يهديه ربّه .

قوله تعالى : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أئمة من الناس يسقون ، النخ الذود الحبس و المنع ، و المراد بقوله : « تذودان » أنهما يحبسان أغنامهما من أن ترد الماء أو تختلط بأغنام القوم كما أن المراد بقوله : « يسقون » سقيهم أغنامهم و مواشيهم ، والرعاء جمع الراعي وهو الذي يرعى الغنم .

والمعنى ولما ورد موسى ماء مدين وجد على الماء جماعة من الناس يسقون أغنامهم ووجد بالقرب منهم مما يليه امرأتين تحبسان أغنامهما وتمنعانها أن ترد المورد قال موسى مستفسراً عنهما - حيث وجدتهما تذودان الغنم وليس على غنمهما رجل - : ماشأنكما ؟ قلنا لانسقي غنمنا أي عادتنا ذلك حتى يصدر الراعون ويخرجوا أغنامهم و أبونا شيخ كبير - لا يقدر أن يتصدى بنفسه أمر السقي ولذا تصدّينا الأمر .

قوله تعالى : « فسقى لهما ثم تولى إلى الظلّ وقال ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير ، فهم عليهم السلام من كلامهما أن تأخرهما في السقي نوع تعفف و تحجّب منهما

وتعدّ من الناس عليهما فبادر إلى ذلك وسقى لهما .

وقوله : « ثم تولّى إلى الظلّ وقال ربّ إنيّ لما أنزلت إليّ من خير فقير » أي انصرف إلى الظلّ ليستريح فيه و الحرّ شديد وقال ما قال ، وقد حمل الأكثرون قوله : « ربّ إنيّ لما أنزلت » الخ على سؤال طعام يسدّ به الجوع ، وعليه فالأولى أن يكون المراد بقوله « ما أنزلت إليّ » القوة البدنيّة التي كان يعمل بها الأعمال الصالحة التي فيها رضى الله كالدفاع عن الإسرائيليين و الهرب من فرعون بقصدمدين وسقى غنم شعيب والآن في « لما أنزلت » بمعنى إلى وإظهار الفقر إلى هذه القوة التي أنزلها الله إليه من عنده بالإنفاضة كناية عن إظهار الفقر إلى شيء من الطعام تستبقى به هذه القوة النازلة الموهوبة .

ويظهر منه أنّه ﷺ كان ذا مراقبة شديدة في أعماله فلا يأتي بعمل ولا يريد به وإن كان ممّا يقتضيه طبعه البشريّ إلاّ ابتغاء مرضاة ربّه وجهاداً فيه ، وهذا ظاهر بالتدبّر في القصة فهو القائل لما ذكر القبطي : ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهير للمجرمين ثمّ القائل لما خرج من مصر خائفاً يترقب : « ربّ نجني من القوم الظالمين » ثمّ القائل لما أخذ في السلوك : « عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل » ثمّ القائل لما سقى وتولّى إلى الظلّ : « ربّ إنيّ لما أنزلت إليّ من خير فقير » ثمّ القائل لما آجر نفسه شعيباً وعقد على بنته : « والله على ما نقول وكيل » .

وما نقل عن بعضهم أن اللام في « لما أنزلت » للتعليل ، وكذا قول بعضهم إنّ المراد بالخير خير الدين وهو النجاة من الظالمين بعيد ممّا يعطيه السياق .

قوله تعالى « فجاءته إحداهما تمشي على استحياء » إلى آخر الآية . ضمير إحداهما للمرأتين ، وتنكير الاستحياء للتفخيم والمراد بكون مشيها على استحياء ظهور التعفّف من مشيتها ، وقوله : « ليجزيك أجر ما سقيت لنا » ما مصدرية أي ليعطيك جزاء سقيك لنا ، وقوله : « فلمّا جاءه وقصّ عليه القصص قال لا تخف » الخ يلوّح إلى أن شعيباً استفسره حاله فقصّ عليه قصته فطيبّ نفسه بأنّه نجى منهم إذ لا سلطان لهم على مدين .

وعند ذلك تمت استجابته تعالى لموسى عليه السلام أدعيته الثلاثة فقد كان سأل الله تعالى عند خروجه من مصر أن ينجيّه من القوم الظالمين فأخبره شعيب عليه السلام بالنجاة وترجى أن يهديه سواء السبيل وهو في معنى الدعاء فورد مدين ، وسأله الرزق فدعاه شعيب ليجزيه أجر ما سقى وزاد تعالى فكفاه رزق عشرين ووهب له زوجا يسكن إليها .

قوله تعالى : « قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين » إطلاق الاستيجار يفيد أن المراد استخدامه مطلق حوائجه التي تستدعي من يقوم مقامه وإن كانت العهدة باقتضاء المقام رعي الغنم .

وقوله : « إن خير من استأجرت » الخ في مقام التعليل لقوله : « استأجره » وهو من وضع السبب موضع المسبب والتقدير استأجره لأنه قويٌّ أمين و خير من استأجرت هو القوي الأمين .

وفي حكمها بأنه قويٌّ أمين دلالة على أنها شاهدت من نحو عمله في سقي الأغنام ما استدلت به على قوته وكذا من ظهور عفته في تكليمهما و سقي أغنامهما ثم في صحبته لها عندما انطلق إلى شعيب حتى أتاه ما استدلت به على أمانته .

و من هنا يظهر أن هذه القائلة : « يا أبت استأجره » الخ هي التي جاءت و أخبرته بدعوة أبيها له كما وردت به روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام و ذهب إليه جمع من المفسرين .

قوله تعالى : « قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي » هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج « الخ عرض من شعيب لموسى عليه السلام أن يأجره نفسه ثمانى سنين أو عشرأ قال تزويجه إحدى ابنتيه وليس بعقد قاطع ومن الدليل عدم تعيين المعقودة في كلامه عليه السلام .

فقوله : « إحدى ابنتي » هاتين دليل على حضورهما إذ ذاك ، وقوله : « على أن تأجرني ثمانى حجج » أي على أن تأجرني نفسك أي تكون أجيراً لي ثمانى حجج ، والحجج جمع حجة والمراد بها السنة بعناية أن كل سنة فيها حجة للبيت الحرام ، وبه يظهر

أن حج البيت - وهو من شريعة إبراهيم عليه السلام - كان معمولاً به عندهم .
 وقوله : « فإن أتممت عشراً فمن عندك » أي فإن أتممته عشرين فهو من عندك
 وباختيار منك من غير أن تكون ملزماً من عندي .
 وقوله : « وما أريد أن أشق عليك » إخبار عن نحو ما يريده منه من الخدمة
 وأنه عمل غير موصوف بالمشقة وأنه مخدوم صالح .
 وقوله : « ستجدني إن شاء الله من الصالحين » أي إنني من الصالحين وستجدني منهم
 إن شاء الله فالاستثناء متعلق بوجودان موسى إتياء منهم لا بكونه في نفسه منهم .
 وقوله تعالى : « قال ذلك بيني وبينك أيتها الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ والله
 على ما نقول وكيل » الضمير لموسى عليه السلام .

و قوله : « ذلك بيني وبينك » أي ذلك الذي ذكرته وقررتَه من المشاركة و
 المعاهدة وعرضته عليَّ ثابت بيننا ليس لي ولا لك أن نخالف ما شارطناه ، وقوله : « أيتها
 الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ » بيان للأجل المراد المضروب في كلام شعيب عليه السلام
 وهو قوله : « ثمانى حجج وإن أتممت عشراً فمن عندك » أي لي أن أختار أي الأجلين
 شئت فإن اخترت الثمانى سنين فليس لك أن تعدو عليَّ وتلزميني بالزيادة وإن اخترت
 الزيادة وخدمتك عشراً فليس لك أن تعدو عليَّ بالمنع من الزيادة .

وقوله : « والله على ما نقول وكيل » توكيل له تعالى فيما يشارطان يتضمن إظهاره
 تعالى على ما يقولان وإرجاع الحكم والقضاء بينهما إليه لو اختلفا ، ولذا اختار التوكيل
 على الإظهار لأن الشهادة والقضاء كليهما إليه تعالى ، وهذا كقول يعقوب عليه السلام حين
 أخذ الموثق من بنيهِ أن يردوا إليه ابنه فيما يحكيه الله : « فلما آتوه موثقهم قال الله
 على ما نقول وكيل » يوسف : ٦٦ .

﴿ بحث روائى ﴾

في كتاب كمال الدين بإسناده إلى سدير الصير في عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث
 طويل : وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك

فأخرج إني لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب من مصر بغير ظهر ولا دابة ولا خادم تخفضه أرض وترفعه أخرى حتى انتهى إلى أرض مدين .

فانتهى إلى أصل شجرة فنزل فإذا تحتها بئر وإذا عندها أمة من الناس يسقون وإذا جارتان ضعيفتان وإذا معهما غنيمة لهما قال ما خطبكما قالتا أبونا شيخ كبير ونحن جارتان ضعيفتان لا نقدر أن نزااحم الرجال فإذا سقى الناس سقينا فرحمهما فأخذ لولهما فقال لهما : قد ما غنمكما فسقى لهما ثم رجعتا بكرة قبل الناس .

ثم نولى موسى إلى الشجرة فجلس تحتها وقال : « رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير » فروي أنه قال ذلك وهو محتاج إلى شق تمره فلما رجعتا إلى أبيهما قال : ما أعجبكما في هذه الساعة ؟ قالتا : وجدنا رجلا صالحا رحما فسقى لنا . فقال لا حداهما اذهبي فادعيه لي فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجرا ما سقيت لنا .

فروي أن موسى عليه السلام قال لها : وجهني إلى الطريق وامشي خلفي فإنا بني يعقوب لا ننظر في أعجاز النساء فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين .

قال : إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك فروي أنه قضى أتمهما لأن الأبياء عليهم السلام لا تأخذ إلا بالفضل والتمام .

أقول : وروى ما في معناه القمي في تفسيره .

وفي الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن ذكره عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عز وجل حكاية عن موسى عليه السلام : « رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير » قال : سألت الطعام .

أقول : وروى العياشي عن حفص عنه عليه السلام مثله ، ولفظه إنما عنى الطعام وأيضا عن ليث عن أبي جعفر عليه السلام مثله ، وفي نهج البلاغة مثله ولفظه والله ما سأله إلا أخبرا يأكله .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: لما سقى موسى للجارين ثم تولّى إلى الظل فقال: ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير قال: إنّه يومئذ فقير إلى كفّ من تمر.

وفي تفسير القمي قال: قالت إحدى بنات شعيب: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القويّ الأمين فقال لها شعيب عليه السلام: أما قوتّه فقد عرفتنيّه أنّه يستقي الدلو وحده فبم عرفته أمانيّه؟ فقالت: إنّهُ لما قال لي: تأخري عنيّ ودلّيني على الطريق فأنا من قوم لا ينظرون في أدبار النساء عرفت أنّه ليس من الذّبن ينظرون أعجاز النساء فهذه أمانيّه.

أقول: و روى مثله في المجمع عن عليّ عليه السلام.

وفي المجمع وروى الحسن بن سعيد عن صفوان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل أيّتهما ألّتي قالت: إنّ أبي يدعوك؟ قال: ألّتي تزوّج بها. قيل: فأيّ الأجلين قضى؟ قال: أوفاهما وأبعدهما عشر سنين. قيل: فدخل بها قبل أن يمضي الشرط أو بعد انقضائه؟ قال: قبل أن ينقضي. قيل له: فالرجل يتزوّج المرأة ويشترط لأبيها إجارة شهرين أيجوز ذلك؟ قال: إنّ موسى علم أنّه سيتمّ له شرطه. قيل: كيف؟ قال: علم أنّه سيبقى حتّى يفي.

أقول: و روى قضاء عشر سنين في الدر المنثور عن النبي ﷺ بعدّة طرق.

وفي تفسير العياشي وقال الحلبي: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن البيت أكان يحجّ قبل أن يبعث النبي ﷺ؟ قال: نعم وتصدّيقه في القرآن قول شعيب حين قال لموسى عليهما السلام حيث تزوّج: «على أن تأجرني ثماني حجج» ولم يقل: ثماني سنين.





فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا
 قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ
 لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي
 الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠)
 وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَلِكُ كَانَهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى
 أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضًا
 مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَاضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ
 إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ
 نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ
 رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ
 لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا إِنَّتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)
 فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا
 بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ
 عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ
 يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ

فَجَعَلَ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أُنْفِثُ إِلَى اللَّهِ مُوسَى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)
 وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩)
 فَآخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠)
 وَجَعَلْنَاهُمْ آئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَاتَّبَعْنَاهُمْ
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَآ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) .

﴿ بيان ﴾

فصل آخر من قصة موسى عليه السلام وقد أودع فيه إجمال قصته من حين سار بأهله من مدين قاصداً لمصر و بعثته بالرسالة إلى فرعون و ملائه لا نجاء بني إسرائيل و تكذيبهم له إلى أن أغرقهم الله في اليم و تنتهي القصة إلى إيتائه الكتاب و كأنه هو العمدة في سرد القصة .

قوله تعالى : « فلما قضى موسى الأجل و سار بأهله آنس من جانب الطور نارا »
 الخ المراد بقضائه الأجل إتمامه مدة خدمته لشعيب عليه السلام و المروي أنه قضى أطول الأجلين ، و الا يناس الا بصار و الرؤية ، و الجذوة من النار القطعة منها ، و الاصطلاء الاستدفاء .

و السباق يشهد أن الأمر كان بالليل و كانت ليلة شديدة البرد و قد ضلوا الطريق فرآى من جانب الطور و قد أشرفوا عليه نارا فأمر أهله أن يمكنوا ليذهب إلى ما آنسه لعله يجد هناك من يخبره بالطريق أو يأخذ قطعة من النار فيصطلوا بها ، و قد وقع في القصة من سورة طه موضع قوله : « لعلّي آتيكم منها بخبر » الخ قوله : « لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » طه : ١٠ و هو أدل على كونهم ضلوا الطريق .
 و كذا في قوله خطابا لأهله : « أمكنوا » الخ شهادة على أنه كان معها من يصح

معه خطاب ^(١) الجمع .

قوله تعالى : « فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة » الخ قال في المفردات : شاطئ الوادي جانبه ، وقال : أصل الوادي الموضع الذي يسيل منه الماء ومنه سمى المنفرج بين الجبلين واديا وجمعه أودية انتهى والبقعة القطعة من الأرض علي غير هيئة التي إلى جنبها .

والمراد بالأيمن الجانب الأيمن مقابل الأيسر وهو صفة الشاطئ ولا يعبؤ بما قاله بعضهم : إن الأيمن من اليمن مقابل الأشأم من الشؤم .

والبقعة المباركة قطعة خاصة من الشاطئ الأيمن في الوادي كانت فيه الشجرة التي نودي منها ، ومباركتها لتشرقها بالتقريب والتكليم الإلهي وقد أمر بخلع نعليه فيها لتقدسها كما قال تعالى في القصصة من سورة طه : « فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى » طه : ١٢ .

ولا ريب في دلالة الآية على أن الشجرة كانت مبدء النداء والتكليم بوجه غير أن الكلام وهو كلام الله سبحانه لم يكن قائما بها كقيام الكلام بالمتكلم منا فلم تكن إلا حجابا احتجب سبحانه به فكلمه من ورائه بما يليق بساحة قدسه من معنى الاحتجاب وهو على كل شيء محيط قال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء » الشورى : ٥١ .

ومن هنا يظهر ضعف ما قيل : إن الشجرة كانت محل الكلام لأن الكلام عرض يحتاج إلى محل يقوم به .

وكذا ما قيل : إن هذا التكليم أعلى منازل الأنبياء عليهم السلام أن يسمعوا كلام الله سبحانه من غير واسطة و مبلغ . وذلك أنه كان كلاما من وراء حجاب والحجاب واسطة وظاهر آية الشورى المذكورة آنفا أن أعلى التكليم هو الوحي من غير واسطة حجاب أو رسول مبلغ .

(١) وفي التوراة الحاضرة أنه حمل معه الى مصر امرأته وبنيه (سفر الخروج الاصحاح

وقوله : « أن ياموسى إننى أنا الله رب العالمين » أن فيه تفسيرية ، وفيه إنباء عن الذات المتعالية المسماة باسم الجلالة الموصوفة بوحداية الربوبية النافية لمطلق الشرك إذ كونه رباً للعالمين جميعاً - والرب هو المالك المدبّر للملكه الذي يستحق العبادة من مملوكيه - لا يدع شيئاً من العالمين يكون مربوباً لغيره حتى يكون هناك رب غيره وإله معبود سواه .

ففي الآية إجمال ما فصله في سورة طه في هذا الفصل من النداء من الإشارة إلى الأصول الثلاثة أعني التوحيد و النبوة والمعاد إذ قال : « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني و أقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية » الآيات طه : ١٤ - ١٦ .

قوله تعالى : « وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبر أولم يعقب » تقدم تفسيره في سورة النمل .

قوله تعالى : « ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين » بتقدير القول أي قيل له : أقبل ولا تخف إنك من الأمنين ، وفي هذا الخطاب تأمين له ، وبه يظهر معنى قوله في هذا الموضع من القصة في سورة النمل : « يا موسى لا تخف إنه لا يخاف لدي المرسلون » النمل : ١٠ وأنه تأمين معناه إنك مرسل والمرسلون آمنون لدي وليس من العتاب والتوبيخ في شيء .

قوله تعالى : « اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » المراد بسلوك يده في جيبه إدخاله فيه ، والمراد بالسوء - على ما قيل - البرص .

والظاهر أن في هذا التقييد تعريضا لما في التوراة الحاضرة في هذا ^(١) الموضع من القصة : « ثم قال له الرب أيضاً : أدخل يدك في عبك فأدخل يده في عبته ثم أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج » .

قوله تعالى : « واضم إليك جناحك من الرهب » إلى آخر الآية ، الرهب بالفتح فالسكون وبفتحتين وبالضم فالسكون الخوف ، والجناح قيل : المراد به اليد وقيل : العضد .

(١) سفر الخروج الاصحاح الرابع آية ٦ .

قيل: المراد بضم الجناح إليه من الرهب أن يجمع يديه على صدره إذا عرضه الخوف عند مشاهدة انقلاب العصا حية ليذهب ما في قلبه من الخوف .

وقيل : إنه لما ألقى العصا وصارت حية بسط يديه كالمتمطي وهما جناحاه ف قيل له : اضمم إليك جناحك أي لا تبسط يديك خوف الحية فإنك آمن من ضررها .

والوجهان - كما ترى - مبنيان على كون الجملة أعني قوله : « و اضمم » الخ من تنمة قوله : « أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » وهذا لا يلائم تخلل قوله : « اسلك يدك في جيبك » الخ بين الجملتين بالفصل من غير عطف .

وقيل : الجملة كناية عن الأمر بالعزم على ما أَرَادَهُ اللهُ سبحانه منه والحث على الجِدِّ في أمر الرسالة لئلا يمنعه ما يغشاه من الخوف في بعض الأحوال .

و لا يبعد أن يكون المراد بالجملة الأمر بأن يأخذ لنفسه سيماء الخاشع المتواضع فإن من دأب المتكبر المعجب بنفسه أن يفرّج بين عضديه و جنبه كالمتمطي في مشيته فيكون في معنى ما أمر الله به النبي ﷺ من التواضع للمؤمنين بقوله : « واخفض جناحك للمؤمنين » الحجر : ٨٨ على بعض المعاني .

قوله تعالى : « قال رب إنني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون » إشارة إلى قتله القبطي بالوكر و كان يخاف أن يقتلوه قصاصا .

قوله تعالى : « و أخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءاً يصدقني إنني أخاف أن يكذبون » قال في المجمع : يقال : فلان ردء لفلان إذا كان ينصره ويشد ظهره انتهى .

و قوله : « إنني أخاف أن يكذبون » تعليل لسؤاله إرسال هارون معه ، والسياق يدل على أنه كان يخاف أن يكذبوه فيغضب و لا يستطيع بيان حجته للكنة كانت في لسانه لا أنه سأل إرساله لئلا يكذبوه فإن من يكذب به لا يبالي أن يكذب هارون معه و من الدليل على ذلك ما وقع في سورة الشعراء في هذا الموضع من القصة من قوله : « قال رب إنني أخاف أن يكذبون و يضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون » الشعراء : ١٣ .

فمحصّل المعنى أن أخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معينا لي يبين صدقي في دعواي إذا خاصموني إنني أخاف أن يكذبوني فلا أستطيع بيان صدق دعواي .

قوله تعالى : « قال سنشدّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » شدّ عضده بأخيه كناية عن تقويته به ، و عدم الوصول إليهما كناية عن عدم التسلّط عليهما بالقتل ونحوه كأن الطائفتين يتسا بقان و إحداهما متقدّمة دائما والأخرى لا تدر كهم بالوصول إليهم فضلا أن يسبقوهم .

و المعنى قال سنقويك و نعينك بأخيك هارون و نجعل لكما سلطة و غلبة عليهم فلا يتسلّطون عليكم بسبب آياتنا التي نظهر كما بها . ثم قال : « أنتما ومن اتبعكما الغالبون » وهو بيان لقوله : « ونجعل لكما سلطانا » الخ يوضح أن هذا السلطان يشملهما ومن اتبعهما من الناس .

و قد ظهر بذلك أن السلطان بمعنى القهر و الغلبة وقيل : هو بمعنى الحجّة و الأولى حينئذ أن يكون قوله : « بآياتنا » متعلّقا بقوله « الغالبون » لا بقوله : « فلا يصلون إليكما » و قد ذكروا في الآية وجوها أخر لاجدوى في التعرّض لها .

قوله تعالى : « فلما جاءهم موسى بآياتنا قالوا ما هذا إلا سحر مفترى » الخ أي سحر موصوف بأنه مفترى والمفترى اسم مفعول بمعنى المخلّلق أو مصدر ميمي وصف به السحر مبالغة .

و الإشارة في قوله : « ما هذا إلا سحر مفترى » إلى ما جاء به من الآيات أي ليس ما جاء به من الخوارق إلا سحراً مختلفاً افتعله فنسبه إلى الله كذبا .

و الإشارة في قوله : « وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » إلى ما جاء به من الدعوة و أقام عليها حجّة الآيات ، و أمّا احتمال أن يراد بها الإشارة إلى الآيات فلا يلائمه تكرار اسم الإشارة على أنهم كانوا يدعون أنهم سيأتون بمثلها كما حكى الله عن فرعون في قوله : « فلتأتينك بسحر مثله » طه : ٥٨ على أن عدم معهوديّة السحر وعدم مسبوقيته بالمثل لا ينفعهم شيأ حتّى يدعوه .

فالمعنى أن ما جاء به موسى دين مبتدع لم ينقل عن آبائنا الأولين أنهم اتخذوه

في وقت من الأوقات ، ويناسبه ما حكى في الآية التالية من قول موسى : « ربّي أعلم بمن جاء بالهدى » النخ .

قوله تعالى : « وقال موسى ربّي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده و من تكون له عاقبة الدار » النخ مقتضى السياق كونه جوابا من موسى عن قولهم : « و ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين » في ردّ دعوى موسى ، و هو جواب مبنيّ على التحدّي كأنّه يقول : إن ربّي - و هو ربّ العالمين له الخلق و الأمر - هو أعلم منكم بمن جاء بالهدى و من تكون له عاقبة الدار و هو الذي أرسلني رسولا جاثيا بالهدى - و هو دين التوحيد - و وعدني أن من أخذ بدينّي فله عاقبة الدار ، والحجّة على ذلك الآيات البيّنات التي آتاها من عنده .

فقوله : « ربّي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده » يريد به نفسه و المراد بالهدى الدعوة الدينية التي جاء بها .

و قوله : « و من تكون له عاقبة الدار » المراد بعاقبة الدار إمّا الجنة التي هي الدار الآخرة التي يسكنها السعداء كما قال حكاية عنهم : « وأورثنا الأرض ننبوء من الجنة حيث نشاء » الزمر : ٧٤ ، و إمّا عاقبة الدار الدنيا كما في قوله : « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » الأعراف : ١٢٨ و إمّا الأعمّ الشامل للدنيا والآخرة والثالث أحسن الوجوه ثمّ الثاني كما يؤيده تعليقه بقوله : « إنّّه لا يفلح الظالمون » .

و في قوله : « إنّّه لا يفلح الظالمون » تعريض لفرعون وقومه و فيه نفي أن تكون لهم عاقبة الدار فإنّهم بنوا سنّة الحياة على الظلم وفيه انحراف عن العدالة الاجتماعية التي تهدي إليها فطرة الإنسان الموافقة للنظام الكوني .

قال بعض المفسّرين : و الوجه في عطف قوله : « وقال موسى ربّي أعلم » النخ على قولهم : « ما هذا إلاّ سحر مفقري » النخ حكاية القولين ليوازن السامع بينهما ليميّز صحيحهما من الفاسد انتهى و ما قدّمناه من كون قول موسى ﷺ مسوقا لردّ قولهم أوفق للسياق .

قوله تعالى : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري » إلى آخر الآية ، فيه تعريض لموسى بما جاء به من الدعوة الحقّة المؤيّدّة بالآيات المعجزة يريد أنّه لم يتبيّن له حقيقة ما يدعو إليه موسى ولا كون ما أتى به من الخوارق آيات معجزة من عند الله وأنّه ما علم لهم من إله غيره .

فقوله : « ما علمت لكم من إله غيري » سوق للكلام في صورة الإيضاح ليقع في قلوب الملأ موقع القبول كما هو ظاهر قوله المحكي في موضع آخر : « ما أريكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد » المؤمن : ٢٩ .

فمحصل المعنى أنّه أظهر للملأ أنّه لم يتضح له من دعوة موسى و آياته أنّ هناك إلهاً هو ربّ العالمين ولا حصل له علم بأنّ هناك إلهاً غيره ثمّ أمر هامان أن يبني له صرحاً لعلّه يطلع إلى إله موسى .

وبذلك يظهر أنّ قوله : « ما علمت لكم من إله غيري » من قبيل قصر القلب فقد كان موسى ﷺ يثبت الألوهيّة لله سبحانه و ينفى عن غيره و هو ينفى عنها تعالى و يثبتها لنفسه ، و أمّا سائر الآلهة التي كان يعبدونها هو و قومه فلا تعرض لها .

وقوله : « فأود لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً » المراد بالطين فاجعل لي صرحاً تأجيج النار عليه لصنعة الآجر المستعمل في الأبنية ، والصرح البناء العالي المكشوف من صرح الشيء إذا ظهر ففي الجملة أمر باتخاذ الآجر و بناء قصر عال منه .

وقوله : « لعلّي أطلع إلى إله موسى » نسب إليه إلى موسى بعناية أنّه هو الذي يدعو إليه ، و الكلام من وضع النتيجة موضع المقدّمة و التقدير اجعل لي صرحاً أضعه إلى أعلى درجاته فأنظر إلى السماء لعلّي أطلع إلى إله موسى كأنّه كان يرى أنّه تعالى جسم ساكن في بعض طبقات الجوّ أو الأفلاك فكان يرجو إذا نظر من أعلى الصرح أن يطلع إليه أو كان هذا القول من قبيل التعمية على الناس و إضلالهم .

و يمكن أن يكون المراد أن يبني له رصداً يترصد الكواكب فيرى هل فيها ما يدلّ على بعثة رسول أو حقيقة ما يصفه موسى ﷺ ، و يؤيّد هذا قوله على ما حكى في موضع آخر : « يا هامان ابن لي صرحاً لعلّي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع

إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا « المؤمن : ٣٧ .

وقوله : « وإني لأظنه من الكاذبين » ترق منه من الجهل الذي يدل عليه قوله : « ما علمت لكم من إله غيري » إلى الظن بعدم الوجود وقد كان كاذبا في قوله هذا ولا يقوله إلا تمويهها وتعمية على الناس وقد خاطبه موسى بقوله : « لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض » أسرى : ١٠٢ .

وذكر بعضهم أن قوله : « ما علمت لكم من إله غيري » من قبيل نفي المعلوم بنفي العلم فيما لو كان لبان فيكون نظير قوله : « قل أنبئوا الله بما لا يعلم في السماوات والأرض » يونس : ١٨ وأنت خير بآية لا يلائم ذيل الآية .

قوله تعالى : « واستكبر هو وجنوده في الأرض وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون » أي كانت حالهم حال من يترجح عنده عدم الرجوع وذلك أنهم كانوا موقفين في أنفسهم كما قال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » .

قوله تعالى : « فأخذناه و جنوده » الخ النبذ الطرح ، واليم البحر والباقي ظاهر . وفي الآية من الاستهانة بأمرهم وتهويل العذاب الواقع بهم ما لا يخفى .

قوله تعالى : « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار و يوم القيامة لا ينعرون » الدعوة إلى النار هي الدعوة إلى ما يستوجب النار من الكفر والمعاصي لكونها هي التي تصور لهم يوم القيامة نارا يعذبون فيها أو المراد بالنار ما يستوجبها مجازا من باب إطلاق المسبب وإرادة سببه .

و معنى جعلهم أئمة يدعون إلى النار ، تصييرهم سابقين في الضلال يقتدي بهم اللاحقون ولاخير فيه لكونه بعنوان المجازاة على سبقهم في الكفر والجحود وليس من الإضلال الابتدائي في شيء .

وقيل : المراد بجعلهم أئمة يدعون إلى النار تسميتهم بذلك على حد قوله : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا » الزخرف : ١٩ .

وفيه أن الآية التالية على ماسيجيء من معناها لا تلائم . على أن كون الجعل في الآية المستشهد بها بمعنى التسمية غير مسلم .

و قوله : « و يوم القيامة لا ينصرون » أي لاتنالهم شفاعة من ناصر .

قوله تعالى : « و أتبعناهم في هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة هم من المقبوحين » بيان للآزم ما وصفهم به في الآية السابقة فهم لكونهم أئمة يقتدي بهم من خلفهم في الكفر و المعاصي لايزال يتبعهم ضلال الكفر و المعاصي من مقتديهم و متبعيهم و عليهم من الأوزار مثل ما للمتبعين فيتبعهم لعن مستمر باستمرار الكفر و المعاصي بعدهم .

فالآية في معنى قوله : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » العنكبوت : ١٣ و قوله : « و نكتب ما قدّموا و آثارهم » يس : ١٢ و تنكير اللعنة للدلالة على تفخيّمها و استمرارها .

و كذا لما لم ينلهم يوم القيامة نصر ناصر كانوا بحيث يتنقرو و يشمئز عنهم النفوس و يفرّ منهم الناس و لا يدنو منهم أحد و هو معنى القبح و قد وصف الله تعالى من قبح منظرهم شيأ كثيرا في كلامه .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع روى الواحدى بالاسناد عن ابن عباس قال : سئل رسول الله ﷺ أيّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : أوفاهما و أبطاهما .

اقول : و روى ما في معناه بالاسناد عن أبي ذر عنه ﷺ .

و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن مقسم قال : لقيت الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقلت له : أيّ الأجلين قضى موسى ؟ الأول أو الآخر ؟ قال : الآخر .

و في المجمع روى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : لما قضى موسى الأجل و سار بأهله نحو البيت أخطأ الطريق فرآى نارا « قال لأهله امكنوا إنني آنست نارا » .

و عن كتاب طب الأئمة بإسناده عن جابر الجعفي عن الباقر عليه السلام في حديث قال : « وقال الله عز وجل في قصة موسى عليه السلام : « و أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء » يعني من غير برص .

و في تفسير القميّ في قوله تعالى : « و أخى هارون هو أفصح منّي لسانا فأرسله معي ردءاً يصدّ قني » قال الراوي : فقلت لأبي جعفر عليه السلام : فكيف مكث موسى عليه السلام غائباً عن أمّه حتّى ردّه الله عزّ وجلّ عليها ؟ قال : ثلاثة أيّام .

قال : فقلت : فكان هارون أخا موسى عليه السلام لأبيه وأمّه ؟ قال : نعم أما تسمع الله عزّ وجلّ يقول : « يا بن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » ؟ فقلت : فأيهما كان أكثر سنّاً ؟ قال : هارون . قلت : فكان الوحي ينزل عليهما جميعاً ؟ قال : كان الوحي ينزل على موسى و موسى يوحى إليه إلى هارون .

فقلت له : أخبرني عن الأحكام و القضاء و الأمر و النهي كان ذلك إليهما ؟ قال : كان موسى الذي يناجي ربّه و يكتب العلم و يقضي بين بني إسرائيل و هارون يخلفه إذا غاب من قومه للمناجاة . قلت : فأيهما مات قبل صاحبه ؟ قال : مات هارون قبل موسى و ماتا جميعاً في التيه . قلت : فكان لموسى ولد ؟ قال : لا كان الولد لهارون و الذريّة له . اقول : و آخر الرواية لا يوافق روايات آخر تدلّ على أنّه كان له ولد و في التوراة العاصرة أيضاً دلالة على ذلك .

في جوامع الجامع في قوله تعالى : « و استكبر هو و جنوده » قال عليه السلام فيما حكا عن ربّه عزّ وجلّ : الكبرياء ردائي و العظمة إزارى فمن نازعني واحداً منهما ألقته في النار .

و في الكافي بإسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال : إنّ الأئمة في كتاب الله عزّ وجلّ إمامان قال الله تبارك و تعالى : « و جعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » لا بأمر الناس يقدرمون أمر الله قبل أمرهم و حكم الله قبل حكمهم . قال : « و جعلناهم أئمة يدعون إلى النار » يقدرمون أمرهم قبل أمر الله و حكمهم قبل حكم الله و يأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عزّ وجلّ .



كلام حول قصص موسى وهارون عليهما السلام

في فصول

١ - منزلة موسى عند الله و موقفه العبودي . كان ﷺ أحد الخمسة اُولي العزم الذين هم سادة الانبياء و لهم كتاب و شريعة كما خصهم الله تعالى بالذكر في قوله : « و اِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا » الأحزاب : ٧ ، و قال : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا و ما أوحينا إليك و ما وصينا به إبراهيم و موسى و عيسى » الشورى : ١٣ .
و لقد امتنَّ الله سبحانه عليه و على أخيه في قوله : « و لقد مننا على موسى و هارون » الصافات : ١١٤ و سلم عليهما في قوله : « سلام على موسى و هارون » الصافات : ١٢٠ .
و أثنى على موسى ﷺ بأجمل الثناء في قوله : « و اذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا و كان رسولا نبيا و نادينا من جانب الطور الأيمن و قرنا به نجيا » مريم : ٥٢ و قال : « و كان عند الله وحيها » الأحزاب : ٦٩ ، و قال : « و كلم الله موسى تكليما » النساء : ١٦٤ .

و ذكره في جملة من ذكرهم من الانبياء في سورة الانعام الآية ٨٤ - ٨٨ فأخبر أنهم كانوا محسنين صالحين و أنه فضّلهم على العالمين و اجتباهم و هداهم إلى صراط مستقيم . و ذكره في جملة الانبياء في سورة مريم ثم ذكر في الآية ٥٨ منها أنهم الذين أنعم الله عليهم . فاجتمع بذلك له ﷺ معنى الإخلاص و التقريب و الوجاهة و الإحسان و الصلاح و التفضيل و الاجتباء و الهداية و الانعام و قد مرّ البحث عن معاني هذه الصفات في مواضع تناسبها من هذا الكتاب و كذا البحث عن معنى النبوة و الرسالة و التكليم .
و ذكر الكتاب النازل عليه و هو التوراة فوصفها بأنها إمام و رحمة (سورة الأحقاف الآية ١٢) و بأنها فرقان و ضياء و ذكر (الأنبياء : ٤٨) و بأن فيها هدى و نور (المائدة : ٤٤) و قال : « و كتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة و تفصيلا لكل شيء » الأعراف : ١٤٥ .

غير أنه تعالى ذكر في مواضع من كلامه أنهم حرّقوها و اختلفوا فيها . وقصة بخت نصر و فتحه فلسطين ثانيا و هدمه الهيكل و إحراقه التوراة و حشره اليهود إلى بابل سنة خمس مائة و ثمان و ثمانين قبل المسيح ثم فتح كورش الملك بابل سنة خمس مائة و ثمان و ثلاثين قبل المسيح وإذنه لليهود أن يرجعوا إلى فلسطين ثانيا و كتابة عزراء الكاهن التوراة لهم معروف في التواريخ وقد تقدّمت الإشارة إليه في الجزء الثالث من الكتاب في قصص المسيح ﷺ .

٢ - قصص موسى عليه السلام في القرآن . هو ﷺ أكثر الأنبياء ذكرا في القرآن الكريم فقد ذكر اسمه - على ما عدّوه - في مائة وستة و ستين موضعاً من كلامه تعالى ، وأشار إلى قصّته إجمالاً أو تفصيلاً في أربع و ثلاثين سورة من سور القرآن ، وقد اختصّ من بين الأنبياء بكثرة المعجزات ، و قد ذكر في القرآن شيء كثير من معجزاته الباهرة كصيورة عصاه ثعباناً ، و اليد البيضاء ، و الطوفان ، و الجراد ، و القمل ، و الصفادع ، و الدم ، و فلق البحر ، و إنزال المنّ و السلوى ، و انبجاس العيون من الحجر بضرب العصا ، و إحياء الموتى ، و رفع الطور فوق القوم وغير ذلك .

و قد ورد في كلامه تعالى طرف من قصصه ﷺ من دون استيفائها في كلّ مادقّ و جلّ بل بالاختصار على فصول منها يهمّ ذكرها لغرض الهداية والإرشاد على ما هو دأب القرآن الكريم في الإشارة إلى قصص الأنبياء و أممهم .

و هذه الفصول التي فيها كلّيات قصصه هي : أنه تولّد بمصر في بيت إسرائيليّ حينما كانوا يذبّحون المواليد الذكور من بني إسرائيل بأمر فرعون و جعلت أمّه إيتاه في تابوت و ألقيه في البحر و أخذ فرعون إيتاه ثمّ رده إلى أمّه للإرضاع و التربية و نشأ في بيت فرعون .

ثمّ بلغ أشده و قتل القبطيّ و هرب من مصر إلى مدين خواف من فرعون وملائه أن يقتلوه قصاصاً .

ثمّ مكث في مدين عند شعيب النبيّ ﷺ و تزوّج إحدى بنتيه .
ثمّ لما قضى موسى الأجل و سار بأهله آنس من جانب الطور نارا و قد ضلّوا

الطريق في ليلة شاتية فأوقفهم مكانهم و ذهب إلى النار ليأتيهم بقبس أو يجد على النار هدى فلما أتاه ناداه الله من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة وكلمه واجتبه و آتاه معجزة العصا و اليد البيضاء في تسع آيات و اختاره للرسالة إلى فرعون و ملائه و إنجاء بني إسرائيل و أمره بالذهاب إليه .

فأتى فرعون و دعاه إلى كلمة الحق و أن يرسل معه بني إسرائيل و لا يعذبهم و أراه آية العصا و اليد البيضاء فأبى و عارضه بسحر السحرة و قد جاؤا بسحر عظيم من ثعابين و حيات فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى و هارون و أصرت فرعون على جحوده و هدد السحرة و لم يؤمن . فلم يزل موسى عليه السلام يدعوهم و ملائه و يريهم الآية بعد الآية كالطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات و هم يصرون على استكبارهم ، و كلما وقع عليهم الرجز قالوا : يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك و لنرسلن معك بني إسرائيل فلما كشف الله عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكتون .

فأمره الله أن يسري بني إسرائيل ليلا فساروا حتى بلغوا ساحل البحر فمقبهم فرعون بجنوده فلما ترأى الفريقان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين فأمر بأن يضرب بعصا البحر فانفلق الماء فجاوزوا البحر و أتبعهم فرعون و جنوده حتى إذا أدركوا فيها جميعا أطبق الله عليهم الماء فأغرقهم عن آخرهم .

و لما أنجاهم الله من فرعون و جنوده و أخرجهم إلى البر و لاماء فيه و لا كلاء أكرمهم الله فأنزله عليهم المن و السلوى و أمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانبعث منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم فشربوا منها و أكلوا منها و ظللهم الغمام .

ثم واعد الله موسى أربعين ليلة لنزول التوراة ببجل الطور فاختر قومه سبعين رجلا لم يسمعوا تكليمه تعالى إياه فسمعوا ثم قالوا : لن نؤمن لك حتى ترى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة و هم ينظرون ثم أحياهم الله بدعوة موسى ، و لما تم الميقات أنزل الله عليه التوراة و أخبره أن السامري قد أضل قومه بعده فعبدوا العجل .

فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا فأحرق العجل و نسفه في اليم و طرد السامري و قال له : اذهب فإن لك في الحياة أن تقول لامسأس و أمّا القوم فأمرؤا أن يتوبوا و يقتلوا أنفسهم فتيب عليهم بعد ذلك ثم استكبروا عن قبول شريعة التوراة حتى رفع الله الطور فوقهم .

ثم إنهم ملكوا المن و السلوى و قالوا لن نصبر على طعام واحد و سألوه أن يدعو ربّه أن يخرج لهم ممّا تنبت الأرض من بقلها و قشائها و فومها و عدسها و بصلها فأمرؤا أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فأبوا فحرّمها الله عليهم و ابتلاهم بالتيه يتيهون في الأرض أربعين سنة .

و من قصص موسى ﷺ ما ذكره الله في سورة الكهف من مضيته مع فتاه إلى مجمع البحرين للقاء العبد الصالح و صحبتة حتى فارقه .

٣ - منزلة هارون عليه السلام عند الله و موقفه العبودي . أشركه الله تعالى مع موسى ﷺ في سورة الصافات في المن و إيتاء الكتاب و الهداية إلى الصراط المستقيم و في التسليم وأنه من المحسنين و من عباد المؤمنين (الصافات : ١١٤ - ١٢٢) و عده مرسلا (طه : ٤٧) و نبيا (مريم : ٥٣) و أنه ممن أنعم عليهم (مريم : ٥٨) و أشركه مع من عدّهم من الأنبياء في سورة الأنعام في صفاتهم الجميلة من الإحسان و الصلاح و الفضل و الاجتناء و الهداية (الأنعام : ٨٤ - ٨٨) .

و في دعاء موسى ليلة الطور : و اجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدّ دبه أؤري و أشركه في أمري كي نسبّحك كثيرا و نذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا ، طه : ٣٥ .

و كان ﷺ ملازماً لأخيه في جميع مواقفه يشاركه في عامّة أمره و يعينه على جميع مقاصده .

و لم يرد في القرآن الكريم ممّا يختصّ به من القصص إلا خلافته لأخيه حين غاب عن القوم للميقات و قال لأخيه هارون اخلفني في قومي و أصلح ولا تتبّع سبيل المفسدين ، ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا وقد عبدوا العجل ألقى الألواح و أخذ

برأس أخيه يجره إليه قال ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين .

٣ - قصة موسى عليه السلام في التوراة الحاضرة . قصصه عليه السلام موضوعة فيماعداد السفر الأول من أسفار التوراة الخمسة وهي سفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية تذكر فيها تفاصيل قصصه عليه السلام من حين ولادته إلى حين وفاته وما أوحى إليه من الشرائع والأحكام .

غير أن فيها اختلافات في سرد القصة مع القرآن في أمور غير يسيرة . ومن أهمها أنها تذكر أن نداء موسى وتكليمه من الشجرة كان في أرض مدين قبل أن يسير بأهله و ذلك حين كان يرعى غنم يشرون^(١) حمية كاهن مديان فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب وظهر له ملاك الرب بلهيب نارهن وسط عليقة فناداه الله وكلمه بما كلمه وأرسله إلى فرعون لانجاء بني إسرائيل^(٢) . ومنها ما ذكرت أن فرعون الذي أرسل إليه موسى غير فرعون الذي أخذ موسى ورباه ثم هرب منه موسى لما قتل القبطي خوفاً من القصاص^(٣) . ومنها أنها لم تذكر إيمان السحرة لما ألغوا عصيتهم فصارت حيات فتلقفتها عصا موسى بل تذكر أنهم كانوا عند فرعون وعارضوا موسى في آيتي الدم والضفادع فأتوا بسحرهم مثل ما أتى به موسى عليه السلام معجزة^(٤) .

و منها أنها تذكر أن الذي صنع لهم العجل فعبدوه هو هارون النبي أخو موسى عليه السلام وذلك أنه لما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا (موسى) الرجل

(١) تسمى التوراة أباً زوجة موسى يشرون كاهن مديان .

(٢) الاصحاح الثالثة من سفر الخروج .

(٣) سفر الخروج ، الاصحاح الثاني . الآية ٢٣ .

(٤) الاصحاح السابع والثامن من سفر الخروج .

الَّذِي أَصْعَدْنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لَا نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ ؟ فَقَالَ لَهُمْ هَارُونَ : انْزِعُوا أَقْرَابَ الشَّعْبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَأَتُونِي بِهَا .

فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ أَقْرَابَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ وَأَتَوَاهَا إِلَى هَارُونَ فَأَخَذَ ذَلِكَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ بِالْإِزْمِيلِ فَصَبْغَهُ عَجَلًا مَسْبُوكًا فَقَالُوا هَذِهِ آلهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلَ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ^(١) .

وَفِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ تَعْرِيفَاتٌ لِلتَّوْرَةِ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ مِنْ قِصَّةِ ^(٢) ^{عَلَيْهِ السَّلَامُ} غَيْرِ خَفِيَّةٍ عَلَى الْمُتَدَبِّرِ فِيهَا .

وَهُنَاكَ اخْتِلَافَاتٌ جَزْئِيَّةٌ كَثِيرَةٌ كَمَا وَقَعَ فِي التَّوْرَةِ فِي قِصَّةِ قَتْلِ الْقَبْطِيِّ * أَنْ الْمُتَضَارِبِينَ ثَانِيًا كَانُوا جَمِيعًا إِسْرَائِيلِيِّينَ ^(٣) .

وَأَيْضًا وَقَعَ فِيهَا أَنْ الَّذِي أُلْقِيَ الْعَصَا فَتَلَقَّتْ حَيَاتِ السَّحَرَةِ هُوَ هَارُونَ أَلْقَاهَا بِأَمْرِ مُوسَى ^(٤) .

وَأَيْضًا لَمْ تَذَكَرْ فِيهَا قِصَّةَ انْتِخَابِ السَّبْعِينَ رَجُلًا لِلْمِيقَاتِ وَنَزُولِ الصَّاعِقَةِ عَلَيْهِمْ وَإِحْيَاءِهِمْ بَعْدَهُ .

وَأَيْضًا فِيهَا أَنْ الْأَلْوَحَ الَّتِي كَانَتْ مَعَ مُوسَى لَمَّا نَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ وَأَلْقَاهَا كَانَتْ لَوْحَيْنِ مِنْ حَجَرٍ وَهِيَ لَوْحَا الشَّهَادَةِ ^(٥) . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْاِخْتِلَافَاتِ .



(١) الاصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج .

(٢) الاصحاح الثاني من سفر الخروج .

(٣) الاصحاح السابع من سفر الخروج .

(٤) الاصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج .



وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ
لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ
إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا
فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمْ الْأَعْمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا
وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً
مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَيْهِمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)
وَلَوْلَا أَن تَصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ
إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ
مِّنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ
قَاتُوا بِكِتَابِ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩)
فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ
هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ
وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ
قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ

رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا
وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا
اللَّغْوَ اعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي
الْجَاهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) .

﴿بيان﴾

سياق الآيات يشهد أن المشركين من قوم النبي ﷺ راجعوا بعض أهل الكتاب
واستفتوهم في أمره ﷺ وعرضوا عليهم بعض القرآن النازل عليه وهو مصدق
للتوراة فأجابوا بتصديقه والإيمان بما يتضمنه القرآن من المعارف الحقّة وأنهم
كانوا يعرفونه بأوصافه قبل أن يبعث كما قال تعالى : « وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به
إنه الحق » من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين .

فساء المشركين ذلك وشاجروهم وأغلظوا عليهم في القول وقالوا : إن القرآن
سحر والتوراة سحر مثله « سحران تظاهرا » « وإنا بكل كافرين » فأعرض الكتابيون
عنهم وقالوا : سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين .

هذا ما يلوح إليه الآيات الكريمة بسياقها ، وهو سبحانه لما ساق قصة موسى
عليه السلام وأنبا أنه كيف أظهر قوما مستضعفين معبدين معذّبين يذبح أبناؤهم وتستحيى
نساؤهم على قوم عالين مستكبرين طغاة مفسدين بوليد منهم ربّاه في حجر عدوّه الذي
يذبح بأمره الألوف من أبنائهم ثم أخرجه لما نشأ من بينهم ثم بعثه وردّه إليهم
وأظهره عليهم حتّى أغرقهم أجمعين وأنجا شعب إسرائيل فكانوا هم الوارثين .
عطف القول على الكتاب السماوي الذي هو المتضمن للدعوة وبه تتم الحجّة

وهو الحامل للتذكرة فذكر أنه أنزل التوراة على موسى ﷺ فيه بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون فينتهون عن معصية الله بعد ما أهلك القرون الأولى بمعاصيهم . وكذا أنزل على النبي ﷺ القرآن وقص عليه قصص موسى ﷺ ولم يكن هو شاهدا لنزول التوراة عليه ولا حاضراً في الطور لما ناداه وكلمه ، وقص عليه ما جرى بين موسى وشعيب عليهما السلام ولم يكن هو ثاوياً في مدين يتلو عليهم آياته ولكن أنزله وقص عليه ما قصه رحمة منه لينذربه قوما ما أتاهم من نذير من قبله لأنهم بسبب كفرهم وفسوقهم في معرض نزول العذاب وإصابة المصيبة فلولم ينزل الكتاب ولم يبلغ الدعوة لقالوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك وكانت الحجّة لهم على الله سبحانه . فلما جاءهم الحق من عنده ببعثة النبي ﷺ ونزول القرآن قالوا : لولا أوّني مثل ما أوّني موسى أو لم يكفروا بما أوّني موسى من قبل حين راجعوا أهل الكتاب في أمره فصدّقه فقال المشركون : سحران تظاهرا يعنون التوراة والقرآن ، وقالوا : إنّنا بكلّ كافرون .

ثم لقن سبحانه نبيه ﷺ الحجّة عليهم بقوله : « قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين » أي إن من الواجب في حكمة الله أن يكون هناك كتاب نازل من عند الله يهدي إلى الحق وتم به الحجّة على الناس وهم يعرفون فإن لم تكن التوراة والقرآن كتاب هدى وكافين لهداية الناس فهناك كتاب هو أهدى منهما وليس كذلك إذ ما في الكتابين من المعارف الحقّة مؤيدة بالأعجاز و بدلالة البراهين العقلية . على أنه ليس هناك كتاب سماوي هو أهدى منهما فالكتابان كتابا هدى والقوم في الإعراض عنهما متبعون للهوى ضالّون عن الصراط المستقيم وهو قوله : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتبعون أهواءهم » الخ .

ثم مدح سبحانه قوما من أهل الكتاب راجعهم المشركون في أمر النبي ﷺ والقرآن فأظهروا لهم الإيمان والتصديق وأعرضوا عن لغو القول الذي جبهوه به . قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى

بصائر للناس» الخ اللّام للقسم أي أقسم لقد أعطينا موسى الكتاب وهو التوراة بوحيه إليه .

وقوله : « من بعد ما أهلكنا القرون الأولى » أي الأجيال السابقة على نزول التوراة كقوم نوح ومن بعدهم من الأمم الهالكة ولعلّ منهم قوم فرعون ، وفي هذا التقييد إشارة إلى مسيس الحاجة حينئذ إلى نزول الكتاب لانداس معالم الدين الإلهي بمضيّ الماضين و ليشارفي الكتاب الإلهي إلى قصصهم وحلول العذاب الإلهي بهم بسبب تكذيبهم لآيات الله ليعتبر به المطعبرون و يتذكّر به المتذكرون .

وقوله : « بصائر للناس » جمع بصيرة بمعنى ما يبصر به وكأنّ المراد بها الحجج البيّنة التي يبصر بها الحقّ و يميّز بها بينه و بين الباطل ، وهي حال من الكتاب و قيل : مفعول له .

وقوله : « وهدى » بمعنى الهادي أو ما يهتدى به وكذا قوله : « ورحمة » بمعنى ما يرحم به وهما حالان من الكتاب كبصائر و قيل : كلّ منهما مفعول له .
و المعنى و أقسم لقد أعطينا موسى الكتاب وهو التوراة من بعد ما أهلكنا الأجيال الأولى فاقتضت الحكمة تجديد الدعوة و الإنذار حالكون الكتاب حججا بيّنة يبصر بها الناس المعارف الحقّة و هدى يهتدون به إليها و رحمة يرحمون بسبب العمل بشرائعه و أحكامه لعلّهم يتذكرون فيفقهون ما يجب عليهم من الاعتقاد و العمل .

قوله تعالى : « و ما كنت بجانب الغربي » إذ قضينا إلى موسى الأمر و ما كنت من الشاهدين ، الخطاب للنبي ﷺ ، والغربي صفة محدوفة الموصوف و المراد جانب الوادى الغربي أو جانب الجبل الغربي .

وقوله : « إذ قضينا إلى موسى الأمر » كأنّ القضاء مضمّن معنى العهد ، والمراد بعهد الأمر إليه - على ما قيل - إحكام أمر نبوته بإزالة التوراة إليه و أمّا العهد إليه بأصل الرسالة فيدلّ عليه قوله بعد : « و ما كنت بجانب الطور إذ نادينا » وقوله : « و ما كنت من الشاهدين » تأكيد لسابقه .

و المعنى و ما كنت حاضرا و شاهدا حين أنزلنا التوراة على موسى في الجانب

الغربي من الوادي أو الجبل .

قوله تعالى : « و لكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر » تطاول العمر تماردي الأمد و الجملة استدراك عن النفي في قوله : « وما كنت بجانب الغربي » و المعنى ما كنت حاضراً هناك شاهداً لما جرى فيه و لكننا أوجدنا أجيالا بعده فتماذى بهم الأمد ثم أنزلنا عليك قصته و خبر نزول الكتاب عليه ففي الكلام إيجاز بالحذف لدلالة المقام عليه .
قوله تعالى : « وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا و لكننا كنا مرسلين » الثاوي المقيم يقال : ثوى في المكان إذا أقام فيه ، و الضمير في « عليهم » لمشركي مكة الذين كان النبي ﷺ يتلو عليهم آيات الله التي نصح ما جرى على موسى ﷺ في مدين زمن كونه فيه .

و قوله : « و لكننا كنا مرسلين » استدراك من النفي في صدر الآية .
و المعنى و ما كنت مقيما في أهل مدين وهم شعيب و قومه - مشاهداً لما جرى على موسى هناك تتلو على المشركين آياتنا القاصّة لخبره هناك و لكننا كنا مرسلين لك إلى قومك موحين بهذه الآيات إليك لتتلوها عليهم .

قوله تعالى : « و ما كنت بجانب الطور إذ نادينا و لكن رحمة من ربك » إلى آخر الآية ، الظاهر من مقابلة الآية لقوله السابق : « و ما كنت بجانب الغربي » إذ قضينا الخ أن المراد بهذا النداء ما كان من الشجرة في الليلة التي آنس فيها من جانب الطور نارا .

و قوله : « و لكن رحمة من ربك » الخ استدراك عن النفي السابق ، و الظاهر أن « رحمة » مفعول له ، و الالتفات عن التكلم بالغير إلى الغيبة في قوله : « من ربك » للدلالة على كمال عنايته تعالى به ﷺ .

و قوله : « لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك » الظاهر أن المراد بهذا القوم أهل عصر الدعوة النبوية أوهم ومن يقارنهم من آبائهم فإن العرب خلت فيهم رسل منهم كهود و صالح و شعيب و إسماعيل عليه السلام .

و المعنى و ما كنت حاضرا في جانب الطور إذ نادينا موسى و كلمناه و اخترناه

لِلرَّسَالَةِ حَتَّىٰ تَخْبِرَ عَنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ إِخْبَارَ الْحَاضِرِ الْمَشَاهِدِ وَلَكِنْ لِرَحْمَةٍ مِنَّا أَخْبَرْنَاكَ بِهَا لِتَتَذَكَّرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

قوله تعالى : « و لو لا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا » الخ المراد بما قدمت أيديهم ما اكتسبوه من السيئات من طريق الاعتقاد والعمل بدليل ذيل الآية ، و المراد بالمصيبة التي تصيبهم أعم من مصيبة الدنيا و الآخرة فإن الإعراض عن الحق بالكفر والفسوق يستتبع المؤاخذة الإلهية في الدنيا كما يستتبعها في الآخرة و قد تقدم بعض الكلام فيه في ذيل قوله : « و لو أن أهل القرى آمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض » الاعراف : ٩٦ و غيره .

و قوله : « فيقولوا ربنا لو لأرسلت » متفرع على ما تقدمه على تقدير عدم إرسال الرسول و جواب لولا محذوف لظهوره و التقدير : لما أرسلنا رسولا .

و محصل المعنى أنه لو لا أنه تكون لهم الحجة علينا على تقدير عدم إرسال الرسول و أخذهم بالعذاب بما قدمت أيديهم من الكفر والفسوق لما أرسلنا إليهم رسولا لكنهم يقولون ربنا لو لأرسلت إينا رسولا فنتبع آياتك التي يتلوها علينا و نكون من المؤمنين .

قوله تعالى : « فلمّا جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أو تي مثل ما أو تي موسى » الخ أي فأرسلنا إليهم الرسول بالحق و أنزلنا الكتاب فلمّا جاءهم الحق من عندنا و الظاهر أنه الكتاب النازل على الرسول و هو القرآن النازل على النبي ﷺ .

و المراد بقولهم : « لولا أو تي مثل ما أو تي موسى » أي لولا أو تي النبي ﷺ مثل التوراة التي أو تيها موسى ﷺ ، و كأنهم يريدون به أن ينزل القرآن جملة واحدة كما حكى الله تعالى عنهم بقوله : « و قال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » الفرقان : ٣٢ .

و قد أجاب الله عن قولهم بقوله : « أو لم يكفروا بما أو تي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا » يعنون القرآن و التوراة و قالوا إنا بكل كافرون . و الفرق بين القولين أن الأول كفر بالكتابين و الثاني كفر بأصل النبوة و لعله الوجه لتكرار « قالوا » في الكلام .

قوله تعالى : « قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ، تفريع على كون القرآن و التوراة سحرين تظاهرا ، و لا يصح هذا التفريع إلا إذا كان من الواجب أن يكون بين الناس كتاب من عند الله سبحانه يهديهم و يجب عليهم اتبعه فإذا كانا سحرين باطلين كان الحق غيرهما ، و هو كذلك على ما تبين بقوله : « و لو لا أن نصيبهم مصيبة » الخ أن للناس على الله أن ينزل عليهم الكتاب و يرسل إليهم الرسول ، و لذلك أمر تعالى نبيه ﷺ أن يطالبهم بكتاب غيرهما هو أهدى منهما ليتبعه .

ثم الكتابان لو كانا سحرين تظاهرا كانا باطلين مضلين لاهدى فيهما حتى يكون غيرهما من الكتاب الذي يأتون به أهدى منهما - لاستلزام صيغة التفضيل اشتراك المفضل و المفضل عليه في أصل الوصف - لكن المقام لما كان مقام الحاجة ادعى أن الكتابين هاديان لا مزيد عليهما في الهداية فإن لم يقبل الخصم ذلك فليأت بكتاب يزيد عليهما في معنى ما يشتملان عليه من بيان الواقع فيكون أهدى منهما .

و القرآن الكريم و إن كان يصرح بتسرب التحريف و الخلل في التوراة الحاضرة و ذلك لا يلائم عدتها كتاب هدى بقول مطلق لكن الكلام في التوراة الواقعية النازلة على موسى ﷺ وهي التي يصدقها القرآن .

على أن موضوع الكلام هما معا و القرآن يقوم التوراة الحاضرة ببيان ما فيها من الخلل فهما معا هدى لا كتاب أهدى منهما .

و قوله : « إن كنتم صادقين » أي في دعوى أنهما سحران تظاهرا .

قوله تعالى : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنهما يتبعون أهواءهم » إلى آخر الآية . الاستجابة والإجابة بمعنى واحد قال في الكشف : هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه . و إلى الداعي باللام ، و يحذف الدعاء إذا عدى إلى الداعي في الغالب فيقال : استجاب الله دعاءه أو استجاب له ، و لا يكاد يقال : استجاب له دعاءه انتهى .

فقوله : « فإن لم يستجيبوا لك » تفريع على قوله : « قل فأتوا بكتاب هو أهدى منهما أتبعه » أي فإن قلت لهم كذا و كلفتهم بذلك فلم يأتوا بكتاب هو أهدى من القرآن

آمنوا به فلا يعبؤ بما قيل إن المراد بهم مطلق المؤمنين منهم .

قوله تعالى : « و إذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا » الخ ضمائر الأفراد للقرآن ، و اللام في « الحق » للعهد و المعنى و إذا يقرأ القرآن عليهم قالوا : آمنا به إنه الحق الذي نعهده من ربنا فإنه عرفناه من قبل .

و قوله : « إنا كنا من قبله مسلمين » تعليل لكونه حقاً معهوداً عندهم أي إنا كنا من قبل نزوله مسلمين له أو مؤمنين للدين الذي يدعو إليه و يسميه إسلاماً .

و قيل : الضميران للنبي ﷺ و ما تقدم أو فوق للسياق ، و كيف كان فهم يعنون بذلك ما قرؤوه في كتبهم من أوصاف النبي ﷺ و الكتاب النازل عليه كما يشير إليه قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة و الإنجيل » الأعراف : ١٦٧ ، و قوله : « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » الشعراء : ١٩٧ .

قوله تعالى : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا و يدرؤن بالحسنة السيئة » الخ في الآية وعد جميل لهم على ما فعلوا و مدح لهم على حسن سلوكهم و مداراتهم مع جهلة المشركين و لذا كان الأقرب إلى الفهم أن يكون المراد بإيتائهم أجرهم مرتين إيتاؤهم أجر الإيمان بكتابهم و أجر الإيمان بالقرآن و صبرهم على الإيمان بعد الإيمان بما فيهما من كلفة مخالفة الهوى .

و قيل : المراد إيتاؤهم الأجر بما صبروا على دينهم و على أذى الكفار و تحمل المشاق و قد عرفت ما يؤيده السياق .

و قوله « و يدرؤن بالحسنة السيئة » الخ الدرء الدفع ، و المراد بالحسنة السيئة قيل : الكلام الحسن و الكلام القبيح ، و قيل : العمل الحسن و السيئ و هما المعروف و المنكر ، و قيل : الخلق الحسن و السيئ و هما الحلم و الجهل ، و سياق الآيات أو فوق للمعنى الأخير فيرجع المعنى إلى أنهم يدفعون أذى الناس عن أنفسهم بالمدارة ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « و إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه و قالوا لنا أعمالنا و لكم أعمالكم »

الخ المراد باللفو لغو الكلام بدليل تعلّقه بالسمع والمراد سقط القول الذي لا ينبغي الاشتغال به من هذر أو سبّ و كل ما فيه خشونة ، ولذا لمّا سمعوه أعرضوا عنه و لم يقابلوه بمثله و قالوا : لنا أعمالنا و لكم أعمالكم و هو متاركة و قوله : « سلام عليكم أي أمان منّا لكم ، وهو أيضاً متاركة و توديع تكرر ما كما قال تعالى : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

و قوله : « لا ينبغي الجاهلين » أي لا نطلبهم بمعاشرة و مجالسة ، و فيه تأكيد لما تقدّمه ، و هو حكاية عن لسان حالهم إذ لو تلفّظوا به لكان من مقابلة السيّء بالسيّء .
قوله تعالى : « إنك لا تهدي من أحببت و لكن الله يهدي من يشاء و هو أعلم بالهتدين » المراد بالهداية الإيصال إلى المطلوب و مرجعه إلى إفاضة الإيمان على القلب و معلوم أنّه من شأنه تعالى لا يشاركه فيه أحد ، و ليس المراد بها إراءة الطريق فإنّه من وظيفة الرسول لا معنى لنفيه عنه ، والمراد بالاهتداء قبول الهداية .

لمّا بيّن في الآيات السابقة حرمان المشركين و هم قوم النبي ﷺ من نعمة الهداية و ضلالهم باتّباع الهوى و استكبارهم عن الحقّ النازل عليهم و إيمان أهل الكتاب به و اعترافهم بالحقّ ختم القول في هذا الفصل من الكلام بأنّ أمر الهداية إلى الله لا إليك يهدي هؤلاء و هم من غير قومك الذين تدعوهم ولا يهدي هؤلاء و هم قومك الذين تحبّ اهتداءهم و هو أعلم بالهتدين .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج البزار و ابن المنذر و الحاكم و صحّحه و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : ما أهلك الله قوما و لا قرنا و لا أمة و لا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخت قرده . ألم تر إلى قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ؟ »

أقول : و في دلالة الآية على الإهلاك بخصوص العذاب السماوي ثم انقطاعه

بنزول التوراة خفاء .

و فيه في قوله تعالى : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » الآية أخرجا بن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : لما قرب الله موسى إلى طور سيناء نجيا قال : أي رب هل أحد أكرم عليك مني ؟ قرأ بتني نجيا وكلمتني تكليما . قال : نعم محمد أكرم علي منك . قال : فإن كان محمد أكرم عليك مني فهل أمة محمد أكرم من بني إسرائيل ؟ فقلت لهم البحر وأنجيتهم من فرعون وعمله وأطعمتهم المن والسلوى . قال : نعم أمة محمد أكرم علي من بني إسرائيل . قال : إلهي أرنهم . قال : إنك لن تراهم وإن شئت أسمعك صوتهم قال : نعم إلهي .

فنادى ربنا أمة محمد أجيئوا ربكم فأجابوا وهم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا : لبيك أنت ربنا حقاً ونحن عبيدك حقاً . قال : صدقتم وأنا ربكم وأنتم عبيدي حقاً قد غفرت لكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة .

قال ابن عباس : فلمّا بعث الله محمد ﷺ أراد أن يمنّ عليه بما أعطاه وبما أعطى أمته فقال : يا محمد « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا » .

أقول : ورواه فيه أيضاً بطرق أخرى عن غيره ، وروى هذا المعنى أيضاً الصدوق في العيون عن الرضا عليه السلام لكن حمل الآية على هذا المعنى يوجب اختلال السياق وفساد ارتباط الجمل المتقدمة والمتأخرة بعضها ببعض .

وفي البصائر بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله عز وجل : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله » يعني من اتخذ دينه هواه بغير هدى من أئمة الهدى .

أقول : وروى مثله بإسناده عن المعلّى عن أبي عبد الله عليه السلام وهو من الجري أو من البطن .

و في المجمع في قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب » الآيات : نزل قوله : « الذين آتيناهم الكتاب » وما بعده في عبد الله بن سلام و تميم الداري والجارود العبدي

و سلمان الفارسي* فإنيهم لما أسلموا نزلت فيهم الآيات . عن قتادة .
 و قيل : نزلت في أربعين رجلا من أهل الإنجيل كانوا مسلمين بالنبي* ﷺ قبل
 مبعثه إثنان و ثلاثون من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وقت قدومه وثمانية قدموا
 من الشام منهم بحيرا و أبرهة و الأشرف و أيمن و إدريس و نافع و تميم .
أقول : و روي غير ذلك .

و فيه في معنى قوله تعالى : « و يدرؤن بالحسنة السيئة » و قيل : يدفعون بالحلم
 جهل الجاهل . عن يحيى بن سلام ، و معناه يدفعون بالمداواة مع الناس أذا هم عن أنفسهم
 و روي مثل ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام .

و في الدر المنثور أخرج عبد بن حميد و مسلم و الترمذي* و ابن أبي حاتم و ابن
 مردويه و البيهقي* في الدلائل عن أبي هريرة قال : لما حضرت وفاة أبي طالب أتمام النبي*
 صلى الله عليه وسلم فقال : يا عمّاه قل : لا إله إلا الله أشهدك بها عند الله يوم القيامة فقال :
 لولأن يعبرني قريش يقولون ما حمل عليه إلا جزعه من الموت لأقررت بها عليك فأنزل الله
 عليه « إنيك لا تهدي من أحببت و لكن الله يهدي من يشاء و هو أعلم بالمتهدين » .

أقول : و روي ما في معناه عن ابن عمر و ابن المسيب و غيرهما ، و روايات أئمة
 أهل البيت عليه السلام مستفيضة على إيمانه و المنقول من أشعاره مشحون بالإقرار على صدق
 النبي* ﷺ و حقيقة دينه ، و هو الذي آوى النبي* ﷺ صغيراً و حماه بعد البعثة و
 قبل الهجرة فقد كان أثر مجاهدته وحده في حفظ نفسه الشريفة في العشر سنين قبل الهجرة
 يعدل أثر مجاهدة المهاجرين و الأنصار بأجمعهم في العشر سنين بعد الهجرة .





وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطَفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ
حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ
تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ
الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي
الْقُرَىٰ إِلَّا وَاهِلَهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَقْمَنَ وَعَدْنَاهُ
وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
مِنَ الْمُخَضِرِينَ (٦١) وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ
تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا اغْوَيْنَاهُمْ
كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ
فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤)
و يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيتَ عَلَيْهِمُ الْإِنْبَاءُ
يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ
أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ

الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَمُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى
وَالْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ
الْلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ
غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ
لَكُمْ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)
وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَ نَزَعْنَا
مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥).

﴿ بَيَان ﴾

تذكر الآيات عذراً آخر مما اعتذر به مشركوا مكة عن الإيمان بكتاب الله بعد
ما ذكرت عذرهم السابق : « لولا أوتي مثل ما أوتي موسى » وردته و هو قولهم : إن
آمنّا بما جاء به كتابك من الهدى و هو دين التوحيد تخطفنا مشركوا العرب من أرضنا
بالقتل و السبي و النهب و سلب الأمن و السلام .
فردّه تعالى بأنّا جعلنا لهم حرماً آمنّا يحترمه العرب و يجبى إليه ثمرات كل شيء
فلا موجب لخوفهم من تخطفهم .

على أن تنعمهم بالأموال والأولاد و بطر معيشتهم لا يضمن لهم الأمن من الهلاك
حتى يرجعوه على اتباع الهدى فكم من قرية بطرت معيشتها أهلكتها الله واستأصلها

و ذرئها فتلک مساکنهم لم تسکن من بعدهم إلا قليلاً .

على أن الذي يؤثرونه على اتباع الهدى إنما هو متاع الحياة الدنيا العاجلة ولا يختاره عاقل على الحياة الآخرة الخالدة التي عند الله سبحانه .

على أن الخلق والأمر لله فإذا اختار شيئاً وأمر به فليس لأحد أن يخالفه إلى ما يشتهي لنفسه فيختار ما يميل إليه طبعه ثم استشهد تعالى بقصة قارون وخسفه به و بداره الأرض .

قوله تعالى : « وقالوا إن نتبّع الهدى معك نتخطف من أرضنا » إلى آخر الآية . التخطف الاختلاس بسرعة ، وقيل الخطف والتخطف الاستلاب من كل وجه ، و كأنّ تخطفهم من أرضهم استعارة أريد به القتل والسبي ونهب الأموال كأنهم وما يتعلق بهم من أهل و مال يؤخذون فتخلو منهم أرضهم ، والمراد بالأرض أرض مكة و الحرم بدليل قوله بعد : « أولم نمكّن لهم حرماً آمناً » والقائل بعض مشركي مكة .

والجملة مسوقة للاعتذار عن الإيمان بأنهم إن آمنوا تخطفهم العرب من أرضهم أرض مكة لأنهم مشركون لا يرضون بإيمانهم ورفض أوثانهم فهو من قبيل إبداء المانع فيه اعتراف بحقيقة أصل الدعوة وأن الكتاب بما يشمل عليه حق لكن خطر التخطف مانع من قبوله والإيمان به ، ولهذا عبر بقوله : « إن نتبّع الهدى معك » و لم يقل : إن نتبّع كتابك أو دينك أو ما يقرب من ذلك .

و قوله : « أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً » قيل : التمكين مضمّن معنى الجعل والمعنى أو لم نجعل لهم حرماً آمناً ممكّنين إياهم ، وقيل : حرماً منصوب على الظرفية والمعنى أو لم نمكّن لهم في حرم ، و « آمناً » صفة « حرماً » أي حرماً ذا أمن ، وعدّ الحرم ذا أمن - والمتلبّس بالأمن أهله - من المجاز في النسبة ، والجملة معطوفة على محذوف والتقدير أو لم نعصمهم و نجعل لهم حرماً آمناً ممكّنين إياهم .

و هذا جواب أوّل منه تعالى لقولهم : « إن نتبّع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ومحصله أننا مكّناهم في أرض جعلناها حرماً ذا أمن تحترمه العرب فلا موجب لخوفهم يتخطفوا منها إن آمنوا .

و قوله : « يجبى إليه ثمرات كل شيء » الجباية الجمع ، و الكل للتكثير لا للعموم لعدم إرادة العموم قطعاً ، و المعنى يجمع إلى الحرم ثمرات كثير من الأشياء ، و الجملة صفة لحرماً جيبى بها لما عسى أن يتوهم أنهم يتضررون إن آمنوا بانقطاع الميرة .

و قوله : « رزقا من لدنا » مفعول مطلق أوحال من ثمرات ، و قوله : « ولكن أكثرهم لا يعلمون » استدراك عن جميع ما تقدم أي إننا نحن حفظناهم في أمن ورزقناهم من كل الثمرات لكن أكثرهم جاهلون بذلك فيحسبون أن الذي يحفظهم من نخطف العرب هو شركهم و عبادتهم الأصنام .

قوله تعالى : « و كم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها » إلى آخر الآية البطر الطغيان عند النعمة ، و « معيشتها » منصوب بنزع الخافض أي و كم أهلكنا من قرية طفت في معيشتها .

و قوله : « فذلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا » أي إن مساكنهم الخربة الخاوية على عروشها مشهودة لكم نصب أعينكم باقية على خرابها لم تعمرو لم تسكن بعد هلاكهم إلا قليلا منها .

و بذلك يظهر أن الأ نسب كون « إلا قليلا » استثناء من « مساكنهم » لامن قوله « من بعدهم » بأن يكون المعنى لم تسكن من بعدهم إلا زمانا قليلا إن لا يسكنها إلا المارة يوما أو بعض يوم في الأسفار .

و قوله : « و كننا نحن الوارثين » حيث ملكوها ثم تركوها فلم يخلفهم غيرنا فنحن ورثناهم مساكنهم ، و في الجملة أعني قوله : « كننا نحن الوارثين » عناية لطيفة فإنه تعالى هو المالك لكل شيء ملكا حقيقيا مطلقا فهو المالك لمساكنهم و قد ملكها إياهم بتسليطهم عليها ثم نزعها من أيديهم با هلاكهم و بقيت بعدهم لامالك لها إلا هو فسمي نفسه وارثا لهم بعناية أنه الباقي بعدهم و هو المالك لما كان بأيديهم كأن ملكهم الاعتباري انتقل إليه و لا انتقال هناك بالحقيقة و إنما ظهر ملكه الحقيقي بزوال ملكهم الاعتباري .

و الآية جواب ثان منه تعالى لقولهم : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » و محصله أن مجرد عدم تخطف العرب لكم من أرضكم لا يضمن لكم البقاء و لا يحفظ لكم أرضكم و التمتع فيها كما تشاؤون فكم من قرية بالغة في التمتع ذات أثر و بئر أهلكت أهلها و بقيت مساكنهم خالية غير مسكونة لا وارث لها إلا الله .

قوله تعالى : « و ما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا » أم القرى هي أصلها و كبيرتها التي ترجع إليها و في الآية بيان السنة الإلهية في عذاب القرى بالاستئصال و هو أن عذاب الاستئصال لا يقع منه تعالى إلا بعد إتمام الحجّة عليهم بإرسال رسول يتلو عليهم آيات الله ، و إلا بعد كون المذنبين ظالمين بالكفر بآيات الله و تكذيب رسوله .

و في تعقيب الآية السابقة بهذه الآية الشارحة لسنة تعالى في إهلاك القرى تخويف لأهل مكة المشركين بالإيماء إلى أنهم لو أصرّوا على كفرهم كانوا في معرض نزول العذاب لأن الله قد بعث في أم قراهم و هي مكة رسولا يتلو عليهم آياته و هم مع ذلك ظالمون بتكذيب رسولهم .

و بذلك يظهر النكتة في الالتفات من التكلم بالغير إلى الغيبة في قوله : « و ما كان ربك مهلك القرى » فإن في الإيماء إلى حصول شرائط العذاب فيهم لو كذبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم تقوية لنفسه و تأكيداً لحجّته ، و أمّا العدول بعده إلى سياق التكلم بالغير في قوله : « و ما كنا مهلكي القرى » فهو رجوع إلى السياق السابق بعد قضاء الوطر .

قوله تعالى : « و ما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا » الخ الإيتاء : الإعطاء و « من شيء » بيان لما لأفادة العموم أي كل شيء أوتيتهموه ، و المتاع ما يتمتع به و الزينة ما ينضم إلى الشيء ليفيده جمالا و حسنا ، و الحياة الدنيا الحياة المؤجلة المقطوعة التي هي أقرب الحيّاتين منّا و تقابلها الحياة الآخرة التي هي خالدة مؤبدة ، و المراد بما عند الله الحياة الآخرة السعيدة التي عند الله و جواره و لذا عدّ خيرا و أبقى .

و المعنى أن جميع النعم الدنيوية التي أعطاكم الله إياها متاع و زينة زينت بها هذه الحياة الدنيا التي هي أقرب الحيّاتين منكم و هي بائدة فانية و ما عند الله من ثوابه

في الدار الآخرة المترتب على اتباع الهدى و الإيمان بآيات الله خير و أبقي فينبغي أن تؤثر على متاع الدنيا و زينتها أفلاتعقلون .

و الآية جواب ثالث عن قولهم : « إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » محصله لنسلم أنكم إن اتبعتم الهدى تخطفكم العرب من أرضكم لكن الذي تفقدونه هو متاع الحياة الدنيا و زينتها الفانية فما بالكم تؤثرونه على ما عند الله من ثواب اتباع الهدى و سعادة الحياة الآخرة وهي خير و أبقي .

قوله تعالى : « أفمن وعدنا وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متّعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين » الآية إلى تمام سبع آيات إيضاح لمضمون الآية السابقة - و هو أن إثارة اتباع الهدى أولى من تركه و التمتع بمتاع الحياة الدنيا - ببيان آخر فيه مقايضة حال من اتبع الهدى وما يلقاه من الوعد الحسن الذي وعده الله ، من حال من لم يتبعه و اقتصر على التمتع من متاع الحياة الدنيا و سيستقبله يوم القيامة من الإحضار و تبرّي آلهته منه و عدم استجابتهم لدعوته ومشاهدة العذاب و السؤال عن إجابتهم الرسل .

فقوله : « أفمن وعدنا وعدا حسنا فهو لاقيه » الاستفهام إنكارى ، و الوعد الحسن هو وعده تعالى بالمغفرة والجنة كما قال تعالى : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم » المائدة : ٩ و لا يكذب وعده تعالى قال : « ألا إن وعد الله حق » يونس : ٥٥ .

و قوله : « كمن متّعناه متاع الحياة الدنيا » أي و هو محروم من ذلك الوعد الحسن لاقتصاره على التمتع بمتاعها ، و الدليل على هذا التقييد المقابلة بين الوعد و التمتع .

و قوله : « ثم هو يوم القيامة من المحضرين » أي للعذاب ، أو للسؤال والمواخذة و « ثم » للترتيب الكلامي وإتيان الجملة اسمية كما فيما يقابلها من قوله : « فهو لاقيه » للدلالة على التحقق .

قوله تعالى : « و يوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون » الشركاء

هم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا و كونهم شركاء عندهم لكونهم يعطونهم أو ينسبون إليهم بعض ما هو من شؤونه تعالى كالعبادة والتدبير ، و في قوله : « يناديهم » إشارة إلى بعدهم و خذلانهم يومئذ .

قوله تعالى : « قال الذين حقّ عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا » آلهتهم الذين يرونهم شركاء لله سبحانه صنفان صنف منهم عباد الله مكرمون كالملائكة المقرّبين و عيسى بن مريم عليه السلام ، و صنف منهم كفتاة الجنّ و مدّعي الألوهية من الإنّس كفرعون و نمرود و غيرهما و قد ألحق الله سبحانه بهم كلّ مطاع في باطل كإبليس و قرناء الشياطين و أئمة الضلال كما قال : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان - إلى أن قال - و قد أضلّ منكم جبلا كثيرا » يس : ٦٢ ، و قال : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » الجاثية : ٢٣ ، و قال : « اتخذوا أبحارهم و رهبانهم أربابا من دون الله » التوبة : ٣١ .

و الذين يشير إليهم قوله : « قال الذين حقّ عليهم القول » هم من الصنف الثاني بدليل ذكرهم إغواءهم و تبرّيهم من عبادتهم و هؤلاء المشركون و إن كانوا أنفسهم أيضا ممّن حقّ عليهم القول كما يشير إليه قوله : « حقّ القول منّي لأملأنّ جهنّم من الجنة و الناس أجمعين » الم السجدة : ١٤ ، ولكن المراد بهم في الآية المبحوث عنها المتبوعون منهم الذين ينتهي إليهم الشرك و الضلال .

و إيراد قول هؤلاء الشركاء مع عدم ذكر أن المسؤولين أشاروا إليهم لعلّهم للإشارة إلى أنهم ضلّوا عنهم في هذا الموقف كما في قوله تعالى : « و يوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منّا من شهيد و ضلّ عنهم ما كانوا يدعون من قبل » حم السجدة : ٤٨ . و قوله : « ربنا هؤلاء الذين أغوينا » أي هؤلاء - يشيرون إلى المشركين - هم الذين أغويناهم و الجملة توطئة للجملة التالية .

و قوله : « أغويناهم كما غوينا » أي كانت غوايتهم باغوائنا لغوايتنا أنفسنا فكما كنّا غوينا باختيارنا من غير إيجاب كذلك هم غووا باختيارهم من غير إيجاب ، والدليل على هذا المعنى ما حكاه الله عن إبليس يومئذ إن قال : « و ما كان لي عليكم من سلطان

إِلَّا أَنْ دَعَوْتَكُمْ فَاسْتَجِبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَا تَلُمُوا أَنْفُسَكُمْ « إِبْرَاهِيمَ : ٢٢ » وَقَالَ حَاكِيَا لَتَسْأَلُ الظَّالِمِينَ قُرْنَاهُمْ : « وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ فَحَقُّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ « الصافات : ٣٢ » أَيُّ مَا كَانَ لِيَصِلَ إِلَيْكُمْ مِنَّا وَ نَحْنُ غَاوُونَ غَيْرِ الْغَوَايَةِ .

وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ أَنَّ لِقَوْلِهِمْ : « أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا » مَعْنَى آخِر ، وَ هُوَ أَنَّهُمْ اكْتَسَبُوا مِنَّا نَظِيرَ الْوَصْفِ الَّذِي كَانَ فِينَا غَيْرَ أَنَّا تَبَرَّءٌ مِنْهُمْ حَيْثُ لَمْ نُلْجِثْهُمْ إِلَى الْغَوَايَةِ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَنَا بِإِلْجَاءٍ .

وَقَوْلُهُ : « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ » تَبَرَّءٌ مِنْهُمْ مُطْلَقًا حَيْثُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَنْ يُلْجِثُوا وَيُسَلَبُوا مِنْهُمْ الْإِخْتِيَارُ ، وَقَوْلُهُ : « مَا كَانُوا إِيتَانَا يَعْبُدُونَ » أَيُّ بِإِلْجَاءٍ مِنَّا ، أَوْ لَتَبَرَّأْنَا مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَإِنَّ مِنْ تَبَرَّءٍ مِنْ عَمَلٍ لَمْ يَنْتَسِبْ إِلَيْهِ وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى يُؤَلِّقُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي مَوَاضِعَ مِنْ كَلَامِهِ فِي وَصْفِ هَذَا الْمَوْقِفِ : « وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » الْأَنْعَامُ : ٢٣ « وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلِ » حَمِ السَّجْدَةِ : ٤٨ « وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيتَانَا يَعْبُدُونَ » يُونُسُ : ٢٨ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ فَافْهَمُ .

وَقِيلَ : الْمَعْنَى تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ مَا كَانُوا إِيتَانَا يَعْبُدُونَ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ أَهْوَاءَهُمْ أَوْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ . وَلَا يَخْلُو مِنْ سَخَافَةٍ .

وَلَكُونَ كُلٌّ مِنْ قَوْلِهِ : « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ » « مَا كَانُوا إِيتَانَا يَعْبُدُونَ » فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : « أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا » جِيءَ بِالْفَصْلِ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ » الْمُرَادُ بِشُرَكَائِهِمُ الْآلِهَةُ الَّتِي كَانُوا شُرَكَاءَ اللَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَلِذَا أَضَافَهُمْ إِلَيْهِمْ . وَ الْمُرَادُ بِدَعْوَتِهِمْ دَعْوَتَهُمْ إِيَّاهُمْ لِيَنْصُرُوهُمْ وَ يَدْفَعُوا عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَ لِذَا قَالَ : « وَرَأَوُا الْعَذَابَ » بَعْدَ قَوْلِهِ : « فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ » .

وَقَوْلُهُ : « لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ » قِيلَ : جَوَابٌ لَوْ مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ

والتقدير لو أنهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب أي اعتقدوا أن العذاب حق ، ويمكن أن يكون لو للتمني أي ليتهم كانوا يهتدون .

قوله تعالى : « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين » معطوف على قوله السابق : « ويوم يناديهم » النح سئلوا أو لا عن شركائهم وأمرؤا أن يستنصروهم ، وثانياً عن جوابهم للمرسلين إليهم من عند الله .

والمعنى ماذا قلتم في جواب من أرسل إليكم من رسل الله فدعوكم إلى الإيمان والعمل الصالح ؟ .

قوله تعالى : فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون» العمى استعارة عن جعل الإنسان بحيث لا يهتدي إلى خبر ، وكان مقتضى الظاهر أن ينسب العمى إليهم لا إلى الأنباء لكن عكس الأمر ف قيل : « فعميت عليهم الأنباء » للدلالة على أخذهم من كل جانب وسد جميع الطرق وتقطع الأسباب بهم كما قال : « وتقطعت بهم الأسباب » البقرة : ١٦٦ فلسقوط الأسباب عن التأثير يومئذ لا تهتدي إليهم الأخبار ولا يجدون شيئاً يعتذرون به للتخلص عن العذاب .

وقوله : « فهم لا يتساءلون » تفريع على عمى الأنباء من قبيل تفرع بعض أفراد العام عليه أي لا يسأل بعضهم بعضاً ليعذرأ به عذرأ يعتذرون به عن تكذيبهم الرسل وردهم الدعوة .

وقد فسر صدر الآية وذيلها بتفاسير كثيرة مختلفة لاجدوى في التعرف لها فرأينا الصفع عنها أولى .

قوله تعالى : « فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفlichen » أي هذه حال من كفر ولم يرجع إلى الله سبحانه فأما من رجع وآمن وعمل صالحاً فمن المرجو أن يكون من المفlichen ، وعسى - كما قيل - للتحقيق على عادة الكرام أول للترجي من قبل التائب والمعنى فليتوقع الفلاح .

قوله تعالى : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » الخيرة بمعنى التخير كالطيرة بمعنى التطير .

والآية جواب رابع عن قولهم : « إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا » والذي يتضمنه حجة قاطعة .

بيان ذلك أن الخلق وهو الصنع والإيجاد ينتهي إليه تعالى كما قال : « الله خالق كل شيء » الزمر : ٦٢ فلما مؤثر في الوجود بحقيقة معنى التأثير غيره تعالى فلا شيء هناك يلجئه تعالى على فعل من الأفعال فإن هذا الشيء المفروض إما مخلوق له منته وجوده إليه فوجوده وآثار وجوده ينتهي إليه تعالى ولا معنى لتأثير الشيء ولا لتأثير أثره في نفسه وإما غير مخلوق له ولا منته في وجوده إليه يؤثر فيه بالإلحاء والقهر ولا مؤثر في الوجود غيره ولا أن هناك شيئاً لا ينتهي في وجوده إليه تعالى فلا يعطيه شيء أثراً ولا يمنع شيء من أثر كما قال : « والله يحكم لامعقب لحكمه » الرعد : ٤١ ، وقال : « والله غالب على أمره » يوسف : ٢١ .

وإذ لا قاهر يقهره على فعل ولا مانع يمنعه عن فعل فهو مختار بحقيقة معنى الاختيار هذا بحسب التكوين والتشريع يتبعه فإن حقيقة التشريع هي أنه فطر الناس على فطرة لا تستقيم إلا ببيان أموري الواجبات وما في حكمها وترك أموري المحرمات وما في حكمها فما ينتفع به الإنسان في كماله وسعادته هو الذي أمر به وندب إليه وما يتضرر به هو الذي نهى عنه وحذر منه .

فله تعالى أن يختار في مرحلة التشريع من الأحكام والقوانين ما يشاء كما أن له أن يختار في مرحلة التكوين من الخلق والتدبير ما يشاء ، وهذا معنى قوله : « وربك يخلق ما يشاء ويختار » وقد أطلق إطلاقاً .

والظاهر أن قوله : « يخلق ما يشاء » إشارة إلى إختياره التكويني فإن معنى إطلاقه أنه لا تقصر قدرته عن خلق شيء ولا يمنعه شيء عما يشاء وبعبارة أخرى لا يمنع عن مشيئته شيء لا بنفسه ولا بمانع يمنع وهذا هو الاختيار بحقيقة معناه ، وقوله : « ويختار » إشارة إلى إختياره التشريعي الاعتباري ويكون عطفه على قوله : « يخلق ما يشاء » من عطف المسبب على سببه لكون التشريع والاعتبار متفرعاً على التكوين والحقيقة . ويمكن حمل قوله : « يخلق ما يشاء » على الاختيار التكويني وقوله : « ويختار »

على الأعم من الحقيقة والاعتبار لكن الوجه السابق أوجه ، ومن الدليل عليه كون المنفي في قوله الآتي : «ما كان لهم الخيرة» هو الاختيار التشريعي الاعتباري ، والاختيار المثبت في قوله «ويختار» يقابله فالمراد إثبات الاختيار التشريعي الاعتباري .

ثم لا ريب في أن الإنسان له اختيار تكويني بالنسبة إلى الأفعال الصادرة عنه بالعلم والارادة وإن لم يكن اختياراً مطلقاً فإنّ للأسباب والعلل الخارجية دخلاً في أفعاله إذ أكله لقمة من الطعام مثلاً متوقف على تحقق مادة الطعام خارجاً وقابليته وملائمته وقربه منه ومساعدة أدوات الأخذ والقبض والالتقام والمضغ والبلع وغير ذلك مما لا يحصى . فصدور الفعل الاختياري عنه مشروط بموافقة الأسباب الخارجية الدخيلة في تحقق فعله ، والله سبحانه في رأس تلك الأسباب جميعاً وإليه ينتهي الكل وهو الذي خلق الإنسان منعوتاً بنعت الاختيار وأعطاه خيرته كما أعطاه خلقه .

ثم إن الإنسان يرى بالطبع لنفسه اختياراتاً شرعياً اعتبارياً فيما يشاؤه من فعل أو ترك بحذاء اختياره التكويني فله أن يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء من غير أن يكون لأحد من بني نوعه أن يحمل عليه شيء أو يمنعه عن شيء لكونهم أمثاله لا يزدون عليه بشيء في معنى الإنسانية ولا يملكون منه شيئاً ، وهذا هو المراد بكون الإنسان حراً بالطبع .

فالإنسان مختار في نفسه حر بالطبع إلا أن يملك غيره من نفسه شيئاً فيسلب بنفسه عن نفسه الحرية كما أن الإنسان الاجتماعي يسلب عن نفسه الحرية بالنسبة إلى موارد السنن والقوانين الجارية في مجتمعه بدخوله في المجتمع وإمضائه ما يجري فيه من سنن وقوانين سواء كانت دينية أو اجتماعية ، وكما أن المتقاتلين يملك كل منهما الآخر من نفسه ما يغلب عليه فللغالب منهما أن يفعل بأسيره ما يشاء ، وكما أن الأجير إذا اتباع عمله وآجر نفسه فليس بحر في عمله إذ المملوكية لاتجامع الحرية . فالإنسان بالنسبة إلى سائر بني نوعه حر في عمله مختار في فعله إلا أن يسلب باختيار منه شيئاً من اختياره فيملك غيره ، والله سبحانه يملك الإنسان في نفسه وفي فعله الصادر

منه ملكاً مطلقاً بالملك التكويني* و بالملك الوضعي* الاعتباري* فلا خيرة له ولا حرية بالنسبة إلى ما يريد منه تشريعاً بأمر أو نهي تشريعيين كما لا خيرة ولا حرية له بالنسبة إلى ما يشاؤه بمشيئته التكوينية .

وهذا هو المراد بقوله : « ما كان لهم الخيرة » أي لا اختيار لهم إذا اختار الله سبحانه لهم شيئاً من فعل أو ترك حتى يختاروا لأنفسهم ما يشاؤون وإن خالف ما اختاره الله والآية قريبة المعنى من قوله تعالى : « وما كان طؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » الأحزاب ٣٤ وللقوم في تفسير الآية أقاويل مختلفة غير مجدية أغمضنا عنها من أراد الوقوف عليها فعليه بالرجوع إلى المطولات .
و قوله : « سبحانه الله وتعالى عما يشركون » أي عن شركهم باختيارهم أصناماً آلهة يعبدونها من دون الله .

وههنا معنى آخر أدق أي تنزه وتعالى عن شركهم بادعاء أن لهم خيرة بالنسبة إلى ما يختاره تعالى بقبوله أو رده فإن الخيرة بهذا المعنى لا تتم إلا بدعوى الاستقلال في الوجود والاستغناء عنه تعالى ولا تتم إلا مع الاشتراك معه تعالى في صفة الألوهية .
وفي قوله : « وربك يخلق » التفات من التكلم بالغير إلى الغيبة والنكته فيه تأييد النبي ﷺ وتقويته وتطيب نفسه بإضافة صفة الرب إليه فإن معناه إن ما أرسله به من الحكم ماض غير مردود فلا خيرة لهم في قبوله أو رده ، ولا نهيهم لا يقبلون ربوبيته .
وفي قوله : « سبحانه الله » وضع الظاهر موضع المضمرة والنكته فيه إرجاع الأمر إلى الذات المتعالية التي هي المبدء للتنزه والتعالى عن كل ما لا يليق بساحة قدسه فإنه تعالى يتصف بكل كمال ويتنزه عن كل نقص لأنه هو الله عز اسمه .
قوله تعالى : « وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » الإكتمان الإخفاء والإعلان الإظهار ، ولكون الصدر يعد مخزناً للأسرار نسب الإكتمان إلى الصدور والإعلان إليهم أنفسهم .

ولعل تعقيب الآية السابقة بهذه الآية للإشارة إلى أنه تعالى إنما اختار لهم ما اختار لعلمه بما في ظاهرهم وباطنهم من أوساخ الشرك والمعصية فطهرهم بذلك بحكمته .

قوله تعالى : «وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون» ظاهر السياق أن الضمير في صدر الآية راجع إلى «ربك» في الآية السابقة ، والظاهر على هذا أن اللام في اسم الجلالة للتلميح إلى معنى الوصف وقوله «لا إله إلا هو» تأكيد للحصر المستفاد من قوله : « هو الله » كأنه قيل : وهو إلا له - المتصف وحده بالالوهية - لا إله إلا هو .

وعلى ذلك فالآية كالمتمم لبيان الآية السابقة كأنه قيل : هو سبحانه مختار له أن يختار عليهم أن يعبدوه وحده ، وهو يعلم ظاهراً وباطناً أنه يقضي عليهم أن يعبدوه وحده وهو الاله المستحق للعبادة وحده فيجب عليهم أن يعبدوه وحده .
ويكون مافي ذيل الآية من قوله : « له الحمد » الخ وجوها ثلاثة توجه كونه تعالى معبوداً مستحقاً للعبادة وحده :

أما قوله : « له الحمد في الأولى والآخرة » فلأن « كل كمال موجود في الدنيا والآخرة نعمة نازلة منه تعالى يستحق بها جميل الثناء ، وكل جميل من هذه النعم الموهوبة مترشحة من كمال ذاتي من صفاته الذاتية يستحق بها الثناء فله كل الثناء ولا يستقل شيء غيره بشيء من الثناء يثنى عليه به إلا وينتهي إليه والعبادة ثناء بقول أو فعل فهو المعبود المستحق للعبادة وحده .

و أما قوله : « وله الحكم » فلا أنه سبحانه هو المالك على الإطلاق لا يملك غيره إلا ما ملكه إياه وهو المالك لما ملكه وهو سبحانه مالك في مرحلة التشريع والاعتبار كما أنه مالك في مرحلة التكوين والحقيقة ، ومن آثار ملكه أن يقضي على عبده و مملوكيه أن لا يعبدوا إلا إياه .

وأما قوله : « وإليه ترجعون » فلأن الرجوع للحساب والجزاء وإذا كان هو المرجع فهو المحاسب المجازي وإذا كان هو المحاسب المجازي وحده فهو الذي يجب أن يعبد وحده وله دين يجب أن يتعبد به وحده .

قوله تعالى : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة ، إلى آخر الآية السرمد على فعلل بمعنى الدائم ، وقيل : هو من السرد والميم زائدة

ومعناه المتتابع المطرد ، وتقييده بيوم القيامة إذ لا ليل بعد يوم القيامة .
وقوله : « من إله غير الله يأتيكم بضياء » أي من الإله الذي ينقض حكمه تعالى
ويأتيكم بضياء تستضيئون به وتسعون في طلب المعاش هذا ما يشهد به السياق ، ويجري
نظيره في قوله الآتي : « من إله يأتيكم بليل » الخ .

و بذلك يندفع ما استشكل على الآيتين من أنه لو فرض تحقق جعل الليل
سرمداً إلى يوم القيامة لم يتصور معه الإتيان بضياء أصلاً لأنّ الذي يأتي به إماما هو الله
تعالى وإماما هو غيره أمّا غيره فعجزه عن ذلك ظاهر ، وأمّا الله تعالى فإتيانه به يستلزم
اجتماع الليل والنهار وهو محال والمحال لا يتعلق به القدرة ولا الإرادة ، وكذا الكلام
في جانب النهار .

و ربّما أُجيب عنه بأنّ المراد بقوله : « إن جعل الله عليكم » إن أراد الله أن يجعل
عليكم . وهو كما ترى .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : من إله غير الله يأتيكم بنهار ، على ما يقتضيه سياق
المقابلة بين الليل والنهار في الكلام لكنّ العدول إلى ذكر الضياء بدل النهار من قبيل
الإلزام في الحجة بأهون ما يفرض وأيسره ليظهر بطلان مدعى الخصم أنّ الظهور كأنّه
قيل : لو كان غيره تعالى إله يدبّر أمر العالم فإن جعل الله الليل سرمداً فليقدر أن يأتي
بالنهار ، تنزّلنا عن ذلك فليقدر أن يأتي بضياء ما تستضيئون به لكن لا قدرة لشيء على
ذلك إذ القدرة كلّها لله سبحانه .

ولا يجري نظير هذا الوجه في الآية التالية في الليل حتّى يصحّ أن يقال مثلاً
من إله غير الله يأتيكم بظلمة لأنّ المأنيّ به إن كان ظلمة مالم تكف للسكن وإن كان
ظلمة ممتدة كانت هي الليل .

وتنكير « ضياء » يؤيد ما ذكر من الوجه ، وقد أوردوا وجوها أخرى في ذلك
لاتخلو من تعسف .

و قوله : « أفلا تسمعون » أي سمع تفهم وتفكر حتّى تفكروا ففهموا أن لا
إله غيره تعالى .

قوله تعالى « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتىكم بليل تسكنون فيه » أي تستريحون فيه ممماً أصابكم من تعب السعي للمعاش .

وقوله : « أفلا تبصرون » أي إبصار تفهّم وتذكّر وإن لم يبصروا ولم يسمعوافهم عمي صم ، ومن اللطيف تذييل الآيتين بقوله : « أفلا تسمعون » « أفلا تبصرون » ولعل آية النهار خصّ بالآبصار لمناسبة ضوء النهار والإبصار وبقي السمع لآية الليل وهو لا يخلو من مناسبة معه .

قوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » الآية بمنزلة نتيجة الحجّة المذكورة في الآيتين السابقتين سيقّت بعد إبطال دعوى الخصم في صورة الإخبار الابتدائيّ لثبوته من غير معارض .

وقوله : « لتسكنوا فيه » اللام للتعليل والضمير للليل أي جعل لكم الليل لتستريحوا فيه ، وقوله : « ولتبتغوا من فضله » أي وجعل لكم النهار لتطلبوا من رزقه الذي هو عطيته فرجوع « لتسكنوا » و « لتبتغوا » إلى الليل والنهار بطريق اللف والنشر المرتب وقوله : « ولعلكم تشكرون » راجع إليهما جميعاً .

وقوله : « ومن رحمته جعل لكم » في معنى قولنا : جعل لكم وذلك رحمة منه وفيه إشارة إلى أن التكوين كالسكون والابتغاء والتشريع وهو هدايتهم إلى الشكر من آثار صفة رحمته تعالى فافهم ذلك .

قوله تعالى : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون » تقدّم تفسيره وقد كرّرت الآية لحاجة مضمون الآية التالية إليها .

قوله تعالى : « ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا ها توابر ها نكم » إلى آخر الآية إشارة إلى ظهور بطلان مزعمتهم لهم يوم القيامة ، والمراد بالشهيد شهيد الأعمال كما تقدّمّت الإشارة إليه مراراً - ولا ظهور للآية في كونه هو النبيّ المبعوث إلى الأمة نظراً إلى إفراد الشهيد وذكر الأمة إن الأمة هي الجماعة من الناس ولا ظهور ولا نصويّة له في الجماعة الذين أرسل إليهم نبيّ وإن كانت من مصاديقها .

و قوله : « فقلنا هاتوا برهانكم » أي طالبناهم بالحجة القاطعة على ما زعموا أن الله شركاء .

وقوله : « فعلموا أن الحق لله وصل عنهم ما كانوا يفترون » أي غاب عنهم زعمهم الباطل أن الله سبحانه شركاء فعلموا عند ذلك أن الحق في الألوهية لله وحده فالمراد بالضلال الغيبة على طريق الاستعارة . كذا فسروه ففي الكلام تقديم وتأخير والأصل فضل عنهم ما كانوا يفترون فعلموا أن الحق لله .

وعلى هذا فقوله : « أن الحق لله » نظير ما يقال في القضاء بين المتخاصمين إذا تداعيا في حق يدعيه كل لنفسه : إن الحق لفلان لفلان كأنه تعالى يخاصم المشركين حيث يدعون أن الألوهية بمعنى المعبودية حق لشركائهم فيدعي تعالى أنها حقه فيطالبهم البرهان على دعواهم فيضل عنهم البرهان فيعلمون عندئذ أن هذا الحق لله فالألوهية حق ثابت لا ريب فيه فإذا لم يكن حقاً لغيره تعالى فهو حق له .

وهذا وجه بظاهره وجه لا باس به لكن الحقيقة التي يعطيها كلامه تعالى أن من خاصة يوم القيامة أن الحق يتمحض فيه للظهور ظهوراً مشهوداً لاستر عليه فيرتفع به كل باطل يلتبس به الأمر ويتشبه بالحق ، ولازمه أن يظهر أمر الألوهية ظهوراً لاستر عليه فيرتفع به افتراء الشركاء ارتفاعاً مترتباً عليه لأن يفتقد الدليل على الشركاء فيستنتج منه توحيده تعالى بالألوهية على سبيل الاحتجاجات الفكرية فافهم ذلك .

وبذلك يندفع أو لا ما يرد على الوجه السابق أن المستفاد من كلامه تعالى أنهم لأحجة عقلية لهم على مدعاهم ولا موجب على هذا لتأخر علمهم أن الحق لله إلى يوم القيامة ، ويرتفع ثانياً حديث التقديم والتأخير المذكور الذي لائكة له ظاهراً لإلراعية السجع .

ومن الممكن أن يكون « الحق » في قوله : « فعلموا أن الحق لله » مصدراً فيرجع معنى الجملة إلى معنى قوله : « ويعلمون أن الله هو الحق المبين » النور : ٢٥ ، فكون الحق لله هو كونه تعالى حقاً إن أريد به الحق في ذاته أو كونه منتهاً إليه قائماً به

إن أُريد به غيره كما قال تعالى: «الحق من ربك» آل عمران: . عولم يقل: الحق مع ربك .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى: «وقالوا إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا» الآية قال: نزلت في قريش حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام والهجرة وقالوا إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا فقال الله عز وجل: «أولم نمكّن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون» .

أقول: وروي هذا المعنى في كشف المحجّة وروضة الواعظين للمفيد ورواه في الدر المنثور عن ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس . وفي الدر المنثور أخرج النسائي وابن المنذر عن ابن عباس أن الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال: «إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا» .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: «وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة» الآية قال: يختار الله عز وجل الإمام وليس لهم أن يختاروا .

أقول: وهو من الجري مبنياً على وجوب نصب الإمام المعصوم من قبل الله تعالى كالنبي ، وقدم تفصيل الكلام فيه .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: «ونزعنا من كل أمة شهيدا» يقول: من هذه الأمة إمامها .

أقول: وهو من الجري .





اِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا اِنْ
 مَفَاتِحَهُ لَتَنُوزًا بِالْعَصْبَةِ اُولَى الْقُوَّةِ اِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ اِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
 الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ
 مِنَ الدُّنْيَا وَاحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ
 اِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ اِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي اَوَلَمْ
 يَعْلَمْ اَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً
 وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ
 فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ
 قَارُونُ اِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ
 اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)
 فَخَفَفْنَا بِهِ وَبَدَّارَهُ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ
 وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا اَنْ مِنَ اللَّهِ
 عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَانَهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ
 نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ
عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)

﴿بيان﴾

قصّة قارون من بني إسرائيل ذكرها الله سبحانه بعدما حكى قول المشركين : «إن
نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا» وأجاب عنه بما مرّ من الأجوبة ليعتبروا بها
فقد كانت حاله تمثل حالهم ثم أدّاه الكفر بالله إلى ما أدّى من سوء العاقبة فليحذروا
أن يصيبهم مثل ما أصابه ، فقد آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي
القوة فظنّ أنّه هو الذي جمعه بعلمه وجودة فكره وحسن تدبيره فأمن العذاب إلاّ لهي
وآثر الحياة الدنيا على الآخرة وبغى الفساد في الأرض فخسف الله به وبداره الأرض فما
كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين .

قوله تعالى « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما
إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة » قال في المجمع : البغى طلب العتو بغير حق .
قال : والمفاتيح جمع مفتاح والمفاتيح جمع مفتاح ومعناها واحد وهو عبارة عما يفتح به
الأغلاق . قال : وناء بحمله ينوء نوءاً إذا نهض به مع ثقله عليه . انتهى وقال غيره :
ناء به الحمل إذا أنقله حتّى أماله وهو الأوفق للآية .

وقال في المجمع أيضاً : العصبة الجماعة الملتف بعضها ببعض . وقال : واختلف في
معنى العصبة ف قيل : ما بين عشرة إلى خمسة عشر عن مجاهد ، وقيل : ما بين عشرة إلى
أربعين عن قتادة ، وقيل : أربعون رجلاً عن أبي صالح ^(١) ، وقيل : ما بين الثلاثة إلى
العشرة عن ابن عباس ، وقيل : إنهم الجماعة يتعصب بعضهم لبعض . انتهى و يزيّف
غير القولين الأخيرين قول إخوة يوسف : «ونحن عصبة» يوسف : ٨ ، وهم تسعة نفر .
و المعنى إن قارون كان من بني إسرائيل فطلب العتو عليهم بغير حق وأعطيناه

(١) وروى في الدر المنثور عن أبي صالح سبعين .

من الكنوز ما إن مفاتيحه لتثقل الجماعة ذوي القوة ، وذكر جمع من المفسرين أن المراد بالمفاتيح الخزائن ، وليس بذلك .

قوله تعالى : « إن قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين » فسر الفرح بالبطر وهو لازم الفرح والسرور المفرط بمتاع الدنيا فإنه لا يخلو من تعلق شديد بالدنيا ينسى الآخرة ويورث البطر والأشر ولذا قال تعالى : « ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » الحديد : ٢٣ .

ولذا أيضاً علل النهي بقوله : « إن الله لا يحب الفرحين » .

قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة » إلى آخر الآية أي واطلب فيما أعطاك الله من مال الدنيا تعمير الدار الآخرة بإفناقه في سبيل الله ووضعه فيما فيه مرضاته تعالى .

وقوله : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » أي لا تترك ما قسم الله لك ورزقك من الدنيا ترك المنسي وأعمل فيه لا آخرتك لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا هو ما يعمل به لا آخرته فهو الذي يبقى له

وقيل : معناه لا تنس أن نصيبك من الدنيا - وقد أقبلت عليك - شيء قليل مما أوتيت وهو ما تأكله وتشربه وتلبسه مثلاً والباقي فضل ستتركه لغيرك فخذ منها ما يكفيك وأحسن بالفضل وهذا وجه جيد . وهناك وجوه أخر غير ملائمة للسياق .

وقوله : « وأحسن كما أحسن الله إليك » أي أنفق لغيرك إحساناً كما آتاك الله إحساناً من غير أن تستحقه وتستوجبه ، وهذه الجملة من قبيل عطف التفسير لقوله : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » على أول الوجهين السابقين وتماماً له على الوجه الثاني .
وقوله : « ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين » أي لا تطلب الفساد في الأرض بالاستعانة بما آتاك الله من مال وما اكتسبت به من جاه وحشمة إن الله لا يحب المفسدين لبناء الخلقة على الصلاح والإصلاح .

قوله تعالى : « قال إنما أوتيته على علم عندي » إلى آخر الآية . لاشك أن قوله « إنما أوتيته على علم عندي » جواب عن جميع ما قاله المؤمنون من قومه ونصحوه به

وكان كلامهم مبنياً على أن ماله من الثروة إنما آتاه الله إحساناً إليه وفضلاً منه من غير استيجاب واستحقاق فيجب عليه أن يبتغي فيه الدار الآخرة ويحسن به إلى الناس ولا يفسد في الأرض بالاستعلاء والاستكبار والبطر .

فأجاب بنفي كونه إنما أوتيته إحساناً من غير استحقاق ودعوى أنه إنما أوتيته على استحقاق بما عنده من العلم بطرق اقتناء المال وتدييره وليس عند غيره ذلك ، وإذا كان ذلك باستحقاق فقد استقل بملكه وله أن يفعل فيما اقتناء من المال بما شاء ويستدره في أنواع التمتع وبسط السلطة والعلو والبلوغ إلى الآمال والأمانى .

وهذه المزعمة التي ابتلي بها قارون فأهلكته - أعني زعمه أن الذي حصل له الكنوز وساق إليه القوة والجمع هو نبوغه العلمي في اكتساب العزة وقدرته النفسانية لا غير - مزعمة عامّة بين أبناء الدنيا لا يرى الواحد منهم فيما ساقه إليه التقدير ووافقته الأسباب الظاهرة من عزة عاجلة وقوة مستعارة إلا أن نفسه هي الفاعلة له وعلمه هو السائق له إليه وخبرته هي الماسكة له لأجله .

وإلى عموم هذه المزعمة وركون الإنسان إليها بالطبع يشير قوله تعالى : « وإذا مس الإنسان ضرر دعا ناساً ثم إذا خوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين أو لم يعلموا أن الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » الزمر : ٥٢ ، وقال : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » المؤمن : ٨٣ ، وعرض الآيات على قصة قارون لايبقى شكاً في أن المراد بالعلم في كلامه ما قدّمناه .

وفي قوله : « إنما أوتيته » من غير إسناد الإيتاء إلى الله سبحانه كما في قول الناصحين له : « فيما آتاك الله » نوع إعراض عن ذكره تعالى وإزراء بساحة كبريائه .

وقوله : « أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا » استفهام توبيخي وجواب عن قوله : « إنما أوتيته على علم عندي » بأيسر ما يمكن أن يتنبه به لفساد قوله فإنه كان يرى أن الذي اقتنى به المال وهو يبقيه له ويمتعه منه هو علمه الذي عنده وهو يعلم أنه كان فيمن قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، وكان ماله من القوة والجمع عن علم عنده على زعمه ، وقد أهلكه الله بجرمه ، فلو كان العلم الذي يغتر ويتبجح به هو السبب الجامع للمال الحافظ له الممتنع منه ولم يكن بإيتاء الله فضلا وإحسانا لنجاتهم من الهلاك ومتعهم من أموالهم ودافعوا بقوتهم وانتصروا بجمعهم .

وقوله : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » ظاهر السياق أن المراد به بيان السنة الإلهية في تعذيب المجرمين وإهلاكهم بذنوبهم فيكون كناية عن عدم إمهالهم والإصغاء إلى مالفقوه من المعاذير أو هتؤ من التذلل والإقامة ليرجوا بذلك النجاة كما أن أولى الطول والقوة من البشر إذا أرادوا تعذيب من يتحكمون عليه سألوه عن ذنبه ليقتضوا عليه بالجرم ثم العذاب ، وربما صرف المجرم بما لفقه من المعاذير عذابهم عن نفسه لكن الله سبحانه لعلمه بحقيقة الحال لا يسأل المجرمين عن ذنوبهم وإنما يقضي عليهم قضاء فيأتيهم عذاب غير مردود .

والظاهر على هذا أن تكون الجملة من تنمة التوبيخ السابق ويكون جوابا عن إسناد ثروته إلى علمه ، ومحصله أن المؤاخذه الإلهية ليست كمؤاخذه الناس حتى إذا لاموه أو نصحوه صرف عن نفسه ذلك بما لفقه من الجواب حتى ينتفع في ذلك بعلمه ، بل هو سبحانه عليم شهيد لا يسأل المجرم عن ذنبه وإنما يؤاخذه بذنبه ، وأيضاً يؤاخذه بغتة وهو لا يشعر .

هذا ما يعطيه السياق في معنى الآية ولهم فيها أقاويل أخرى :

ف قيل : المراد بالعلم في قوله : « إنما أوتيته على علم عندي » علم التوراة فإنه كان أعلم بني إسرائيل بها .

وقيل : المراد علم الكيمياء وكان قد تعلمه من موسى ويوشع بن نون و كالب بن

يوقنًا والمراد بكون العلم عنده اختصاصه به دون سائر الناس وقد صنع به مقدارًا كثيرًا من الذهب .

و قيل : المراد بالعلم علم استخراج الكنوز و الدفائن وقد استخراج به كنوزا ودفائن كثيرة .

و قيل : المراد بالعلم علم الله تعالى والمعنى أوتيته على علم من الله وتخصيص منه قصدي به ، ومعنى قوله : «عندي» هو كذلك في ظنّي ورأْيي .

وقيل : العلم علم الله لكنّه بمعنى المعلوم والمعنى أوتيته على خير علمه الله تعالى عندي ، و «على» على جميع هذه الأقوال للاستعلاء وجوز أن تكون للتعليل .

و قيل : المراد بالسؤال في قوله : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » سؤال يوم القيامة والمنفي سؤال الاستعلام لأن الله أعلم بذنوبهم لاحتاجة له إلى السؤال والملائكة يعلمونها من صحائف أعمالهم ويعرفونهم بسيماهم وأما قوله تعالى : « وقفوهم إنهم مسئولون » الصافات : ٢٤ فهو سؤال تقرير وتوبيخ لسؤال استعلام ، ويمكن أن يكون السؤال في الآيتين بمعنى واحد والنفي والإثبات باعتبار اختلاف المواقف يوم القيامة فيسألون في موقف ولا يسألون في آخر فلا تناقض بين الآيتين .

وقيل : الضمير في قوله : « عن ذنوبهم » لمن هو أشدّ والمراد بالمجرمين غيرهم والمعنى لا يسأل عن ذنوب من أهل كلكه الله من أهل القرون السابقة غيرهم من المجرمين . وهذه كلّها وجوه من التفسير لا يلائمها السياق .

قوله تعالى : « فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم » الحظ هو النصيب من السعادة و البخت .

وقوله : « يريدون الحياة الدنيا » أي يجعلونها الغاية المطلوبة في مساعيهم ليس لهم وراءها غاية فهم على جهل من الآخرة وما أعد الله لعباده فيها من الثواب قال تعالى : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » النجم : ٣٠ و لذلك عدّوا ما أوتي قارون من المال سعادة عظيمة له من دون قيد و شرط .

قوله تعالى : « وقال الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَلَكُمْ ثَوَابٌ مِنَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا » الخ الويل الهلاك ويستعمل للدُّعاء بالهلاك وزجراً عما لا يرضى ، وهو في المقام زجر عن التمني .

والقائلون بهذا القول هم المؤمنون أهل العلم بالله يخاطبون به أولئك الجبهة الَّذِينَ تمنّوا أن يؤتوا مثل ما أُوتِيَ قَارُونَ وعدّه سعادة عظيمة على الإطلاق ، ومرادهم أن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً مما أُوتِيَ قَارُونَ فإن كانوا مؤمنين صالحين فليتمنّوه . وقوله : « وما يلقاها إِلَّا الصَّابِرُونَ » التلقية التفهيم والتلقي التفهم والأخذ والضمير - على ما قالوا - للكلمة المفهومة من السياق والمعنى وما يفهم هذه الكلمة - وهي قولهم : ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً - إِلَّا الصَّابِرُونَ .

وقيل : الضمير للسيرة أو الطريقة ومعنى تلقيها فهمها أو التوفيق للعمل بها . والصَّابِرُونَ هم المتلبسون بالصبر عند الشدائد وعلى الطاعات وعن المعاصي ، وجه كونهم هم المتلقين لهذه الكلمة أو السيرة أو الطريقة أن التصديق بكون ثواب الآخرة خيراً من الحظّ الدنيوي - وهو لا ينفكّ عن الإيمان والعمل الصالح الملازمين لترك كثير من الأهواء والحرمان عن كثير من المشتبهات - لا يتحقق إِلَّا ممّن له صفة الصبر على مرارة مخالفة الطبع وعصيان النفس الأمّارة .

قوله تعالى : « فخرسنا به وبداره الأرض » إلى آخر الآية الضميران لقارون والجملة متفرّعة على بغيه .

وقوله : « فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » الفئة الجماعة يميل بعضهم إلى بعض ، وفي النصر والانتصار معنى المنع والامتناع ، ومحصل المعنى فما كان له جماعة يمنعونه العذاب وما كان من الممتنعين على خلاف ما كان يظنّ أن الذي يجلب إليه الخير ويدفع عنه الشرّ هو قوّته وجمعه اللذان اكتسبهما بعلمه فلم يقه جمعه ولم تفده قوّته من دون الله وبأنّ الله سبحانه هو الذي آتاه ما آتاه . فالفاء في قوله : « فما كان » لتفريع الجملة على قوله : « فخرسنا به » الخ أي فظهر بخسنا به وبداره الأرض بطلان ما كان يدّعيه لنفسه من الاستحقاق والاستغناء عن الله

سبحانه وأنّ الذي يجلب إليه الخير ويدفع عنه الشرّ هو قوّته وجمعه وقد اكتسبهما بنبوغه العلميّ .

قوله تعالى : « وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون ويكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » النخ ذكروا أنّ «وي» كلمة تندّم وربما نستعمل للتعجب وكلا المعنيين يقبلان الانطباق على المورد وإن كان التندّم أسبق إلى الذهن .

وقوله : « كأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » اعتراف منهم ببطلان ما كان يزعمه قارون وهم يصدّقونه أنّ القوّة والجمع في الدنيا بنبوغ الإنسان في علمه وجودة تديره لا بفضل من الله سبحانه بل سعة الرزق وضيقه بمشيئة من الله .

والمقام مقام التحقيق دون التشبيه المناسب للشكّ والتردد لكنّهم إنّما استعملوا في كلامهم «كأنّ» للدلالة على ابتداء تردّدهم في قول قارون وقد قبلوه وصدّقوه من قبل وهذه صنعة شائعة في الاستعمال .

والدليل على ذلك قولهم بعده : «لولا أنّ منّ الله علينا لخسف بنا» على طريق الجزم والتحقيق .

وقوله : « ويكأنّّه لا يفلح الكافرون » تندّم منهم ثانياً و انتزاع ممّا كان لازم تمنّيهم مكان قارون .

قوله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » الآية وما بعدها بمنزلة النتيجة المستخرجة من القصة .

وقوله : « تلك الدار الآخرة » الإشارة إليها بلفظ البعيد للدلالة على شرفها وبهائها وعلوّ مكانتها وهو الشاهد على أنّ المراد بها الدار الآخرة السعيدة ولذا فسّروها بالجنة .

وقوله : « نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً » أي نختصّها بهم وإرادة العلوّ هو الاستعلاء والاستكبار على عباد الله وإرادة الفساد فيها ابتغاء معاصي الله تعالى فإنّ الله بنى شرائعه التي هي تكاليف للإنسان على مقتضيات فطرته وخلقته ولا تقتضي فطرته إلّا ما يوافق النظام الأحسن الجاري في الحياة الإنسانية الأرضية

فكلّ معصية تقضي إلى فساد في الأرض بلا واسطة أو بواسطة قال تعالى : « ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس » الروم : ٤١ .

ومن هنا ظهر أنّ إرادة العلو من مصاديق إرادة الفساد وإنّما أُفردت وخصّت بالذكر اعتناء بأمورها ومحصل المعنى تلك الدار الآخرة السعيدة نخصّها بالذين لا يريدون فساداً في الأرض بالعلو على عبادة الله ولا بأيّ معصية أخرى .

والآية عامّة يخصّها قوله تعالى : « إن تجنّبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيّاتكم وندخلكم مدخلا كريماً » النساء : ٣١ .

وقوله : « والعاقبة للمتقين » أي العاقبة المحمودة الجميلة وهي الدار الآخرة السعيدة أو العاقبة السعيدة في الدنيا والآخرة لكن سياق الآيتين يؤيد الأوّل .

قوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله خير منها » أي لآثارها تتضاعف له بفضل من الله قال تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الانعام : ١٦٠ .

قوله تعالى : « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلّا ما كانوا يعملون » أي لا يزيدون على ما عملوا شيئاً وفيه كمال العدل كما في جزاء الحسنة بخير منها كمال الفضل .

وكان مقتضى الظاهر في قوله : « فلا يجزى الذين عملوا » النخ الإضرار ولعلّ في وضع الموصول موضع الضمير إشارة إلى أنّ هذا الجزاء إنّما هو لمن أكثر من اقتراف المعصية وأحاطت به الخطيئة كما يفيد جمع السيئات وقوله : « كانوا يعملون » الدالّ على الإصرار والاستمرار وأمّا من جاء بالسيئة والحسنة فمن المرجو أن يغفر الله له كما قال : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم » إن الله غفور رحيم ، التوبة : ١٠٢ .

وليعلم أنّ الملاك في الحسنة والسيئة على الأثر الحاصل منها عند الإنسان و بها تسمّى الأعمال حسنة أو سيئة وعليها - لا على متن العمل الخارجي - الذي هو نوع من الحركة - يثاب الإنسان أو يعاقب قال تعالى : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » البقرة : ٢٨٤ .

و به يظهر الجواب عما استشكل على إطلاق الآية بأن التوحيد حسنة ولا يعقل خير منه و أفضل فالآية إما خاصة بغير الاعتقادات الحقّة أو مخصّصة بالتوحيد .
و ذلك أن الأثر الحاصل من التوحيد يمكن أن يفرض ما هو خير منه و إن لم يقبله التوحيد بحسب الاعتبار .
على أن التوحيد أيّاً ما يفرض يقبل الشدّة و الضعف و الزيادة و النقيصة و إذا ضعف عند الجزاء كما تقدّم كان مضاعفه خيراً من غيره .

﴿بحث روائي﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة في المصنّف و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و صحّحه و ابن مردويه عن ابن عباس أن قارون كان من قوم موسى قال : كان ابن عمّه و كان يبتغي العلم حتّى جمع علماً فلم يزل في أمره ذلك حتّى بغى على موسى و حسده .

فقال له موسى ﷺ : إن الله أمرني أن آخذ الزكاة فأبى فقال : إن موسى يزيد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة و جاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحملوه أن تعطوه أموالكم ؟ قالوا : لا نحتمل فماترى ؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغيا بني إسرائيل فمرسلها إليه فترميّه بأنّه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها : نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنّه فجربك . قالت نعم .

فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال : اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك قال : نعم فجمعهم فقالوا له : بم أمرك ربك ؟ قال : أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً و أن تصلوا الرحم و كذا و كذا و قد أمرني في الزاني إذا زنى و قد أحصن أن يرجم . قالوا : و إن كنت أنت ؟ قال : نعم . قالوا : فإنك قد زنت قال : أنا ؟

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى عليه السلام : أنشدك بالله إلّا ما صدقت . قالت : أما إذا نشدني فإنهم دعوني وجعلوا

لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي و أنا أشهد أنك بريء و أنك رسول الله .
 فخره موسى عليه السلام ساجدا يبكي فأوحى الله إليه : ما يبكيك ؟ قد سلطناك
 على الأرض فمرها فتطيعك ، فرفع رأسه فقال : خذهم فأخذتهم إلى أعقابهم فجعلوا
 يقولون : يا موسى يا موسى فقال : خذهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون : يا
 موسى يا موسى فقال : خذهم فميتبتهم فأوحى الله يا موسى سألك عبادي وتضرعوا إليك
 فلم تجبهم فوعزّتي لو أنهم دعوني لأجبتهم .
 قال ابن عباس : و ذلك قوله تعالى « فخصفناه وبداره الأرض » خسف به إلى
 الأرض السفلى .

اقول : و روى فيه أيضاً عن عبدالرزاق و ابن أبي حاتم عن ابن نوفل الهاشمي
 القصة لكن فيها أن المرأة أحضرت إلى مجلس قارون لتشهد عند الملا من بني إسرائيل
 على موسى عليه السلام بالفجور و تشكوه إلى قارون فجاءت إليه واعترفت عند الملا بالحق
 فبلغ ذلك موسى عليه السلام فشكاه إلى ربه فسلطه الله عليه .
 و روى القمي في تفسيره في القصة أن موسى عليه السلام جاء إلى قارون و بلغه حكم
 الزكاة فاستهزأ به وأخرجه من داره فشكاه إلى ربه فسلطه الله عليه فخسف به وبداره الأرض
 والرواية موقوفة مشتملة على أمور منكرة و لذلك تركنا نقلها كما أن روايتي ابن
 عباس و ابن نوفل أيضاً موقوفتان .

على أن رواية ابن عباس تقصص بغيه على موسى عليه السلام و الذي تقصه الايات
 بغيه على بني إسرائيل ، و تشير إلى أن العلم الذي عنده هو ما حصله بالتعلم و ظاهر
 الآية كما مر أنه العلم بطرق تحصيل الثروة ونحوها .

و قد سبقت القصة في التوراة الحاضرة على نحو آخر ففي الإصحاح السادس
 عشر من سفر العدد : و أخذ قورح بن بصهار بن نهات بن لاوي و داثان و أيرام ابنا
 ألياب و أون بن فالت بنورا و بين يقاومون موسى مع أناس من بني إسرائيل مئتين وخمسين
 رؤساء الجماعة مدعوين للاجتماع ذوي اسم . فاجتمعوا على موسى و هارون و قالوا
 لهما كفاكما . إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفي وسطها الرب فما بالكما ترتفعان

على جماعة الرب^٩ .

فلما سمع موسى سقط على وجهه ثم كَلَّمَ قورح و جميع قومه قائلا غداً يعلن الرب^{١٠} من هوله ؟ ومن المقدس ؟ حتى يقرّ به إليه فالذي يختاره يقرّ به إليه . افعلوا هذا : خذو الكم محابر قورح وكل جماعته واجعلوا فيها نارا وضعوا عليها بخوراً أمام الرب^{١١} غدا فالرجل الذي يختاره الرب^{١٢} هو المقدس . كفاكم يا بني لاوي .

ثم سبقت القصة و ذكر فيها حضورهم غدا ومجيئهم بالمجامر وفيها النار والبخور واجتماعهم على باب خيمة الاجتماع ثم قيل : انشقت الأرض التي تحتهم و فتحت الأرض فاها وابتلعتهم و بيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية فانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة ، و كل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم ، لأنهم قالوا : لعل الأرض تبتلعنا وخرجت نار من عند الرب^{١٣} و أكلت المئتين والخمسين رجلا الذين قرّبوا البخور . انتهى موضع الحاجة .

و في المجمع في قوله تعالى : « إن قارون كان من قوم موسى » : و هو ابن خالته عن عطاء عن ابن عباس و هو المروي عن أبي عبدالله عليه السلام .
و في تفسير القمي في قوله تعالى : « ما إن مفاتحه لتنوء » الآية قال : كان يحمل مفاتيح خزائنه العسبة أولوا القوة .

و في الطعاني بإسناده عن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه عن جده عن آبائه عن علي عليه السلام في قول الله عز وجل : « ولاتنس نصيبك من الدنيا » قال : لاتنس صحتك و قوتك و فراغك و شبابك و نشاطك أن تطلب بها الآخرة .
و في تفسير القمي في قوله تعالى : « فخرج على قومه في زينته » قال : في الثياب المصبغات يجرّها بالأرض .

و في المجمع و روى زاذان عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يمشي في الأسواق و هو وال يرشد الضال و يعين الضعيف و يمرّ بالبائع و البقال فيفتح عليه القرآن و يقرء : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً » ويقول

نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس .
و فيه روى سلام الأعرج عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : الرجل ليعجبه شراك نعله
فيدخل في هذه الآية « تلك الدار الآخرة » الآية

اقول : و عن السيد ابن طاوس في سعد السعود أنه رواه عن الطبرسي هكذا :
إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها .
وفي الدر المنثور أخرج المحاملي والديلمي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله
في الآية قال : التجبر في الأرض والأخذ بغير الحق .





إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ
جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَ مَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ
يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦)
وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ وَ ادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

﴿بيان﴾

الآيات خاتمة السورة و فيها وعد جميل للنبي ﷺ أن الله سبحانه سيمنّ عليه برفع قدره و نفوذ كلمته و تقدّم دينه و انبساط الأمن و السلام عليه و على المؤمنين به كما فعل ذلك بموسى و بني إسرائيل ، و قد كانت قصة موسى و بني إسرائيل مسوقة في السورة لبيان ذلك .

قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ » إلى آخر الآية الفرض - على ما ذكره - بمعنى الإيجاب فمعنى « فرض عليك القرآن » أي أوجب عليك العمل به أي بما فيه من الأحكام ففيه مجاز في النسبة .

و أحسن منه قول بعضهم : « إِنَّ الْمَعْنَى أَوْجِبَ عَلَيْكَ تِلَاوَتَهُ وَ تَبْلِيغَهُ وَ الْعَمَلُ بِهِ وَ ذَلِكَ لِكَوْنِهِ أَوْفَقُ لِقَوْلِهِ : « لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ » بما سيحيي من معناه .

وقوله : « لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ » المعاد اسم مكان أوزمان من العود وقد اختلفت كلماتهم في تفسير هذا المعاد فقيل : هو مكّة فالآية وعد له أن الله سيردّه بعد هجرته إلى مكّة ثانياً ، وقيل : هو الموت ، وقيل : هو القيامة ، وقيل : هو المحشر ، وقيل هو المقام المحمود

هو موقف الشفاعة الكبرى ، وقيل : هو الجنة ، وقيل : هويت المقدس ، وهو في الحقيقة وعد بمعراج ثان يعود فيه إلى بيت المقدس بعد ما كان دخله في المعراج الأول ، وقيل : هو الأمر المحبوب فيقبل الانطباق على جلّ الأقوال السابقة أو كلها .

والذي يعطيه التدبر في سياق آيات السورة هو أن تكون الآية تصريحاً بما كانت القصة المسرودة في أول السورة تلوح إليه ثم الآيات التالية لها تؤيده .
فإنه تعالى أورد قصة بني إسرائيل وموسى عليه السلام في أول السورة ففصل القول في أنه كيف منّ عليهم بالأمن والسلام والعزة والتمكّن بعد ما كانوا أذلاء مستضعفين بأيدي آل فرعون يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، وقد كانت القصة تدلّ بالالتزام - ومطلع السورة يؤيده - على وعد جميل للمؤمنين أن الله سبحانه سينجيهم ممّا هم عليه من الفتنة والشدّة والعسرة ويظهر دينهم على الدين كلّه ويمكنهم في الأرض بعد ما كانوا لاسماء تظلمهم ولا أرض تقلهم .

ثم ذكر بعد الفراغ من القصة أن من الواجب في الحكمة أن ينزل كتاباً يهدي الناس إلى الحق تذكرة وإنما ما للحجة ليتقوا بذلك من عذاب الله كما نزل على موسى بعد ما أهلك القرون الأولى و كما نزل على النبي ﷺ وإن كذبوا به عناداً للحق وإيثاراً للعالم على الآخرة .

وهذا السياق يرجي العامع أنه تعالى سيتعرّض صريحاً لما أشار إليه في سرد القصة تلويحاً فإذا سمع قوله : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » لم يلبث دون أن يفهم أنه هو الوعد الجميل الذي كان يترقبه وخاصة مع الابتداء بقوله : « إن الذي فرض عليك القرآن » وقد قدّم تنظير التوراة بالقرآن وقد كان ما قصّه في إنجاء بني إسرائيل مقدّمة لنزول التوراة حتّى يكونوا بالأخذ بها والعمل بها أئمة ويكونوا هم الوارثين .

فمعنى الآية أن الذي فرض عليك القرآن لتقرأه على الناس وتبلغه وتعملوا به سيردك ويصيرك إلى محلّ تكون هذه الصيرورة منك إليه عوداً ويكون هو معاداً لك كما فرض التوراة على موسى ورفع به قدره وقدر قومه ، ومن المعلوم أنه ﷺ

كان بمكة على ما فيها من الشدة والفتنة ثم هاجر منها ثم عاد إليها فاتحاً مظفراً و
ثبتت قواعد دينه واستحكمت أركان ملته وكسرت الأصنام وانهدم بنيان الشرك والمؤمنون
هم الوارثون للأرض بعد ما كانوا أذلاء معدّين .

و في تنكير قوله : « معاد » إشارة إلى عظمة قدر هذا العود وأنه لا يقاس إلى
ما قبله من القطون بها و التاريخ يصدّقه .

و قوله : « قل ربّي أعلم من جاء بالهدى و من هو في ضلال مبين » يؤيد ما
قدّمنا من المعنى فإنّه يحاذي قول موسى ﷺ - لما كذبوه و رموا آياته البينات
بأنّها سحر مقترى - : « ربّي أعلم بمن جاء بالهدى و من تكون له عاقبة الدار » فأمر
النبي ﷺ أن يقول للفراعة من مشركي قومه لما كذبوه و رموه بالسحر ما قاله موسى
لآل فرعون لما كذبوه و رموه بالسحر للتشابه التام بين مبعثيهما و سيردعوتهما كما يظهر
من القصة و يظهر ذلك تمام الظهور بالتأمل في قوله تعالى : « إنّنا أرسلنا إليكم رسولا
شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا » المزمل : ١٦ .

و لعل الاكتفاء بالشرط الأول من قول موسى ﷺ والسكوت عن الشرط الثاني
أعني قوله : « و من تكون له عاقبة الدار » لبناء الكلام بحسب سياقه على أن لا يتعدّى
حدّ الإشارة والإيماء كما يستشتم من سياق قوله : « لرادك إلى معاد » أيضاً حيث
خصّ الخطاب بالنبي ﷺ و نكر معادا .

و كيف كان فالمراد بقوله : « من جاء بالهدى » النبي ﷺ نفسه و بقوله : « و
من هو في ضلال مبين » المشركون من قومه ، و اختلاف سياق الجملتين - حيث قيل في
جانبه ﷺ : « من جاء بالهدى » و في جانبهم : « من هو في ضلال مبين » فقول بين
ضلالهم و بين مجيئه بالهدى لا بين ضلالهم و اهتدائه - لكون تكذيبهم متوجّهاً بالطبع
إلى ما جاء به لا إلى نفسه .

و قد ذكروا في قوله : « أعلم من جاء بالهدى » أن « من » منصوب بفعل مقدّر يدل
عليه « أعلم » والتقدير يعلم من جاء به بناء على ما هو المشهور أن أفعل التفضيل لا
ينصب المفعول به ، و ذكر بعضهم أنّه منصوب بأعلم وهو بمعنى عالم ولا دليل عليه ، و

ما أذكر قائلًا بأنه منصوب بنزع الخافض و إن لم يظهر فيه النصب لبنائه و التقدير ربّي أعلم بمن جاء بالهدى ، ولا دليل على منعه .

قوله تعالى : « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلاّ رحمة من ربك فلا تكوننّ ظهيرا للكافرين » صدر الآية تقرير للوعد الذي في قوله : « إنّ الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » أي إنّّه سيردك إلى معاد - و ما كنت ترجوه كما ألقى إليك الكتاب و ما كنت ترجوه .

و قيل : تذكرة استينافيّة لنعمته تعالى عليه ﷺ و هذا وجه وجهه و تقريره أنّه تعالى لما وعده بالردّ إلى معاد و فيه ارتفاع ذكره و تقدّم دعوته و انبساط دينه خطّ له السبيل التي يجب عليه سلوكها بجهد و مراقبة فيبتنّ له أنّ إلقاء الكتاب إليه لم يكن على نهج الحوادث العادية التي من شأنها أن ترتجى و ترقّب بل كانت رحمة خاصّة من ربّه و قد وعده في فرضه عليه ما وعده فمن الواجب عليه قبال هذه النعمة و في تقدّم دعوته و بلوغها الغاية التي وعدها أن لا ينصر الكافرين و لا يطيعهم و يدعو إلى ربّه و لا يكون من المشركين و لا يدعو معه إلها آخر .

وقوله : « إلاّ رحمة من ربك » استثناء منقطع أي لكنّه ألقى إليك رحمة من ربك و ليس بإلقاء عاديّ يرجى مثله .

و قوله : « فلا تكوننّ ظهيرا للكافرين » تفرّيع على قوله : « إلاّ رحمة من ربك » أي فإذا كان إلقاءك إليك رحمة من ربك خصّك بها و هو فوق رجائك فتبرّء من الكافرين و لا تكن معينا و ناصرا لهم .

و من المحتمل قريبا أن يكون في الجملة نوع محاذاة لقول موسى ﷺ - لما قتل القبطي - : « ربّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين » و على هذا يكون في النهي عن إعانتهم إشارة إلى أنّ إلقاء الكتاب إليه ﷺ نعمة أنعمها الله عليه يهدي به إلى الحقّ و يدعو إلى التوحيد فعليه أن لا يعين الكافرين على كفرهم و لا يميل إلى صدمهم إيّاه عن آيات الله بعد نزولها عليه كما عاهد موسى ﷺ ربّه بما أنعم عليه من الحكم و العلم أن لا يكون ظهيرا للمجرمين أبدا ، و سيأتي أن قوله : « ولا يصدّك

الخ بمنزلة الشارح لهذه الجملة .

قوله تعالى : « ولا يصدّتك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك » إلى آخر الآية
 نهى له ﷺ عن الانصراف عن آيات الله بلسان نهى الكفار عن الصدّ و الصرف و
 وجهه كون انصرافه مسبباً لصدّهم و هو كقوله لآدم و زوجته : « فلا يخرجنكما من
 الجنة » أي لا تخرجا منها باخراجكما بالوسوسة .

والظاهر أن الآية و ما بعدها في مقام الشرح لقوله : « فلا تكوننّ ظهيراً
 للكافرين » و فائدته تأكيد النهي بعد موارد واحد بعد واحد فنهاء أو لاعتن الانصراف
 عن القرآن النازل عليه برميهم كتاب الله بأنه سحر أو شعر أو كهانة أو أساطير الأولين
 اكتتبها ، و أمره ثانياً أن يدعو إلى ربه ، و نهاء ثالثاً أن يكون من المشركين و فسرّه
 بأن يدعو مع الله إلهاً آخر .

و قد كرّر صفة الربّ مضافاً إليه ﷺ للدلالة على اختصاصه بالرحمة والنعمة
 وأنه ﷺ متفرّد في عبادته لا يشاركه المشركون فيها .

قوله تعالى : « ولا تدع مع الله إلهاً آخر » قد تقدّم أنّه كالنفسير لقوله : « ولا
 تكوننّ من المشركين » .

قوله تعالى : « لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون »
 كلمة الإخلاص في مقام التعليل لقوله قبله : « ولا تدع مع الله إلهاً آخر » أي لأنّه
 لا إله غيره و ما بعدها في مقام التعليل بالنسبة إليها كما سيّضح .

وقوله : « كل شيء هالك إلا وجهه » الشيء مساو للموجود و يطلق على كل
 أمر موجود حتّى عليه تعالى كما يدلّ عليه قوله : « قل أي شيء أكبر شهادة قل الله »
 الأنعام : ١٩ ، و الهلاك البطلان و الإعدام .

والوجه والجهة واحد كالوعد والعدة ، ووجه الشيء في العرف العام ما يستقبل به
 غيره و يرتبط به إليه كما أن وجه الجسم السطح الظاهر منه ووجه الإنسان النصف
 المقدّم من رأسه ووجهه تعالى ما يستقبل به غيره من خلقه و يتوجّه إليه خلقه به وهو
 صفاته الكريمة من حياة و علم و قدرة و سمع و بصر و ما ينتهي إليها من صفات الفعل كالخلق

و الرزق والإحياء والإماتة والمغفرة والرحمة وكذا آياته الدالة عليه بما هي آياته .
فكل شيء هالك في نفسه باطل في ذاته لاحقيقة له إلا ما كان عنده مما أفاضه الله
عليه وأما ما لا ينسب إليه تعالى فليس إلا ما اختلقه وهم المتوهم أو سرا با صور الخيال
وذلك كالأصنام ليس لها من الحقيقة إلا أنها حجارة أو خشبة أو شيء من الفلزات وأما
أنها أرباب أو آلهة أو نافعة أو ضارة أو غير ذلك فليست إلا أسماء سمّاها عبدتهم وكلا نسان
ليس له من الحقيقة إلا ما أودعه فيه الخلق من الروح والجسم وما اكتسبه من صفات
الكمال والجميع منسوبة إلى الله سبحانه وأما ما يضيفه إليه العقل الاجتماعي من قوة
وسلطة ورياسة ووجاهة وثروة وعزة و أولاد وأعصاد فليس إلا سرا با هالكا وأمنية
كاذبة وعلى هذا السبيل سائر الموجودات .

فليس عندها من الحقيقة إلا ما أفاض الله عليها بفضلها وهي آياته الدالة على
صفاته الكريمة من رحمة ورزق وفضل وإحسان وغير ذلك .
فالحقيقة الثابتة في الواقع التي ليست هالكة باطلة من الأشياء هي صفاته الكريمة
و آياته الدالة عليها والجميع ثابتة بثبوت الذات المقدسة .

هذا على تقدير كون المراد بالهالك في الآية الهالك بالفعل وعلى هذا يكون محصل
تعليل كلمة الإخلاص بقوله : « كل شيء هالك إلا وجهه » أن الإله وهو المعبود بالحق
إنما يكون إلها معبودا إذا كان أسرا ذاحقيقة وواقعية غير هالك ولا باطل له تدير في العالم
بهذا النعت وكل شيء غيره تعالى هالك باطل في نفسه إلا ما كان وجهاله منتسبا إليه فليس
في الوجود إله غيره سبحانه .

والوثنيون وإن كانوا يرون وجود آلهتهم منسوبا إليه تعالى ومن جهته إلا أنهم
يجعلونها مستقلة في التدبير مقطوعة النسبة في ذلك عنه من دون أن يكون حكمها
حكمه ، ولذلك يعبدونها من دون الله ، ولا استقلال لشيء في شيء عنه تعالى فلا يستحق
العبادة إلا هو .

وهنا وجه آخر أدق منه بناء على أن المراد بالوجه ذات الشيء فقد ذكر
بعضهم ذلك من معاني الوجه كما يقال : وجه النهار و وجه الطريق لنفسهما وإن أمكنت

المناقشة فيه ، وذكر بعض آخر: أن المراد به الذات الشريفة كما يقال: وجوه الناس أي أشرفهم وهو من المجاز المرسل أو الاستعارة وعلى كلا التقديرين فالمراد أن غيره تعالى من الموجودات ممكنة والممكن وإن كان موجوداً بإيجاده تعالى فهو معدوم بالنظر إلى حد ذاته هالك في نفسه والذي لاسبيل للبطلان والهلاك إليه هو ذاته الواجبة بذاتها .

و محصل التعليل على هذا المعنى أن الإله المعبود بالحق يجب أن يكون ذاتاً بيده شيء من تدبير العالم ، والتدبير الكوني لا ينفك عن الخلق والإيجاد فلا معنى لأن يوجد الحوادث شيء ويدير أمرها شيء آخر - وقد أوضحناه مراراً في هذا الكتاب - ولا يكون الخالق الموجد إلا واجب الوجود ولا واجب إلا هو تعالى فلا إله إلا هو .

وقولهم : إنه تعالى أجل من أن يحيط به عقل أو وهم فلا يمكن التوجه العبادي إليه فلا بد أن يتوجه بالعبادة إلى بعض مقربي حضرته من الملائكة الكرام وغيرهم ليكونوا شفعاء عنده .

مدفوع بمنع توقف التوجه بالعبادة على العلم الإحاطي بل يكفي فيه المعرفة بوجهه وهو حاصل بالضرورة .

وأما على تقدير كون المراد بالهالك ما يستقبله الهلاك والفناء بناء على ما قيل : إن اسم الفاعل ظاهر في الاستقبال فظاهر الآية أن كل شيء سيستقبله الهلاك بعد وجوده إلا وجهه . نعم استقبال الهلاك يختلف باختلاف الأشياء فاستقباله في الزمانات انتهاء أمد وجودها وبطلانها بعده وفي غيرها كون وجودها محاطاً بالفناء من كل جانب .

وهلاك الأشياء على هذا بطلان وجودها الابتدائي وخلق النشأة الأولى عنها بانتقالها إلى النشأة الأخرى ورجوعها إلى الله واستقرارها عنده ، وأما البطلان المطلق بعد الوجود فصريح كتاب الله ينفية فالآيات متتابعة في أن كل شيء مرجعه إلى الله وأنه المنتهى وإليه الرجوع وهو الذي يبدىء الخلق ثم يعيده .

فمحصل معنى الآية - لو أريد بالوجه صفاته الكريمة - أن كل شيء سيخلى

مكانه ويرجع إليه إلا صفاته الكريمة التي هي مبادي فيضه فهي تفيض ثم تفيض إلى ما لانهاية له والإله يجب أن يكون كذلك لا بطلان لذاته ولا انقطاع لصفاته الفيضة وليس شيء غيره تعالى بهذه الصفة فلا إله إلا هو .

ولو أريد بوجه الذات المقدسة فالحصل أن كل شيء سيستقبله الهلاك و الفناء بالرجوع إلى الله سبحانه إلا ذاته الحقّة الثابتة التي لا سبيل للبطلان إليها . والصفات على هذا محسوبة من صفع الذات - والإله يجب أن يكون بحيث لا يتطرق الفناء إليه وليس شيء غيره بهذه الصفة فلا إله إلا هو .

وبما تقدّم من التقرير يندفع الاعتراض على عموم الآية بمثل الجنة والنار والعرش فإن الجنة والنار لا تنعدمان بعد الوجود وتبقيان إلى غير النهاية ، والعرش أيضاً كذلك بناء على ماورد في بعض الروايات أن سقف الجنة هو العرش .

وجه الاندفاع أن المراد بالهلاك هو تبدل نشأة الوجود والرجوع إلى الله المعبر عنه بالانتقال من الدنيا إلى الآخرة والتلبس بالعود بعد البدء ، وهذا إنما يكون فيما هو موجود بوجود بدئي دنيوي وأما الدار الآخرة و ماهو موجود بوجود أخروي كالجنة والنار فلا يتصف شيء من هذا القليل بالهلاك بهذا المعنى .

قال تعالى : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » النحل : ٩٦ ، وقال : « وما عند الله خير للأبرار » آل عمران : ١٩٨ ، وقال : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد » الأنعام : ١٢٤ و نظيرتهما خزائن الرحمة كما قال : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه » الحجر : ٢١ ، وكذا اللوح المحفوظ كما قال : « وعندنا كتاب حفيظ » ق : ٤

وأما ماذكروه من العرش فقد تقدّم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى : « إن ربكم الله » الآية الأعراف : ٥٤ .

ويمكن أن يراد بالوجه جهته تعالى التي تنسب إليه وهي الناحية التي يقصد منها ويتوجه إليه بها ، وتؤيده كثرة استعمال الوجه في كلامه تعالى بهذا المعنى كقوله : « يريدون وجهه » الأنعام : ٥٢ وقوله : « إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى »

الليل : ٢٠ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جداً .

وعليه فتكون عبارة عن كل ما ينسب إليه وحده فإن كان الكلام على ظاهر عمومه انطبق على الوجه الأول الذي أوردناه ويكون من مصاديقه أسماءه وصفاته وأنبيأؤه وخلفاؤه ودينه الذي يؤتى منه .

وإن خص الوجه بالدين فحسب - كما وقع في بعض الروايات إن لم يكن من باب التطبيق - كان المراد بالهلاك الفساد وعدم الأثر ، وكانت الجملة تعليلاً لقوله : «ولاندع مع الله إلهاً آخر» وكان ما قبلها قرينة على أن المراد بالشيء الدين والأعمال المتعلقة به و كان محصل المعنى ولاتدينين بغير دين التوحيد لأن كل دين باطل لا أثر له إلا دينه .

والأنسب على هذا أن يكون الحكم في ذيل الآية بمعنى الحكم التشريعي أو الأعم منه ومن التكويني والمعنى : كل دين هالك إلا دينه لأن تشريع الدين إليه وإليه ترجعون لا إلى مشرع الأديان الأخر .

هذا ما يعطيه التدبر في الآية الكريمة والمفسرين فيها أقوال أخر مختلفة .

ف قيل : المراد بالوجه ذاته تعالى المقدسة وبالهلاك الانعدام والمعنى كل شيء في نفسه عرضة للعدم لكون وجوده عن غيره إلا ذاته الواجبة الوجود ، والكلام على هذا مبني على التشبيه أي كل شيء غيره كالهالك لاستناد وجوده إلى غيره .

وقيل : الوجه بمعنى الذات والمراد به ذات الشيء والضمير لله باعتبار أن وجه الشيء مملوك له والمعنى كل شيء هالك إلا وجه الله الذي هو ذات ذلك الشيء ووجوده .

وقيل : المراد بالوجه الجهة المقصودة والضمير لله والمعنى كل شيء هالك بجميع ما يتعلق به إلا الجهة المنسوبة إليه تعالى وهو الوجود الذي أفاضه الله تعالى عليه .

وقيل : الوجه هو الجهة المقصودة والمراد به الله سبحانه الذي يتوجه إليه كل شيء والضمير للشيء والمعنى كل شيء هالك إلا الله الذي هو الجهة المطلوبة له .

وقيل : المراد بالهلاك الموت والعموم مخصوص بذوي الحياة والمعنى كل ذي حياة فإنه سيموت إلا وجهه .

وقيل : المراد بالوجه العمل الصالح والمعنى أن العمل كان في حيز العدم ، فلمّا فعله العبد ممثلاً لأمره تعالى أبقاه الله من غير إحباط حتّى يشيبه أو أنه بالقبول صار غير قابل للهلاك لأنّ الجزاء قائم مقامه وهو باق .

و قيل : المراد بالوجه جأه تعالى الذي أثبتّه في الناس .

وقيل : الهلاك عام لجميع ماسواه تعالى دائماً لكون الوجود المفاض عليها متجدّداً في كلّ آن فهي متغيّرة هالكة دائماً في الدنيا والآخرة والمعنى كلّ شيء متغيّر الذات دائماً إلّا وجهه .

وهذه الوجوه بين ما لا ينطبق على سياق الآية وبين ما لا ينجح به حجتها وبين ما هو بعيد عن الفهم ، وبالتأمّل فيما قدّمناه يظهر ما في كلّ منها فلا نظيل .
وقوله : « له الحكم وإليه ترجعون » الحكم هو قضاؤه النافذ في الأشياء وعليه يدور التدبير في نظام الكون ، وأمّا كونه بمعنى فصل القضاء يوم القيامة فيبعده تقديم الحكم في الذكر على الرجوع إليه الذي هو يوم القيامة فإنّ فصل القضاء متفرّع عليه .

و كلتا الجملتين مسوقتان للتعليل وكلّ واحدة منهما وحدها حجة تامّة على توحّده تعالى بالألوهيّة صالحة لتعليل كلمة الإخلاص ، وقد تقدّم إمكان أخذ الحكم على بعض الوجوه بمعنى الحكم التشريعيّ .



﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس في قوله تعالى : «لرادك إلى معاد» قال : إلى مكة . زاد ابن مردويه كما أخرجك منها .

أقول : وروى عنه وعن أبي سعيد الخدري أن المراد به الموت ، وأيضاً عن علي بن النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد به الجنة و انطباقهما على الآية لا يخلو من خفاء .

وروى القمي في تفسيره عن حريز عن أبي جعفر عليه السلام وعن أبي خالد الكابلي عن علي بن الحسين عليه السلام أن المراد به الرجعة ولعله من البطن دون التفسير . وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل : وأما قوله « كل شيء هالك إلا وجهه » فالمراد كل شيء هالك إلا دينه ، لأن من المحال أن يهلك منه كل شيء ويبقى الوجه . هو أجل وأعظم من ذلك وإنما يهلك من ليس منه ألا ترى أنه قال : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك » ففصل بين خلقه ووجهه ؟

و في الكافي بإسناده عن سيف عمن ذكره عن الحارث بن المغيرة النصري قال : سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » فقال : ما يقولون فيه ؟ قلت : يقولون : يهلك كل شيء إلا وجهه الله فقال : سبحان الله لقد قالوا عظيماً إنما عنى به وجه الله الذي يؤتى منه .

أقول : وروى مثله في التوحيد بإسناده عن الحارث بن المغيرة النصري عنه عليه السلام ولفظه سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « كل شيء هالك إلا وجهه » قال : كل شيء هالك إلا من أخذ طريق الحق .

وفي محاسن البرقي مثله إلا أن آخره « من أخذ الطريق الذي أنتم عليه » .

والتشويش الذي يترا آى في الروايات تطرق إليها من جهة النقل بالمعنى فإن كان المراد بالوجه الذي يؤتى منه مطلق ما ينسب إليه و كان من صقعته تعالى ومن جانبه كان منطبقاً على المعنى الأول الذي قد مناه في معنى الآية .

وإن كان الوجه بمعنى الدين الذي يتوجه إليه تعالى بقصده كان المراد بالهلاك البطلان و عدم التأثير و كان المعنى لا إله إلا هو كل دين باطل إلا دينه الحق الذي يؤتى منه فإنه سينفع و يثاب عليه ، و قد تقدمت الإشارة إلى الوجهين في تفسير الآية .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « فلانكوننّ ظهيراً للكافرين » قال : المخاطبة للنبي ﷺ و المعنى للناس و قوله : « ولا تدع مع الله إلهاً آخر » المخاطبة للنبي صلى الله عليه و آله و المعنى للناس ، و هو قول الصادق عليه السلام : إن الله بعث نبيه ﷺ بآياتك أعني و اسمعي يا جارة .



(سورة العنكبوت مكّية وهي تسع وستون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطَعِمُهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ وَ مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَ لَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) .

﴿بيان﴾

يلوح من سياق آيات السورة وخاصة ما في صدرها من الآيات أن بعضاً ممن آمن بالنبي ﷺ بمكة قبل الهجرة رجع عنه خوفاً من فتنة كانت تهدده من قبل المشركين فإن المشركين كانوا يدعونهم إلى العود إلى ملكتهم ويضمنون لهم أن يحملوا خطاياهم إن اتبعوا سبيلهم فإن أبوا فتنوهم و عذبوهم ليعيدوهم إلى ملكتهم .
يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » الآية ، وقوله : « ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » الآية .

و كأن في هؤلاء الراجعين عن إيمانهم من كان رجوعه بمجاهدة من والديه على أن يرجع وإلحاح منهما عليه في الارتداد كبعض أبناء المشركين على ما يستشعر من قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » الآية وقد نزلت السورة في شأن هؤلاء .

فغرض السورة على ما يستفاد من بدئها وختامها والسباق الجاري فيها أن الذي يريد الله سبحانه من الإيمان ليس هو مجرد قولهم : آمنا بالله بل هو حقيقة الإيمان التي لا تحركها عواصف الفتن ولا تغيرها غير الزمن وهي إنما تثبت وتستقر بتوارد الفتن و تراكم المحن ، فالناس غير متروكين بمجرد أن يقولوا : آمنا بالله دون أن يفتنوا ويمتنحوا فيظهر ما في نفوسهم من حقيقة الإيمان أو وصمة الكفر فليعلمن الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين .

فالفتنة والمحنة سنة إلهية لا معدل عنها تجري في الناس الحاضرين كما جرت في الأمم الماضية كقوم نوح و عاد وثمود و قوم إبراهيم و لوط و شعيب و موسى فاستقام منهم من استقام و هلك منهم من هلك و ما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفسهم يظلمون .

فعلى من يقول : آمنت بالله أن يصبر على إيمانه و يعبد الله وحده فإن تعذر عليه القيام بوظائف الدين فليهاجر إلى أرض يستطيع فيها ذلك فأرض الله واسعة ولا يخف عسر المعاش فإن الرزق على الله و كآيُن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها و إيتاء .

و أمّا المشركون الذين يقتنون المؤمنين من غير جرم أجرموه إلا أن يقولوا ربنا الله فلا يحسبوا أنهم يعجزون الله و يسبقونه فأما فتنتهم للمؤمنين و إيذاؤهم و تعذيبهم فإنما هي فتنة لهم و للمؤمنين غير خارجة عن علم الله و تقديره ، فهي فتنة وهي محفوظة عليهم إن شاء أخذهم بوبالها في الدنيا و إن شاء أخرهم إلى يوم يرجعون فيه إليه و ما لهم من محيص .

و أمّا ما لفقوه من الحجة و ركنوا إليه من باطل القول فهو داحض مردود إليهم و الحجة قائمة تامة عليهم .

فهذا محصل غرض السورة و مقتضى ذلك كون السورة كلها مكّية ، و قول القائل : إنها مدنيّة كلها أو معظمها أو بعضها - وسيجيء في البحث الروائي التالي- غير سديد فمضامين آيات السورة لاتلائم إلا زمن العسرة و الشدة قبل الهجرة .

قوله تعالى : « ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون » الحسبان هو الظن ، و جملة « أن يتركوا » قائمة مقام مفعوليه ، و قوله : « أن يقولوا » بتقدير باء السببية ، و الفتنة الامتحان و ربّما تطلق على المصيبة والعذاب ، و الأوفق للسياق هو المعنى الأول ، و الاستفهام للإيثار .

و المعنى أظنّ الناس أن يتركوا فلا يتعرّض لحالهم ولا يمتحنوا بما يظهر به صدقهم أو كذبهم في دعوى الإيمان بمجرد قولهم : آمناً .

و قيل : المعنى أظنّ الناس أن يتركوا فلا يبتلوا ببليّة ولا تصيبهم مصيبة لقولهم : آمناً بأن تكون لهم على الله كرامة بسبب الإيمان يسلموا بها من كل مكروه يصيب الإنسان مدى حياته . ولا يخلو من بعد بالنظر إلى سياق الآيات .

قوله تعالى : « و لقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن »

الكاذبين ، اللّامان للقسم ، و قوله : « و لقد فتنّا الذين من قبلهم » حال من الناس في قوله : « أحسب الناس ، أو من ضمير الجمع في قوله « لا يفتنون » و على الأوّل فالإنكار والتوبيخ متوجه إلى ظنهم أنهم لا يفتنون مع جريان السنّة الإلهيّة على الفتنه و الامتحان ، و على الثاني إلى ظنهم الاختلاف في فعله تعالى حيث يفتن قوماً ولا يفتن آخرين ، ولعلّ الوجه الأوّل أوفق للسياق .

فالظاهر أنّ المراد بقوله : « و لقد فتنّا الذين من قبلهم » أنّ الفتنه والامتحان سنّة جارية لنا وقد جرت في الذين من قبلهم وهي جارية فيهم ولن تجد لسنة الله تبديلاً . و قوله : « فليعلمن الله الذين صدقوا » الخ تعليل لما قبله ، والمراد بعلمه تعالى بالذين صدقوا و بالكاذبين ظهور آثار صدقهم و كذبهم في مقام العمل بسبب الفتنه و الامتحان الملازم لثبوت الإيمان في قلوبهم حقيقة وعدم ثبوته فيها حقيقة فإنّ السعادة التي تترتب على الإيمان المدعو إليه وكذا الثواب إنّما تترتب على حقيقة الإيمان الذي له آثار ظاهرة من الصبر عند المكروه والصبر على طاعة الله و الصبر عن معصية الله لأعلى دعوى الإيمان المجردة .

و يمكن أن يكون المراد بالعلم علمه تعالى الفعلي الذي هو نفس الأمر الخارجي فإنّ الأمور الخارجيّة بنفسها من مراتب علمه تعالى ، و أمّا علمه تعالى الذاتي فلا يتوقف على الامتحان البتّة .

و المعنى أحسبوا أن يتركوا ولا يفتنوا بمجرّد دعوى الإيمان وإظهاره والحال أنّ الفتنه سنّتنا و قد جرت في الذين من قبلهم فمن الواجب أن يتميّز الصادقون من الكاذبين بظهور آثار صدق هؤلاء و آثار كذب أولئك الملازم لاستقرار الإيمان في قلوب هؤلاء و زوال صورته الكاذبة عن قلوب أولئك .

و الالتفات في قوله : « فليعلمن الله » إلى اسم الجلالة قيل : للتحويل و تربية المهابة ، و الظاهر أنّه في أمثال المقام لإفادة نوع من التعليل و ذلك أنّ الدعوة إلى الإيمان والهداية إليه و الثواب عليه لما كانت راجعة إلى المسمّى بالله الذي منه يبدء كل شيء و به يقوم كل شيء و إليه ينتهي كل شيء بحقيقته فمن الواجب أن يتميّز

عنده حقيقة الإيمان من دعواه الخالية و يخرج عن حال الإيهام إلى حال الصراحة ولذلك عدل عن مثل قولنا : فلنعملن إلى قوله : « فليعلمن الله » .

قوله تعالى : « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون » أم منقطعة ، والمراد بقوله : « الذين يعملون السيئات » المشركون الذين كانوا يقتنون المؤمنين و يصدونهم عن سبيل الله كما أن المراد بالناس في قوله : « أحسب الناس » هم الذين قالوا : آمنا و هم في معرض الرجوع عن الإيمان خوفا من الفتنة والتعذيب . والمراد بقوله : « أن يسبقونا » الغلبة والتعجيز بسبب فتنة المؤمنين و صدّهم عن سبيل الله - على ما يعطيه السياق .

و قوله : « سوء ما يحكمون » تخطئة لظنهم أنهم يسبقون الله بما يمكرون من فتنة وصدّ فإن ذلك بعينه فتنة من الله لهم أنفسهم وصدّ لهم عن سبيل السعادة ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

وقيل : مفاد الآية توبيخ العصاة من المؤمنين و هم المراد بقوله : « الذين يعملون السيئات » والمراد بالسيئات المعاصي التي يفترونها غير الشرك ، وأنت خير بأن السياق لا يساعد عليه .

وقيل : المراد بعمل السيئات أعم من الشرك واقتراف سائر المعاصي فالآية عامّة لا موجب لتخصيصها بخصوص الشرك أو بخصوص سائر المعاصي دون الشرك .

وفيه أن اعتبار الآية من حيث وقوعها في سياق خاص من السياقات أمر و اعتبارها مستقلة في نفسها أمر آخر والذي يقنضيه الاعتبار الأول و هو العمدة بالنظر إلى غرض السورة هو ما قدّمناه من المعنى ، وأما الاعتبار الثاني فمقتضاه العموم ولا ضير فيه على ذلك التقدير .

قوله تعالى : « من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم » إلى تمام ثلاث آيات . لمّا وبنّح سبحانه الناس على استهانتهم بأمر الإيمان و رجوعهم عنه بأي فتنة و إيذاء من المشركين و وبنّح المشركين على قننتهم و إيذائهم المؤمنين و

صدّهم عن سبيل الله إرادة لإطفاء نور الله و تعجيزا له فيما شاء و خطأ الفريقين فيما ظنّوا -

رجع إلى بيان الحقّ الذي لا معدل عنه والواجب الذي لا مخلص منه فبيّن في هذه الآيات الثلاث أن من يؤمن بالله لتوقع الرجوع إليه و لقائه فليعلم أنّه آت لا محالة و أن الله سميع لا أقواله عليم بأحواله و أعماله فليأخذ حذره وليؤمن حقّ الإيمان الذي لا يصرفه عنه فتنة ولا إيذاء و ليجاهد في الله حقّ جهاده ، وليعلم أن الذي ينتفع بجهاده هو نفسه ولا حاجة لله سبحانه إلى إيمانه ولا إلى غيره من العالمين وليعلم أنّه إن آمن و عمل صالحا فإنّ الله سيكفّر عنه سيئاته و يجزيه بأحسن أعماله والعلمان الأخيران يؤكّدان العلم الأوّل و يستوجبان لزومه الإيمان و صبره على الفتن و المحن في جنب الله .

فقوله : « من كان يرجو لقاء الله » رجوع إلى بيان حال من يقول : آمنت فإنّه إنّما يؤمن لو صدق بعض الصدق لتوقعه الرجوع إلى الله سبحانه يوم القيامة إن لولا المعاد لغى الدين من أصله فالمراد بقوله : « من كان يرجو لقاء الله » من كان يؤمن بالله أو من كان يقول : آمنت بالله ، فالجملة من قبيل وضع السبب موضع المسبّب .
والمراد بلقاء الله وقوف العبد موقفا لا حجاب بينه و بين ربّه كما هو الشأن يوم القيامة الذي هو ظرف ظهور الحقائق قال تعالى : « ويعلمون أن الله هو الحقّ المبين » .
وقيل : المراد بلقاء الله هو البعث ، وقيل : الوصول إلى العاقبة من لقاء ملك الموت و الحساب والجزاء ، وقيل : المراد ملاقة جزاء الله من ثواب أو عقاب وقيل : ملاقة حكمه يوم القيامة ، والرجاء على بعض هذه الوجوه بمعنى الخوف .

وهذه وجوه مجازيّة بعيدة لا موجب لها إلّا أن يكون من التفسير بلازم المعنى .
و قوله : « فإنّ أجل الله لآت » الأجل هو الغاية التي ينتهي إليها زمان الدين و نحوه و قد يطلق على مجموع ذلك الزمان و الغالب في استعماله هو المعنى الأوّل .
و « أجل الله » هو الغاية التي عينها الله تعالى للقائه ، و هو آت لا ريب فيه وقد أكّد القول تأكيدا بالغا ، و لازم تحتم إتيان هذا الأجل وهو يوم القيامة أن لا

يسامح في أمره ولا يستهان بأمر الإيمان بالله حقّ الإيمان والصبر عليه عند الفتن و المحن من غير رجوع وارتداد ، وقد زاد في تأكيد القول بتذليله بقوله : « وهو السميع العليم ، إذ هو تعالى لما كان سميعاً لا أقوالهم عليهما بأحوالهم فلا ينبغي أن يقول القائل : آمنت بالله إلا عن ظهر القلب ومع الصبر على كل فتنة ومحنة .

ومن هنا يظهر أن ذيل الآية : « فإن أجل الله لآت » الخ من قبيل وضع السبب موضع المسبب كما كان صدرها : « من كان يرجو لقاء الله » أيضاً كذلك ، والأصل من قال : آمنت بالله . فليقله مستقيماً صابراً عليه مجاهداً في ربه .

وقوله : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنيّ عن العالمين » المجاهدة والجهاد مبالغة من الجهد بمعنى بذل الطاقة ، وفيه تنبيه لهم أن مجاهدتهم في الله يلزوم الإيمان والصبر على المكروه دونه ليست ممّا يعود نفعه إلى الله سبحانه حتى لا يهتمهم ويلغوا بالنسبة إليهم أنفسهم بل إنمّا يعود نفعه إليهم أنفسهم لغناه تعالى عن العالمين فعليهم أن يلزموا الإيمان ويصبروا على المكروه دونه .

فقوله : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه » تأكيد لحجة الآية السابقة وقوله : « إن الله لغنيّ عن العالمين » تعليل لما قبله .

والالتفات من سياق التكلم بالغير إلى اسم الجلالة في الآيتين نظير مأمّر من الالتفات في قوله : « فليعلمن الله الذين صدقوا » الآية .

وقوله : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنّ عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون » بيان لعاقبة إيمانهم حقّ الإيمان المقارن للجهاد ويتبيّن به أن نفع إيمانهم يعود إليهم لا إلى الله سبحانه وأنه عطية من الله وفضل .

وعلى هذا فالآية لا تخلو من دلالة ما على أن الجهاد في الله هو الإيمان والعمل الصالح فإنّها في معنى تبديل قوله في الآية السابقة « ومن جاهد » من قوله في هذه الآية « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

وتكفير السيئات هو العفو عنها والأصل في معنى الكفر هو السرّ ، وفيل : تكفير السيئات هو تبديل كفرهم السابق إيماناً ومعاصيهم السابقة طاعات ، وليس بذاك .

وجزاؤهم بأحسن الذي كانوا يعملون هو رفع درجاتهم إلى ما يناسب أحسن أعمالهم أو عدم المناقشة في أعمالهم عند الحساب إذا كانت فيها جهات رداءة وخسة فيعاملون في كل واحد من أعمالهم معاملة من أتى بأحسن عمل من نوعه فتحسب صلاتهم أحسن الصلاة وإن اشتملت على بعض جهات الرداءة وهكذا .

قوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » الخ التوصية العهد وهو ههنا الأمر ، وقوله : « حسنا » مصدر في معنى الوصف قائم مقام مفعول مطلق محذوف والتقدير : ووصينا الإنسان بوالديه توصية حسنة أو ذات حسن أي أمرناه أن يحسن إليهما وهذا مثل قوله : « وقولوا للناس حسنا » أي قولوا حسنا أو ذاحسن ، ويمكن أن يكون وضع المصدر موضع الوصف للمبالغة نحو زيد عدل ، وربما وجهه بتوجيهات آخر .

وقوله : « وإن جاهداك على أن تشرك بي » الخ تتميم للتوصية بـ « شفاهي » للإشارة بنهي عن إطاعة والديه إن دعوا إلى الشرك والوجه في ذلك أن التوصية في معنى الأمر فكأنه قيل : وقلنا للإشارة أن أحسن إلى والديك وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » .

ولم يقل : وأن لا يطيعهما إن جاهدا على أن يشرك الخ لما في الخطاب من الصراحة وارتفاع الإبهام ولذلك قال أيضاً : « لتشرك بي » بضمير المتكلم وحده فافهمه ويؤل معنى الجملة إلى أننا نهيناه عن الشرك طاعة لهما ورفعنا عنه كل إبهام .

وفي قوله : « ما ليس لك به علم » إشارة إلى علّة النهي عن الطاعة فإنّ دعوتهما إلى الشرك بعبادة إله من دون الله دعوة إلى الجهل وعبادة ما ليس له به علم افتراء على الله وقد نهى الله عن اتباع غير العلم قال : « ولا تقف ما ليس لك به علم » أسرى : ٣٨ ، وبهذه المناسبة ذيلها بقوله : « إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » أي سأعلمكم ما معنى أعمالكم ومنها عبادتكم الأصنام وشرككم بالله سبحانه .

ومعنى الآية : وعهدنا إلى الإنسان في والديه عهدا حسنا - وأمرناه أن أحسن إلى والديك - وإن بذلا جهدهما أن تشرك بي فلا تطعهما لأنّه اتباع ما ليس لك به علم .

وفي الآية - كما تقدمت الإشارة إليه - توبيخ تعريضي لبعض من كان قد آمن ثم رجع عن إيمانه بمجاهدة من والديه .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ » معنى الآية ظاهر ، وفي وقوعها بعد الآية السابقة وفي سياقها ، دلالة على وعد جميل منه تعالى و تطيب نفس لمن ابتلي من المؤمنين بوالدين مشركين يجاهدانه على الشرك فعصاهما وفارقهما يقول سبحانه : إن جاهداه على الشرك فعصاهما وهجرهما ففاتاه لم يكن بذلك بأس فإننا سنرزقه خيراً منهما وندخله بإيمانه وعمله الصالح في الصالحين وهم العباد المنعمون في الجنة قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » الفجر : ٣٠ .

و أما إرادة المجتمع الصالح في الدنيا فبعيد من السياق .

قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ » إلى آخر الآية لما كان إيمان هؤلاء مقيداً بالعافية والسلامة مغيباً بالإيذاء والابتلاء لم يعد إيماننا بقول مطلق ولم يقل : ومن الناس من يؤمن بالله بل قال : « ومن الناس من يقول آمناً بالله » فالآية بوجه نظيره قوله : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خيراً طمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » الحج : ١١ .

و قوله : « فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ » أي أُوذِيَ لأجل الإيمان بالله بناء على أن في السببية كما قيل وفيه عناية كلامية لطيفة بجعله تعالى - أي جعل الإيمان بالله - ظرفاً للإيذاء ولأن يقع عليه الإيذاء ليفيد أن الإيذاء منتسب إليه تعالى انتساب المظروف إلى ظرفه وينطبق على معنى السببية والفرضية ونظيره قوله : « يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله » الزمر : ٥٦ : وقوله « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا » العنكبوت : ٦٩ .

وقيل : معنى الإيذاء في الله هو الإيذاء في سبيل الله وكأنه مبني على تقدير مضاف محذوف .

وفيه أن العناية الكلامية مختلفة فالإيذاء في الله ما كان السبب فيه محض الإيمان

بالله وهو قولهم : ربنا الله ، و الا يذاء في سبيل الله ما كان سببه سلوك السبيل التي هي الدين قال تعالى : « فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي » آل عمران : ١٩٥ ومن الشاهد على تغاير الاعتبارين قوله في آخر السورة : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » حيث جعل الجهاد في الله طريقا إلى الاهتداء إلى سبله ولو كانا بمعنى واحد لم يصح ذلك .

وقوله : « جعل فتنة الناس كعذاب الله » أي نزل العذاب والايذاء الذي يصيبه من الناس في وجوب التحرر منه منزلة عذاب الله الذي يجب أن يتحرر منه فرجع عن الايمان إلى الشرك خوفا وجزعا من فتنهم مع أن عذابهم يسير منقطع الآخر بنجاة أو موت ولا يقاس ذلك بعذاب الله العظيم المؤبد الذي يستتبع الهلاك الدائم .

وقوله : « ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم » أي لئن أتاكم من قبله تعالى ما فيه فرج ويسر لكم من بعدما أنتم فيه من الشدة والعسرة من قبل أعداء الله ليقولن هؤلاء إنا كنا معكم فلنا منه نصيب .

و « ليقولن » بضم اللام صيغة جمع ، والضمير راجع إلى « من » باعتبار المعنى كما أن ضمائر الأفراد الأخر راجعة إليها باعتبار اللفظ .

وقوله : « أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين » استفهام إنكاري فيه رد دعواهم أنهم مؤمنون بأن الله أعلم بما في الصدور ولا تنطوي قلوب هؤلاء على إيمان . والمراد بالعالمين الجماعات من الإنسان أو الجماعات المختلفة من أولي العقل إنسانا كان أو غيره كالجن والملك ، ولو كان المراد به جميع المخلوقات من ذوي الشعور وغيرهم كان المراد بالصدور البواطن وهو بعيد .

قوله تعالى : « وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين » من تمة الكلام في الآية السابقة والمحصل أن الله مع ذلك يميز بين المؤمنين والمنافقين بالفتنة والامتحان .

وفي الآية إشارة إلى كون هؤلاء منافقين وذلك لكون إيمانهم مقيّداً بعدم الفتنة وهم يظهرونه مطلقا غير مقيّد والفتنة سنة إلهية جارية لامعدل عنها .

وقد استدلّ بالآيتين على أن "السورة أو خصوص هذه الآيات مدنيّة وذلك أن" الآية تحدث عن النفاق والنفاق إنما يظهر بالمدينة بعد الهجرة وأما مكّة قبل الهجرة فلم يكن للإسلام فيها شوكة ولا للمسلمين فيها إلا الذلّة والإهانة والشدة والفتنة ولا للنبي ﷺ في المجتمع العربي يومئذ وخاصة عند قريش عزّة ولا منزلة فلم يكن لأحد منهم داع يدعوهم إلى أن يتظاهروا بالإيمان وهو ينوي الكفر .

على أن قوله في الآية : « ولئن جاء نصر من ربك ليقولنّ إنّنا كنّا معكم » يخبر عن النصر وهو الفتح والغنيمة وقد كان ذلك بالمدينة دون مكّة .

ونظير الآيتين قوله السابق : « ومن جاهد فإنّما يجاهد لنفسه » ضرورة أن الجهاد والقتال إنما كان بالمدينة بعد الهجرة .

وهو سخيّف : أمّا حديث النفاق فالذي جعل في الآية ملاكاً للنفاق وهو قولهم : آمناً بالله حتّى إذا أُوذوا في الله رجعوا عن قولهم كان جائز التحقّق في مكّة كما في غيرها وهو ظاهر بل الذي ذكر من الإيذاء والفتنة إنما كان بمكّة فلم تكن في المدينة بعد الهجرة فتنة .

وأمّا حديث النصر فالنصر غير منحصر في الفتح والغنيمة فله مصاديق أخر فرج الله بها عن عباده . على أن الآية لا تخبر عنه بما يدلّ على التحقّق فقوله : « فإذا أُوذِيَ في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك قالوا إنّنا كنّا معكم » يدلّ على تحقّق الإيذاء والفتنة حيث عبّر بما ذا الدالّة على تحقّق الوقوع بخلاف مجيئ النصر حيث عبّر عنه بأن الشرطيّة الدالّة على إمكان الوقوع دون تحقّقه .

وأمّا قوله تعالى : « ومن جاهد » النخ فقد اتضح ممّا تقدّم أن المراد به جهاد النفس دون مقاتلة الكفار فالحق أن لا دلالة في شيء من الآيات على كون السورة أو بعضها مدنيّة .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنّهم لكاذبون » المراد بالذين كفروا مشركو مكّة الذين أبدأوا الكفر أوّل مرة بالدعوة الحقّة ، وبالذين آمنوا المؤمنون بها أوّل مرة

وقولهم لهم: «اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم»، نوع استمالة لهم وتطبيب لنفوسهم أن لورجعوا إلى الشرك واتبعوا سبيلهم لم تكن عليهم تبعة على أي حال : إذ لو لم تكن في ذلك خطيئة فهو ، وإن كانت فهم حاملون لها عنهم ، ولذلك لم يقولوا : ولنحمل خطاياكم لو كانت بل أطلقوا القول من غير تقييد .

فكأنهم قالوا : لنفرض أن اتباعدكم لسبيلنا خطيئة فإننا نحملها عنكم ونحمل كل ما يتفرع عليه من الخطايا أو إننا نحمل عنكم خطاياكم عامة ومن جملتها هذه الخطيئة .

وقوله : «وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء» رد قولهم : «ولنحمل خطاياكم» وهو رد مخفوف بحجة إذ لو كان اتباعدكم لسبيلهم ورجوعهم عن الإيمان بالله خطيئة كان خطيئة عند الله لاحقة بالراجعين وانتقالها عن عهدتهم إلى غيرهم يحتاج إلى إذن من الله ورضى فهو الذي يؤاخذهم به ويجازيهم وهو سبحانه يصرح ويقول : «ما هم بحاملين من خطاياهم من شيء» وقد عمم النفي لكل شيء من خطاياهم .

وقوله : «إنهم لكاذبون» تكذيب لهم لما أن قولهم : «ولنحمل خطاياكم» يشتمل على دعوى ضمني أن خطاياهم تنتقل إليهم لو احتملوها وأن الله يجيز لهم ذلك .

قوله تعالى : «وليحملن أثقالهن وأثقالا مع أثقالهن» وليسألن يوم القيامة عما كنوا يفترون من تمام القول السابق في ردّهم وهو في محل الاستدراك أي إنهم لا يحملون خطاياهم بعينها فهي لازمة لفاعلها لكنّهم حاملون أثقالا وأحمالا من الأوزار مثل أوزار فاعليها من غير أن ينقص من فاعليها فيحملونها مضافا إلى أثقال أنفسهم وأحمالها لما أنهم ضالّون مضلّون .

فالأية في معنى قوله تعالى : «ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم» .

وقوله : «وليسألن يوم القيامة عما كنوا يفترون» فشرّهم افتراء على الله سبحانه وكذا دعواهم القدرة على إنجاز ما وعدوه وأن الله يجيز لهم ذلك .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس وأيضاً ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قالاً : نزلت سورة العنكبوت بمكة .
اقول : وقد نقل في روح المعاني عن البحر عن ابن عباس أن السورة مدنية .
 وفي المجمع قيل : نزلت الآية يعني قوله تعالى : « أحسب الناس أن يتركوا »
 في عمار بن ياسر وكان يعذب في الله عن ابن جريج .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله : « ألم أحسب الناس أن يتركوا » الآية قال : أنزلت في أناس بمكة قد أفرّوا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة لما نزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا . قال : فخرجوا عامدين إلى المدينة فاتبعهم المشركون فردّهم فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا إليهم أنه نزل فيكم آية كذا وكذا فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلهم فممنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله فيهم : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

وفيه أخرج ابن جرير عن قتادة « ومن الناس من يقول آمنا بالله - إلى قوله - وليعلمن المنافقين » قال : هذه الآيات نزلت في القوم الذين ردّهم المشركون إلى مكة ، وهذه الآيات العشر مدنية .

وفيه أخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله : « ومن الناس من يقول آمنا بالله » قال : ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون فإذا أُوذوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الكفر والشرك مخافة من يؤذيهم وجعلوا أذى الناس في الدنيا كعذاب الله .
 وفيه أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : قالت أمي : لا أكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بمحمد فامتنعت من الطعام

والشراب حتى جعلوا يسجرون فها بالعصا فنزلت هذه الآية « و وصينا الإنسان بالديه حسنا » الآية .

وفي المجمع قال الكلبي نزل قوله : « ومن الناس من يقول » الآية في عياش بن أبي ربيعة المخزومي و ذلك أنه أسلم فخاف أهل بيته فهاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر النبي ﷺ فحلفت أمه أسماء بنت مخزومة بن أبي جندل التميمي أن لا تأكل ولا تشرب ولا تغسل رأسها ولا تدخل كنا حتى يرجع إليها فلما رأى ابنها أوجهل والحارث ابن هشام - و هما أخوا عياش لأمه - جزعها ركبا في طلبه حتى أتيا المدينة فلقياه و ذكرا له القصة فلم يزا لابه حتى أخذ عليهما الموائيق أن لا يصرفاه عن دينه و تبعهما و قد كانت أمه صبرت ثلاثة أيام ثم أكلت و شربت .

فلما خرجوا من المدينة أخذاه و أوثقاه كتافا و جلده كل واحد منهما مائة جلدة حتى برىء من دين محمد جزعا من الضرب و قال ما لا ينبغي فنزلت الآية و كان الحارث أشد هما عليه فحلف عياش لئن قدر عليه خارجا من الحرم ليضرب عنقه .

فلما رجعوا إلى مكة مكثوا حينئذ ثم هاجر النبي ﷺ والمؤمنون إلى المدينة و هاجر عياش و حسن إسلامه و أسلم الحارث بن هشام و هاجر إلى المدينة و بايع النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم على الإسلام و لم يحضر عياش فلقبه عياش يوما بظهر قبال لم يشعر بإسلامه فضرب عنقه فقيل له : إن الرجل قد أسلم فاسترجع عياش و بكى ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بذلك فنزل : « و ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ » الآية .

اقول : و أنت ترى اختلاف الروايات في سبب نزول الآيات و قد تقدم أن الذي يعطيه سياق آيات السورة أنها مكية محضة .

و في الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن معمر بن خلاد قال : سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول : « ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا بالله وهم لا يفتنون » ثم قال لي : ما الفتنة ؟ قلت : جعلت فداك الفتنة في الدين فقال : يفتنون كما يفتن الذهب . ثم قال : يخلصون كما يخلص الذهب .

و في المجمع قيل : إن معنى يفتنون يبتلون في أنفسهم وأموالهم . وهو المروي

عن أبي عبدالله عليه السلام .

وفيه في قوله تعالى : « أولبسكم شيعا » وفي تفسير الكلبي " أنه لما نزلت هذه الآية قام النبي ﷺ فتوضأ وأسبغ وضوءه ثم قام وصلى فأحسن صلاته ثم سأل الله سبحانه أن لا يبعث عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم أولبسهم شيعا ولا يذيق بعضهم بأس بعض .

فنزل جبرئيل ولم يجزهم من الخصلتين الأخيرتين فقال ﷺ : يا جبرئيل ما بقاء أمتي مع قتل بعضهم بعضا ؟ فقام وعاد إلى الدعاء فنزل : ألم أحسب الناس أن يتركوا ، الآياتان فقال : لا بد من فتنة يبتلى بها الأمة بعد نبئها ليتبين الصادق من الكاذب لأن الوحي انقطع وبقي السيف وافتراق الكلمة إلى يوم القيامة .

وفي نهج البلاغة : و قام إليه رجل فقال أخبرنا عن الفتنة وهل سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها ؟ فقال ﷺ : لما أنزل الله سبحانه قوله : « ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله صلى الله عليه وآله بين أظهرنا فقلت : يا رسول الله ماهذه الفتنة التي أخبرك الله بها ؟ فقال : يا علي " إن أمتي سيفتنون من بعدي .

وفي التوحيد عن علي عليه السلام - في حديث طويل وقد سأله رجل عن آيات من القرآن - وقوله : « من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت » يعني بقوله من كان يؤمن بأنه مبعوث فإن وعد الله لآت من الثواب والعقاب فاللقاء ههنا ليس بالرؤية واللقاء هو البعث فافهم جميع ما في كتاب الله من لقائه فإنه يعني بذلك البعث .

اقول : مراده ﷺ نفى الرؤية الحسية والتفسير بلازم المعنى .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « من كان يرجو لقاء الله » الآية قال : من أحب لقاء الله جاءه الأجل « ومن جاهد » نفسه عن اللذات والشهوات والمعاصي « فانما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين » . « ووصينا الإنسان بوالديه حسنا » قال : هما اللذان ولداه .

وفيه في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل

خطاياكم » قال : كان الكفار يقولون للمؤمنين : كونوا معنا فإن الذي نخافون أنتم ليس بشيء فإن كان حقاً نتحمل عنكم ذنوبكم. فيعذبهم الله عز وجل مرتين : مرة بذنوبهم ومرة بذنوب غيرهم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن ابن الحنفية قال : كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاؤا إلى النبي ﷺ يسلمون يقولون : إنه يحرم الخمر ويحرم الزنا ويحرم ما كانت تصنع العرب فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » .

وفيه أخرج أحمد عن حذيفة قال : سأل رجل على عهد رسول الله ﷺ فأمسك القوم ثم إن رجلاً أعطاه فأعطى القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من سنّ خيراً فاستن به كان له أجره ومن أّجور من تبعه غير منتقص من أّجورهم شيئاً ومن سنّ شراً فاستن به كان عليه وزره ومن أّزار من تبعه غير منتقص من أّزارهم شيئاً .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر وفي بعضها تفسير قوله : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » بذلك .





وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا
فَاخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٣) فَانجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا
آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٤) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٥) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ
الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ
اعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٦) وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن
قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ
اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِك عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ (١٩) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢٠) وَمَا
أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ (٢١) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكْفُرُونَ بِرَحْمَتِي
وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَانجِيَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِك لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ (٢٣) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْنُ بَعْضُكُمْ
بَعْضًا وَمَاوِيَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٥) فَأَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ
إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا
وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ
وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ
إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّنَّا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ
انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى
قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ
إِنْ فِيهَا لُوطُا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ
كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ
بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُواكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَكَ
كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٥)
وَ إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ

وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَآخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ (٣٧) وَعَادُوا وَثُمَّودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠).

﴿ بيان ﴾

لمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ فِي صَدْرِ السُّورَةِ أَنَّ الْفِتْنَةَ سَنَةٌ إِلَهِيَّةٌ لَامْعَدَلٍ عَنْهَا وَقَدْ جَرَتْ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ عَقَبَ ذَلِكَ بِالْإِشَارَةِ إِلَى قِصَصِ سَبْعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِينَ وَأُثْمَمِهِمْ وَهُمْ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَلُوطٌ وَشُعَيْبٌ وَهُودٌ وَصَالِحٌ وَمُوسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَتَنَهُمُ اللَّهُ وَامْتَحَنَهُمْ فَنَجَّى مِنْهُمْ مَنْ نَجَّى وَهَلَكَ مِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ ، وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ فِي الثَّلَاثَةِ الْأَوَّلِ النِّجَاةَ وَالْهَلَكَ مَعًا وَفِي الْأَرْبَعَةِ الْآخِرَةِ الْهَلَكَ فَحَسَبَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ » فِي الْمَجْمَعِ : الطُّوفَانُ الْمَاءُ الْكَثِيرُ الْغَامِرُ لِأَنَّهُ يَطُوفُ بِكَثْرَتِهِ فِي نَوَاحِي الْأَرْضِ انْتَهَى ، وَقِيلَ : هُوَ كُلُّ مَا يَطُوفُ بِالشَّيْءِ عَلَى كَثَرَةِ وَشَدَّةٍ مِنَ السَّيْلِ وَالرَّيْحِ وَالظَّلَامِ وَالْغَالِبِ اسْتِعْمَالُهُ فِي طُوفَانِ الْمَاءِ .

وَالْتَعْبِيرُ بِأَلْفِ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا دُونَ أَنْ يَقَالَ : تِسْعِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً لِلتَّكْثِيرِ وَالْآيَةُ ظَاهِرَةٌ فِي أَنَّ الْأَلْفَ إِلَّا خَمْسِينَ مَدَّةٌ دَعَا نُوْحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا بَيْنَ بَعْثِهِ إِلَى أَخْذِ

الطوفان فيغايرهما في التوراة الحاضرة أنها مدّة عمره ﷺ وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك في قصصه ﷺ في تفسير سورة هود ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » أي فأنجيناه نوحاً وأصحاب السفينة الراكبين معه فيها وهم أهلهم وعدّة قليلة من المؤمنين به ولم يكونوا ظالمين .

وقوله : « وجعلناها آية للعالمين » الظاهر أن الضمير للواقعة أو للنجاة وأمّا رجوعه إلى السفينة فلا يخلو من بعد ، والعالمين الجماعات الكثيرة المختلفة من الأجيال اللاحقة بهم .

قوله تعالى : « و إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله و اتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » معطوف على قوله : « نوحا » أي وأرسلنا إبراهيم إلى قومه .
وقوله لقومه : « اعبدوا الله و اتقوه » دعوة إلى التوحيد وإنذار بقرينة الآيات التالية فتفيد الجملة فائدة الحصر .

على أن الوثنيّة لا يعبدون الله سبحانه وإنّما يعبدون غيره زعماً منهم أنّه تعالى لا يمكن أن يعبد إلا من طريق الأسباب الفعّالة في العالم المقرّبة عنده كالملائكة والجن ولوعبد لكان معبوداً وحده من غير شريك فدعوتهم إلى عبادة الله بقوله : « اعبدوا الله » تفيد الدعوة إليه وحده وإن لم تقيّد بأداة الحصر .

قوله تعالى : « إنّما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً » إلى آخر الآية ، الأوثان جمع وثن بفتحتي وهو الصنم ، والإفك الأمر المصروف عن وجهه قولاً أو فعلاً .

وقوله : « إنّما تعبدون من دون الله آوثاناً » بيان لبطلان عبادة الأوثان ويظهر به كون عبادة الله هي العبادة الحقّة وبالجملّة انحصار العبادة الحقّة فيه تعالى ودأوثاناً منكر للدلالة على وهن أمرها وكون ألوهيتها دعوى مجرّدة لا حقيقة وراءها أي لاتعبدون من دون الله إلا آوثاناً من أمرها كذا وكذا .

ولذا عبّ الجملّة بقوله : « وتخلقون إفكاً » أي وتفتعلون كذباً بتسميتها آلهة

وعبادتها بعد ذلك فهناك إله تجب عبادته لكنّه هو الله الواحد دون الأوثان .

وقوله : « إِنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا » تعليل لما ذكر من اقتعالهم الكذب بتسمية الأوثان آلهة وعبادتها ومحصله أن هؤلاء الذين تعبدون من دون الله وهم الأوثان بما هم تماثيل المقرّبين من الملائكة والجن إنما تعبدونهم لجلب النفع وهو أن يرضوا عنكم فيرزقوكم ويدروا عليكم الرزق لكنّهم ليسوا يملكون لكم رزقا فإن الله هو الذي يملك رزقكم الذي هو السبب الممدد لبقائكم لأنّه الذي خلقكم وخلق رزقكم فجعله ممددا لبقائكم والملك تابع للخلق والابيجاد .

ولذلك عقبه بقوله : « فابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ » أي فاطلبوا الرزق من عند الله لأنّه هو الذي يملكه فلا تعبدوه بل اعبدوا الله واشكروا له على ما رزقكم وأنعم عليكم بألوان النعم فمن الواجب شكر المنعم على ما أنعم .

وقوله : « إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ » في مقام التعليل لقوله : « وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ » ولذا جيء بالفصل من غير عطف ، وفي هذا التعليل صرفهم عن عبادة الإله ابتغاء للرزق إلى عبادته للرجوع والحساب إذ لولا المعاد لم يكن لعبادة الإله سبب محصل لأن الرزق وما يجري مجراه له أسباب خاصة كونيّة غير العبادات والقربات ولا يزيد ولا ينقص بإيمان أو كفر لكن سعادة يوم الحساب تختلف بالإيمان والكفر والعبادة والشكر وخلافهما فليكن الرجوع إلى الله هو الباعث إلى العبادة والشكر دون ابتغاء الرزق . قوله تعالى : « وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » الظاهر أنّه من تمام كلام إبراهيم عليه السلام ، وذكر بعضهم أنّه خطاب منه تعالى لمشركي قريش ولا يخلو من بعد .

ومعنى الشرط والجزاء في صدر الآية أن التكذيب هو المتوقع منكم لأنّه كالسنة الجارية في الأمم المشركة وقد كذب من قبلكم وأنتم منهم وفي آخرهم وليس عليّ بما أنا رسول إلاّ البلاغ المبين .

ويمكن أن يكون المراد أن حالكم في تكذيبكم كحال الأمم من قبلكم لم ينفعهم تكذيبهم شيئا حلّ بهم عذاب الله ولم يكونوا بمعجزين في الأرض ولا في السماء ولم يكن

لهم من دون الله من ولي ولا نصير ، فكذلكم أنتم ، وقوله : « وما على الرسول » يناسب الوجهين جميعاً .

قوله تعالى : « أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير » هذه الآية إلى تمام خمس آيات من كلامه تعالى واقعة في خلال القصة تقيم الحجة على المعاد وترفع استبعادهم له متعلقة بما تقدم من حيث إن العمدة في تكذيبهم الرسل إنكارهم للمعاد كما يشير إليه قول إبراهيم : « إليه ترجعون وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم » .

فقوله : « أولم يروا » الخ الضمير فيه للمكذبين من جميع الأمم من سابق ولاحق والمراد بالرؤية النظر العلمي دون الرؤية البصرية ، وقوله « كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده » في موضع المفعول لقوله : « يروا » يعطف « يعيده » على موضع « يبدىء » خلافاً لمن يرى عطفه على « أولم يروا » والاستفهام للتوبيخ .

والمعنى أولم يعلموا كيفية الإبداء ثم الإعادة أي إنهما من سنخ واحد هو إنشاء مالم يكن ، وقوله : « إن ذلك على الله يسير » الإشارة فيه إلى الإعادة بعد الإبداء وفيه رفع الاستبعاد لأنه إنشاء بعد إنشاء وإن كانت القدرة المطلقة تتعلق بالإيجاد فهي جائزة التعلق بالإينشاء بعد الإينشاء وهي في الحقيقة نقل للخلق من دار إلى دار وإنزال للساثرين إليه في دار القرار .

وقول بعضهم : إن المراد بالإبداء ثم الإعادة إنشاء الخلق ثم إعادة أمثالهم بعد إفنائهم غير سديد لعدم ملائمة الاحتجاج على المعاد الذي هو إعادة عين ما فنى دون مثله .

قوله تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدء الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير » الآية إلى تمام ثلاث آيات أمر للنبي صلى الله عليه وآله أن يخاطبهم بما يتم به الحجة عليهم فيرشدهم إلى السير في الأرض لينظروا إلى كيفية بدء الخلق وإنشائهم على اختلاف طبائعهم و تفاوت ألوانهم وأشكالهم من غير مثال سابق و حصر أو تحديد في عدتهم و عدتهم ففيه دلالة على عدم التحديد

في القدرة الإلهية فهو ينشيء النشأة الآخرة كما أنشأ النشأة الأولى فالآية في معنى قوله : « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون » الواقعة : ٤٢ .

قوله تعالى : « يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون » من مقول القول ، والظاهر أنه بيان لقوله : « ينشيء النشأة الآخرة » وقلب الشيء تحويله عن وجهه أو حاله كجعل أسفله أعلاه وجعل باطنه ظاهره وهذا المعنى الأخير يناسب قوله تعالى : « يوم تبلى السرائر » الطارق : ٩ .

وفسروا القلب بالرد قال في المجمع : والقلب هو الرجوع والرد فمعناه أنكم تردون إلى حال الحياة في الآخرة حيث لا يملك فيه النفع والضرر إلا الله . انتهى وهذا معنى لطيف يفسر به معنى الرجوع إلى الله والرد إليه وهو قوفهم موقفاً تنقطع فيه عنهم الأسباب ولا يحكم فيه إلا الله سبحانه فالآية في معنى قوله : « وردوا إلى الله مولاهم الحق » وضل عنهم ما كانوا يفترون » يونس : ٣٠ .

ومحصل المعنى أن النشأة الآخرة هي نشأة يعذب الله فيها من يشاء وهم المجرمون ويرحمهم من يشاء وهم غيرهم وإليه تردون فلا يحكم فيكم غيره .

قوله تعالى : « وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » من مقول القول وتوصيف لشأنهم يوم القيامة كما أن الآية السابقة توصيف لشأنه تعالى يومئذ .

فقوله : « وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء » أي إنكم لا تقدرون أن تعجزوه تعالى يومئذ بالقوت منه والخروج من حكمه وسلطانه بالفرار والخروج من ملكه والنفوذ من أقطار الأرض والسماء ، فالآية تجري مجرى قوله : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا » الرحمان :

وقيل : الكلام في معنى « من في السماء » فحذف من لدلالة الكلام عليه والتقدير وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا من في السماء بمعجزين في السماء .

وهو بعيد ودلالة الكلام عليه غير مسلمة ولو بني عليه لكفى فيه أن الخطاب للأعم من البشر بتغليب جانب البشر المخاطبين على غيرهم من الجن والملك والمعنى : وما

أنتم معاشر الخلق بمعجزين في الأرض ولا في السماء .

و قوله : « وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » أي ليس لكم اليوم ولي من دون الله يتولى أمركم فيغنيكم من الله ولا نصير ينصركم فيقوي جانبكم ويتمم ناقص قوتكم فيظهركم عليه سبحانه .

فالأية - كما ترى - تنفي ظهورهم على الله و تعجزهم له بالخروج والامتناع عن حكمه بأقسامه فلاهم يستقلون بذلك و هو قوله : « وما أنتم بمعجزين » الخ ولا غيرهم يستقل بذلك و هو قوله : « و مالك من دون الله من ولي » ولا المجموع منهم من غيرهم يعجزه تعالى و هو قوله : « ولا نصير » .

قوله تعالى : « والذين كفروا بآيات الله ولقاءه أولئك يشوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم » خطاب مصروف إلى النبي ﷺ خارج من مقول القول السابق « قل سيروا في الأرض » الخ والمطلوب فيه أن ينبئه ﷺ صريح الحق فيمن يشقى ويهلك يوم القيامة فإنه أبهم ذلك في قوله أو لا : « يعذب من يشاء ويرحم من يشاء » .

و من الدليل عليه الخطاب في « أولئك » مرتين ولو كان من كلام النبي ﷺ لقليل : « أولئك » .

و يؤيد ذلك أيضا قوله : « من رحمتي » فإن الانتقال من مثل قولنا : أولئك يشوا من رحمة الله أو من رحمته بسياق الغيبة على ما يقتضيه المقام إلى قوله : « أولئك يشوا من رحمتي » يفيد التصديق والاعتراف مضافا إلى أصل الإخبار فيفيد صريح التعيين لأهل العذاب ، و يؤيد ذلك أيضاً تكرار الإشارة و ما في السياق من التأكيد .

وكان في تخصيص النبي ﷺ بهذا الإخبار تقوية لنفسه الشريفة و عزلاً لهم عن صلاحية السمع لمثله و هم لا يؤمنون .

والمراد بآيات الله - على ما يفيد إطلاق اللفظ - جميع الأدلة الدالة على الوحدانية والنبوة والمعاد من الآيات الكونية والمعجزات النبوية ومنها القرآن فالكفر بآيات الله يشمل بعمومه الكفر بالمعاد فذكر الكفر باللقاء وهو المعاد بعد الكفر بالآيات من ذكر الخاص بعد العام والوجه فيه الإشارة إلى أهمية الإيمان بالمعاد

إذ مع إنكار المعاد يلغو أمر الدين الحق من أصله وهو ظاهر .

والمراد بالرحمة ما يقابل العذاب ويلازم الجنة وقد تكرر في كلامه تعالى إطلاق الرحمة عليها بالملازمة كقوله : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ » الجاثية : ٣٠ وقوله : « يَدْخُلُ مِنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » الانسان : ٣١ .

والمراد بإسناد اليأس إليهم إما تلبسهم به حقيقة فإنهم لجحدهم الحياة الآخرة آيسون من السعادة المؤبدة والجنة الخالدة وإما أنه كناية عن قضائه تعالى المحتوم أن الجنة لا يدخلها كافر .

والمعنى والذين جحدوا آيات الله الدالة على الدين الحق وخاصة المعاد أولئك يشسوا من الرحمة والجنة وأولئك لهم عذاب أليم .

قوله تعالى : « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ » النخ تفریع على قوله في صدر القصة : « وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه » .

و ظاهر قوله : « قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ » أن كلامن طرفي التريد قول طائفة منهم والمراد بالقتل القتل بالسيف ونحوه فهو قولهم أول ما ائتمروا ليجازوه وإن اتفقوا بعد ذلك على إحراقه كما قال « قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ » الانبياء : ٦٨ ويمكن أن يكون التريد من الجميع لترددهم في أمره أو لا ثم اتفقهم على إحراقه .

وقوله : « فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ » فيه حذف وإيجاز وتقديره ثم اتفقوا على إحراقه فأضرموا نارا فألقوه فيها فأنجاه الله منها ، وقد فصلت القصة في مواضع من كلامه تعالى .

قوله تعالى : « وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » إلى آخر الآية إذ كان لاجبة عقلية لهم على اتخاذ الأوثان لم يبق لهم مما يستنون به إلا الاستئناس بسنة من يعظمونه ويحترمون جانبها كالأباء للأبناء والرؤساء المعظمين لأتباعهم والأصدقاء لأصدقائهم وبالأخرة الأمة لأفرادها فهذا السبب الرابط هو عمدة

ما يحفظ السنن القومية معمولا بها قائمة على ساقها .

فلاستان بسنة الوثنية بالحقيقة من آثار المودات الاجتماعية يرى العامة ذلك بعضهم من بعض فتبعته المودة القومية على تقليده والاستنان به مثله ثم هذه الاستنان نفسه يحفظ المودة القومية و يقيم الاتحاد والاتفاق على ساقه .

هذه حال العامة منهم وأما الخاصة فربما ركنوا في ذلك إلى ما يحسبونه حجة وما هو بحجة كقولهم : « إن الله سبحانه أجل من أن يحيط به حس أو وهم أو عقل فلا يتعلق به توجهنا العبادي فمن الواجب أن نتقرب إلى بعض من له به عناية كالملائكة والجن ليقربونا إليه زلفى و يشفعوا لنا عنده .

فقوله : « إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا » خطاب منه ﷺ لعامة قومه في أمر اتخاذهم الأوثان للمودة القومية ليصلحوا به شأن حياتهم الدنيا الاجتماعية ، وقد أجابوه بذلك حيث سألهم عن شأنهم « إذ قال لأبيه و قومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين » الأنبياء : ٥٣ . « قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » الشعراء : ٧٤ .

و من هنا يظهر أن قوله : « مودة بينكم » صالح لأن يكون منصوباً بنزع الخافض بتقدير لام التعليل و المودة على هذا سبب مؤد إلى اتخاذ الأوثان ، و أن يكون مفعولاً له و المودة غاية مقصودة من اتخاذ الأوثان لكن ذيل الآية إنما تلائم الوجه الثاني على ما سيظهر .

ثم عقب ﷺ قوله : « إنما اتخذتم » النخ بقوله : « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً » يبين لهم عاقبة اتخاذهم الأوثان للمودة و هو باطن هذه المودة المقصودة الذي سيظهر يوم تبلى السرائر فإنهم توسلوا إلى هذا المتاع القليل بالشرك الذي هو أعظم الظلم و أكبر الكبائر الموبقة واجتمعوا عليه و توافقوا لكنهم سيبدو لهم حقيقة عملهم ويلحق بهم وباله فيتبرء بعضهم من بعض و ينكره بعضهم على بعض .

والمراد بكفر بعضهم ببعض كفر آلهتهم بهم و تبرئهم منهم كما قال تعالى :
 « سيعفون بعبادتهم و يكونون عليهم ضدًا » مريم : ٨٢ ، و قال : « و يوم القيامة
 يكفرون بشرككم » فاطر : ١٤ ، و في معناه تبرئ المتبوعين من تابعيهم كما قال تعالى :
 « إذ تبرئ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا و رأوا العذاب و تقطعت بهم الأسباب »
 البقرة : ١٦٦ . والمراد بلعن بعضهم بعضا لعن كل بعض صاحبه قال تعالى : « كلما
 دخلت أمة لعنت أختها » الأعراف : ٣٨ .

ثم عقيب ذلك بقوله : « و ما واكم النار و ما لكم من ناصرين » إشارة إلى لحوق
 الوبال و وقوع الجزاء و هو النار التي فيها الهلاك المؤبد و لا ناصر ينصرهم و يدفع
 عنهم العذاب فهم إنما توسلوا إلى المودة ليتناصروا و يتعاونوا و يتعاضدوا في الحياة
 لكنّها عادت يوم القيامة معادة و مضادة و أورثت تبرئ يا وخذلانا .
 قوله تعالى : « فآمن له لوط و قال إنني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم »
 أي آمن به لوط و الايمان يتعدى بالآثم كما يتعدى بالبلاء والمعنى واحد .
 وقوله : « و قال إنني مهاجر إلى ربي » قيل الضمير راجع إلى لوط ، و قيل : راجع
 إلى إبراهيم و يؤيده قوله تعالى حكاية عن إبراهيم « و قال إنني ذاهب إلى ربي سيهدين »
 الصافات : ٩٩ .

وكان المراد بالمهاجرة إلى الله هجره وطنه و خروجه من بين قومه المشركين إلى
 أرض لا يعترضه فيها المشركون و لا يمنعونه من عبادة ربه فعند المهاجرة مهاجرة إلى الله
 من المجاز العقلي .
 وقوله : « إنه عزيز حكيم » أي عزيز لا يذل من نصره حكيم لا يضيع من حفظه .
 قوله تعالى : « و وهبنا له إسحاق و يعقوب و جعلنا في ذريته النبوة و الكتاب »
 معناه ظاهر .

قوله تعالى : « و آتينا أجره في الدنيا و إنه في الآخرة لمن الصالحين » الأجر
 هو الجزاء الذي يقابل العمل و يعود إلى عامله و الفرق بينه و بين الأجرة أن الأجرة
 تختص بالجزاء الدنيوي و الأجر يعم الدنيا و الآخرة ، و الفرق بينه و بين الجزاء

أن الأجر لا يقال إلا في الخير والنافع و الجزء يعم الخير والشر و النافع والضرر .
و الغالب في كلامه تعالى استعمال لفظ الأجر في جزاء العمل العبودي الذي
أعد الله سبحانه لعباده المؤمنين في الآخرة من مقامات القرب و درجات الولاية ومنها
الجنة نعم وقع في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : « إنه من يتق ويصبر فإن الله
لا يضيع أجر المحسنين » يوسف : ٩٠ وقوله : « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوء
منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » يوسف : ٥٦ إطلاق
الأجر على الجزاء الدنيوي الحسن .

فقوله : « و آتينا أجره في الدنيا » يمكن أن يكون المراد به إيتاء الأجر
الدنيوي الحسن و الأنسب على هذا أن يكون « في الدنيا » متعلقا بالأجر لا بالإيتاء
وربما تأيد هذا المعنى بقوله تعالى فيه عليه السلام في موضع آخر : « و آتينا في الدنيا
حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين » النحل : ١٢٢ فإن الظاهر أن المراد بالحسنة
الحياة الحسنة أو العيشة الحسنة و إيتاؤها فعلية إعطاؤها دون تقديرها و كتابتها .

ويمكن أن يكون المراد به تقديم ما أعد لعامة المؤمنين في الآخرة من مقامات
القرب في حقه عليه السلام و إيتائه ذلك في الدنيا وقد تقدم إحصاء ما يذكره القرآن الكريم
من مقاماته عليه السلام في قصصه من تفسير سورة الأنعام .

وقوله : « وإنه في الآخرة لمن الصالحين » تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى :
« ولقد اصطفينا في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » البقرة : ١٣٠ في الجزء الأول
من الكتاب .

قوله تعالى « ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من
أحدمن العالمين » أي وأرسلنا لوطا أو وأذكر لوطا إذ قال لقومه ، و قوله : « إنكم
لتأتون الفاحشة » إخبار بداعي الاستعجاب والإنكار ، والمراد بالفاحشة إتيان الذكران .
وقوله : « ما سبقكم بها من أحد من العالمين » استيناف يوضح معنى الفاحشة
ويؤكد ، وكان المراد أن هذا العمل لم يشع في قوم قبلهم هذا الشيع أو الجملة حال
من فاعل « لتأتون » .

قوله تعالى : « أثنتكم لتأتون الرجال و تقطعون السبيل و تأتون في ناديبكم المنكر » إلى آخر الآية . استفهام من أمر من الحري أن لا يصدقه سامع ولا يقبله ذو لب و لذا أكد بالنون واللام ، وهذا السياق يشهد أن المراد بآتيان الرجل اللواط و بقطع السبيل إهمال طريق التناسل والغاؤها وهي آتيان النساء فقطع السبيل كناية عن الإعراض عن النساء وترك نكاحهن ، وبآتيانهم المنكر في ناديبهم - والنادي هو المجلس الذي يجتمعون فيه ولا يسمى ناديا إلا إذا كان فيه أهله - الآتيان بالفحشاء أو بمقدّماتها الشنيعة بمرئى من الجماعة .

وقيل : المراد بقطع السبيل قطع سبيل المارة بديارهم فأنتهم كانوا يفعلون هذا الفعل بالمجتازين من ديارهم وكانوا يرمون ابن السبيل بالحجارة بالخذف فأنتهم أصابه كان أولى به فيأخذون ماله وينكحونه و يغرّمونه ثلاثة دراهم وكان لهم قاض يقضي بذلك وقيل : بل كانوا يقطعون الطرق ، وقد عرفت أن السياق يقضي بخلاف ذلك .

وقيل : المراد بآتيان المنكر في النادي أن مجالسهم كانت تشتمل على أنواع المنكرات والقبائح مثل الشتم والسخف والقمار وخذف الأحجار على من مرّ بهم وضرب المعازف والمزامير وكشف العورات واللواط ونحو ذلك ، وقد عرفت ما يقتضيه السياق . وقوله : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » استهزاء وسخرية منهم ، ويظهر من جوابهم أنه كان ينذرهم بعذاب الله وقد قال الله في قصته في موضع آخر : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر » القمر : ٣٦ .

قوله تعالى : « قال رب أنصرني على القوم المفسدين » سؤال للفتح ودعاء منه عليهم ، وقد عدّهم مفسدين لعملهم الذي يفسد الأرض ويقطع النسل ويهدّد الإنسانية بالفناء .

قوله تعالى : « ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين » إجمال قصّة هلاك قوم لوط ، وقد كان ذلك برسل من الملائكة أرسلهم الله أولاً إلى إبراهيم عليه السلام فبشّروه وبشّروا امرأته بإسحاق ويعقوب ثم أخبروه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط ، والقصّة مفصّلة في سورة هود وغيرها .

وقوله : « قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية » أي قالوا لإبراهيم وفي الإتيان بلفظ الإشارة القريبة - هذه القرية - دلالة على قربها من الأرض التي كان إبراهيم عليه السلام نازلاً بها ، وهي الأرض المقدسة .

وقوله : « إن أهلها كانوا ظالمين » تعليل لإهلاكهم بأنهم ظالمون قد استقرت فيهم رذيلة الظلم ، وقد كان مقتضى الظاهر أن يقال : إنهم كانوا ظالمين فوضع المظهر موضع المضمّر للإشارة إلى أن ظلمهم ظلم خاص بهم يستوجب الهلاك وليس من مطلق الظلم الذي كان الناس مبتلين به يومئذ كأنه قيل : إن أهلها بما أنهم أهلها ظالمون .

قوله تعالى : « قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » ظاهر السياق أنه عليه السلام كان يريد بقوله : « إن فيها لوطاً » أن يصرف العذاب بأن فيها لوطاً وإهلاك أهلها يشملهم فأجابوه بأنهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممن لا يشملهم العذاب وهم أهله إلا امرأته .

لكنه عليه السلام لم يكن ليجهل أن الله سبحانه لا يعذب لوطاً وهو نبي مرسل ، وإن شمل العذاب جميع من سواه من أهل قريته ولا أنه يخوفه ويزعره ويفزعه بغيره عليهم بل كان عليه السلام يريد بقوله : « إن فيها لوطاً » أن يصرف العذاب عن أهل القرية كرامة للوط لا أن يدفعه عن لوط ، فأجيب بأنهم مأمورون بإخراجه من بين أهل القرية ومعه أهله إلا امرأته كانت من الغابرين .

والدليل على هذا الذي ذكرنا قوله تعالى في سورة هود في هذا الموضع من القصة : « فلمّا ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود » هود : ٧٦ فالآيات أظهر ما يكون في أن إبراهيم عليه السلام كان يدافع عن قوم لوط لا عن لوط نفسه .

فظاهر كلامه عليه السلام في الآية التي نحن فيها الدفاع عن لوط وعلى ذلك جاراها الرسل فأبقوا كلامه على ظاهره وأجابوا بأنهم ما كانوا ليجهلوا ذلك فهم أعلم بمن فيها وعاملون بأن فيها لوطاً ومعه أهله ممن لا ينبغي أن يعذب لكنهم سينجونه وأهله إلا امرأته لكن

الَّذِي أَرَادَهُ إِبرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بكلامه دفع العذاب عن أهل القرية فأُجيب بأنه من الأمر المحتوم على ما تشير إليه آيات سورة هود .

وللقوم في قوله : « إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ » وقوله : « قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا » مشاجرات طويلة أعرضنا عن التعرض لها لعدم الجدوى من أراد الوقوف عليها فليراجع المطوّلات .
قوله تعالى : « وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ وَبِأَهْلِهِمْ فَظَنُّوا أَنَّهُ مَلِئَ ذُنُوبًا شَدِيدًا »
 ولا تحزن ، إلى آخر الآية ضميرا الجمع في « سِئَ بِهِمْ وَبِأَهْلِهِمْ » للرسول والباء للسببية أي أخذته المساءة وهي سوء الحال بسببهم وضاعت طاقته بسببهم لكونهم في صور شبان حسان مرد يخاف عليهم من القوم ثم قصد القوم إيتاهم بالسوء وضعف لوط من أن يدفعهم عنهم وهم ضيف له نازلون بداره .

وقوله : « وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ » أي لا خطر محتملا يهدّدك ولا مقطوعا يقع عليك فإنّ الخوف إنّما هو في المكروه الممكن والحزن في المكروه الواقع .
 وقوله : « إِنَّا مَنجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ » أي الباقيين في العذاب تعليل لنفي الخوف والحزن .

قوله تعالى : « إِنَّا نَمُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ »
 بيان لما يشير إليه قوله : « إِنَّا مَنجُوكَ وَأَهْلَكَ » من العذاب ، والرجز العذاب .
قوله تعالى : « وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » ضمير التأنيث للقرية والترك الإبقاء أي أبقينا من القرية علامة واضحة لقوم يعقلون ليعتبروا بها فيتقوا الله وهي الآثار الباقية منها بعد خرابها بنزول العذاب .

وهي اليوم مجهولة المحل لا أثر منها وربما يقال : إنّ الماء غمرها بعد وهي بحر لوط ، لكن الآية ظاهرة - كما ترى - أنّها كانت ظاهرة معروفة في زمن نزول القرآن وأوضح منها قوله تعالى : « وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ » الحجر : ٧٦ ، وقوله : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ » الصافات : ١٣٨ .

قوله تعالى : « وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْبُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » بدعوهم إلى عبادة الله وهو التوحيد وإلى رجاء

اليوم الآخر وهو الاعتقاد بالمعاد وأن لا يفسدوا في الأرض وكانت عمدة إفسادهم فيها - على ما ذكر في قصتهم في مواضع أخرى - نقص الميزان والمكيال .

قوله تعالى : « فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » الرجفة الاضطراب الشديد على ما ذكره الراغب ، والجثم والجثوم في المكان القعود فيه أو البروك على الأرض وهو كناية عن الموت والمعنى فكذبوا شعيباً فأخذهم الاضطراب الشديد أو الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم ميتين لا حراك بهن .

و قال في قصتهم في موضع آخر : « وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين » هود : ٩٤ وقال : « فإن أعرضوا فقل أنذرتمكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود » حم السجدة : ١٣ ، و يستظهر من ذلك أنهم أهلكوا بالصيحة والرجفة . قوله تعالى : « و عادا و ثمود و قد تبين لكم من مساكنهم » إلى آخر الآية غير السياق نفثنا فبدء بذكر عاد و ثمود وكذا في الآية التالية بدء بذكر فارون و فرعون و هامان بخلاف قصص الأمم المذكورين سابقا حيث بدء بذكر أنبيائهم كنوح و إبراهيم ولوط و شعيب . و قوله : « و عاداً و ثمود » منصوبان بفعل مقدر تقديره واذكر عاداً و ثمود .

و قوله : « وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل و كانوا مستبصرين » تزيين الشيطان لهم أعمالهم كناية استعارية عن تحبيب أعمالهم السيئة إليهم و تأكيد تعلقهم بها و صده إيتاءهم عن السبيل صرفهم عن سبيل الله التي هي سبيل الفطرة ، و لذا قال بعضهم : إن المراد بكونهم مستبصرين أنهم كانوا قبل ذلك على الفطرة الساذجة . لكن الظاهر - كما تقدم في تفسير قوله : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين » البقرة : ٢١٣ أن عهد الفطرة الساذجة كان قبل بعثة نوح ﷺ و عاد و ثمود كانوا بعد نوح فكانونهم مستبصرين قبل انصدادهم عن السبيل هو كونهم يعيشون على عبادة الله و دين التوحيد و هو دين الفطرة .

قوله تعالى : « و فارون و فرعون و هامان و قد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض و ما كانوا سابقين » السبق استعارة كناية من الغلبة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فكلّا أخذنا بذنبه » إلى آخر الآية أي كل واحدة من الأمم المذكورين أخذناها بذنبها ثم أخذ في التفصيل فقال : « فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا » والحاصب الحجارة و قيل : الريح التي ترمي بالحصى وعلى الأول فهم قوم لوط ، و على الثانى قوم عاد « ومنهم من أخذته الصيحة » وهم قوم نمود وقوم شعيب « ومنهم من خسفنا به الأرض » و هو قارون « و منهم من أغرقنا » و هم قوم نوح و فرعون و هامان و قومهما .

ثم عاد سبحانه إلى كافة القصص المذكورة و ما انتهى إليه أمر تلك الأمم من الأخذ والعذاب فيبين ببيان عام أن الذي أوقعهم فيما وقعوا لم يكن بظلم منه سبحانه بل بظلم منهم لأنفسهم فقال : « وما كان الله ليظلمهم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون » أي فيجازيهم الله على ظلمهم لأن الدار دار القنّة والامتحان وهي السنّة الإلهيّة التي لا معدل عنها فمن اهتمى فقد اهتمى لنفسه و من ضلّ فعليها .

﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزيري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث يذكر فيه معاني الكفر قال : والوجه الخامس من الكفر كثر البراءة قال تعالى : « و قال إنما اتخذتم من دون الله آوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا و يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضا » يعني يتبرء بعضكم من بعض . الحديث .

أقول : و روى هذا المعنى في التوحيد عن علي عليه السلام في حديث طويل يجيب فيه عما سئل عنه من تهافت الآيات وفيه : « والكفر في هذه الآية البراءة يقول : يتبرء بعضهم من بعض ، و نظيرها في سورة إبراهيم قول الشيطان : « إني كفرت بما أشركتمون من قبل » و قول إبراهيم خليل الرحمن : « كفرنا بكم » أي تبرأنا .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر أن النبي صلى الله عليه وآله نهى عن الخذف ^(١) و هو قول الله : « و تأتون في نادىكم المنكر » .

(١) الخذف بالحصى والنواة الرمى بها من بين السبابتين .

أقول : و روى هذا المعنى أيضاً عن عدة من أصحاب الجوامع عن أم هانئ بنت أبي طالب ولفظ الحديث : قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قول الله : «وتأتون في ناديكم المنكر» قال : كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون ابن السبيل و يسخرون منهم .

و في الكافي بإسناده عن أبي زيد الحماد عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث نزول الملائكة على إبراهيم بالبشرى قال : فقال لهم إبراهيم : لماذا جئتم ؟ قالوا : في إهلاك قوم لوط . فقال لهم : إن كان فيها مائة من المؤمنين أتهلكونهم ؟ فقال جبرئيل : لا . قال : فإن كان فيها خمسون ؟ قال : لا . قال : فإن كان فيها ثلاثون ؟ قال : لا ، قال : فإن كان فيها عشرون ؟ قال : لا ، قال : فإن كان فيها عشرة ؟ قال : لا . قال : فإن كان فيها خمسة ؟ قال : لا . قال : فإن كان فيها واحد ؟ قال : لا . قال : فإن فيها لوطا ؟ قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينته وأهله إلا امرأته كانت من القابرين .

قال الحسن بن علي عليه السلام : لا أعلم هذا القول إلا وهو يستبقيهم و هو قول الله عز وجل : «يجادلنا في قوم لوط» .





مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ
 بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ
 يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ
 الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣) خَلَقَ اللَّهُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) أَتَلَّ مَا
 أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
 وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) وَلَا تَجَادِلُوا
 أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا
 آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَالْهِنَا وَالْهَيْكَمَ وَاحِدٌ وَنَحْنُ
 لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
 يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا
 الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ
 إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ
 آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ

يَكْفُرِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَ
ذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَیَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ
الْعَذَابُ وَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) یَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ
وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) یَوْمَ یَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ یَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) .

﴿بیان﴾

تتضمن الآيات تذييلاً لقصص أولئك الأمم الماضية الهالكة بمثل ضربه الله سبحانه لاتخاذهم أولياء من دون الله فيبين فيه أن بناءهم ذلك أوهن البناء ينادي ببطلانه وفساده خلق السماوات والأرض وأنهم ليس لهم من دونه من ولي كما يذكره هذا الكتاب .

ومن هنا ينتقل إلى أمر النبي ﷺ بتلاوة هذا الكتاب الذي أوحى إليه و إقامة الصلاة ودعوة أهل الكتاب بقول لئن ومجادلة حسناء ويجب عن اقتراح المشركين على النبي ﷺ أن يأتيهم بآيات غير القرآن وأن يعجلهم بالعذاب الذي ينذرهم به . قوله تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً » إلى آخر الآية . العنكبوت معروف و يطلق على الواحد والجمع و يذكر و يؤنث .

العناية في قوله : « مثل الذين اتخذوا » النح باتخاذ الأولياء من دون الله ولذا

جئىء بالموصول والصلة كما أن العناية في قوله : « كمثل العنكبوت اتخذت في بيتا ، إلى اتخاذها البيت فيؤل المعنى إلى أن صفة المشركين في اتخاذهم من دون الله أولياء كصفة العنكبوت في اتخاذها بيتا له نبأ - وهو الوصف الذي يدل عليه تنكير « بيتا » .

و يكون قوله : « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت » بيانا لصفة البيت الذي أخذته العنكبوت ولم يقل : « إن أوهن البيوت لبيتها كما هو مقتضى الظاهر أخذاً للجملة بمنزلة المثل السائر الذي لا يتغير .

و المعنى أن اتخذهم من دون الله أولياء وهم آلهتهم الذين يتولونهم ويركنون إليهم كاتخاذ العنكبوت بيتها هو أوهن البيوت إذ ليس له من آثار البيت إلا اسمه لا يدفع حرّاً ولا برداً ولا يكن شخصاً ولا يقي من مكروه كذلك ليس لولاية أوليائهم إلا الاسم فقط لا ينفعون ولا يضرون ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

و مورد المثل هو اتخاذ المشركين آلهة من دون الله فتبديل الآلهة من الأولياء لكون السبب الداعي لهم إلى اتخاذ الآلهة زعمهم أن لهم ولاية لأمرهم و تديراً لشأنهم من جلب الخير إليهم و دفع الشر عنهم والشفاعة في حقهم .

و الآية - مضافاً إلى إبقاء هذه النكتة - تشمل بإطلاقها كل من اتخذ في أمر من الأمور و شأن من الشؤون ولياً من دون الله يركن إليه و يراه مستقلاً في أثره الذي يرجوه منه و إن لم يعد من الأصنام إلا أن يرجع ولايته إلى ولاية الله كولاية الرسول والأئمة و المؤمنين كما قال تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » يوسف : ١٠٦ .

و قوله : « لو كانوا يعلمون » أي لو كانوا يعلمون أن مثلهم كمثل العنكبوت ما اتخذوهم أولياء . كذا قيل .

قوله تعالى : « إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم » يمكن أن يكون « ما » في « ما يدعون » موصولة أو نافية أو استفهامية أو مصدرية و « من » في « من شيء » على الاحتمال الثاني زائدة للتأكيد وعلى الباقي للتبيين وأرجح

الاحتمالات الأولان و أرجحهما أو لهما .

والمعنى على الثاني أن الله يعلم أنهم ليسوا يدعون من دونه شيئاً أي أن الذي يعبدونه من الآلهة لاحقيقة له فيكون كما قال صاحب الكشف تأكيداً للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً .

والمعنى على الأول أن الله يعلم الشيء الذي يدعون من دونه ولا يجهل ذلك فيكون كناية عن أن المثل الذي ضربه في محله ، و ليس لأوليائهم من الولاية إلا اسمها .

ويؤكد هذا المعنى الاسمان الكريمان : العزيز الحكيم في آخر الآية فهو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء فلا يشاركه في تدبير ملكه أحد كما لا يشاركه في الخلق إلا إيجاد أحد الحكيم الذي يأتي بالمتقن من الفعل والتدبير فلا يفوض تدبير خلقه إلى أحد ، وهذا كالتمهيد لما سيبيّن في قوله خلق الله السماوات والأرض بالحق » .

قوله تعالى : « و تلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العاقلون » يشير إلى أن الأمثال المضروبة في القرآن على أنها عامة تفرع أسماع عامة الناس لكن الإشراف على حقيقة معانيها ولب مقاصدها خاصة لأهل العلم ممن يعقل حقائق الأمور ولا ينجمد على ظواهرها .

والدليل على هذا المعنى قوله : « ولا يعقلها » دون أن يقول : و ما يؤمن بها أو ما في معناه .

فالأمثال المضروبة في كلامه تعالى يختلف الناس في تلقيها باختلاف أفهامهم فمن سامع لاحظ له منها إلا تلقى ألفاظها و تصور مفاهيمها الساذجة من غير تعمق فيها و سبر لأغوارها و من سامع يتلقى بسمعه ما يسمعه هؤلاء ثم يغور في مقاصدها العميقة و يعقل حقائقها الأنيقة .

و فيه تنبيه على أن تمثيل اتخاذهم أولياء من دون الله باتخاذ العنكبوت بيتاً هو أو هن البيوت ليس مجرد تمثيل شرعي ودعوى خالية من البيسنة بل متك على حجة برهانية و حقيقة حقّة ثابتة وهي التي تشير إليه الآية التالية .

قوله تعالى : « خلق الله السماوات والأرض بالحق » إن في ذلك لآية للمؤمنين ، المراد بكون خلق السماوات والأرض بالحق نفي اللعب في خلقها كما قال تعالى « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » الدخان : ٣٩ .

فخلق السماوات والأرض على نظام ثابت لا يتغير و سنة إلهية جارية لا تختلف ولا تتخلف ، والخلق والتدبير لا يختلفان حقيقة ولا ينفك أحدهما عن الآخر ^(١) وإذ كان الخلق والصنع ينتهي إليه تعالى انتهاء ضرورياً ولا محيص فالتدبير أيضاً ولا محيص وما من شيء غيره تعالى إلا وهو مخلوقه القائم به المملوك لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ومن المحال قيامه بشيء من تدبير أمر نفسه أو غيره بحيث يستقل به مستغنيا في أمره عنه تعالى هذا هو الحق الذي لا لعب فيه والجد الذي لا هزل فيه .

فلو تولّى بعض خلقه أمر بعض لم يكن ذلك منه ولاية حق لكونه لا يملك شيأ بحقيقة معنى الملك بل كان ذلك منه جاريا على اللعب وتفويضه تعالى أمر التدبير إليه لعبامنه تعالى و تقدس إذ ليس إلا فرضا لاحقيقة له ووهما لا واقع له وهو معنى اللعب . ومنه يظهر أن ولاية من يدعون ولايته ليس لها إلا اسم الولاية من غير مسمى كما أن بيت العنكبوت كذاك .

وقوله : « إن في ذلك لآية للمؤمنين » تخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الآية لهم ولغيرهم لكون المنتفعين بها هم المؤمنون دون غيرهم .

قوله تعالى : « اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وذكر الله أكبر ، الخ لما ذكر إجمال قصص الأمم وما انتهى إليهم شركهم و ارتكابهم الفحشاء والمنكر من الشقاء اللازم والخسران الدائم أثقل من

(١) وذلك أن موطن التدبير الحوادث الجارية في الكون ومعناه تعقيب حادث بحادث

آخر على نظم و ترتيب يؤدي الى غايات حقة و حقيقته خلق حادث بعد حادث فالتدبير هو الخلق و الابداع باعتبار قياس الشيء الى آخر مثله و انضمامه اليه فليس وراء الخلق و الابداع شيء . منه .

ذلك - مستأنفا للكلام - إلى أمره ﷺ بتلاوة ما أُوحي إليه من الكتاب لكونه خير رادع عن الشرك و ارتكاب الفحشاء والمنكر بما فيه من الآيات البينات التي تتضمن حججا نيرة على الحق و تشتمل على القصص والعبر والمواعظ والتبشير والإنذار والوعد والوعيد يردع بتلاوة آياته تاليه و من سمعه .

و شفعه بالأمر بإقامة الصلاة التي هي خير العمل و علل ذلك بقوله : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » والسياق يشهد أن المراد بهذا النهي ردع طبيعة العمل عن الفحشاء والمنكر بنحو الاقتضاء دون العليّة الثامّة .

فلطبيعة هذا التوجّه العبادي - إذا أتى به العبد و هو يكرّره كل يوم خمس مرّات و يداوم عليه و خاصّة إذا زاول عليه في مجتمع صالح يؤتى فيه بمثل ما أتى به و يهتم فيه بما اهتم به - أن يردعه عن كل معصية كبيرة يستشعنه الذوق الديني كقتل النفس عدوانا و أكل مال اليتيم ظلما و الزنا واللواط ، و عن كل ما ينكره الطبع السليم والفطرة المستقيمة ردعاّ جامعا بين التلقين والعمل .

و ذلك أنّه يلقنه أولا بما فيه من الذكر الايمان بوحديّته تعالى والرسالة و جزاء يوم الجزاء و أن يخاطب ربّه بإخلاص العبادة والاستعانة به و سؤال الهداية إلى صراطه المستقيم متعوّذا من غضبه و من الضلال ، و يحمله ثانيا على أن يتوجّه بروحه و بدنه إلى ساحة العظمة والكبرياء و يذكر ربّه بحمده والثناء عليه و تسبيحه و تكبيره ثمّ السلام على نفسه و أترابه و جميع الصالحين من عباد الله .

مضافا إلى حمله إياه على التطهّر من الحدث والخبث في بدنه والطهارة في لباسه والتحرّز عن الغصب في لباسه و مكانه و استقبال بيت ربّه فالإنسان لو داوم على صلاته مدة يسيرة واستعمل في إقامتها بعض الصدق أثبت ذلك في نفسه ملكة الارتداع عن الفحشاء والمنكر البتّة ، ولو أنّك و كلّت على نفسك من ربّيتها تربية صالحة تصلح بها لهذا الشأن و تتحلّى بأدب العبوديّة لم يأمرك بأزيد ممّا تأمرك به الصلاة ولا رَوْضك بأزيد ممّا تروّضك به .

وقد استشكل على الآية بأنّا كثيرا ما نجد من المصلّين من لا يبالي ارتكاب الكبائر

ولا يرتدع عن المنكرات فلا تنتهائ صلاته عن الفحشاء والمنكر .

و لذلك ذكر بعضهم أن الصلاة في الآية بمعنى الدعاء والمراد الدعوة إلى أمر الله والمعنى أقم الدعوة إلى أمر الله فإن ذلك يردع الناس عن الفحشاء والمنكر . و فيه أنه صرف الكلام عن ظاهره .

و ذكر آخرون أن الصلاة في الآية في معنى النكرة والمعنى أن بعض أنواع الصلاة أو أفرادها يوجب الانتهاء عن الفحشاء والمنكر وهو كذلك وليس المراد الاستغراق حتى يرد الإشكال .

وذكر قوم أن المراد نهيا عن الفحشاء والمنكر مادامت قائمة والمصلي في صلاته كأنه قيل : إن المصلي مادام مصليا في شغل من معصية الله بإتيان الفحشاء والمنكر . و قال بعضهم : إن الآية على ظاهرها والصلاة بمنزلة من ينهى ويقول : لا تفعل كذا ولا تقترب كذا لكن النهي لا يستوجب الانتهاء فليس نهى الصلاة بأعظم من نهى تعالى كما في قوله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر » النحل : ٩٠ و نهى تعالى لا يستوجب الانتهاء وليس الإشكال إلا مبنيا على توهم استلزام النهي للانتهاء وهو توهم باطل .

و عن بعضهم في دفع الإشكال أن الصلاة تقام لذكر الله كما قال تعالى : « أقم الصلاة لذكرك » و من كان ذاكرة لله تعالى منعه ذلك عن الإتيان بما يكرهه و كل من تراه يصلي و يأتي بالفحشاء والمنكر فهو بحيث لولم يصل لكان أشد إتيانا فقد أثرت الصلاة في تقليل فحشائه و منكره .

و أنت خير بأن شيئا من هذه الأجوبة لا يلائم سياق الحكم والتعليل في الآية فإن الذي يعطيه السياق أن الأمر بإقامة الصلاة إنما علل بقوله : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ليفيد أن الصلاة عمل عبادي يورث إقامته صفة روحية في الإنسان تكون رادعة له عن الفحشاء والمنكر فتنزه النفس عن الفحشاء والمنكر و تطهر عن قذارة الذنوب والآثام .

فالمراد به التوسل إلى ملكة الارتداع التي هي من آثار طبيعة الصلاة بنحو

الافتضاء لأنها أثر بعض أفراد طبيعة الصلاة كما في الجواب الثاني ، ولأنها أثر الاشتغال بالصلاة مادام مشتغلاً بها كما في الجواب الثالث ، ولا أن المراد هو التوسل إلى تلقي نهي الصلاة فحسب من غير نظر إلى الانتهاء عن نهيها كأنه قيل أقم الصلاة لتسمع نهيها . كما في الجواب الرابع ، ولا أن المراد أقم الصلاة لينهاك الذكر الذي تشتمل عليه عن الفحشاء والمنكر كما في الجواب الخامس .

فالحق في الجواب أن الردع أثر طبيعة الصلاة التي هي توجه خاص عبادي إلى الله سبحانه وهو بنحو الافتضاء دون الاستيجاب والعليّة التامة فربما تخلف عن أثرها لمقارنة بعض الموانع التي تضعف الذكر وتقرب به من الغفلة والانصراف عن حاق الذكر فكلما قوي الذكر و كمل الحضور والخشوع وتمحض الإخلاص زاد أثر الردع عن الفحشاء والمنكر وكلما ضعف ضعف الأثر .

وأنت إذا تأملت حال بعض من تسمى بالإسلام من الناس وهو تارك للصلاة وجدته يضع باضاعة الصلاة فريضة الصوم والحج والزكاة والخمس وعامة الواجبات الدينية ولا يفرق بين طاهر ونجس وحلال وحرام فيذهب لوجهه لا يلوي على شيء ثم إذا قست إليه حال من يأتي بأدنى مراتب الصلاة مما يسقط به التكليف ، وجدته مرتدعا عن كثير مما يقتضيه تارك الصلاة غير مكترث به ثم إذا قست إليه من هو فوقه في الاهتمام بأمر الصلاة وجدته أكثر ارتداعاً منه وعلى هذا القياس .

وقوله : «ولذكر الله أكبر» قال الراغب في المفردات : الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بأحرازه والذكر يقال اعتباراً باستحضاره . و تارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول ولذلك قيل : الذكر ذكران ذكر عن نسيان و ذكر لا عن نسيان بل عن إداعة الحفظ ، و كل قول يقال له ذكر . انتهى .

و الظاهر أن الأصل في معناه هو المعنى الأول و تسمية اللفظ ذكراً إنما هو لاشتماله على المعنى القلبي والذكر القلبي بالنسبة إلى اللفظي كالأثر المترتب على سببه والغاية المقصودة من الفعل .

والصلاة تسمى ذكراً لاشتغالها على الأذكار القولية من تهليل و تحميد وتنزيه وهي باعتبار آخر مصداق من مصاديق الذكر لأنها بمجموعها ممثلة لعبودية العبد لله سبحانه كما قال : « إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله » الجمعة : ٩ وهي باعتبار آخر أمر يترتب عليه الذكر ترتب الغاية على ذي الغاية يشير إليه قوله تعالى : « وأقم الصلاة لذكري » طه : ١٤ .

والذكر الذي هو غاية مترتبة على الصلاة أعني الذكر القلبي بمعنى استحضار المذكور في ظرف الإدراك بعد غيبته نسياناً أو إدامة استحضاره - أفضل عمل يتصور صدوره عن الإنسان وأعلى كعباً وأعظمه قدراً وأثراً فإنه السعادة الأخيرة التي هيئت للإنسان ومفتاح كل خير .

ثم إن الظاهر من سياق قوله : « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » أن قوله : « و لذكر الله أكبر » متصل به مبين لأثر آخر للصلاة وهو أكبر مما يتبين قبله ، فيقع قوله : « و لذكر الله أكبر » موقع الاضراب والترقي ويكون المراد بالذكر القلبي الذي يترتب على الصلاة ترتب الغاية على ذي الغاية فكأنه قيل : أقم الصلاة لترددك عن الفحشاء والمنكر بل الذي تفيد من ذكر الله الحاصل بها أكبر من ذلك أي من النهي عن الفحشاء والمنكر لأنه أعظم ما يناله الإنسان من الخير وهو مفتاح كل خير والنهي عن الفحشاء والمنكر بعض الخير .

و من المحتمل أن يراد بالذكر ما تشتمل عليه الصلاة من الذكر أو نفس الصلاة والجملة أيضاً واقعة موقع الاضراب والمعنى بل الذي تشتمل عليه الصلاة من ذكر الله أو نفس الصلاة التي هي ذكر الله أكبر من هذا الأثر الذي هو النهي عن الفحشاء والمنكر لأن النهي أثر من آثارها الحسنة و « ذكر الله » على الاحتمالين جميعاً من المصدر المضاف إلى مفعوله والمفضل عليه لقوله : « أكبر » هو النهي عن الفحشاء والمنكر .

و لهم في معنى الذكر كون المضاف إليه فاعلاً أو مفعولاً للمصدر و كون المفضل عليه خاصاً أو عاماً أقوال أخر :

فقيل : معنى الآية ذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد لله تعالى وذلك أن الله

تعالى يذكر من ذكره لقوله : « فاذكروني أذكركم » البقرة : ١٥٢ و قيل المعنى ذكر الله تعالى العبد أكبر من الصلاة و قيل المعنى لذكر الله العبد أكبر من كل شيء .

وقيل : المعنى لذكر العبد لله في الصلاة أكبر من سائر أركان الصلاة ، وقيل : المعنى لذكر العبد لله في الصلاة أكبر من ذكره خارج الصلاة ، وقيل : المعنى لذكر العبد لله أكبر من سائر أعماله ، وقيل : المعنى للصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وقيل : المعنى لذكر العبد لله عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما أكبر من زجر الصلاة وردعها ، وقيل : إن قوله : « أكبر » معرّية من معنى التفضيل لا يحتاج إلى مفضل عليه كقوله : « ما عند الله خير من الله » .

فهذه أقوال لهم متفرقة أغمضنا عن البحث عما فيها إثارة للاختصار ، والتدبر في الآية يكفي مؤنة البحث على أن التحكّم في بعضها ظاهر لا يخفى .

وقوله : « والله يعلم ما تصنعون » أي ما تفعلونه من خير أو شر فعليكم أن تراقبوه ولا تغفلوا عنه ففيه حث وتحريض على المراقبة وخاصة على القول الأول .

قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم » لما أمر في قوله : « اتل ما أوحى إليك » الخ بالتبليغ والدعوة من طريق تلاوة الكتاب عقبه ببيان كيفية الدعوة فهي عن مجادلة أهل الكتاب وهم على ما يقتضيه الإطلاق اليهود والنصارى ويلحق بهم المجوس والصابئون - إلا بالمجادلة التي هي أحسن المجادلة .

والمجادلة إنما تحسن إذا لم تتضمن إغلاظاً وطعناً وإهانة ، فمن حسنها أن تقارن رفقاً وليناً في القول لا يتأذى به الخصم وأن يقترب المجادل من خصمه ويدنونه حتى يتسافقا ويتعاضدا لإظهار الحق من غير لجاج وعناد فإذا اجتمع فيها لين الكلام والاقتراب بوجه زادت حسناً على حسن فكانت أحسن .

ولهذا لما نهى عن مجادلتهم إلا بالتي هي أحسن استثنى منه الذين ظلموا منهم فإن المراد بالظلم بقرينة السياق كون الخصم بحيث لا ينفعه الرفق واللين والاقتراب في المطلوب بل يتلقى حسن الجدل نوع مذلة وهوان للمجادل ويعتبره تمويها واحتيالاً

لصرفه عن معتقده فهؤلاء الظالمون لا ينجع معهم المجادلة بالأحسن .

ولهذا أيضاً عقب الكلام ببيان كيفية الاقتراب معهم وبناء المجادلة على كلمة يجتمع فيها الخصمان فيتقاربان معه ويتعاضدان على ظهور الحق فقال : « وقولوا آمناً بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلينا وإلهمكم واحد ونحن لهم مسلمون » والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون » أي على تلك الصفة وهي الإسلام لله و تصديق كتبه ورسله أنزلنا إليك القرآن .

وقيل : المعنى مثل ما أنزلنا إلى موسى وعيسى الكتاب أنزلنا إليك الكتاب وهو القرآن .

فقوله : « فالذين آتيناهم الكتاب » الخ تفريع على نحو نزول الكتاب أي لما كان القرآن نازلاً في الإسلام لله و تصديق كتبه ورسله فأهل الكتاب يؤمنون به بحسب الطبع لما عندهم من الإيمان بالله و تصديق كتبه ورسله ، ومن هؤلاء وهم المشركون من عبدة الأوثان من يؤمن به وما يجحد بآياتنا ولا ينكرها من أهل الكتاب وهؤلاء المشركين إلا الكافرون وهم الساترون للحق بالباطل .

وقد احتمل أن يكون المراد بالذين آتيناهم الكتاب المسلمين و المشار إليه بهؤلاء أهل الكتاب وهو بعيد ، ومثله في البعد إرجاع الضمير في « يؤمن به » إلى النبي صلى الله عليه وآله .

وفي قوله : « ومن هؤلاء من يؤمن به » نوع استقلال لمن آمن به من المشركين . قوله تعالى : « وما كنت تتلون من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون » التلاوة هي القراءة سواء كانت عن حفظ أو عن كتاب مخطوط والمراد به في الآية الثاني بقرينة المقام ، والخط الكتابة ، والمبطلون جمع مبطل وهو الذي يأتي بالباطل من القول ، ويقال أيضاً للذي يبطل الحق أي يدعي بطلانه والأنسب في الآية المعنى الثاني وإن جاز أن يراد المعنى الأول .

وظاهر التعبير في قوله: « وما كنت تتلو » الخ نفى العادة أي لم يكن من عادتك أن تتلو وتخط كما يدل عليه قوله في موضع آخر: « فقد لبث فيكم عمار من قبله » يونس: ١٦ .

وقيل المراد به نفى القدرة أي ما كنت تقدر أن تتلو وتخط من قبله والوجه الأول أنسب بالنسبة إلى سياق الحجّة وقد أقامها لتثبيت حقيقة القرآن ونزوله من عنده .
وتقييد قوله: « ولا تخطه » بقوله: « يمينك » نوع من التمثيل يفيد التأكيد كقول القائل: رأيته بعيني وسمعته بأذني .

والمعنى وما كان من عادتك قبل نزول القرآن أن تقرأ كتابا ولا كان من عادتك أن تخط كتابا وتكتبه - أي ما كنت تحسن القراءة والكتابة لكونك أمّيا - ولو كان كذلك لارتاب هؤلاء المبطلون الذين يطلبون الحق بدعوى أنه باطل لكن لما لم تحسن القراءة والكتابة واستمرت على ذلك وعرفوك على هذه الحال لمخالطتك لهم ومعاشرتكم معهم لم يبق محلّ ريب لهم في أمر القرآن النازل إليك أنه كلام الله تعالى وليس تليفقا لفقته من كتب السابقين ونقلته من أقاصيصهم وغيرهم حتى يرتاب المبطلون ويعتذروا به .

قوله تعالى: « بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » إضراب عن مقدّر يستفاد من الآية السابقة كأنه لما نفى عنه صلى الله عليه وآله التلاوة والخط معا تحصّل من ذلك أن القرآن ليس بكتاب مؤلف مخطوط فأضرب عن هذا المقدّر بقوله: « بل هو - أي القرآن - آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم » .

وقوله: « وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » المراد بالظلم بقرينة المقام الظلم لآيات الله بتكذيبها والاستكبار عن قبولها عنادا وتعنّتا .

قوله تعالى: « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين » لما ذكر الكتاب وأمر النبي ﷺ أن يتلو ويدعوهم إليه به وأن منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وهم الكافرون الظالمون أشار في هذه الآية

والآيتين بعدها إلى عدم اعتنائهم بالقرآن الذي هو آية النبوة واقتراحهم على النبي صلى الله عليه وآله أن يأتيهم بآيات غيره والجواب عنه .

فقوله : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه » اقتراح منهم أن يأتيهم بآيات غير القرآن تعريضاً منهم أنه ليس بآية وزعماً منهم أن النبي يجب أن يكون ذا قوة إلهية غيبية يقوى على كل ما يريد ، وفي قولهم : لولا أنزل عليه ، دون أن يقولوا : لولا يأتينا بآيات نوع سخرية كقولهم : « يأتينا الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون لوما تأتينا بآية إن كنت من الصادقين » الحجر : ٧ .

وقوله : « قل إنما الآيات عند الله » جواب عن زعمهم أن من يدعي الرسالة يدعي قوة غيبية بقدرها على كل ما أراد بأن الآيات عند الله ينزلها متى ما أراد وكيفما شاء لا يشاركه في القدرة عليها غيره فليس إلى النبي شيء إلا أن يشاء الله ثم زاده بيانا بقصر شأن النبي ﷺ في الإنذار فحسب بقوله : « وإنما أنا نذير مبين » .

قوله تعالى : « أو لم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » إلى آخر الآية توطئة و تمهيد للجواب عن تعريضهم بالقرآن أنه ليس بآية ، والاستفهام للانكار والخطاب للنبي ﷺ أي يكفيهم آية هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك وهو يتلى عليهم فيسمعونه ويعرفون مكانته من الإعجاز وهو مملو رحمة و تذكرة للمؤمنين .

قوله تعالى : « قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً » إلقاء جواب إلى النبي ﷺ ليحييهم به وهو أن الله سبحانه شهيد بيني وبينكم فيما تتخاصم فيه وهو أمر الرسالة فأنت سبحانه يشهد في كلامه الذي أنزله علي برسائلي وهو تعالى يعلم ما في السماوات والأرض من غير أن يجهل شيئاً وكفى بشهادته لي دليلاً على دعواي .

وليس لهم أن يقولوا إنه ليس بكلام الله لمكان تحديه مرة بعد مرة في خلال الآيات ومنه يعلم أن قوله : « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم » ليس دعوى مجردة أو كلاماً خطيبياً بل هو بيان استدلال وحجة قاطعة على ما عرفت .

وقوله « والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون » قصر الخسران فيهم لعدم إيمانهم بالله بالكفر بكتابه الذي فيه شهادته على الرسالة وهم بكفرهم بالله

الحقّ يؤمنون بالباطل ولذلك حسروا في إيمانهم .

قوله تعالى : « ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون » إشارة إلى قولهم كقول متقدميهم : اثنتا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، وقد حكى الله عنهم استعجالهم في قوله : « ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسهم » هود : ٨ .

والمراد بالأجل المسمى هو الذي قضاء لبني آدم حين أهبط آدم إلى الأرض فقال : « ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » البقرة : ٣٦ ، وقال : « ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » الأعراف : ٣٤ .

وهذا العذاب الذي يحول بينه وبينهم الأجل المسمى هو الذي يستحقونه لمطلق أعمالهم السيئة كما قال عز من قائل : « وربك الغفور ذو الرحمة لويؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً » الكهف : ٥٨ ولا ينافي ذلك تعجيل العذاب بنزول الآيات المقترحة على الرسول من غير إهمال وإنظار قال تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » أسرى : ٥٩ .

قوله تعالى : « يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين يوم يغشاهم العذاب » إلى آخر الآية تكرار « يستعجلونك » للدلالة على كمال جهلهم وفساد فهمهم وأن استعجالهم استعجال لأمر مؤجل لا معجل أو لا واستعجال لعذاب واقع لا صارف له عنهم لأنهم مجزيون بأعمالهم التي لا تفارقهم ثانياً .

والغشاة والغشاية التغطية بنحو الإحاطة وقوله : « يوم يغشاهم » ظرف لقوله : « محيطة » والباقي ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « وما يعقلها إلا العالمون » روى الواحدى بالاسناد عن جابر قال : تلا النبي صلى الله عليه وآله هذه الآية وقال : العالم الذي يعقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه .

وفيه في قوله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ صلى الله عليه وآله من لم تنه صلته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن عمران بن الحصين وابن مسعود وابن عباس و ابن عمر عنه رضي الله عنه ورواه القمي في تفسيره مضمراً مرسلأ .

وفيه أيضاً عن النبي ﷺ صلى الله عليه وآله : لا صلاة لمن لم تطع الصلاة وطاعة الصلاة أن تنتهي عن الفحشاء والمنكر .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن مسعود وغيره .

وفيه وروى أنس أن فتى من الأنصار كان يصلي الصلوات مع رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله ويرتكب الفواحش فوصف ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « إن صلته تنهاه يوماً ما » .

وفيه وروى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من أحب أن يعلم قبلت صلته أم لم تقبل ، فلينظر هل منعه صلته عن الفحشاء والمنكر فبقدر ما منعه قبلت صلته . وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولذكر الله أكبر » في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « ولذكر الله أكبر » يقول : ذكر الله لأهل الصلاة أكبر من ذكرهم إياه ألا ترى أنه يقول : « اذكروني أذكركم » .

أقول : وهذا أحد المعاني التي تقدم نقلها .

وفي نور الثقلين عن مجمع البيان وروى أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ذكر الله عندما أحلّ وحرّم .

وفيه عن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال : أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل .

وفيه وقال عليه السلام : يا معاذ إن السابقين الذين يسهرون بذكر الله عز وجل ومن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر من ذكر الله عز وجل .

وفي الكافي بإسناده عن العبدى عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « هل

هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، قال : هم الأئمة .
أقول : وهذا المعنى مروي في الكافي وفي بصائر الدرجات بعدة طرق : وهو من
 الجري بمعنى انطباق الآية على أكمل المصاديق بدليل الرواية الآتية .
 وفي البصائر باسناده عن يزيد بن معاوية عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت له : « بل
 هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » فقال : أنتم هم من عسى أن يكونوا ؟
 وفي الدر المنثور أخرج الإسماعيلي في معجمه وابن مردويه من طريق يحيى
 بن جعدة عن أبي هريرة قال : كان ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يكتبون من التوراة فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أحق الحمق
 وأضل الضلالة قوم رغبوا عما جاء به نبيهم إلى نبي غير نبيهم وإلى أمة غير أمتهم
 ثم أنزل الله « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » الآية .
 وفيه أخرج ابن عساكر عن ابن أبي مليكة قال : أهدى عبد الله بن عامر بن
 كريز إلى عائشة هدية فظننت أنه عبد الله بن عمر فردتها وقالت : يتتبع الكتب وقد
 قال الله : « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » فقيل لها : إنه عبد الله بن
 عامر فقبلها .
أقول : ظاهر الروايتين وخاصة الأولى نزول الآية في بعض الصحابة وسياق
 الآيات يأبى ذلك .





يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦)
 كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
 فِيهَا نِعَمٌ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩)
 وَكَانَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ
 الْعَلِيمُ (٦٠) .

﴿بيان﴾

لما استفرغ الكلام في توبيخ من ارتد عن دينه من المؤمنين خوف الفتنة عطف
 الكلام على بقية المؤمنين ممن استضعفه المشركون بمكة وكانوا يهدونهم بالفتنة والعذاب
 فأمرهم أن يصبروا ويتوكلوا على ربهم وأن يهاجروا منها إن أشكل عليهم أمر الدين
 وإقامة فرائضه ، وأن لا يخافوا أمر الرزق فإن الرزق على الله سبحانه وهو يرزقهم
 إن ارتحلوا وهاجروا كما كان يرزقهم في مقامهم .

قوله تعالى : « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ »
 توجيه للخطاب إلى المؤمنين الذين وقعوا في أرض الكفر لا يقدر على التظاهر بالدين
 الحق والاستئنان بسنته وبدل على ذلك ذيل الآية .

وقوله : « إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ » الذي يظهر من السياق أن المراد بالأرض هذه
 الأرض التي نعيش عليها وإضافتها إلى ضمير التكلم للإشارة إلى أن جميع الأرض لا
 فرق عنده في أن يعبد في أي قطعة منها كانت ، ووسع الأرض كناية عن أنه إن امتنع
 في ناحية من نواحيها أخذ الدين الحق والعمل به فهناك نواح غيرها لا يمتنع فيها

ذلك فعبادته تعالى وحده ليست بممتنعة على أي حال .

و قوله : « فإيتاي فاعبدون » الفاء الأولى للتفريع على سعة الأرض أي إذا كان كذلك فاعبدوني وحدي و الفاء الثانية فاء الجزاء للشرط المحذوف المدلول عليه بالكلام ، والظاهر أن تقديم « إيتاي » لإفادة الحصر فيكون قصر قلب والمعنى لا تعبدوا غيري بل اعبدوني ، و قوله : « فاعبدون » قائم مقام الجزاء .

و محصل المعنى أن « أرضي واسعة إن امتنع عليكم عبادتي في ناحية منها تسعكم لعبادتي أخرى منها فإذا كان كذلك فاعبدوني وحدي ولا تعبدوا غيري فإن لم يمكنكم عبادتي في قطعة منها فهاجروا إلى غيرها و اعبدوني وحدي فيها .

قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون » الآية تأكيد للأمر السابق في قوله : « فإيتاي فاعبدون » وكالتوطئة لقوله الآتي : « الَّذِينَ صَبَرُوا » الخ . و قوله : « كل نفس ذائقة الموت » من الاستعارة بالكناية والمراد أن « كل نفس ستموت لامحالة ، والاتفات في قوله : « ثم إلينا ترجعون » من سياق التكلم وحده إلى سياق التكلم مع الغير للدلالة على العظمة .

و محصل المعنى أن « الحياة الدنيا ليست إلّا أيتاماً قلائل و الموت وراءه ثم الرجوع إلينا للحساب فلا يصدّكم زينة الحياة الدنيا - وهي زينة فانية - عن التهيّء للقاء الله بالإيمان والعمل ففيه السعادة الباقية و في الحرمان منه هلاك مؤبد مخلّد .

قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا » الخ بيان لأجر الإيمان والعمل الصالح بعد الموت والرجوع إلى الله وفيه حث و ترغيب للمؤمنين على الصبر في الله والتوكل على الله ، و التبوئة الإزالة على وجه الإقامة ، والغرف جمع غرفة وهي في الدار ، العلية العالية .

و قد بين تعالى أولاً ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم سمّاهم عاملين إذ قال : « و نعم أجر العاملين » ثم فسر العاملين بقوله : « الَّذِينَ صَبَرُوا » و على ربهم يتوكلون ، فعاد بذلك الصبر والتوكل سمة خاصة للمؤمنين فدلّ بذلك كلّهُ أن المؤمن إنما يرضى عن إيمانه إذا صبر في الله و توكل عليه فعلى المؤمن أن يصبر في الله على كل

أذى وجفوة ما يجد إلى العيشة الدينية سبيلاً فإذا تعذرت عليه إقامة مراسم الدين في أرضه فليخرج وليهاجر إلى أرض غيرها وليصبر على ما يصيبه من التعب والعناء في الله .

قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » وصف للعاملين ، والصبر أعم من الصبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر عن المعصية ، وإن كان المورد مورد الصبر عند المصيبة فهو المناسب لحال المؤمنين بمكة المأمورين بالهجرة .

قوله تعالى : « وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » ، كأيّن للتكثير ، وحمل الرزق هو ادّخاره كما يفعله الإنسان والنمل والفار والنحل من سائر الحيوان .

وفي الآية تطيب لنفس المؤمنين وتقوية لقلوبهم أنهم لو هاجروا في الله أتاهم رزقهم أينما كانوا ولا يموتون جوعاً فرازقهم ربهم دون أوطانهم يقول : و كثير من الدواب لا رزق مدّخلها يرزقها الله و يرزقكم معاشر الآدميين الذين يدخرون الأرزاق وهو السميع العليم .

وفي تذييل الآية بالاسمين الكريمين السميع العليم إشارة إلى الحجة على مضمونها وهو أن الإنسان وسائر الدواب محتاجون إلى الرزق يسألون الله ذلك بلسان حاجتهم إليه والله سبحانه سميع للدعاء عليم بحوائج خلقه ومقتضى الاسمين الكريمين أن يرزقهم .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القميّ وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً » يقول : لاتطيعوا أهل الفسق من الملوك فإن خفتهم أن يفتنوكم عن دينكم فإن أَرْضِي وَاسِعَةً ، وهو يقول : « فيم كنتم قالوا كنتم استضعفين في الأرض » فقال : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » .
وفي المجمع وقال أبو عبد الله عليه السلام : معناه إذا عصي الله في أرض أنت بها فاخرج منها إلى غيرها .

وفي العيون بإسناده إلى الرضا عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : لما نزلت « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » قلت : يا ربَّ أيموت الخلائق كلهم و يبقى الأنبياء ؟ فنزلت « كل نفس ذائقة الموت » .

أقول : و رواه أيضاً في الدر المنثور عن ابن مردويه عن عليّ ، ولا يخلو منته عن شيء فإن قوله : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » يخبر عن موته ﷺ و موت سائر الناس ، وكان ﷺ يعلم أن الأنبياء المتقدمين عليه ماتوا فلا معنى لقوله : أيموت الخلائق كلهم و يبقى الأنبياء .

و في المجمع عن عطاء عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخلنا بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر و يأكل فقال لي : يا بن عمر ما لك لا تأكل ؟ فقلت : لأشتهي يا رسول الله . قال : أنا أشتهي و هذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاما و لو شئت لدعوت ربّي فأعطاني مثل ملك كسرى و قيصر فكيف بك يا بن عمر إذا بقيت مع قوم يخبأون رزق سنتهم لضعف اليقين فوالله ما برحنا حتى نزلت « وَ كَأَيِّنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

أقول : و قد روى الرواية في الدر المنثور و ضعف سندها وهي مع ذلك لا تلائم وقوع الآية في سياق ما تقدّمها .





وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ
الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي
الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)
لَيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلَيُتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا
أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالِ بَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ
وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَ
الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

﴿ بيان ﴾

الآيات تصرف الخطاب عن المؤمنين إلى النبي ﷺ وهو في المعنى خطاب عام
يشمل الجميع وإن كان في اللفظ خاصاً به ﷺ لأن الحجج المذكورة فيها مما
يناله الجميع .

والآيات تذكر مناقضات في آراء المشركين فيما أُلقي في الفصل السابق على المؤمنين فآمنوا به فأنهم يعترفون أن خالق السماوات والأرض ومدبر الشمس والقمر - و عليهما مدار الأرزاق - هو الله وأن منزل الماء من السماء ومحيي الأرض بعد موتها هو الله سبحانه ثم يدعون غيره ليرزقهم وهم يعبدونه تعالى إذا ركبوا البحر ثم إذا أنجاهم عبدوا غيره و يقيمون في حرم آمن و هو نعمة لهم فيؤمنون بالباطل ويحسدون الحق و يكفرون بنعمة الله .

و ما ختمت به السورة من قوله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » يلائم ما في مفتتح السورة « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون - إلى أن قال - و من جاهد فإنما يجاهد لنفسه » الخ .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض و سخر الشمس والقمر ليقولن الله فأننى يؤفكون » .

خلق السماوات والأرض من الابداد وتسخير الشمس والقمر - و ذلك بتحويل حالتهما بالطلوع والغروب والقرب والبعد من الأرض - من التدبير الذي يتفرع عليه كينونة أرزاق الإنسان و سائر الحيوان و هذا الخلق والتدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر فمن اعترف بأحدهما فليعترف بالآخر .

و إذا كان الله هو الخالق و بيده تدبير السماوات و يتبعه تدبير الأرض و كينونة الأرزاق كان هو الذي يجب أن يدعى للرزق و سائر التدبير فمن العجب حينئذ أن يصرف عنه الإنسان إلى غيره ممن لا يملك شيئاً و هو قوله : « فأننى يصرفون » أي فإذا كان الخلق و تدبير الشمس والقمر إليه تعالى فكيف يصرف هؤلاء إلى دعوة غيره من الأصنام وعبادته .

قوله تعالى : « الله يسطر الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له إن الله بكل شيء عليم » في الآية تصريح بما تلوح إليه الآية السابقة ، والقدر التضييق و يقابله البسط والمراد به لازم معناه و هو التوسعة ، و وضع الظاهر موضع المضمر في قوله : « إن الله بكل شيء عليم » للدلالة على تعليل الحكم والمعنى وهو بكل شيء عليم لأنه الله .

و المعنى الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء - ولا يشاء إلا على طبق المصلحة - لأنه بكل شيء عليم لأنه الله الذي هو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحياه الأَرْض بعد موتها - إلى قوله - لا يعقلون » المراد بأحياه الأَرْض بعد موتها إنبات النبات في الربيع .
وقوله : « قل الحمد لله » أي الحمد لله على تمام الحجة عليهم باعترافيهم بأن الله هو المدبر لا أمر خلقه فلزمهم أن يعبدوه دون غيره من الأصنام وأرباب الأصنام .
وقوله : « بل أكثرهم لا يعقلون » أي لا يتدبرون الآيات ولا يحكمون العقول حتى يعرفوا الله ويميزوا الحق من الباطل فهم لا يعقلون حق التعقل .

قوله تعالى « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » الله ما يلهيك ويشغلك عما يهتك فالحياة الدنيا من اللهو لأنها تلهي الإنسان وتشتله بزينتها المزوقة الفانية عن الحياة الخالدة الباقية .
واللهو فعل أو أفعال منتظمة انتظاماً خيالياً لغاية خيالية كملعب الصبيان والحياة الدنيا لعب لأنها فانية سريعة البطلان كلعب الصبيان يجتمعون عليه ويتوَلَّعون به ساعة ثم يتفرقون وسرعان ما يتفرقون .

على أن عامة المقاصد التي يتنافس فيها المتنافسون ويتكالب عليها الظالمون أمور وهمية سرابية كالأموال والأزواج والبنين وأنواع التقدم والتصدر والرئاسة والملووية والخدم والأنصار وغيرها فالإنسان لا يملك شيئاً منها إلا في ظرف الوهم والخيال .

وأما الحياة الآخرة التي يعيش فيها الإنسان بكماله الواقعي الذي اكتسبه بإيمانه وعمله الصالح فهي المهمة التي لالهو في الاشتغال بها والجهد الذي لالعب فيها ولا لغو ولا تأثيم ، والبقاء الذي لا فناء معه ، واللذة التي لا ألم عندها ، والسعادة التي لا شقاء دونها ، فهي الحياة بحقيقة معنى الكلمة .

و هذا معنى قوله سبحانه : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان » .

وفي الآية - كما نرى - قصر الحياة الدنيا في اللهو واللعب والإشارة إليها بهذه المفيدة للتحقير وقصر الحياة الآخرة في الحيوان وهو الحياة وتأكيد أدوات التأكيد كان واللام وضمير الفصل والجملة الاسمية .

وقوله : « لو كانوا يعلمون » أي لو كانوا يعلمون لعلموا أن الأمر كما وصفنا .
قوله تعالى : « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » تبريع على ما تحصل من الآيات السابقة من شأنهم وهو أنهم يؤفكون وأن كثيراً منهم لا يعقلون أي لما كانوا يؤفكون ويصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وأكثرهم لا يعقلون ويناقضون أنفسهم بالاعتراف والجحد فاذا ركبوا الفلك والركوب الاستعلاء بالجلوس على الشيء المتحرك وهو متعدت بنفسه وتعديته في الآية بفي لتضمنه معنى الاستقرار أو ما يشبهه والمعنى فاذا ركبوا مستقرين في الفلك أو استقرّوا في الفلك راكبين ، ومعنى الآية ظاهر وهي تحكي عنهم تناقضا آخر وكفرانا للنعمة .

قوله تعالى : « ليكفروا بما آتيناهم وليمتمتعوا فسوف يعلمون » اللام في « ليكفروا » و « ليمتمتعوا » لام الأمر وأمر الأمر بما لا يرتضيه تهديد وإنذار كقولك لمن تهدده : « افعل ما شئت » قال تعالى : « اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » حم السجدة : ٤٠ .

واحتمل كون اللام للغاية والمعنى أنهم يأتون بهذه الأعمال لتنتهي بهم إلى كفران النعمة التي آتيناهم وإلى التمتع ، وأول الوجهين أوفق لقوله في ذيل الآية : « فسوف يعلمون » ويؤيده قوله في موضع آخر : « ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » الروم : ٣٤ و لذا قرأه من قرء « و ليمتمتعوا » بسكون اللام إذ لا يسكن غير لام الأمر .

قوله تعالى : « أولم يروا أننا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ، الحرم الآمن هو مكة وما حولها وقد جعله الله مأمنا بدعاء إبراهيم عليه السلام » ويتخطف كالخطف استلاب الشيء بسرعة واختلاسه وقد كانت العرب يومئذ تعيش في التغاور

والتناهب ولا يزالون يغير بعضهم على بعض بالقتل والسبي والنهب لكنهم يحترمون الحرم ولا يتعرّضون لمن أقام بها فيها .

والمعنى أولم ينظروا أننا جعلنا حرماً آمناً لا يتعرّض لمن فيه بقتل أو سبي أو نهب والحال أن الناس يختلسون من حولهم خارج الحرم .

وقوله : « أفبالباطل يؤمنون و بنعمة الله يكفرون » توبيخ آخر لهم حيث يقابلون هذه النعمة وهي نعمة عظيمة بالكفران لكنهم يؤمنون بالأصنام وهي باطلة ليس لها إلا الاسم .

قوله تعالى : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه ليس في جهنم مثوى للكافرين » تهديد لهم بالنار بتوسيمهم بأشدّ الظلم وأعظمه وهو افتراء الكذب على الله بالقول بالآلهة وأن الله اتخذهم شركاء لنفسه ، وتكذيب الإنسان بالحق لما جاءه والوصفان جميعاً موجودان فيهم فقد عبدوا الأصنام وكذبوا بالقرآن لما جاءهم فهم كفرون ومثوى الكافرين ومحل إقامةهم في الآخرة جهنم .

قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » الجهد الوسع والطاقة والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس كذا ذكره الراغب .

وقوله : « جاهدوا فينا » أي استقرّ جهادهم فينا وهو استعارة كناية عن كون جهدهم مبدولاً فيما يتعلق به تعالى من اعتقاد وعمل ، فلا ينصرف عن الإيمان به والالتزام بأوامره والانتفاء عن نواحيه بصارف يصرفه .

وقوله : « لنهدينهم سبلنا » أثبت لنفسه سبلاً وهي أيّاماً كانت تنتهي إليه تعالى فإنما السبيل سبيل لتأديته إلى ذي السبيل وهو غايتها فسبيله هي الطرق المقربة منه والهادية إليه تعالى ، وإن كانت نفس المجاهدة من الهداية كانت الهداية إلى السبيل هداية على هداية فتتطبق على مثل قوله تعالى : « والذين اهتدوا زادهم هدى القتال : ١٧ .

ومما تقدم يظهر أن الحاجة في قوله : « فينا » إلى تقدير مضاف كشأن والتقدير في شأننا .

وقوله : « وإن الله لمع المحسنين » قيل : أي معية النصرة والمعونة و تقدم الجهاد المحتاج إليهما قرينة قوية على إرادة ذلك انتهى وهو وجه حسن وأحسن منه أن يفسر بمعية الرحمة والعناية فيشمل معية النصرة والمعونة وغيرهما من أقسام العناية التي له سبحانه بالمحسنين من عباده لكمال عنايته بهم و شمول رحمته لهم ، و هذه المعية أخص من معية الوجود الذي ينبىء عنه قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » الحديد : ٤ .

وقد تقدمت الإشارة إلى أن الآية خاتمة للسورة منعطفة على فاتحتها .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جعفر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الحيوان وهو يسعى لدار الغرور .

وفيه أخرج جويرير عن الضحاك عن ابن عباس أنهم قالوا : يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا والعرب أكثر منا فمتى بلغهم أننا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس فأنزل الله : « أولم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً » الآية .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : هذه الآية لآل محمد عليهم السلام ولا شياهم .

سورة الروم مكيّة وهي ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ
وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ
وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ
غَافِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِأَحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ
لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا
وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسَاءُوا السَّوْءَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) اللَّهُ يَمْدُدُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ
لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ
السَّاعَةُ يُتَفَرَّقُونَ (١٤) فَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِيهِمْ

فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ
الْآخِرَةِ فَاُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ
وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ
تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ
يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩).

﴿بيان﴾

تفتتح السورة بوعد من الله وهو أن الروم ستغلب الفرس في بضع سنين بعد انزمامهم
أيام نزول السورة عن الفرس ثم تنتقل منه إلى ذكر ميعاد أكبر وهو الوعد بيوم يرجع
الكل فيه إلى الله وتقيم الحجة على المعاد ثم تنعطف إلى ذكر آيات الربوبية
وتصف صفاته تعالى الخاصة به ثم تختتم السورة بوعد النصر للنبي ﷺ وتؤكد
القول فيه إذ تقول : « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفّنك الذين لا يوقنون، وقد
قيل قبيل ذلك : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

ففرض السورة هو الوعد القطعي منه تعالى بنصره دينه وقد قدّم عليه نصر
الروم على الفرس في بضع سنين من حين النزول ليستدل بأن إنجاز هذا الوعد على
إنجاز ذلك الوعد ، وكذا يحتاج به ومن طريق العقل على أنه سينجز وعده بيوم القيامة
لأريب فيه .

قوله تعالى : « غلبت الروم في أدنى الأرض ، الروم جيل من الناس على ساحل
البحر الأبيض بالمغرب كانت لهم امبراطورية واسعة منبسطة إلى الشامات وقعت بينهم
وبين الفرس حرب عوان في بعض نواحي الشام قريب من الحجاز فغلبت الفرس و انهزمت
الروم ، والظاهر أن المراد بالأرض أرض الحجاز واللام للعهد .

قوله تعالى : « وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » ضمير الجمع الأول للروم وكذا الثالث و أما الثاني فقد قيل إنه للفرس والمعنى والروم من بعد غلبة الفرس سيغلبون ، ويمكن أن يكون القلب من المصدر المبني للمفعول والضمير للروم كالضميرين قبلها وبعدها فلا تختلف الضمائر والمعنى والروم من بعد مغلوبيتهم سيغلبون . و البضع من العدد من ثلاثة إلى تسعة .

قوله تعالى : « لله الأمر من قبل ومن بعد » قبل وبعد مبنيان على الضم فهناك مضاف إليه مقدّر و التقدير لله الأمر من قبل أن غلبت الروم ومن بعد أن غلبت يأمر بما يشاء فينصر من يشاء ويخذل من يشاء .

وقيل المعنى لله الأمر من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين أي وقت كونهم مغلوبين و وقت كونهم غالبين والمعنى الأول أرجح إن لم يكن راجحاً متعيناً .

قوله تعالى : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » الظرف متعلق بفرح وكذا قوله : « ينصر » والمعنى ويومئذ إن يغلب الروم يفرح المؤمنون بنصر الله الروم ، ثم استأنف و قال : « ينصر من يشاء » تقريراً لقوله : « لله الأمر من قبل ومن بعد » .

وقوله : « وهو العزيز الرحيم » أي عزيز يعز بنصره من يشاء رحيم يخص برحمته من يشاء .

و في الآية وجوه أخر ضعيفة ذكرها :

منها أن قوله : « ويومئذ » عطف على قوله : « من قبل » والمراد به شمول سلطنته تعالى لجميع الأزمنة الثلاثة : الماضي والمستقبل والحال كأنه قيل : لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ ثم ابتداء وقيل : يفرح المؤمنون بنصر الله . وفيه أنه يبطل انسجام الآية و ينقطع به آخرها عن أولها .

ومنها أن قوله : « بنصر » متعلق بقوله : « المؤمنون » دون « يفرح » ويدل بالملازمة المقامية أن غلبة الروم بنصر من الله .

و فيه أن لازمه أن يفرح المؤمنون يوم غلبة الفرس و يوم غلبة الروم جميعا فإن في الغلبة نصرا و كل نصر من الله قال تعالى : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » آل عمران : ١٢٦ فقصر فرح المؤمنين بالنصر بيوم غلبة الروم ترجيح بلا مرجح فافهمه .

ومنها أن المراد بنصر الله نصر المؤمنين على المشركين يوم بدر دون نصر الروم على الفرس و إن توافق النصران زمانا فكانته قيل : إن الروم سيغلبون في بضع سنين و يوم يغلبون يغلب المؤمنون المشركين فيفرحون بنصر الله إياهم .

و فيه أن هذا المعنى لا يلائم قوله بعد : « ينصر من يشاء »

و منها أن المراد بالنصر نصر المؤمنين بصدق إخبارهم بغلبة الروم ، و قيل : النصر هو استيلاء بعض الكفار على بعض و تفرق كلمتهم و انكسار شوكتهم . و هذان وما يشبههما وجوه لا يعبؤها .

قوله تعالى : « وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » « وعد الله » مفعول مطلق محذوف العامل و التقدير وعد الله وعداً وإخلاف الوعد خلاف إنجاز و قوله : « وعد الله » تأكيد و تقرير للوعد السابق في قوله : « سيغلبون » و « يفرح المؤمنون » كما أن قوله : « لا يخلف الله وعده » تأكيد و تقرير لقوله : « وعد الله » . و قوله : « لا يخلف الله وعده » كقوله : « إن الله لا يخلف الميعاد » الرعد : ٣١ و خلف الوعد وإن لم يكن قبيحا بالذات لأنه ربما يحسن عند الاضطرار لكنه سبحانه لا يضطره ضرورة فلا يحسن منه خلف الوعد في حال .

على أن خلف الوعد يلزم النقص دائما و يستحيل النقص عليه تعالى . على أنه تعالى أخبر في كلامه بأنه لا يخلف الميعاد و هو أصدق الصادقين و هو القائل عز من قائل : « والحق أقول » ص : ٨٤ .

و قوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » أي هم جهلاء بشؤونه تعالى لا يتقون بوعده و يقيسونه إلى أمثالهم ممن يصدق و يكذب و ينجز و يخلف .

قوله تعالى : « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون »

جملة « يعلمون » على ما ذكره في الكشف بدل من قوله : « لا يعلمون » ، وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسدّد ليعلّمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا انتهى .
وقيل : الجملة استثنائية لبيان موجب جهلهم بأن وعد الله حق وأن الله الأمر من قبل ومن بعد وأنه ينصر المؤمنين على الكافرين . انتهى وهذا أظهر .
و تنكير « ظاهراً » للتحقير وظاهر الحياة الدنيا ما يقابل باطنها وهو الذي يناله حواسهم الظاهرة من زينة الحياة فيرشدهم إلى اقتنائها والعكوف عليها والإخلاص إليها ونسيان ما وراءها من الحياة الآخرة والمعارف المتعلقة بها والغفلة عما فيه خيرهم ونفعهم بحقيقة معنى الكلمة .

وقيل : الظهور في الآية بمعنى الزوال واستشهد بقوله :

وغيرها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

والمعنى يعلمون أمراً زائلاً لا بقاء له لكنه معنى شاذ الاستعمال .

قوله تعالى : « أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » الخ المراد من خلق السموات والأرض وما بينهما - ذلك جملة العالم المشهود - بالحق أنها لم تخلق عبثاً لا غاية لها وراءها بأن يوجد وعدم ثم يوجد ثم بعدم من غير غرض وغاية فهو تعالى إنما خلقها لغاية تترتب عليها .

ثم إن العالم بأجزائها ليس بدائم الوجود غير منقطع الآخر حتى يحتمل كون كل جزء لاحق غاية للجزء السابق وكل آت خلفاً لماضيه بل هو بأجزائه فان بائد فهناك غاية مقصودة من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم وهذا المعنى هو المراد بتقييد قوله : « ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما » بقوله : « وأجل مسمى » بعد تقييده بقوله : « إلا بالحق » .

فقوله : « أولم يتفكروا في أنفسهم » الاستفهام للتعجيب ، وكونهم في أنفسهم استعارة كناية عن فراغ البال وحضور الذهن كأنهم عند اشتغالهم بأُمور الدنيا وسعيهم للمعيشة

و تشوش البال يغيبون عن أنفسهم فيكونون عند حضور الذهن حاضرين مستقرّين في أنفسهم فيكون تفكّرهم حينئذ مجتمعا غير متفرّق فيهديهم إلى الحق و يرشدهم إلى الواقع .

وقيل : المراد بتفكّرهم في أنفسهم أن يتفكّروا في خلق أنفسهم و أن الواحد منهم محدث و المحدث - بالفتح - يحتاج إلى محدث - بالكسر - قديم حيّ قادر عليم حكيم فلا يخلق ما يخلق عبثا بل لغاية مطلوبة وليست تعود إليه نفسه لغناء المطلق بل إلى الخلق و هو الثواب ولا يكون إلا صالح العمل فلا بدّ من دين مشرّع يميّز العمل الصالح من السيئ فلا بدّ من دار يمتحنون فيها وهي الدنيا و دار يثابون فيها وهي الآخرة .

و فيه أن الجملة أعني قوله : « أولم يتفكّروا في أنفسهم » صالح في نفسه لأن يراد منها هذا المعنى لكن اتصال قوله : « ما خلق الله السماوات » الخ بها يأباه لاستلزامه بطلان الاتصال لعدم الارتباط بين صدر الآية و ذيلها على هذا التقدير .

وقوله : « ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق و أجل مسمى » هو الفكر الذي يجب عليهم أن يمعنوا فيه النظر في أنفسهم و تقريره على ما تقدّم أن الله سبحانه ما خلق هذا العالم كلاً ولا بعضاً إلا خلقاً ملبساً للحقّ أو مصاحباً للحقّ أي لغاية حقيقة لا عبثاً لا غاية له و إلا إلى أجل معين فلا يبقى شيء منها إلى مالا نهاية له بل يفنى و ينقطع و إذا كان كلّ من أجزائه والمجموع مخلوقاً ذا غاية ترتّب عليها و ليس شيء منها دائم الوجود كانت غايته مترتبة عليه بعد انقطاع وجوده و فنائه ، و هذا هو الآخرة التي ستظهر بعد انقضاء الدنيا و فنائها .

و قوله : « و إن كثيراً من الناس بقاء ربهم كفرون » مسوق سوق التعجيب كما بدت الآية باستفهام التعجيب ، والمراد بقاء الله هو الرجوع إليه في المعاد ، وقد عبّر عنه باللقاء ليزداد كفرهم به عجباً فكيف يمكن أن يتبدّوا منه ثم لا ينتهوا إليه ، و لذلك أكّده بأن إشارة إلى أن الكفر بالمعاد من شأنه في نفسه أن لا يصدّق به .

قوله تعالى : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ،

إلى آخر الآية ، لما ذكر كفر كثير من الناس بالمعاد وذلك أمر يلغو معه الدين الحق ذكرهم حال الأمم الكافرة وما انتهت إليه من سوء العذاب لعلمهم يعتبرون بها فيرجعوا عما هم عليه من الكفر. وإثارة الأرض قلبها ظهر البطن للحرث والتعمير ونحو ذلك . وقوله : « و لكن كانوا أنفسهم يظلمون » أي بالكفر والمعاصي .

قوله تعالى : « ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن » بيان لما انتهى إليه أمر أولئك الظالمين ولذا عبر بشم و « عاقبة » بالنصب خبر كان واسمه « السوآى » قدّم الخبر عليه لإفادة الحصر و « أساؤا » مقطوع عن المتعلق بمعنى عملوا السوء ، والسوآى الخلّة التي يسوء صاحبها والمراد بها سوء العذاب و « أن كذبوا بآيات الله » بحذف لام التعليل والتقدير لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها .

والمعنى ثم كان سوء العذاب هو الذي انتهى إليه أمر أولئك الذين عملوا السوء لم تكن لهم عاقبة غيرها لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها .

وقيل : إن « السوآى » مفعول لقوله : « أساؤا » ، وخبر كان هو قوله : « أن كذبوا » النخ والمراد أن المعاصي ساقطهم إلى الكفر بتكذيب آيات الله والاستهزاء بها . وفيه أنه في نفسه معنى صحيح لكن المناسب للمقام هو المعنى الأول لأنّ المقام مقام الاعتبار والإنذار والمناسب له بيان انتهاء معاصيهم إلى سوء العذاب لانتهاء معاصيهم المتفرقة إلى التكذيب والاستهزاء الذي هو أعظمها .

قوله تعالى : « الله يبدء الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون » بعد ما ذكر الحجة وتكذيب كثير من الناس لخص القول في نتيجتها وهو أن البدء والعود بيده سبحانه و يرجع إليه الجميع ، والمراد بالخلق المخلوقون ولذا أرجع إليه ضمير الجمع في « ترجعون » .

قوله تعالى : « و يوم تقوم الساعة يبلس المجرمون » ذكر حال المجرمين بعد قيام الساعة وهي ساعة الرجوع إليه تعالى للحساب والجزاء ، والإبلاس اليأس عن الله وفيه كل الشقاء .

قوله تعالى : « ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين » يريد أنهم على بأسهم من الرحمة من ناحية أعمالهم أنفسهم آيسون من آلهتهم الذين اتخذوهم شركاء لله فعبدوهم ليشفعوا لهم عند الله كما كانوا يقولون في الدنيا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله و كانوا بعبادة شركائهم كافرين ساترين .

قوله تعالى : « و يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون - إلى قوله - محضرون » قال في المجمع : الروضة البستان للتناهي منظر أوطياً انتهى ، و قال في المفردات : العبر الأثر المستحسن - إلى أن قال - وقوله عز وجل : « في روضة يجبرون » أي يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم انتهى .

والمراد بتفرق الخلق يومئذ تميز المؤمنين الصالحين من المجرمين و دخول هؤلاء النار و دخول أولئك الجنة على ما يشير إليه الآيتان التاليتان .

و لزوم هذا التمييز و التفرق في الوجود هو الذي أخذه الله سبحانه حجة على ثبوت المعاد حيث قال : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم و مماتهم ساء ما يحكمون » الجائية : ٢١ .

قوله تعالى : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض و عشياً و حين تظهرون » لما ذكر أنه يبدء الخلق ثم يعيدهم و يرجعهم للقاءه فيفرقهم طائفتين أهل الجنة و النعمة و أهل النار و العذاب أمّا أهل الجنة فهم المؤمنون العاملون للصالحات و أمّا أهل النار فهم الكفار المكذبون لآيات الله و قد ذكر أنهم كانوا في الدنيا أهل قوة و نعمة لكنهم نسوا الآخرة و كذبوا بآيات الله و استهزؤا بها حتى انتهى بهم الأمر إلى سوء العذاب عذاب الاستئصال جزاء لظلمهم أنفسهم و ما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفسهم يظلمون .

فحصل من ذلك أن في دار الخلقة تديرا إلهيا متقنا صالحا جميلا على أجل ما يكون و أن للإنسان على توالي الأزمنة و الدهور آثاماً و خطيئات من العقيدة السيئة في حق ربه و اتخاذ شركاء له و إنكار لقائه إلى سائر المعاصي .

ذبل الكلام بتسبيحه كلما تجدد حين بعد حين و تحميده على صنعه و تدييره

في السماوات والأرض وهو مجموع العالم المشهود فهو سبحانه منزّه عن هذه الاعتقادات الباطلة والأعمال الرديئة ومحمود في جميع ما خلقه ودبره في السماوات والأرض .
و من هناك يظهر :

أوّلًا أن التسبيح والتحميد في الآيتين إنشاء تنزيه وثناء منه تعالى لا من غيره حتى يكون المعنى قولوا سبحان الله وقولوا الحمد لله فقد تكرر في كلامه تعالى تسبيحه وتحميده لنفسه كقوله : « سبحان ربّ العزّة » الصافات : ١٨٠ وقوله : « الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده » الفرقان : ١ .

و ثانيًا أن المراد بالتسبيح والتحميد معناهما المطلق دون الصلوات اليومية المفروضة كما يقول به أكثر القائلين بكون القول مقدّمًا والمعنى قولوا سبحان الله وقولوا الحمد لله .

و ثالثًا أن قوله : « وله الحمد في السماوات والأرض » معترضة واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه ، وقوله : « وعشيًا وحين تظهرون » معطوفان على محلّ « حين تمسون » لا على قوله : « في السماوات والأرض » حتى يختصّ المساء والصباح بالتسبيح والسماوات والأرض والعشي والظهيرة بالتحميد بل الأوقات وما فيها للتسبيح والأمكنة وما فيها للتحميد .

فالسباق يشير إلى أن ما في السماوات والأرض من خلق وأمر هو الله يستدعي بحسنه حمدًا وثناءً لله سبحانه وأنّ للإنسان على مرّ الدهور وتغيّر الأزمنة والأوقات من الشرك والمعصية ما ينتزّه عنه ساحة قدسه تعالى وتقدّس .

نعم ههنا اعتبار آخر يتداخل فيه التحميد والتسبيح وهو أن الأزمنة والأوقات على تغيّرها وتصرّفها من جملة ما في السماوات والأرض فهي بوجودها يشني على الله تعالى ، ثمّ كلّ ما في السماوات والأرض بقهرها إليه تعالى وذلتها دونه ونقصها بالنسبة إلى كماله تعالى تسبّحه كما قال : « وإن من شيء إلّا يسبح بحمده » أسرى : ٣٤ لكن هذا الاعتبار غير منظور إليه في الآيتين اللتين نحن فيهما .

و للمفسّرين في الآيتين أقوال أخر متفرّقة أشرنا إلى أهمّها منها في الوجوه التي قدّمناها .

و تغيير السياق في قوله : « وعشيًا ، لكون العشيّ لم يبين منه فعل من باب الإفعال بخلاف المساء والصباح والظهرية حيث بني منها الإساء والاصباح والإظهار بمعنى الدخول في المساء والصباح والظهرية كذا قيل .

والخطاب الذي في الآيتين في قوله : « تمسون وتصبحون وتظهرون » ليس من الالتفات في شيء بل تعميم للخطاب الذي للنبي ﷺ منذ شرعت السورة والمعنى فإذا كان الأمر على هذه السبيل فالله منزّه حينما دخلتم أنتم معاشر البشر في مساء و حينما دخلتم في صباح وفي العشيّ وحينما دخلتم في ظهيرة وله الثناء الجميل في السماوات والأرض .

و نظير هذا التعميم ما في قوله سابقا : « وإليه ترجعون » ولاحقا في قوله : « و كذلك تخرجون » .

قوله تعالى : « يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ » و يحيي الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون ، ظاهر إخراج الحيّ من الميت و بالعكس خلق ذوي الحياة من الأرض الميتة ثمّ تبديل ذوي الحياة أرضا ميتة ، وقد فسرّ بخلق المؤمن من الكافر و خلق الكافر من المؤمن فإنّه يعدّ المؤمن حيّا و الكافر ميتا قال تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه و جعلنا له نورا » الانعام : ١٢٢ .

و أمّا إحياء الأرض بعد موتها فهو انتعاش الأرض وابتهاجها بالنبات في الربيع والصيف بعد خمودها في الخريف والشتاء وقوله : « و كذلك تخرجون » أي تبعثون و تخرجون من قبوركم بإحياء جديد كإحياء الأرض بعد موتها ، و قد تقدّم تفسير نظير صدر الآية و ذيلها مرارا .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج أحمد والترمذي و حسنّه والنسائي و ابن المنذر وابن أبي حاتم و الطبراني في الكبير والحاكم وصحّحه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء عن ابن عباس في قوله : « ألم غلبت الروم » قال : غلبت و غلبت .

قال : كان المشركون يحبّون أن يظهر فارس على الروم ، لأنّهم أصحاب أوثان و كان المسلمون يحبّون أن يظهر الروم على فارس لأنّهم أصحاب كتاب فذكروه لأبي بكر فذكّره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : أما إنّهم سيغلبون فذكّره أبو بكر لهم فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل لهم خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : ألا جعلته - أراه قال : - دون العشر ، فظهرت الروم بعد ذلك فذلك قوله : الم غلبت الروم فغلبت ثم غلبت بعد .

يقول الله : « لله الأمر من قبل و من بعده و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » ، قال سفيان : سمعت أنّهم قد ظهوروا يوم بدر .

أقول : و في هذا المعنى روايات أخر مختلفة المضامين في الجملة ففي بعضها أنّ المقامرة كانت بين أبي بكر وأبي بن خلف و في بعضها أنّها كانت بين المسلمين والمشركين و كان أبو بكر من قبل المسلمين وأبي بن خلف من قبل المشركين ، و في بعضها أنّها كانت بين الطائفتين ، و في بعضها بين أبي بكر و بين المشركين كما في هذه الرواية .
ثمّ الأجل المضروب في بعضها ثلاث سنين ، و في بعضها خمس ، و في بعضها ست ، و في بعضها سبع سنين .

و في بعضها أنّ الأجل المضروب أوّلا انقضى بمكّة و هو سبع سنين فمادّهم أبو بكر سنتين بأمر من النبي ﷺ فغلبت الروم ، و في بعضها خلافه .
ثمّ في بعضها أنّ الأجل الثاني انقضى بمكّة و في بعضها أنّه انقضى بعد الهجرة و كانت غلبة الروم يوم بدر ، و في بعضها يوم الحديبية .
و في بعضها أنّ أبا بكر لما قمرهم بغلبة الروم أخذ منهم الخبز و هو مائة قلووس و جاء به إلى النبي ﷺ فقال : إنّه سحت تصدّق به .

والذي تتفق فيه الروايات أنّه قمرهم فقمرهم وكان القمار بائنة من النبي ﷺ و وجه ذلك أنّه كان قبل تحريم القمار فإنّه حرّم مع الخمر في سورة المائدة وقد نزلت في آخر عهد النبي ﷺ .

وقد تحقق بما قد مناه في تفسير آية الخمر والميسر أن الخمر كانت محرمة من أول البعثة و كان من المعروف من الدين أنه يحرم الخمر والزنا .

على أن الخمر والميسر من الإثم بنص آية البقرة : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير » الآية البقرة : ٢١٩ . والإثم محرم بنص آية الأعراف : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي » الآية الأعراف : ٣٣ والأعراف من العتائق النازلة بمكة فمن الممتنع أن يشير النبي ﷺ بالمقاهرة .

وعلى تقدير تأخر الحرمة إلى آخر عهد النبي ﷺ يشكل قوله ﷺ لأبي بكر لما أتى بالخطر إليه إنه سحت ثم قوله : تصدق به . فلا سبيل إلى تصحيح شيء من ذلك بالموازين الفقهية وقد تكلفوا في توجيه ذلك بما لا يزيد إلا إشكالا .

ثم إن ما في الرواية أن الفرس كانوا عبدة الأوثان لا يوافق ما كان عليه القوم فانهم وإن كانوا مشركين لكنهم كانوا لا يتخذون أوثانا .

و في تفسير القمي في قوله : « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا و هم عن الآخرة هم غافلون » قال : يرون حاضر الدنيا و يتغافلون عن الآخرة .

و في الخصال و سئل الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى : « أولم يسيروا في الأرض » فقال : أولم ينظروا في القرآن .

و في تفسير القمي و قوله عز وجل : « و يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون » قال : إلى الجنة والنار .



وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠)
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ
آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ أَنْتُمْ أَنْ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَإِبْتَغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ (٢٣) وَمِنْ
آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ
تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا
أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُتُونَ (٢٦).

﴿بيان﴾

يذكر في هذا الفصل عدة من الآيات الدالة على وحدانيته تعالى في الربوبية
والألوهية ، و يشار فيها إلى امتزاج الخلق والتدبير وتداخلهما ليتضح بذلك أن
الربوبية بمعنى ملك التدبير والألوهية بمعنى المعبودية بالحق لا يستحقهما
إلا الله الذي خلق الأشياء وأوجدها لا كما يزعم الوثني أن الخلق لله وحده والتدبير
والعبادة لأرباب الأصنام ليكونوا شفعاء لهم عند الله ، وليس له سبحانه إلا أنه رب

الأرباب وإله الآلهة .

قوله تعالى : « و من آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون »
المراد بالخلق من تراب انتهاء خلقه الإنسان إلى الأرض فإن مراتب تكون الإنسان من مضغة أو علقة أو نطفة أو غيرها مركبات أرضية تنتهي إلى العناصر الأرضية .
و قوله : « ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » إذا فجائية أي يفاجئكم أنكم أناسي تنتشرون في الأرض أي يخلقكم من تركيبات أرضية المترقبة منها كبنوة أرضية ممتدة أخرى مثلها لكن يفاجئكم دفعة أنه يصير بشرا ذوي حياة و شعور عقلي ينتشرون في الأرض في سبيل تدبير أمر الحياة فقوله : « ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » في معنى قوله : « ثم أنشأناه خلقا آخر » المؤمنون : ١٤ .

فخلق الإنسان أي جمع أجزائه من الأرض وتأليفها آية و كبنوة هذا المجموع إنسانا ذا حياة و شعور عقلي آية أو آيات أخر تدل على صانع حكيم يدبر الأمر و يجري هذا النظام العجيب .

وقد ظهر بهذا المعنى أن « ثم » للتراخي الربوبي والجملة معطوفة على قوله : « خلقكم »
لا على قوله : « أن خلقكم » .

قوله تعالى : « و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها »
إلى آخر الآية قال الراغب : يقال لكل واحد من القرينين من الذكر و الأنثى من الحيوانات المتزاوجة : زوج و لكل قرينين فيها و في غيرها : زوج ، قال تعالى :
« وجعل منه الزوجين الذكور و الأنثى » وقال : « و زوجك الجنة » و زوجة لغة رديئة و جمعها زوجات - إلى أن قال - و جمع الزوج أزواج . انتهى .

فقوله : « أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها » أي خلق لأجلكم - أو لينفعكم - من جنسكم قرائن وذلك أن كل واحد من الرجل و المرأة مجهز بجهاز التناسل تجهيزاً يتم فعله بمقارنة الآخر و يتم بمجموعهما أمر التوالد و التناسل فكل واحد منهما ناقص في نفسه مقتدر إلى الآخر و يحصل من المجموع واحد تام له أن يلد و ينسل ، و لهذا النقص و الافتقار يتحرك الواحد منهما إلى الآخر حتى إذا اتصل

به سكن إليه لأن كل ناقص مشتاق إلى كماله و كل مفقر مائل إلى ما يزيل فقره
و هذا هو الشبق المودع في كل من هذين القرينين .

وقوله : « وجعل بينكم مودة ورحمة » المودة كأنها الحب الظاهر أثره في
مقام العمل فنسبة المودة إلى الحب كنسبة الخضوع الظاهر أثره في مقام العمل إلى
الخشوع الذي هو نوع تأثر نفسي عن العظمة والكبرياء .

و الرحمة نوع تأثر نفسي عن مشاهدة حرمان المحروم عن الكمال و حاجته
إلى رفع نقيصته بدعو الراحم إلى إنجائه من الحرمان و رفع نقصه .

و من أجلى موارد المودة والرحمة المجتمع المنزلي فإن الزوجين يتلازمان
بالمودة والمحبة و همامعا و خاصة الزوجة يرحمان الصغار من الأولاد لما يريان
ضعفهم و عجزهم من القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيوية فيقومان بواجب العمل
في حفظهم و حراستهم و تغذيتهم و كسوتهم و إيوائهم و تربيتهن و لولا هذه الرحمة
لانقطع النسل و لم يعيش النوع قط .

و نظير هذه المودة والرحمة مشهود في المجتمع الكبير المدني بين أفراد المجتمع
فالواحد منهم يأنس بغيره بالمودة و يرحم المساكين والعجزة والضعفاء الذين لا يستطيعون
القيام بواجبات الحياة .

والمراد بالمودة والرحمة في الآية الأولى أن على يعطيه مناسبة السياق أو الأخير أن
على ما يعطيه إطلاق الآية .

و قوله : « لا يات لقوم يتفكرون » لأنهم إذا تفكروا في الأصول التكوينية
التي يبعث الإنسان إلى عقد المجتمع من الذكورة و الأنوثة الداعيتين إلى الاجتماع
المنزلي والمودة والرحمة الباعثتين على الاجتماع المدني ثم ما يترتب على هذا الاجتماع
من بقاء النوع و استكمال الإنسان في حياته الدنيا والأخرى عثروا من عجائب
الآيات الإلهية في تدبير أمر هذا النوع على ما يبهر به عقولهم و تدهش به أحلامهم .
قوله تعالى : « ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم »
إلى آخر الآية . الظاهر أن يكون المراد باختلاف الألسن اختلاف اللغات من العربية

والفارسية والأردوية وغيرها و باختلاف الألوان اختلاف الأُمم في ألوانهم كالبياض والسواد والصفرة والحمرة .

ويمكن أن يستفاد اختلاف الألسنة من جهة النغم والأصوات ونحو التكلم والنطق و باختلاف الألوان اختلاف كل فردين من أفراد الإنسان بحسب اللون لودقق فيه النظر على ما يقول به علماء هذا الشأن .

فالباحثون عن العالم الكبير يعثرون في نظام الخلق على آيات دقيقة دالة على أن الصنع والايجاد مع النظام الجاري فيه لا يقوم إلا بالله ولا ينتهي إلا إليه .

قوله تعالى « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله » إلى آخر الآية ، الفضل الزيادة على مقدار الحاجة ويطلق على العطية لأن المعطي إنما يعطي ما فضل من مقدار حاجته ، والمراد به في الآية الكريمة الرزق فابتغاء الفضل طلب الرزق .

وفي خلق الإنسان ذاقوى فعالة تبعته إلى طلب الرزق ورفع حوائج الحياة للبقاء بالحركة والسعي ثم هدايته إلى الاستراحة والسكون لرفع متاعب السعي وتجديد تجهيز القوى وتخصيص الليل والنهار المتعاقبين للسعي والسكون والتسبيب إلى وجود الليل والنهار بأوضاع سماوية قائمة بالأرض والشمس لآيات نافعة لمن له سمع واع يعقل ما يسمع فإذا وجده حقاً اتبعه .

قال في الكشف في الآية : هذا من باب اللف وتربيته : ومن آياته منامكم وابتغائكم من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصل بين القرنيين الأولين بالقرنين الآخرين لأنهما زمانان والزمان والواقع فيه كشيء واحد مع إعانة اللف على الاتحاد ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين وابتغائكم فيهما ، والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن وأسد المعاني مادل عليه القرآن . انتهى .

وقد ظهر مما تقدم معنى تذييل الآية بقوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون » .

قوله تعالى : « ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها » الظاهر أن الفعل نزل منزلة المصدر ولذلك لم يصدّر

بأن المصدرية كما صدر به قوله : « أن خلقكم » وقوله : « أن خلق لكم » وتنزيل الفعل منزلة المصدر لغة عربية جيدة و عليه يحمل المثل السائر : ونسمع بالمعدي خير من أن تراه ، ولاضير في حمل كلامه تعالى عليه فهو تعالى يأتي في مفتتح هذه الآيات بفنون التعبير كقوله « مناهكم » « يريكم » « أن تقوم » .

واحتمل في قوله : « يريكم » أن يكون بحذف أن المصدرية والتقدير أن يريكم البرق وأيّد بقراءة النصب في يريكم .

واحتمل أن يكون من حذف المضاف والتقدير ومن آياته آية أن يريكم البرق واحتمل أن يكون التقدير ومن آياته آية البرق ثم استوف ف قيل : يريكم البرق الخ واحتمل أن يكون « من آياته » متعلقا بقوله : « يريكم » والتقدير ويرىكم من آياته البرق ، واحتمل أن يكون « من آياته » حالا من البرق والتقدير ويرىكم البرق حالكون البرق من آياته .

وهذه وجوه متفرقة لا يخفى عليك بعدها على أن بعضها يخرج الكلام في الآية عن موافقة السياق في الآيات السابقة النظيرة له كالوجهين الأخيرين .

وقوله : « خوفاً وطمعاً » أي خوفاً من الصاعقة وطمعاً في المطر وقوله : « وينزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » تقدم تفسيره كرارا ، وقوله : « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » أي إن أهل التعقل يفقهون أن هناك عناية متعلقة بهذه المصالح فليس مجرد اتفاق وصدفة .

قوله تعالى : « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » القيام مقابل القعود وطمعاً كان أعدل حالات الإنسان حيث يقوى به على عامة أعماله استعير لثبوت الشيء واستقراره على أعدل حالاته كما يستعار لتدبير الأمر قال تعالى : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » الرعد : ٣٣ . والمراد بقيام السماء والأرض بأمر من الله ثبوتهما على حالهما من حركة وسكون وتغير وثبات بأمره تعالى وقد عرف أمره بقوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٣ .

وقوله : « ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » « إذا » الأولى شرطية و « إذا » الثانية فجائية قائمة مقام فاء الجزاء و « من الأرض » متعلق بقوله : « دعوة » والجملة معطوفة على محل الجملة الأولى لأن المراد بالجملة أعني قوله : « ثم إذا دعاكم » الخ البعث والرجوع إلى الله وليس في عداد الآيات بل الجملة إخبار بأمر احتج عليه سابقا وسيحتج عليه لاحقا .

و أمّا قول القائل : إن الجملة على تأويل المفرد وهي معطوفة على « أن تقوم » و التقدير و من آياته قيام السماء والأرض بأمره ثم خروجكم إذا دعاكم دعوة من الأرض .

فلازمه كون البعث معدوداً من الآيات وليس منها على أن البعث أحد الأصول الثلاثة التي يحتج بالآيات عليه ولا يحتج به على التوحيد مثلاً بل لواحتمال فبالتوحيد عليه فافهم ذلك .

ولما كانت الآيات المذكورة من خلق البشر من تراب وخلقهم أزواجا واختلاف ألسنتهم وألوانهم ومنامهم و ابتغائهم من فضله وإراءة البرق وتنزيل الماء من السماء كلها آيات راجعة إلى تدبير أمر الإنسان كان المراد بقوله « أن تقوم السماء والأرض » بمعونة السياق ثبات السماء والأرض على وضعهما الطبيعي وحالهما العادية ملائمتين لحياة النوع الإنساني المرتبطة بهما وكان قوله : « ثم إذا دعاكم » الخ مترتباً على ذلك ترتب التأخير أي أن خروجهم من الأرض متأخر عن هذا القيام مقارن لخرابهما كما ينبئ به آيات كثيرة في مواضع مختلفة من كلامه تعالى .

ويظهر بذلك أيضاً أن المراد من قوله السابق « ومن آياته خلق السماوات والأرض » خلقهما من جهة ما يرتبطان بالحياة البشرية وينفعانها .

وقد رتب الآيات المذكورة آخذة من بدء خلق الإنسان وتكوّنه ثم تصنّفه صنفين : الذكر والأنثى ثم ارتباط وجوده بالسماء والأرض واختلاف ألسنتهم وألوانهم ثم السعي في طلب الرزق وسكون المنام ثم إراءة البرق وتنزيل الأمطار حتى تنتهي إلى قيام السماء والأرض إلى أجل مسمى ليتم لهذا النوع الإنساني ما قدر له من

أمد الحياة ويعقب ذلك البعث فهذا بعض ما في ترتيب ذكر هذه الآيات من النكات .
وقد رتبت الفواصل أعني قوله « يتفكرون » « للعالمين » « يسمعون » « يعقلون »
على هذا الترتيب لأن الإنسان يتفكر فيصير عالماً ثم إذا سمع شيئاً من الحقائق وعاد
ثم عقله والله أعلم .

قوله تعالى : « وله من في السماوات والأرض كل له قانتون » كانت الآيات
المذكورة مسوقة لاثبات ربوبيته تعالى وألوهيته كما تقدمت الإشارة إليه ولما انتهى
الكلام إلى ذكر البعث والرجوع إلى الله عقب ذلك بالبرهان على إمكانه والحجة
مأخوذة من الخلق والتدبير المذكورين في الآيات السابقة .

فقوله : « وله من في السماوات والأرض » إشارة إلى إحاطة ملكه الحقيقي
لجميع من في السماوات والأرض وهم المحشورون إليه وذلك لأن وجودهم من جميع
الجهات قائم به تعالى قيام فقر وحاجة لاستقلال ولا استغناء لهم عنه بوجه من الوجوه
وهذا هو الملك الحقيقي الذي أثره جواز تصرف المالك في ملكه كيف شاء فله تعالى أن
يتصرف في مملوكيه بنقلهم من النشأة الدنيا إلى النشأة الآخرة .

وقد أكد ذلك بقوله : « كل له قانتون » والقنوت لزوم الطاعة مع الخضوع
- على ما ذكره الراغب في المفردات - والمراد بالطاعة مع الخضوع الطاعة التكوينية -
على ما يعطيه السياق - دون التشريعية التي ربما تخلفت .

وذلك أنهم الملائكة والجن والانس فأما الملائكة فليس عندهم إلا خضوع
الطاعة وأما الجن والانس فهم مطيعون منقادون للعلل والأسباب الكونية وكلما
احتالوا في إلغاء أثر علّة من العلل أو سبب من الأسباب الكونية توسلوا إلى علّة أخرى
وسبب آخر كوني ثم علمهم وإرادتهم كاختيارهم جميعاً من الأسباب الكونية فلا يكون
إلا ما شاء الله أي الذي تمت علله في الخارج ولا يتحقق ممّا شاءوا إلا ما أذن فيه وشاء
فهو المالك لهم ولما يملكونه .



وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ
 الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ
 مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ
 فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
 لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ
 يَهْدِي مِّنْ أَضَلِّ اللَّهِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ (٢٩) فَاقِمِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
 حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ
 الْقَرِيمُ وَلَكِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا
 الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا
 شِعْمًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا
 رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ
 يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ
 أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا
 النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ
 يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِن فِي

ذَلِكَ لآيَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ
السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨)
وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبِّوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم
مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) .

﴿بيان﴾

لما انساق الاحتجاج على الوجدانية والمعاد من طريق عدّة الآيات الدالة على ذلك بقوله : « ومن آياته ، » ومن آياته ، إلى قوله : « وله من في السماوات والأرض » الآية وهو من صفات الفعل غير سياق الاحتجاج بالآيات إلى سياق الاحتجاج بصفاته الفعلية وأوردها إلى آخر السورة في أربعة فصول يورد في كل فصل شيء من صفات الفعل المستوجبة للوجدانية والمعاد وهي قوله : « وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده » الخ وقوله : « الله الذي خلقكم ثم رزقكم » الخ وقوله : « الله الذي يرسل الرياح » الخ وقوله : « الله الذي خلقكم من ضعف » الخ .

وإنما لم يبدء الفصل الأوّل باسم الجلالة كما بده به في الفصول الأخر لسبق ذكره في الآية السابقة عليه المتصلة به أعني قوله : « وله من في السماوات والأرض كل له قاتون » الذي هو كالبرزخ المتوسط بين السياقين فقوله : « وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده » فصل في صورة الوصل .

قوله تعالى : « وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » إلى آخر الآية . بدء الخلق إنشاؤه ابتداء من غير مثال سابق والإعادة إنشاء بعد إنشاء .

وقوله : « وهو أهون عليه » الضمير الأوّل للإعادة المفهوم من قوله : « يعيد » والضمير الثاني راجع إليه تعالى على ما يتبادر من السياق .

وقد استشكل قوله : « وهو أهون عليه » الدالّ ظاهراً على كون الإعادة أسهل وأهون عليه من البدء وهو ينافي كون قدرته مطلقة غير محدودة فإنّ القدرة اللامتناهية لا تختلف حالها في تعلّقها بشيء دون شيء فتعلّقها بالصعب و السهل على السواء فلا معنى لاسم التفضيل ههنا .

وقد أُجيب عنه بوجوه :

منها أنّ ضمير « عليه » راجع إلى الخلق دونه تعالى و الإعادة أهون على الخلق لأنّه مسبوق بالابتداء الذي يسهّل الفعل على الفاعل بتحقيقه منه مرة أو أزيد بخلاف الابتداء الذي لا يسبقه فعل ، فالابتداء أصعب بالطبع بالنسبة إلى الإعادة والإعادة بالعكس فالمعنى أنّ الإعادة أهون من البدء بالنسبة إلى الخلق وإذا كان كذلك بالنسبة إلى الخلق فما ظنك بالخالق .

وفيه أنّ رجوع الضمير إلى الخلق خلاف ظاهر الآية .

ومنها أنّ أفعل ههنا منسلخ عن معنى التفضيل فأهون عليه بمعنى هيّن عليه نظير قوله : « ما عند الله خير من اللّهُو » .
وفيه أنّه تحكّم ظاهر لادليل عليه .

ومنها أنّ التفضيل إنّما هو للإعادة في نفسها بالقياس إلى الإنشاء الابتدائيّ لا بالنسبة إليه تعالى ووقوع التفضيل بين فعل منه وفعل لا بأس به كما في قوله تعالى : « لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس » المؤمن : ٥٧ .

وهذا هو الذي يستفاد من كلام الزمخشريّ إذ يقول : فإن قلت : ما بال الإعادة استعظمت في قوله : « ثمّ إذا دعاكم » حتّى كأنّها فضلت على قيام السماوات والأرض بأمره ثمّ هوّنت بعد ذلك ؟ قلت : الإعادة في نفسها عظيمة لكنّها هوّنت بالقياس إلى الإنشاء انتهى .

وفيه أنّ تقييد الوصف بقوله : « عليه » أصدق شاهد على أنّ القياس الواقع بين الإعادة والإنشاء إنّما هو بالنسبة إليه تعالى لا بين نفس الإعادة والإنشاء فلا إشكال على ما كان .

ومنها أن التفضيل إنما هو بالنظر إلى الأصول الدائرة بين الناس و الموازين المتبعة عندهم لا بالنظر إلى الأمر في نفسه ، لما يرون أن تكرار الوقوع حتى لمرة واحدة يوجب سهولته على الفاعل بالنسبة إلى الفعل غير المسبوق بمثله فكأنه قيل : والإعادة أهون عليه بالنظر إلى أصولكم العلمية المتبعة عندكم وإلا فلا إنشاء والإعادة بالنسبة إليه تعالى على السواء .

وفيه أنه معنى صحيح في نفسه لكن الشأن في استفادته من اللفظ ولا شاهد عليه من جهة لفظ الآية .

ومنها ما ذكره أيضاً في الكشف قال : ووجه آخر وهو أن الإينشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بد له من فعله لأنها لجزاء الأعمال و جزاؤها واجب و الأفعال إما محال و المحال ممتنع أصلاً خارج عن المقدور وإما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح وهو رديف المحال لأن الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة ، وإما تفضل و التفضل حاله بين بين للفاعل أن يفعله و أن لا يفعله ، وإما واجب لا بد من فعله ولا سبيل إلى الإخلال به .

فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع و أقربها من الحصول فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعد الأفعال من الامتناع وإذا كانت أبعدا من الامتناع كانت أدخلها في التأنّي والتسهّل فكانت أهون منها وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإينشاء انتهى .

و فيه أو لا أنه مبني على تحقق الأشياء بالأولوية دون الوجوب وقد تحقق في محله بطلانه .

وثانياً أن القرب والبعد اللذين ذكرهما تصوير عقلي محض والسهولة والصعوبة وصفان وجوديان يتصف بهما وجود الشيء من حيث صدوره عن فاعله الموجد له ولا يبتني الوصف الوجودي على الاعتبار العقلي .

وثالثاً أن الإينشاء أيضاً كالأعادة في الإبتناء على المصلحة وهي الغاية فمالم يكن

الإِ نشاء ذامصلحة موجبة لم يتحقق كما أن الإِ عادة كذلك فهما في القرب و البعد من الامتناع على السواء كما قيل .

ورابعا أن مقتضى هذا الوجه كون الإِ عادة أهون من الإِ نشاء بالنظر إلى أنفسهما فيعود في الحقيقة إلى الوجه الثالث ويتوجه إليه ما توجه إليه .

والذي ينبغي أن يقال أن الجملة أعني قوله : « وهو أهون عليه » معّل بقوله بعده : « والله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » فهو الحجّة المثبتة لقوله : « وهو أهون عليه » .

والمستفاد من قوله : « والله المثل الأعلى » الخ أن كل وصف كماله يمثل به شيء في السماوات والأرض كالحياء والقدرة والعلم والملك والجود والكرم والعظمة والكبرياء وغيرها فلله سبحانه أعلى ذلك الوصف وأرفعها من مرتبة تلك الموجودات المحدودة كما قال : « والله الأسماء الحسنى » الأعراف : ١٨٠ .

وذلك أن كل وصف من أوصاف الكمال اتصف به شيء مما في السماوات والأرض فله في حد نفسه ما يقابله فإنه مما أفاضه الله عليه وهو في نفسه خال عنه فالحي منها ميت في ذاته والقادر منها عاجز في ذاته ولذلك كان الوصف فيها محدوداً مقيّداً بشيء دون شيء وحال دون حال وهكذا فالعلم فيها مثلاً ليس مطلقاً غير محدود بل محدود مخلوط بالجهل بما وراءه وكذلك الحياة والقدرة والملك والعظمة وغيرها .

والله سبحانه هو المفيض لهذه الصفات من فضله والذي له من معنى هذه الصفات مطلق غير محدود وصرف غير مخلوط فلا جهل في مقابل علمه ولا ممات يقابل حياته وهكذا فله سبحانه من كل صفة يتصف به الموجودات السماوية والأرضية - وهي صفات غير ممحضة ولا مطلقة - ما هو أعلاها أي مطلقها ومحضها .

فكل صفة توجد فيه تعالى وفي غيره من المخلوقات فالذي فيه أعلاها وأفضلها والذي في غيره مفضول بالنسبة إلى ما عنده .

ولما كانت الإِعادة متصفة بالهون إذا قيس إلى الإِ نشاء فيما عند الخلق فهو

عنده تعالى أهون أي هون محض غير مخلوط بصعوبة و مشقة بخلاف ما عندنا معاشر الخلق ولا يلزم منه أن يكون في الإنشاء صعوبة و مشقة عليه تعالى لأن المشقة والصعوبة في الفعل تتبع قدرة الفاعل بالتعاكس فكلما قلت القدرة كثرت المشقة و كلما كثرت قلت حتى إذا كانت القدرة غير متناهية انعدمت المشقة من رأس وقدرته تعالى غير متناهية فلا يشق عليه فعل أصلا و هو المستفاد من قوله : « إن الله على كل شيء قدير » فإن القدرة إذا جازتعلقها بكل شيء لم تكن إلا غير متناهية فافهم ذلك .

وقوله : « والله المثل الأعلى في السماوات والأرض » تقدم أنه في مقام الحجة بالنسبة إلى قوله : « و هو أهون عليه » ومحصله أن كل صفة كمالية يتصف به شيء مما في السماوات والأرض من جمال أو جلال فإن لله سبحانه أعلاها أي مطلقها من غير تقييد ومحضا من غير شوب و صرفها من غير خلط .

وقوله : « و هو العزيز الحكيم » في مقام التعليل بالنسبة إلى قوله : « والله المثل الأعلى » الخ أي إنه تعالى عزيز واجد لكل ما يفقده غيره ممتنع من أن يمتنع عليه شيء حكيم لا يعرض فعله فتور ، ولولم تكن صفة من صفاته مثلا أعلى مما عند غيره من الممكّنات كانت محدودة غير مطلقة ومخلوطة غير صرفة غير خالية من النقص والقصور فاستدله ذاك القصور فلم يكن عزيزا على الإطلاق وأحدث ذاك النقص في فعله ثلثة و فتورا فلم يكن حكيما على الإطلاق .

قوله تعالى : « ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم » الخ « من » في قوله : « من أنفسكم » لابتداء الغاية أي ضرب لكم مثلا متخذا من أنفسكم منتزعا من الحالات التي لديكم ، وقوله : « هل لكم » شروع في المثل المضروب والاستفهام للإنكار ، و « ما » في « مما ملكت » للنوع أي من نوع ما ملكت أيمانكم من العبيد والإماء ، و « من » في « من شركاء » زائدة و هو مبتدئ ، وقوله : « فأنتم فيه سواء » تفریع على الشركة ، و « أنتم » خطاب شامل للمالكين والمملوكين على طريق التغليب ، وقوله : « تخافونهم كخيفتكم أنفسكم » أي تخافون المماليك الشركاء أن تستبدوا في تصرف المال المشترك

من غير إذن منهم و رضى كما تخافون أنفسكم من الشركاء الأحرار .

و هذا مثل ضربه الله لبيان بطلان ما يزعمون أن الله سبحانه مما خلق شركاء في الألوهية والربوبية وقد أُلقي المثل في صورة الاستفهام الإنكاري : هل يوجد بين ممالككم من العبيد والإماء من يكونون شركاء لكم في الأموال التي رزقناكم - والحال أنهم ممالك لكم تملكونهم و ما في أيديهم - بحيث تخافونهم في التصرف في أموالكم بغير إذن منهم و رضى كما تخافون الشركاء الأحرار من نوع أنفسكم ؟ !

لا يكون ذلك أبدا ولا يجوز أن يكون المملوك شريكا لمولاه في ماله وإذا لم يجز فكيف يجوز أن يكون بعض من خلقه الله كالملائكة والجن وهم عبيده المملوكون شركاء له فيما يملك من مخلوقيه وآلهة و أربابا من دونه ؟

ثم تمم الكلام بقوله : « كذلك فصل الآيات لقوم يعقلون » وفيه تمهيد لما يتلوه من الكلام .

قوله تعالى : « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل » الله و ماله من ناصرين « إضراب عما استفاد من ذيل الآية السابقة والتقدير وهؤلاء المشركون لم يبنوا شركهم على التعقل بل اتبعوا في ذلك أهواءهم بغير علم . و كان مقتضى الظاهر أن يقال : بل اتبع الذين أشركوا وإنما بدله من قوله : « بل اتبع الذين ظلموا » فوصفهم بالظلم ليتعلل به ما سيصفهم بالضلال في قوله : « فمن يهدي من أضل » الله « فالظلم يستتبع الإضلال الإلهي » قال تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة و يضل الله الظالمين و يفعل الله ما يشاء » إبراهيم : ٢٧ .

فقوله : « فمن يهدي من أضل » الله « استفهام إنكاري مدلوله الإيأس من نعمة الهداية للمشركين المتبعين لأهوائهم مع ظهور الحق لهم لمكان ظلمهم الموجب لإضلالهم وقد تكرر في كلامه تعالى : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .

و قوله : « و ماله من ناصرين » نفى لنجاتهم بنصرة الناصرين لهم من غيرهم بعد ما لم ينالوا النجاة من الضلال و تبعاته من عند أنفسهم لإضلال الله لهم ونفي الجمع

دليل على أن لغيرهم ناصرين كالشفعاء .

و قول القائل إن معنى نفي الناصرين لهم أنه ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو المشهور من مقابلة الجمع بالجمع غير مطرد .

و معنى الآية بل اتبع الذين ظلموا بشركهم أهواءهم بغير علم و تعقل فأظلمهم الله بظلمهم ولا هادي يهديهم و ليس لهم ناصرون ينصرونهم .

قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم و لكن أكثر الناس لا يعلمون » الكلام متفرع على ما تحصل من الآيات السابقة المثبتة للمبدء والمعاد أي إذا ثبت أن الخلق والتدبير لله وحده لا شريك له وهو سيبعث ويحاسب ولا نجاة لمن أعرض عنه و أقبل على غيره فأقم وجهك للدين والزمه فإنه الدين الذي تدعو إليه الخلقة الإلهية .

و قيل الكلام متفرع على معنى التسلية المفهوم من سياق البيان السابق الدال على ما هو الحق وأن المشركين لظلمهم اتبعوا الأهواء و أعرضوا عن التعقل الصحيح فأظلمهم الله ولم يأذن لناصر ينصرهم بالهداية ولا لمنقذ ينقذهم من الضلال لأنت ولا غيرك فاستئش منهم و اهتم بخاصة نفسك و من تبعك من المؤمنين و أقم وجهك و من تبعك للدين .

فقوله : « فأقم وجهك للدين » المراد بإقامة الوجه للدين الإقبال عليه بالتوجه من غير غفلة منه كالمقبل على الشيء بقصر النظر فيه بحيث لا يلتفت عنه يمينا وشمالا والظاهر أن الآم في الدين للعهد والمراد به الإسلام .

و قوله : « حنيفا » حال من فاعل أقم وجوز أن يكون حالا من الدين أوحالا من الوجه والأول أظهر و أنسب للسياق والحنف ميل القدمين إلى الوسط والمراد به الاعتدال .

و قوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » الفطرة بناء نوع من الفطر بمعنى الإيجاد والإبداع و « فطرة الله » منصوب على الإغراء أي الزم الفطرة ففيه إشارة إلى أن هذا الدين الذي يجب إقامة الوجه له هو الذي يهتف به الخلقة ويهدي إليه

الفطرة الإلهية التي لا تبديل لها .

و ذلك أنه ليس الدين إلا سنة الحياة والسييل التي يجب على الإنسان أن يسلكها حتى يسعد في حياته فلا غاية للإنسان يتبعها إلا السعادة وقد هدى كل نوع من أنواع الخليقة إلى سعادته التي هي بغية حياته بفطرته و نوع خلقته و جهز في وجوده بما يناسب غايته من التجهيز قال تعالى : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، و قال : « الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى » الأعلى : ٣ .

فلا إنسان كسائر الأنواع المخلوقة مفطور بفطرة تهديه إلى تميم نواقصه ورفع حوائجه و تهتف له بما ينفعه و ما يضره في حياته قال تعالى : « و نفس و ما سواها فألهمها فجورها و تقواها » الشمس : ٨ و هو مع ذلك مجهز بما يتم له به ما يجب له أن يقصده من العمل قال تعالى : « ثم السيل يستره » عبس : ٢٠ .

فلا إنسان فطرة خاصة تهديه إلى سنة خاصة في الحياة و سبيل معينة ذات غاية مشخصة ليس له إلا أن يسلكها خاصة و هو قوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » و ليس إلا إنسان العائش في هذه النشأة إلا نوعاً واحداً لا يختلف ما ينفعه و ما يضره بالنظر إلى هذه البنية المؤلفة من روح و بدن فما للإنسان من جهة أنه إنسان إلا سعادة واحدة و شقاء واحد فمن الضروري حينئذ أن يكون تجاه عمله سنة واحدة ثابتة يهديه إليها هاد واحد ثابت .

و ليكن ذاك الهادي هو الفطرة و نوع الخلقة و لذلك عقب قوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » بقوله : « لا تبديل لخلق الله » .

فلو اختلفت سعادة الإنسان باختلاف أفراد لم ينعقد مجتمع واحد صالح يضمن سعادة الأفراد المجتمعين ، و لو اختلفت السعادة باختلاف الأقطار التي تعيش فيها الأمم المختلفة بمعنى أن يكون الأساس الوحيد للسنة الاجتماعية أغني الدين هو ما يقتضيه حكم المنطقة كان الإنسان أنواعاً مختلفة باختلاف الأقطار ، و لو اختلفت السعادة باختلاف الأزمنة بمعنى أن تكون الأعصار والقرون هي الأساس الوحيد للسنة الدينية اختلفت نوعية كل قرن و جيل مع من ورثوا من آبائهم أو أخلفوا من أبنائهم و لم يسر

الاجتماع الإنساني سيرا للتكامل ولم تكن الإنسانية متوجهة من النقص إلى الكمال إذ لا يتحقق النقص والكمال إلا مع أمر مشترك ثابت محفوظ بينهما .

و ليس المراد بهذا إنكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة بعض التأثير في انتظام السنة الدينية في الجملة بل إثبات أن الأساس للسنة الدينية هو البنية الإنسانية التي هي حقيقة واحدة ثابتة مشتركة بين الأفراد فلا إنسانية سنة واحدة ثابتة بثبات أساسها الذي هو الإنسان وهي التي تدير رحي الإنسانية مع ما يلحق بها من السنن الجزئية المختلفة باختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة .

و هذا هو الذي يشير إليه قوله بعد « ذلك الدين القيم » ولكن أكثر الناس لا يعلمون » و سنزيد المقام إيضاحا في بحث مستقل إن شاء الله تعالى .

و للقوم في مفردات الآية و معناها أقوال أخر متفرقة :

منها أن المراد بإقامة الوجه تسديد العمل فإن الوجه هو ما يتوجه إليه و هو العمل و إقامته تسديده .

و فيه أن وجه العمل هو غايته المقصودة منه و هي غير العمل والذي في الآية هو « فاقم وجهك » ولم يقل : فاقم وجه عملك .

و منها أن « فطرة الله » منصوب بتقدير أعني والفطرة هي الملة والمعنى اثبت و أدم الاستقامة للدين أعني الملة التي خلق الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله .

و فيه أنه مبني على اختلاف المراد بالفطرة وهي الملة و « فطر الناس » و هو الخلقة والتفكيك خلاف ظاهر الآية ولوا أخذ « فطر الناس » بمعنى الإدانة أي الحمل على الدين وهو التوحيد بقي قوله : « لا تبديل لخلق الله » لا يلائم ما قبله .

على أن فيه خلاف ظاهر آخر وهو حمل الدين على التوحيد ، و لو أخذ الدين بمعنى الإسلام أو مجموع الدين كله وأُقيت الفطرة على معناها المتبادر منها وهو الخلقة لم يستقم تقدير « أعني » فإن الدين بهذا المعنى غير الفطرة بمعنى الخلقة . و منها أن « فطرة » بدل من « حنيفا » والفطرة بمعنى الملة ويرد عليه ما يرد على سابقه .

و منها أن « فطرة » مفعول مطلق لفعل محذوف مقدّر و التقدير فطر الله فطرة فطر الناس عليها و فساد غنى عن البيان .

و منها أن معناه اتباع من الدين مادلك عليه فطرة الله و هو ما دلك عليه ابتداء خلقه للأشياء لأنه خلقهم و ركبهم و صورهم على وجه يدل على أن لهم صانعا قادرا عالما حيا قديما واحدا لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء .

و فيه أنه مبني على كون « فطرة » منصوبا بتقدير اتباع وقد ذكره أبو السعود و قبله أبو مسلم المفسر فيكون المراد من اتباع الفطرة اتباع دلالة الفطرة بمعنى الخلقة والمراد بعدم تبديل الخلق عدم تغييره في الدلالة على الصانع بماله من الصفات الكريمة و هذا قريب من المعنى الذي قدّمناه للآية بحمل « فطرة » على الإغراء لكن يبقى عليه أن الآية عامّة لا دليل على تخصيصها بالتوحيد .

و منها أن لا في قوله : « لا تبديل لخلق الله » تفيد النهي أي لا تبدّلوا خلق الله أي دينه الذي أمرتم بالتمسك به ، أو لا تبدّلوا خلق الله بإنكار دلالاته على التوحيد و منه ما نسب إلى ابن عباس أن المراد به النهي عن الخفاء .

و فيه أن لا دليل على أخذ الخلق بمعنى الدين ولا موجب لتسمية الإعراض عن دلالة الخلقة أو إنكارها تبديلا لخلق الله ، وأمّا ما نسب إلى ابن عباس ففساده ظاهر .

و منها ما ذكره الرازي في التفسير الكبير قال : و يحتمل أن يقال : خلق الله الخلق لعبادته وهم كلّهم عبيده لا تبديل لخلق الله أي ليس كونهم عبيدا مثل كون المملوك عبداً للإنسان فإنه ينتقل عنه إلى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادّة والعبوديّة . وهذا لبيان فساد قول من يقول : العبادّة لتحصيل الكمال و العبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف ، و قول المشركين : إن الناقص لا يصلح لعبادة الله و إنّما الإنسان عبد الكواكب و الكواكب عبيد الله ، و قول النصاري إن عيسى كان يحول الله فيه و صار إلها فقال : لا تبديل لخلق الله بل كلّهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك انتهى .

وفيه أنه مغالطة بين الملك والعبادة التكوينيّين و الملك والعبادة التشريعيّين فان ملكه تعالى الذي لا يقبل الانتقال و البطلان ملك تكويني بمعنى قيام وجود الأشياء به تعالى والعبادة التي بإزائه عبادة تكوينيّة و هو خضوع ذوات الأشياء له تعالى ولا تقبل التبديل والترك كما في قوله : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » أسرى: ٣٤ وأما العبادة الدينيّة التي تقبل التبديل والترك فهي عبادة تشريعيّة بإزاء الملك التشريعيّ المعتر له تعالى فافهمه .

و لودل قوله : « لا تبدل لخلق الله » على عدم تبدل الملك والعبادة والعبوديّة لدلّ على التكوينيّ منهما و الذي يبدله القائلون بارتفاع التكليف عن الإنسان الكامل أو بعبادة الكواكب أو المسيح فانما يعني به التشريعيّ منهما .
قوله تعالى : « منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » تعميم للخطاب بعد تخصيصه بالنبي ﷺ نظير قوله : « يا أيّها النبي إذا طلقتم النساء الطلاق : ١ وقوله : « فاستقم كما أمرت أنت ومن معك ولا تطفئوا » هود: ١١٢ فيؤل المعنى إلى نحو من قولنا : فأقم وجهك للدين حنيفاً أنت ومن معك منيبين إلى الله والإجابة الرجوع بالتوبة .

و قوله : « واتقوه وأقيموا الصلاة » التقوى بحسب دلالة المقام يشمل امتثال أوامره والانتفاء عن نواهيه تعالى فاختصاص إقامة الصلاة من دين سائر العبادات بالذكر للاعتناء بشأنها فهي عمود الدين .

وقوله : « ولا تكونوا من المشركين » القول في اختصاصه من بين سائر المحرمات بالذكر نظير القول في الصلاة فالشرك بالله أكبر الكبائر الموبقة وقد قال تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » النساء : ٤٨ إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : « من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا قتل جزب بما لديهم فرحون » من للتبيين و « من الذين فرقوا دينهم » الخ بيان للمشركين وفيه تعريفهم بأخص صفاتهم في دينهم وهو تفرقهم في دينهم و عودهم شيعة شيعة و حزبا حزبا يفرحون .

كلّ شيعة وحزب بما عندهم من الدين والسبب في ذلك ما ذكره قبيل هذا بقوله : « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم فمن يهدي من أضلّ الله وما لهم من ناصرين » فيبين أنّهم بنوا دينهم على أساس الأهواء وأنّه لا يهديهم ولا هادي غيره .

ومن المعلوم أنّ هوى النفس لا يتفق في النفوس بل ولا يثبت على حال واحدة دون أن يختلف باختلاف الأحوال وإذا كان هو الأساس للدين لم يلبث دون أن يسير بسير الأهواء وينزل بنزولها ، ولا فرق في ذلك بين الدين الباطل والدين الحق المبني على أساس الهوى .

ومن هنا يظهر أنّ النهي عن تفرّق الكلمة في الدين نهى في الحقيقة عن بناء الدين على أساس الهوى دون العقل ، وربما احتتمل كون الآية استثناء من الكلام وهو لا يلائم السياق .

و في الآية ذمّ للمشركين بما عندهم من صفة التفرّق في الكلمة والتحزّب في الدين .

قوله تعالى : « وإذا مسّ الناس ضرّ دعوا ربّهم منيبين إليه ثمّ إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم برّبهم يشركون » التعبير بالمسّ للدلالة على القلّة والخفّة وتنكير ضرّ ورحمة أيضاً لذلك والمعنى إذا أصاب الناس شيء من الضرّ ولو قليلاً كمرضٍ ما و فقرٍّ ما وشدّةٍ ما دعوا ربّهم وهو الله سبحانه حال كونهم راجعين من غيره ثمّ إذا أذاقهم الله من عنده رحمة إذا فريق من هؤلاء الناس برّبهم الذي كانوا يدعونه و يعترفون بربوبيّته يشركون باتّخاذ الأنداد والشركاء .

أي إنّهم كافرون للنعمة طبعاً وإن اعترفوا بها عند الضرّ وقد أخذ لذلك فريقاً منهم لأنّ منهم من ليس كذلك .

قوله تعالى : « ليكفروا بما آتيناهم فتمتّعوا فسوف تعلمون » تهديد لاؤلئك المشركين عند إذاقة الرحمة واللام في « ليكفروا » للأمر الغائب وقوله : « فتمتّعوا » متفرّع على سابقه وهو أمر آخر والأمران جميعاً للتهديد ، والالتفات من الأمر الغائب إلى الأمر الحاضر لثوران الوجد والسخط من تفريطهم في جنب الله واستهانتهم بأمره

فقد بلغ منهم ذلك أن يتضرعوا عند الضرر ويكفروا إذا كشف .

قوله تعالى : « أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون » « أم » منقطعة والمراد بالإنزال الإيلاء أو التعليم مجازاً ، والسلطان البرهان ، والمراد بالتكلم الدلالة مجازاً فالمعنى بل أعلمناهم برهاناً فهو يدل على ما كانوا به يشركون أو بشركهم ؟ .

ويمكن أن يراد بالسلطان ذو السلطان وهو الملك فلامجاز في الإنزال والتكلم والمعنى بل أنزلنا عليهم ملكاً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون أو بشركهم .

قوله تعالى : « وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن نصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون » الإذاقة كالمس تدل على قليل النيل ويسيره ، والقنوط اليأس . وإذا الأولى شرطية والثانية فجائية ، والمقابلة بين « إذا » في إذاقة الرحمة و « إن » في إصابة السيئة لأن الرحمة كثيرة قطعية والسيئة قليلة احتمالية ، ونسبة الرحمة إليه تعالى دون السيئة لأن الرحمة وجودية مفاضة منه تعالى والسيئة عدمية هي عدم الإفاضة ولذا عللها بقوله « بما قدمت أيديهم » ، وفي تعليل السيئة بذلك وعدم التعليل في جانب الرحمة بشيء إشارة إلى أن الرحمة تفضل .

والتعبير في الرحمة بقوله : « فرحوا » وفي السيئة بقوله : « إذا هم يقنطون » للدلالة على حدوث القنوط ولم يكن بمرتب فأن الرحمة والسيئة بيد الله والرحمة واسعة ولهذا عبر بالمضارع الدال على الحال لتمثيل حالهم .

والمراد بالآية بيان أن الناس لا يعدون نظرهم ظاهراً ما يشاهدونه من النعمة والنعمة إذا وجدوا فرحوا بها من غير أن يتبصروا ويعقلوا أن الأمر بيد غيرهم وبمشيئة من ربهم إنما لم يشأ لم يكن ، وإذا فقدوا قنطوا كأن ليس ذلك بأذن من ربهم وإذا لم يشأ لم يأذن وفتح باب النعمة فهم ظاهريون سطحيون .

وبهذا يتضح أن لا تدافع بين هذه الآية وبين قوله السابق : « وإذا مس الناس ضرر دعوا ربهم منيبين إليه » الآية وذلك أن مدلول هذه الآية أن أفهامهم سطحية إذا وجدوا فرحوا وإذا فقدوا قنطوا ومدلول تلك أنهم إذا وجدوا فرحوا وإذا فقدوا

دعوا الله و هم قانطون من الشيء و أسبابه منيبين راجعين إلى الله سبحانه فلا تدافع .
و ربّما أُجيب بأنّ المراد بالناس في هذه الآية فريق آخر غير الفريق المراد
بالناس في الآية السابقة و لو فرض اتّحادهما كان ما ذكر من دعائهم في حال وقنوطهم
في حال أخرى .

و أُجيب عنه أيضا بأنّ الدعاء لسانيّ جار على العادة و لا ينافي القنوط الذي
هو أمر قلبي و أنت خير بما في كلّ من الجوابين من القنوط .
و أُجيب أيضا أنّ المراد بقنوطهم فعلهم فعل القانطين كالاهتمام بجمع الذخائر
أيام الغلاء . و فيه مضافا إلى عدم الدليل على ذلك أنّه لا يلائم معنى المفاجأة في القنوط .
قوله تعالى : « أو لم يروا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر إنّ في ذلك
لآيات لقوم يؤمنون » بيان لخطأهم في المبادرة إلى الفرح و القنوط عند إزافة الرحمة
و إصابة السيئة فإنّ الرزق في سعيه و ضيقه تابع لمشيئة الله فعلى الإنسان أن يعلم أنّ
الرحمة التي ذاقها و السيئة التي أصابته ممكنة الزوال بمشيئة الله سبحانه و لا موجب للفرح
بما لا يؤمن ففقد و لا للقنوط ممّا يرجى زواله .

و أمّا أنّه أمر ظاهر للإنسان مقطوع به كأنّه يراه فلا أنّ الرزق الذي يناله
الإنسان أو يكتسبه متوقف الوجود على ألوف و ألوف من الأسباب و الشرائط ليس الإنسان
الذي يراه لنفسه إلّا أحد تلك الأسباب و لا السبب الذي يركن إليه و يطيب به نفسا
إلّا بعض تلك الأسباب و عامّة الأسباب منتبهة إليه سبحانه فهو الذي يعطي و يمنع و
هو الذي يبسط و يقدر أي يوسع و يضيق ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فات ذا القربى حقّه و المسكين و ابن السبيل » الخ ذو القربى
صاحب القرابة من الأرحام و المسكين أسوأ حالا من الفقير و ابن السبيل المسافر ذو
الحاجة ، و إضافة الحقّ إلى الضمير تدلّ على أنّ لذي القربى حقّا ثابتا و الخطاب
للنبي ﷺ فظاهر الآية بما تحتفّ به من القرائن أنّ المراد بها الخمس و التكليف
للنبي ﷺ و يتبعه غيره ممّن كلّف بالخمس ، و القرابة على أي حال قرابة النبي ﷺ
كما في آية الخمس هذا كلّه على تقدير كون الآية مدنيّة و أمّا على تقدير كونها مكّيّة

كسائر آيات السورة فالمراد مطلق الإحسان للقرابة والمسكين وابن السبيل .
و لعموم الآية معنى عمّم ذكر أثره الجميل فقال : « ذلك خير للذين يريدون
وجه الله وأولئك هم المفلحون » .

قوله تعالى : « وما آتيتم من ربّ اليربوا في أموال الناس فلا يربو عند الله وما
آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » الربا نماء المال وقوله : ليربو
الخ يشير إلى وجه التسمية فالمراد أن المال الذي تؤتونه الناس ليزيد في أموالهم لا
إرادة لوجه الله - بقرينة ذكر إرادة الوجه في مقابله - فليس يزيد وينمو عند الله أي
لا تثابون عليه لعدم قصد الوجه .

و قوله : « وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » المراد بالزكاة
مطلق الصدقة أي إعطاء المال لوجه الله من غير تبذير ، والمضعف ذو الضعف والمعنى وما
أعطيتم من المال صدقة تريدون وجه الله فأولئك هم الذين يضاعف لهم مالهم أو ثوابهم .
فالمراد بالربا والزكاة بقرينة المقابلة وما احتفّ بهما من الشواهد الربا الحلال
و هو العطية من غير قرينة والصدقة و هي إعطاء المال مع قصد القرينة . هذا كلّه على
تقدير كون الآية مكينة وأما على تقدير كونها مدنيّة فالمراد بالربا الربا المحرّم و
بالزكاة هي الزكاة المفروضة .

و هذه الآية والتي قبلها أشبه بالمدينيّات منهما بالمكيّات ولا اعتبار بما يدعى
من الرواية أو الإجماع المنقول .

﴿ بحث روائي ﴾

في العيون عن عبدالله بن عباس قال : « قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً فقال
في آخر خطبته : نحن كلمة التقوى وسبيل الهدى والمثل الأعلى والحجة العظمى
والعروة الوثقى الحديث .

و في تفسير القميّ في قوله تعالى : « ضرب لكم مثلاً من أنفسكم » الآية أن سبب
نزولها أن قريشاً كانوا يحجّون البيت بحجّ إبراهيم عليه السلام ويلبّون ثلبيته : لبّيك اللهم

لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكُ لَا شَرِيكَ لَكَ .
فجاءهم إبليس في صورة شيخ فغَيَّرَ تَلْبِيَتَهُمْ إِلَى قَوْلٍ : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَا شَرِيكَ لَكَ
إِلَّا شَرِيكَ هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلِكٌ . فَكَانَتْ قَرِيشُ تَلْبِيَتِي هَذِهِ التَّلْبِيَةَ حَتَّى بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَنكَرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَ قَالَ : إِنَّهُ شَرِكٌ .

فَأَنزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « ضَرْبُ لَكُمْ مِثْلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَامَلَكْتُمْ أَيْمَانَكُمْ
مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَيْ أَتَرْضَوْنَ أَنْتُمْ فِيمَا تَمْلِكُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ
فِيهِ شَرِيكٌ ؟ فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ أَنْ تَجْعَلُوا لِي شَرِيكَ فِيمَا أَمْلَكُ ؟ .

وَفِي الْكَافِي بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ
لِلدِّينِ حَنِيفًا » قَالَ : هِيَ الْوَلَايَةُ .

وَفِيهِ بِإِسْنَادِهِ عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : قُلْتُ : « فِطْرَةُ اللَّهِ
الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » قَالَ : التَّوْحِيدُ .

أَقُولُ : وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ الْحَلْبِيِّ وَزَرَّارَةَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَوَاهُ الصَّدُوقُ فِي التَّوْحِيدِ
عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ فَضِيلٍ وَزَرَّارَةَ وَبَكِيرٍ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَفِي رَوْضَةِ الْكَافِي بِإِسْنَادِهِ عَنْ إِسْمَاعِيلَ الْجَعْفِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : كَانَتْ
شَرِيعَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ وَخُلْعِ الْأَنْدَادِ ، وَهُوَ الْفِطْرَةُ الَّتِي
فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا .

وَفِي تَفْسِيرِ الْقَمِّيِّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ الْهَيْثَمِ الرَّهْمَانِيِّ عَنْ الرِّضَا عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ
أَبِيهِ تَجْدُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : « فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » قَالَ : هُوَ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ عَلِيُّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيُّ اللَّهِ إِلَى هَهنا التَّوْحِيدُ .

أَقُولُ : وَرَوَى هَذَا الْمَعْنَى فِي بَصَائِرِ الدَّرَجَاتِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَرَوَاهُ فِي
التَّوْحِيدِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مَوْلَى أَبِي جَعْفَرٍ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَمَعْنَى كَوْنِ الْفِطْرَةِ هِيَ الشَّهَادَاتُ الثَّلَاثُ أَنَّ الْإِنْسَانَ مَفْطُورٌ عَلَى الْإِعْتِرَافِ بِاللَّهِ
لَا شَرِيكَ لَهُ بِمَا يَجِدُ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْأَسْبَابِ الْمَحْتَاجَةِ إِلَى مَا وَرَاءَهَا وَهُوَ التَّوْحِيدُ
وَبِمَا يَجِدُ مِنَ النِّقْصِ الْمَحْجُوجِ إِلَى دِينٍ يَدِينُ بِهِ لِيَكْمُلَهُ وَهُوَ النَّبُوءَةُ وَبِمَا يَجِدُ مِنَ الْحَاجَةِ

إلى الدخول في ولاية الله بتنظيم العمل بالدين وهو الولاية والفتاح لها في الإسلام هو عليّ عليه السلام ، وليس معناه أن كل إنسان حتى الإنسان الأولي يدين بفطرته بخصوص الشهادات الثلاث .

وإلى هذا يؤل معنى الرواية السابقة أنها الولاية فإنها تستلزم التوحيد والنبوة وكذا هاسر من تفسيره الفطرة بالتوحيد فإن التوحيد هو القول بوحداية الله تعالى المستجمع لصفات الكمال المستلزمة للمعاد والنبوة والولاية فالآل في تفسيرها بالشهادات الثلاث والتوحيد والولاية واحد .

وفي المحاسن بإسناده عن زرارة قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل « فطرة الله التي فطر الناس عليها » قال : فطرهم على معرفة أنه ربهم ولولا ذلك لم يعلموا إذا سئلوا من ربهم ومن رازقهم ؟ .

وفي الكافي بإسناده عن الحسين بن نعيم الصحاف عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال : فقال عليه السلام : إن الله عز وجل خلق الناس كلهم على الفطرة التي فطرهم عليها لا يعرفون إيماننا بشريعة ولا كفرا بجحود ثم بعث الله عز وجل الرسل يدعو العباد إلى الإيمان به فمنهم من هدى الله ومنهم من لم يهده .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر واردة في تفسير قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » البقرة ٢١٣ والمراد فيها بالإنسان الفطري الإنسان الساذج الذي يعيش على الفطرة الإنسانية الذي لم يفسده الأهام الفكرية والأهواء النفسانية فإنه بالقوة القريبة من الفعل بالنسبة إلى أصول العقائد الحقة وكليات الشرائع الإلهية فإنه يعيش ببعث و تحريك من فطرته وخصوص خلقته . وأما الاهتداء إلى خصوص العقائد الحقة وتفصيل الشرائع الإلهية فيتوقف على هداية خاصة إلهية من طريق النبوة ولا يكفي فيه العقل الفطري وقد تقدم تفصيل القول في ذلك في مباحث النبوة من الجزء الثاني من الكتاب .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن حماد بن عمرو الصفار قال : سألت قتادة عن قوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » فقال : حدثني أنس بن مالك

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » قال : دين الله .

وفيه أخرج البخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء قال أبو هريرة : اقرؤا إن شئتم « فطرة الله التي فطر الناس عليها » الآية .

أقول : ورواه أيضاً عن مالك وأبي داود وابن مردويه عن أبي هريرة عنه ﷺ ولفظه : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه كما تنتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحسون من جدعاء .

ورواه أيضاً في الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : كل مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأن الله خالقه الحديث .

وفي التوحيد بإسناده عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : لا تضربوا أطفالكم على بكائهم فإن بكاءهم أربعة أشهر شهادة أن لا إله إلا الله ، وأربعة أشهر الصلاة على النبي وأربعة أشهر الدعاء لوالديه .

أقول : هو حديث لطيف ومعناه أن الطفل في الأربعة أشهر الأولى لا يعرف أحداً وإنما يحس بالحاجة فيطلب بالبكاء رفعها والرافع لها هو الله سبحانه فهو يتضرع إليه ويشهد له بالوحدانية .

وفي الأربعة أشهر الثانية يعرف من والديه واسطة ما بينه وبين رافع حاجته من غير أن يعرفهما بشخصيهما والواسطة بينه وبين ربه هو النبي فبكاءه طلب الرحمة من ربه للنبي حتى يصل بتوسطه إليه .

وفي الأربعة أشهر الثالثة يميز والديه بشخصيهما عن غيرهما فبكاءه دعاء منه لهما وطلب جريان الرحمة من طريقهما إليه ففي الحديث أطف الإشارة إلى كيفية جريان الفيض من مجرى الوسائط فافهم ذلك .

وفي المجمع في قوله تعالى : «وَأَتَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ» ، وروى أبو سعيد الخدري وغيره أنه لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ أعطى فاطمة عليها السلام فداكأ وسلمه إليها وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام .

وفي الكافي بإسناده عن إبراهيم اليماني عن أبي عبد الله عليه السلام قال : الربا رباءان : ربا يؤكل وربا لا يؤكل فأما الذي يؤكل فهديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها فذلك الربا الذي يؤكل ، وهو قول الله عز وجل : «وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله» وأما الذي لا يؤكل فهو الذي نهى الله عنه وأوعد عليه النار .

اقول : ورواه أيضا في التهذيب عن إبراهيم بن عمر عنه عليه السلام ، وفي تفسير القمي عن حفص بن غياث عنه عليه السلام ، وفي المجمع مراسلا عن أبي جعفر عليه السلام .

وفي المجمع في قوله تعالى : «فأولئك هم المضعفون» قال أمير المؤمنين عليه السلام : فرض الله الصلاة ، تنزيها عن الكبر ، والزكاة تسبيبا للرزق ، والصيام ابتلاء لا خلاص الخلق ، وصلة الأرحام منعمة للعدد .

وفي الفقيه خطبة للزهراء عليها السلام وفيها : ففرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك والصلاة تنزيها عن الكبر والزكاة زيادة في الرزق .

﴿كلام في معنى كون الدين فطريا في فصول﴾

١ - إذا تأملنا هذه الأنواع الموجودة التي تكون وتتكامل تدريجا سواء كانت ذوات حيات وشعور كأنواع الحيوان أو ذات حياة فقط كأنواع النبات أو مية غير ذي حياة كسائر الأنواع الطبيعية - على ما يظهر لنا - وجدنا كل نوع منها يسير في وجوده سيرا تكوينيا معيناً ذا مراحل مختلفة بعضها قبل بعض وبعضها بعد بعض يرد النوع في كل منها بعد المرور بالبعض الذي قبله وقبل الوصول إلى ما بعده ولا يزال يستكمل بطي هذه المنازل حتى ينتهي إلى آخرها وهو نهاية كماله .

نجد هذه المراتب المطوية بحركة النوع يلزم كل منها مقامه الخاص به

لا يستقدم ولا يستأخر من لدن حركة النوع في وجوده إلى أن تنتهي إلى كماله فينبها رابطة تكوينية يرتبط بها بعض المراتب ببعض بحيث لا يتجافى ولا ينقل إلى غير مكانه ومن هنا يستنتج أن للنوع غاية تكوينية يتوجه إليها من أول وجوده حتى يبلغها .

فالجوزة الواحدة مثلاً إذا استقرت في الأرض استقراراً يهيئها للنمو على اجتماع مما يتوقف عليه النمو من العلل والشرائط كالرطوبة والحرارة وغيرهما أخذلبها في النمو وشق القشر وشرع في ازدياد من أقطار جسمه ولم يزل يزيد وينمو حتى يصل إلى حد يعود فيه شجرة قوية خضراء مثمرة ولا يختلف حاله في مسيره هذا التكويني وهو في أول وجوده قاصد قصداً تكوينياً إلى غايته التكوينية التي هي مرتبة الشجرة الكاملة المثمرة .

وكذا الواحد من نوع الحيوان كالواحدة من الضأن مثلاً لا نشك في أنها في أول تكوّننا جنيناً متوجهة إلى غايتها النوعية التي هي مرتبة الضأنة الكاملة التي لها خواصها فلا تضل عن سبيلها التكوينية الخاصة بها إلى سبيل غيرها ولا تنسى غايتها يوماً ففسير إلى غير غايتها كغاية الفيلة مثلاً أو غاية شجرة الجوز مثلاً فكل نوع من الأنواع التكوينية له مسير خاص في استكمال الوجود ذو مراتب خاصة مترتبة بعضها على بعض تنتهي إلى مرتبة هي غاية النوع ذاتاً يطلبها طلباً تكوينياً بحركته التكوينية والنوع في وجوده مجهز بما هو وسيلة حركته وبلوغه إلى غايته .

وهذا التوجه التكويني لاستناده إلى الله بسمى هداية عامة إلهية وهي كما عرفت لا تضل ولا تخطئ في تسيير كل نوع مسيره التكويني وسوقه إلى غايته الوجودية بالاستكمال التدريجي وباعمال قواء وأدواته التي جهز بها لتسهيل مسيره إلى غايته قال تعالى : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، وقال « الذي خلق فسوّى والذي قدر فهدى » والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أهوى ، الأعلى : ٥ .

٣ - نوع الإنسان غير مستثنى من كلية الحكم المذكور أعني شمول الهداية العامة له فنحن نعلم أن النطفة الإنسانية من حين تشرع في التكوّن متوجهة إلى

مرتبة إنسان تام^١ كامل له آثاره وخواصه قد قطع في مسيره مراحل الجنينية والطفولية والمراهقة والشباب والكهولة والشيب .

غير أن^٢ الإنسان يفارق سائر الأنواع الحيوانية والنباتية وغيرها فيما نعلم في أمر^(١) وهو أنه لسعة حاجته التكوينية وكثرة نواقصه الوجودية لا يقدر على تميم نواقصه الوجودية ورفع حوائجه الحيوية وحده بمعنى أن^٣ الواحد من الإنسان لا يتم له حياته الإنسانية وهو وحده بل يحتاج إلى اجتماع منزلي^٤ ثم اجتماع مدني^٥ يجتمع فيه مع غيره بالازدواج والتعاون والتعاقد فيسعى الكل^٦ بجميع قواهم التي جهزوا بها للكل^٧ ثم يقسم^٨ الحاصل من عملهم بين الكل^٩ فيذهب كل^{١٠} بنصيبه على قدر زنته الاجتماعية .

وقد عرفت في سابق مباحث هذا الكتاب أن^{١١} المدنية ليست بطبيعية للإنسان بمعنى أن ينبعث إليه من ناحية طبيعته الإنسانية ابتداء بل له طبيعة مستخدمة لغيره لنفع نفسه ما وجد إليه سبيلاً فهو يستخدم الأمور الطبيعية ثم أقسام النبات والحيوان في سبيل مقاصده الحيوية فهو باستخدام فرد مثله أو أفراد أمثاله أجري لكنه يجد سائر الأفراد أمثاله في الأميال والمقاصد وفي الجهايزات والقوى فيضطر إلى المسالمة وأن يسلم لهم حقوقاً مثل ما يراه لنفسه .

وينتهي هذا التضارب بين المنافع أن يشارك البعض البعض في العمل التعاوني^{١٢} ثم يقسم^{١٣} الحاصل من الأعمال بين الجميع ويعطى منه لكل^{١٤} ما يستحقه .

وكيف كان فالمجتمع الإنساني لا يتم^{١٥} انعقاده ولا يعمر^{١٦} إلا بأصول علمية وقوانين اجتماعية يحترمها الكل^{١٧} وحافظ يحفظها من الضيعة و يجريها في المجتمع وعند ذلك تطيب لهم العيشة وتشرف عليهم السعادة .

أما الأصول العلمية فهي معرفته إجمالاً بما عليه نشأة الوجود من الحقيقة وما عليه الإنسان من حيث البداية والنهاية فإن^{١٨} المذاهب المختلفة مؤثرة في خصوص السنن

(١) وعامة الحيوان وإن كان لها شيء من الاجتماع الحيوي لكنه يسير في جنب

الاجتماع لا يعبأ به .

المعمول بها في المجتمعات فالمعتقدون في الإنسان أنه ماديّ محض ليس له من الحياة إلا الحياة المعجّلة المؤجّلة بالموت وأن ليس في دار الوجود إلا السبب الماديّ الكائن الفاسد ينظمون سنن اجتماعهم بحيث تؤدّ بهم إلى اللذائذ المحسوسة والكمالات الماديّة ماوراءها شيء .

والمعتقدون بصانع وراء المادة كالوثنيّة يبنون سننهم وقوانينهم على إرضاء الآلهة ليسعدوهم في حياتهم الدنيويّة والمعتقدون بالمبدء والمعاد يبنون حياتهم على أساس يسعدهم في الحياة الدنيويّة ثمّ في الحياة المؤبّدة التي بعد الموت فصور الحياة الاجتماعيّة تختلف باختلاف الأصول الاعتقاديّة في حقيقة العالم والإنسان الذي هو جزء من أجزائه .

وأمّا القوانين والسنن الاجتماعيّة فلولا وجود قوانين و سنن مشتركة يحترمها المجتمعون جميعهم أو أكثرهم ويتسلّمونها تفرّق الجمع وانحلّ المجتمع .

وهذه السنن والقوانين قضايا كليّة عمليّة صورها : يجب أن يفعل كذا عند كذا أو يحرم أو يجوز وهي أيّاماً كانت معتبرة في العمل لغايات مصلحة للاجتماع والمجتمع تترتب عليها تسمّى مصالح الأعمال ومفاسدها .

٣ - قد عرفت أن الإنسان إنّما ينال ما قدّر له من كمال وسعادة بعقد مجتمع صالح يحكم فيه سنن وقوانين صالحة تضمن بلوغه ونيله سعادته التي تليق به وهذه السعادة أمر أو أمور كماليّة تكوينيّة تلحق بالإنسان الناقص الذي هو أيضاً موجود تكويني فتجعله إنساناً كاملاً في نوعه تاماً في وجوده .

فهذه السنن والقوانين - وهي قضايا عمليّة اعتبارية - واقعة بين نقص الإنسان وكماله متوسطّة كالعبرة بين المنزلتين وهي كما عرفت تابعة للمصالح التي هي كمال أو كمالات إنسانيّة ، وهذه الكمالات أمور حقيقيّة مسانخة ملائمة للنواقص التي هي مصاديق حوائج الإنسان الحقيقيّة .

فحوائج الإنسان الحقيقيّة هي التي وضعت هذه القضايا العمليّة واعتبرت هذه النوااميس الاعتباريّة ، والمراد بالحوائج هي ما تطلبه النفس الإنسانيّة بأميالها

وعزائمها ويصدقها العقل الذي هو القوة الوحيدة التي تميز بين الخير والنافع وبين الشر والضرر دون ما يطلبه الأهواء النفسانية مما لا يصدقها العقل فإنه كمال حيواني غير إنساني .

فأصول هذه السنن والقوانين يجب أن تكون الحوائج الحقيقية التي هي بحسب الواقع حوائج لا بحسب تشخيص الأهواء النفسانية .

وقد عرفت أن الصنع والإيجاد قد جهز كل نوع من الأنواع - ومنها الإنسان - من القوى والأدوات بما يرتفع بفعاليته حوائجه ويسلك به سبيل الكمال ومنه يستنتج أن للجهازات التكوينية التي جهز بها الإنسان اقتضاءات للقضايا العملية المسماة بالسنن والقوانين التي بالعمل بها يستقر الإنسان في مقر كماله مثل السنن والقوانين الراجعة إلى التغذية المعتبرة بما أن الإنسان مجهز بجهاز التغذية والراجعة إلى النكاح بما أن الإنسان مجهز بجهاز التوالد والتناسل .

فتبين أن من الواجب أن يتخذ الدين - أي الأصول العلمية والسنن والقوانين العملية التي تضمن باتخاذها والعمل بها سعادة الإنسان الحقيقية - من اقتضاءات الخلقة الإنسانية وينطبق التشريع على الفطرة والتكوين، وهذا هو المراد بكون الدين فطرياً وهو قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » .

٤ - قد عرفت معنى كون الدين فطرياً فالإسلام يسمى دين الفطرة لما أن الفطرة الإنسانية تقتضيه وتهدي إليه .

ويسمى إسلاماً لما أن فيه تسليم العبد لإرادة الله سبحانه منه ، ومصادق الإرادة وهي صفة الفعل تجمع العلل المؤلفة من خصوص خلقة الإنسان وما يحتف به من مقتضيات الكون العام على اقتضاء الفعل أو الترك قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » .

ويسمى دين الله لأنه الذي يريده الله من عباده من فعل أو ترك بما أمر من معنى الإرادة .

ويسمى سبيل الله لما أنه السبيل التي أرادها الله أن يسلكها الإنسان لتنتهي به إلى كماله وسعادته قال تعالى : « الَّذِينَ يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا »
الأعراف : ٤٥ .

وَأَمَّا أَنْ الدِّينَ الْحَقَّ يَجِبُ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ وَالنَّبْوَةِ وَلَا يَكْفِي فِيهِ الْعَقْلُ فَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي مَبَاحِثِ النَّبْوَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ مَبَاحِثِ الْكِتَابِ .





اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتَكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ
 مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ظَهَرَ
 الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي
 عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
 عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
 الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَمْ يَمُودْ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ (٤٣)
 مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)
 وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ
 الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ
 أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧).

﴿ بيان ﴾

هذا هو الفصل الثاني من الفصول الأربعة التي يحتج فيها بالأفعال الخاصة به
 وإن شئت فقل : بأسماء الأفعال على إبطال الشركاء ونفي ربوبيتهم وألوهيتهم وعلى
 إثبات المعاد .

قوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتَكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ

شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء» الخ اسم الجلالة مبتدء و «الذي خلقكم» خبره ، وكذا قوله : «من يفعل» الخ مبتدء خبره «من شركائكم» المقدم عليه والاستفهام إنكاري وقد ذكر في تركيب الآية احتمالات أخر .

والمعنى أن الله سبحانه هو الذي اتصف بكذا وكذا وصفان أو صاف الالهية و الربوبية فهل من الآلهة الذين تدعون أنهم آلهة من يفعل شيئاً من ذلكم يعني من الخلق والرزق والإماتة والإحياء وإذ ليس منهم من يفعل شيئاً من ذلكم فإله سبحانه هو إلهكم وربكم لا إله إلا هو .

ولعل الوجه في ذكر الخلق مع الرزق والإحياء والإماتة مع تكرر تقديم ذكره في سلك الاحتجاجات السابقة الإشارة إلى أن الرزق لا ينفك عن الخلق بمعنى أن بعض الخلق يسمى بالقياس إلى بعض آخر يديم بقاءه به رزقا فالرزق في الحقيقة من الخلق فالذي يخلق الخلق هو الذي يرزق الرزق .

فليس لهم أن يقولوا : إن الرازق وكذا المحيي والمميت بعض آلهتنا كما ربما يدعيه بعضهم أن مدبر عالم الإنسان بعض الآلهة و مدبر كل شأن من شؤون العالم من الخيرات والشور بعضهم لكنهم لا يختلفون أن الخلق والإيجاد منه تعالى لا يشاركه في ذلك أحد فإذ سلم ذلك ومن المسلم أن الرزق مثلا خلق وكذا سائر الشؤون لا تنفك عن الخلق رجع الأمر كالخلق إليه تعالى ولم يبق لآلهتهم شأن من الشؤون .

ثم نزه سبحانه نفسه عن شركهم فقال : « سبحانه وتعالى عما يشركون » .

قوله تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » الآية بظاهر لفظها عامة لا تختص بزمان دون زمان أو بمكان أو بواقعة خاصة فالمراد بالبر والبحر معناهما المعروف ويستوعبان سطح الكرة الأرضية .

والمراد بالفساد الظاهر المصائب والبلايا الظاهرة فيهما الشاملة لمنطقة من مناطق الأرض من الزلازل وقطع الأمطار والسنين والأمراض السارية و الحروب والغارات وارتفاع الأمن وبالجملية كل ما يفسد النظام الصالح الجاري في العالم الأرضي سواء

كان مستنداً إلى اختيار بعض الناس أو غير مستند إليه . فكل ذلك فساد ظاهر في البر أو البحر مغل بطيب العيش الإنساني .

وقوله : « بما كسبت أيدي الناس » أي بسبب أعمالهم التي يعملونها من شرك أو معصية وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » الآية الأعراف : ٩٦ و أيضاً في مباحث النبوة من الجزء الثاني من الكتاب أن بين أعمال الناس والحوادث الكونية رابطة مستقيمة يتأثر إحداهما من صلاح الأخرى وفسادها .

وقوله : « ليزيقهم بعض الذي عملوا » اللام للغاية ، أي ظهر ما ظهر لأجل أن يذيقهم الله وبال بعض أعمالهم السيئة بل ليزيقهم نفس ما عملوا وقد ظهر في صورة الوبال وإنما كان بعض ما عملوا لأن الله سبحانه برحمته يعفو عن بعض كما قال : « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » الشورى : ٣٠ .

والآية ناظرة إلى الوبال الدنيوي وإذاعة بعضه لأكمله من غير نظر إلى وبال الأعمال الأخرى فما قيل : إن المراد إذاعة الوبال الدنيوي وتأخير الوبال الأخرى إلى يوم القيامة لادليل عليه ولعله جعل تقدير الكلام : « ليزيقهم بعض جزاء ما عملوا » مع أن التقدير « ليزيقهم جزاء بعض ما عملوا » لأن الذي يحوجنا إلى تقدير المضاف - لو أحوجنا - هو أن الراجع إليهم ثانياً في صورة الفساد هو جزاء أعمالهم لأنفس أعمالهم فالذي أذيقوا هو جزاء بعض ما عملوا لا بعض جزاء ما عملوا .

وقوله : « لعلمهم يرجعون » أي يذيقهم ما يذيقهم رجاء أن يرجعوا من شركهم و معاصيهم إلى التوحيد والطاعة .

ووجه اتصال الآية بما قبلها أنه لما احتج في الآية السابقة على التوحيد ونزهة عن شركهم أشار في هذه الآية إلى ما يستتبع الشرك - وهو معصية - من الفساد في الأرض وإذاعة وبال السيئات فبين ذلك بيان عام .

ولهم في الآية تفاسير مختلفة عجيبة كقول بعضهم المراد بالأرض أرض مكة وقول بعضهم : المراد بالبر القفار التي لا يجري فيها نهر و بالبحر كل قرية على شاطئ نهر

عظيم ، وقول بعضهم : البرّ الفياقي ومواضع القبائل و البحر السواحل والمدن التي عند البحر والنهر ، وقول بعضهم : البرّ البريّة والبحر المواضع المخصصة للخضر وقول بعضهم إنّ هناك مضافا محذوفا والتقدير في البرّ ومدن البحر ولعلّ الذي دعاهم إلى هذه الأقاويل ماورد أنّ الآية ناظرة إلى القحط الذي وقع بمكة إثر دعاء النبي ﷺ على قريش لمّا لجّوا في كفرهم وداموا على عنادهم فأرادوا تطبيق الآية على سبب النزول فوقعوا فيما وقعوا من التكلف .

وقول بعضهم : إنّ المراد بالفساد في البرّ قتل ابن آدم أخاه وفي البحر أخذ كل سفينة غصبا . وهو كما ترى .

قوله تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين » أمر للنبي ﷺ أن يأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا إلى آثار الذين كانوا من قبل حيث خربت ديارهم وغت آثارهم و بادوا عن آخرهم وانقطع دابرهم بأنواع من النوائب والبلايا كان أكثرهم مشركين فأذاقهم الله بعض ما عملوا ليعتبر به المتعبرون فيرجعوا إلى التوحيد فالآية في مقام الاستشهاد لمضمون الآية السابقة .

قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله يومئذ يصدّعون » تفريع على ما تقدّمه أي إذا كان الشرك والكفر بالحق بهذه المثابة وله وبال سيلحق بالمتلبّس به فأقم وجهك للدين القيم .

وقوله : « من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله » متعلّق بقوله : « فأقم » والمردّ مصدر ميمي بمعنى الردّ وهو بمعنى الرادّ واليوم الذي لا مردّ له من الله يوم القيامة . وقوله : « يومئذ يصدّعون » أصله يتصدّعون ، والتصدّع في الأصل تفرّق أجزاء الأواني ثمّ استعمل في مطلق التفرّق كما قيل والمراد به - كما قيل - تفرّقهم يومئذ إلى الحنّة والنار .

وقيل المراد تفرّق الناس بأشخاصهم كما يشير إليه قوله تعالى : « يوم يكون الناس كالفرش المبثوث » القارة : ٤ . ولكل وجه ، ولعلّ الأظهر امتياز الفريقين كما سيأتي . قوله تعالى : « من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهّدون » الظاهر

أنه تفسير لقوله في الآية السابقة : « يتفرقون » وقوله : « من كفر فعليه كفره » أي وبال كفره بتقدير المضاف أو نفس كفره الذي سينقلب عليه نارا يخلّد فيها وهذا أحد الفريقين .

وقوله : « ومن عمل صالحاً فلا أنفسهم يمهدون » مهد الفراش بسطه وإيطاؤه ، و هؤلاء الفريق الآخر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقد جيء بالجزاء « فلا أنفسهم يمهدون » جمعا نظراً إلى المعنى كما أنه جيء به مفرداً في الشرطيّة السابقة « فعليه كفره » نظراً إلى اللفظ ، واكتفي في الشرط بذكر العمل الصالح ولم يذكر الإيمان معه لأن العمل إنما يصلح بالإيمان على أنه مذكور في الآية التالية .

والمعنى والذين عملوا عملاً صالحاً - بعد الإيمان - فلا أنفسهم يوطؤون ما يعيشون به ويستقرون عليه .

قوله تعالى : « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين » قال الراغب : الجزاء الغناء والكفاية قال الله تعالى : « لا تجزي نفس عن نفس شيئاً » وقال : « لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » والجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيراً فخير وإن شراً فشر . يقال : جزيته كذا وبكذا . انتهى .

وقوله : « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله » اللّام للغاية ولا ينافي عدماً يؤتيهم جزاء - وفيه معنى المقابلة - عدّه من فضله وفيه معنى عدم الاستحقاق وذلك لأنهم بأعيانهم وما يصدر عنهم من أعمالهم ملك طلق لله سبحانه فلا يملكون لأنفسهم شيئاً حتى يستحقوا به أجراً ، وأين العبوديّة من الملك والاستحقاق فما يؤتونه من الجزاء فضل من غير استحقاق .

لكنه سبحانه بفضلّه ورحمته اعتبر لهم ملكاً لا أعمالهم في عين أنه يملكهم ويملك أعمالهم فجعل لهم بذلك حقاً يستحقّونه ، وجعل ما ينالونه من الجنّة والزلفى أجراً مقابلاً لأعمالهم وهذا الحقّ المجمعول أيضاً فضل آخر منه سبحانه .

ومنشأ ذلك حبه تعالى لهم لأنهم لما أحبّوا ربهم أقاموا وجوههم للدين القيم واتبعوا الرسول فيما دعا إليه فأحبّهم الله كما قال : « قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني »

يحببكم الله ، آن عمران : ٣١ .

ولذا كانت الآية تعدّ ما يؤتيهم الله من الثواب جزاء وفيه معنى المقابلة والمبادلة وتعدّ ذلك من فضله نظراً إلى أن نفس هذه المقابلة والمبادلة فضل منه سبحانه ومنشأه حبه تعالى لهم كما يؤمى إليه تذييل الآية بقوله : «إنّه لا يحبّ الكافرين» .

ومن هنا يظهر أن قوله : «إنّه لا يحبّ الكافرين» يفيد التعليل بالنسبة إلى جانبي النفي والإثبات جميعاً أي إنّّه تعالى يخصّ المؤمنين العاملين للصالحات بهذا الفضل ويحرم الكافرين منه لأنّه يحبّ هؤلاء ولا يحبّ هؤلاء .

قوله تعالى : «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون» المراد بكون الرياح مبشرات تبشيرها بالمطر حيث تهبّ قبيل نزوله .

وقوله : «وليذيقكم من رحمته» عطف على موضع مبشرات لما فيه من معنى التعليل والتقدير يرسل الرياح لتبشركم وليذيقكم من رحمته والمراد بإذاقة الرحمة إصابة أنواع النعم المترتبة على جريان الرياح كتلقيح الأشجار ودفع العفونات وتصفية الأجواء وغير ذلك ممّا يشملها إطلاق الجملة .

وقوله : «ولتجري الفلك بأمره» أي لجريان الرياح وهبوبها . وقوله : «ولتبتغوا من فضله» أي لتطلبوا من رزقه الذي هو من فضله .

وقوله : «ولعلكم تشكرون» غاية معنوية كما أن الغايات المذكورة من قبل غايات صوريّة ، والشكر هو استعمال النعمة بنحو ينبيء عن إنعام منعمه أو الثناء اللفظي عليه بذكر إنعامه ، وينطبق بالأخيرة على عبادته ولذلك جيء بلعل المفيدة للرجاء فإن الغايات المعنوية الاعتبارية ربّما تخلّفت .

قوله تعالى : «ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانقمنا من الذين أجرموا وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين» قال الراغب : أصل الجرم - بالفتح فالسكون - قطع الثمرة عن الشجر - إلى أن قال - وأجرم صار إذا جرم نحو أنمروا وتمروا ألبن واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه ولا يكاد يقال في عامّة كلامهم للكيس المحمود انتهى .

والآية كالمعترضة وكأنها مسوقة لبيان أن للمؤمنين حقاً على ربهم وهو نصرهم في الدنيا والآخرة ومنه الانتقام من المجرمين ، وهذا الحق مجعول من قبله تعالى لهم على نفسه فلا يرد عليه محذور لزوم كونه تعالى مغلوباً في نفسه مقهوراً محكوماً لغيره . وقوله : « فانتقمنا من الذين أجرموا » الفاء فصيحة أي فآمن بعضهم وأجرم آخرون فانتقمنا من المجرمين وكان حقاً علينا نصر المؤمنين بإيجائهم من العذاب وإهلاك مخالفينهم ، وفي الآية بعض الإشارات بأن الانتقام من المجرمين لأجل المؤمنين فإنه من النصر .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » قال : في البر فساد الحيوان إذا لم يمطر وكذلك هلاك دواب البحر بذلك ، وقال الصادق عليه السلام : حياة دواب البحر بالمطر فإذا كف المطر ظهر الفساد في البر والبحر ، وذلك إذا كثرت الذنوب والمعاصي .

أقول : وهو من الجري .

وفي روضة الكافي بإسناده عن أبي الربيع الشامي قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ، فقل : عني بذلك أي انظروا في القرآن فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم .

وفي المجمع في قوله : « ومن عمل صالحاً فلا نفسهم يمهدون » روى منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن العمل الصالح ليسبق صاحبه إلى الجنة فيمهد له كما يمهّد لأحدهم خادمه فراشه .

وفيه وجاءت الرواية عن أمّ الدرداء أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : مامن امرء يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم قرأ : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن

أبي الدرداء .



اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ
وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ
مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ
مِنْ قَبْلِهِ لُمُوبِلِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ
أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ
الْمَوْتِ وَلَا تَسْمَعُ الضَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ
النَّعْمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) .

﴿بيان﴾

هذا هو الفصل الثالث من الآيات المحتججة من طريق أفعاله تعالى وإن شئت
فقل : أسماء أفعاله وعمدة غرضها الاحتجاج على المعاد ولما كان عمدة إنكارهم وجودهم
متوجها إلى المعاد و بـ إنكاره يلغو الأحكام و الشرائع فيلغو التوحيد عقب الاحتجاج
بـ يأس النبي ﷺ وأمره بأن يشتغل بدعوة من في نفسه استعداد الإيمان وصلاحيه
الإسلام والتسليم للحق .

قوله تعالى : «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ
يَشَاءُ» إلى آخر الآية . الإثارة التحريك والنشر والسحاب الغمام والسما جهة العلو
فكل ما علاك وأظلك فهو سماء والكسر بالفتح جمع كسفة وهي القطعة والودق

القطر من المطر والخلال جمع خلّة وهي الفرجة .

والمعنى الله الذي يرسل الرياح فتحرك وتنشر سحابا وبسط ذلك السحاب في جهة العلو من الجو كيف يشاء سبحانه ويجعله قطعات متراكبة متراكمة فتري قطر المطر يخرج من فرجه فإذا أصاب بذلك المطر من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون لأنه مادة حياتهم وحياة الحيوان والنبات .

قوله تعالى : « وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين » الإِبلّاس اليباس والقنوط .

وضمير « ينزل » للمطر وكذا ضمير « من قبله » على ما قيل وعليه يكون « من قبله » تأكيداً لقوله : « من قبل أن ينزل عليهم » وفائدة التأكيد - على ما قيل - الإِعلام بسرعة تقلّب قلوب البشر من اليأس إلى الاستبشار وذلك أن قوله : « من قبل أن ينزل عليهم » يحتمل الفسحة في الزمان فجاء « من قبله » للدلالة على الاتصال ودفع ذلك الاحتمال .

وفي الكشف أن قوله : « من قبله » من باب التكرير والتوكيد كقوله تعالى : « فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها » ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد نطاول وبعد فاستحكم يأسهم وتمادى إبلّاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك انتهى .

وربما قيل : إن ضمير « من قبله » لإرسال الرياح والمعنى وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبل إرسال الرياح لآئين قاطنين .

قوله تعالى : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير » الآثار جمع الأثر وهو ما يبقى بعد الشيء فيدل عليه كأثر القدم وأثر البناء واستعير لكل ما يتفرّع على شيء ، والمراد برحمة الله المطر النازل من السحاب الذي بسطته الرياح ، وآثارها ما يترتب على نزول المطر من النبات والأشجار والأثمار وهي بعينها آثار حياة الأرض بعد موتها .

ولذا قال : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها » فجعل

آثار الرحمة التي هي المطر كيفية إحياء الأرض بعد موتها فحياة الأرض بعد موتها من آثار الرحمة والنبات والأشجار والأثمار من آثار حياتها وهي أيضا من آثار الرحمة والتدبير تدبير إلهي يتفرع على خلقه الرياح والسحاب والمطر .

وقوله : « إن ذلك لمحيي الموتى » الإشارة بذلك إليه تعالى بما له من الرحمة التي من آثارها إحياء الأرض بعد موتها ، وفي الإشارة البعيدة تعظيم ، والمراد بالموتى موتى الإنسان أو الإنسان وغيره من ذوي الحياة .

والمراد بقوله : « إن ذلك لمحيي الموتى » الدلالة على المماثلة بين إحياء الأرض الميتة وإحياء الموتى إذ في كل منهما موت هو سقوط آثار الحياة من شيء محفوظ وحياة هي تجدد تلك الآثار بعد سقوطها ، وقد تحقق الإحياء في الأرض و النبات وحياة الإنسان وغيره من ذوي الحياة مثلها وحكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد ، فإذا جاز الإحياء في بعض هذه الأمثال و هو الأرض و النبات فليجز في البعض الآخر .

وقوله : « وهو على كل شيء قدير » تقرير للإحياء المذكور ببيان آخر وهو عموم القدرة فإن القدرة غير محدودة ولا متناهية فيشمل الإحياء بعد الموت وإلا لزم نقيضها وقد فرضت مطلقة غير محدودة .

قوله تعالى : « ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلموا من بعده يكفرون » ضمير « فرأوه » للنبات المفهوم من السياق ، وقوله : « لظلموا » جواب للقسم قائم مقام الجزاء والمعنى وأقسم لئن أرسلنا ريحا باردة فضربت زروعهم وأشجارهم بالصفار ورأوه لظلموا بعده كافرين بنعمه .

ففي الآية توبيخهم بالتقلب السريع في النعمة والنعمة فإذا لاحت لهم النعمة بادروا إلى الاستبشار وإذا أخذ بعض ما أنعم الله به من فضله لم يلبثوا دون أن يكفروا بالمسلمات من النعم .

وقيل : ضمير « فرأوه » للسحاب لأن السحاب إذا كان أصفر لم يمطر ، وقيل : للريح فإنه يذگر ويؤنث والقولان بعيدان .

قوله تعالى : « فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى - إِلَى قَوْلِهِ - فَهُمْ مُسْلِمُونَ » تعليل لما يفهم من السياق السابق كأنه قيل لا تشغل ولا تحزن بهؤلاء الذين تبدل بهم الأحوال من إبلاس واستبشار وكفر و من عدم الإيمان بآياتنا وعدم تعقلها فانهم موتى وصم وعمى وأنت لا تقدر على إسماعهم وهدايتهم وإنما تسمع وتهدي من يؤمن بآياتنا أي يعقل هذه الحجج ويصدقها فهم مسلمون وقد تقدم تفسير الآيتين في سورة النمل .





اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ
 بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
 يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ
 الَّذِينَ آتَوْا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ
 فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
 الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ
 إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩)
 فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) .

﴿ بيان ﴾

هذا هو الفصل الرابع من الآيات وهو كسابقه وفيها ختام السورة .
 قوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ
 مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً » الخ الضعف والقوة متقابلان ، و« من » في قوله : « من ضعف »
 للابتداء أي ابتداء خلقكم من ضعف أي ابتداءكم ضعفاء ، ومصادقه على ما تفيد المقابلة
 أول الطفولية وإن أمكن صدقه على النطفة .
 والمراد بالقوة بعد الضعف بلوغ الأشد وبالضعف بعد القوة الشيخوخة و لذا
 عطف عليه « شيبه » عطف تفسير ، وتشكير « ضعف » و « قوة » للدلالة على الإبهام وعدم

تعيّن المقدار لاختلاف الأفراد في ذلك .

وقوله : « يخلق ما يشاء » أي كما شاء الضعف فخلقه ثم القوة بعده فخلقها ثم الضعف بعدها فخلقه وفي ذلك أتمّ الإشارة إلى أن تتالي هذه الأحوال من الخلق وإن كان هذا النقل من حال إلى حال في عين أنه تدبير خلقا فهو لله الخالق للأشياء فليس لقائل منهم أن يقول : إن ذلك من التدبير الراجع إلى إله الإنسان مثلا كما يقوله الوثنيّة .

ثم تمّ الكلام بالعلم والقدرة فقال : « وهو العليم القدير » .

قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون » هذه الآيات كالذنابة للآيات السابقة العادية للآيات والحجج على وحدانيته تعالى والبعث ، وكالتمهيد والتوطئة للآية التي تختتم بها السورة فأنه لما عدّ شيئا من الآيات والحجج وأشار إلى أنهم ليسوا بمن يترقّب منهم الإيمان أو يطمع في إيمانهم أراد أن يبيّن أنهم في جهل من الحق يتلقّون الحديث الحق باطلا والآيات الصريحة الدلالة منزعلة عن دلالتها وكذلك يؤفكون ولا عذر لهم يعتذرون به .

وهذا الإفك والتقلّب من الحق إلى الباطل يدوم عليهم ويلازمهم حتى قيام الساعة فيظنّون أنهم لم يلبثوا في قبورهم فيما بين الموت والبعث غير ساعة من نهار فاشتبه عليهم أمر البعث كما اشتبه عليهم كل حق فظنّوه باطلا .

فقوله : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » يحكي عنهم اشتباه الأمر عليهم في أمر الفصل بين الدنيا ويوم البعث حتى ظنّوه ساعة من ساعات الدنيا .

وقوله : « كذلك كانوا يؤفكون » أي يصرفون من الحق إلى الباطل فيدعون إلى الحق ويقام عليه الحجج والآيات فيظنّونه باطلا من القول وخرافة من الرأي .

قوله تعالى : « وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث » الخ ردّ منهم لقول المجرمين : « ما لبثوا غير ساعة » فإنّ المجرمين لا خلاصهم إلى الأرض وتوغلهم في نشأة الدنيا يرون يوم البعث والفصل بينه

وبين الدنيا محكوما بنظام الدنيا فقد روا الفصل بساعة وهو مقدار قليل من الزمان كأنهم ظنوا أنهم بعد في الدنيا لأنه مبلغ علمهم .

فرد عليهم أهل العلم والإيمان أن البعث مقدر بالفصل بين الدنيا ويوم البعث وهو الفصل الذي يشير إليه قوله : « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » المؤمنون : ١٠٠ .

فاستنتجوا منه أن اليوم يوم البعث ولكن المجرمين لما كانوا في ريب من البعث ولم يكن لهم يقين بغير الدنيا ظنوا أنهم لم يمر بهم إلا ساعة من ساعات الدنيا وهذا معنى قولهم : « لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون » أي كنتم جاهلين مرتابين لا يقين لكم بهذا اليوم ولذلك اشتبه عليكم أمر البعث .

ومن هنا يظهر أن المراد بقوله : « أوتوا العلم والإيمان » اليقين والالتزام بمقتضاء وأن العلم بمعنى اليقين بالله وبآياته والإيمان بمعنى الالتزام بمقتضى اليقين من الموهبة الإلهية ، ومن هنا يظهر أيضا أن المراد بكتاب الله الكتب السماوية أو خصوص القرآن لا غيره وقول بعضهم : إن في الآية تقديما وتأخيرا والتقدير وقال الذين أوتوا العلم والإيمان في كتاب الله لقد لبثتم إلى يوم البعث لا يعتد به .

قوله تعالى : « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون » الاستعاب طلب العتبي والعتبي إزالة العتاب أي لا ينفعهم المعذرة عن ظلمهم ولا يطلب منهم أن يزيلوا العتاب عن أنفسهم .

قوله تعالى : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل » الخ إشارة إلى كونهم مأفوكين مصروفين عن الحق حيث لا ينفعهم مثل يقرّب الحق من قلوبهم لأنها مطبوع عليها ، ولذا عقبه بقوله : « ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون » أي جاؤن بالباطل وهذا القول منهم لأنهم مصروفون عن الحق يرون كل حق باطلا ، ووضع الموصول والصلة موضع الضمير للدلالة على سبب القول .

قوله تعالى : « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون » أي يجعلون بالله

وآياته ومنها البعث وهم يصرون على جهلهم وارتياحهم .

قوله تعالى : « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفّنك الذين لا يوقنون ، أي فاصبر على ما يواجهوك به من قولهم : « إن أنتم إلا مبطلون ، وسائر تهكماتهم ، إن وعد الله أنه ينصرك حق كما أوماً إليه بقوله : « و كان حقاً علينا نصر المؤمنين » ولا يستخفّنك الذين لا يوقنون بوعد الله سبحانه .

وقول بعضهم : إن المعنى لا يوقنون بما تتلوعليهم من الآيات البيّنات بتكذيبهم لها وإيذائهم لك بأباطيلهم ، ليس بشيء وقد بدئت السورة بالوعد وختمت بالوعد والوعدان جميعاً بالنصرة .



سورة لقمان مكيّة وهى أربع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢)
 هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
 وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ (٥) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٦) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ
 آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابٍ
 أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨)
 خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَآلَقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ
 كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا
 خَلَقَ اللَّهُ فَارُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ
 مُبِينٍ (١١).

﴿بيان﴾

غرض السورة كما يومى إليه فاتحتها وخاتمتها و يشير إليه سياق عامّة آياتها
 الدعوة إلى التوحيد والإيقان بالمعاد والأخذ بكلّيات شرائع الدين .
 ويلوح من صدر السورة أنّها نزلت في بعض المشركين حيث كان يصدّ الناس عن
 استماع القرآن بنشر بعض أحاديث مزوّقة ملهية كما ورد فيه الأثر في سبب نزول قوله

« ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله » الآية و سيوافى حديثه .
فنزلت السورة تبيّن أصول عقائد الدين و كليات شرائعه الحقّة وقصّت شيئاً من خبر
لقمان الحكيم ومواعظه تجاه أحاديثهم الملهية .

و السورة مكّيّة بشهادة سياق آياتها . ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى : « ذلك
بأنّ الله هو الحقّ » وأنّ ما يدعون من دونه هو الباطل » الآية .

قوله تعالى : « تلك آيات الكتاب الحكيم هدى و رحمة للمحسنين - إلى قوله -
يوقنون » تقدّم تفسير مفردات هذه الآيات في السور السابقة .

وقد وصف الكتاب بالحكيم إشعاراً بأنّه ليس من لهو الحديث من شيء بل
كتاب لا انثلام فيه ليدخله لهو الحديث و باطل القول ، ووصفه أيضاً بأنّه هدى و رحمة
للمحسنين تتميماً لصفة حكيمته فهو يهدي إلى الواقع الحقّ و يوصل إليه لا كاللهو الشاغل
للإنسان عمّا يهّمه ، و هو رحمة لا نقمة صارفة عن النعمة .

ووصف المحسنين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هما العمدة في الأعمال وبالإيقان
بالآخرة و يستلزم التوحيد والرسالة وعامة التقوى كلّ ذلك مقابلة الكتاب للهو الحديث
والمصنفي إليه لمن يستمع لهو الحديث .

قوله تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير
علم و يتخذها هزوا » الخ اللهم ما يشغلك عمّا يهّمك و لهو الحديث الحديث الذي
يلهي عن الحقّ بنفسه كالحكايات الخرافيّة و القصص الداعية إلى الفساد والفجور ، أو
بما يقارنه كالتغنّي بالشعر أو بالملاهي و المزامير و المعازف فكلّ ذلك يشمله لهو
الحديث .

وقوله : « ليضلّ عن سبيل الله بغير علم » مقتضى السياق أن يكون المراد بسبيل الله
القرآن الكريم بما فيه من المعارف الحقّة الاعتقاديّة و العمليّة و خاصّة قصص الأنبياء
و أممهم الخالية فإنّ لهو الحديث و الأساطير المزوّقة المختلفة تعارض أو لا هذه
القصص ثمّ تهدم بنيان سائر المعارف الحقّة و توهنها في أنظار الناس .

و يؤيد ذلك قوله بعد : « ويتخذها هزوا » فإنّ لهو الحديث بما أنّه حديث

كما سمعت يعارض أو لا الحديث و يتخذة سخرياً .

فالمراد بسبيل الله القرآن بما فيه من القصص و المعارف و كأن مراد من كان يشتري لهو الحديث أن يضل الناس بصرفهم عن القرآن وأن يتخذ القرآن هزواً بأنه حديث مثله و أساطير كآساطيره .

و قوله : « بغير علم » متعلق بـ يضل و هو في الحقيقة وصف ضلال الضالين دون إضلال المضلين وإن كانوا أيضاً لاعلم لهم ثم هدّهم بقوله : « أولئك لهم عذاب مهين » أي مذلّ يوهنهم و يذلّهم حذاء استكبارهم في الدنيا .

قوله تعالى : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً » الخ وصف لذلك الذي يشتري لهو الحديث ليضلّ الناس عن القرآن و يهزء به و الوقر الحمل الثقيل و المراد بكون الوقر على أذنيه أن يشدّ عليهما ما يمنع من السمع وقيل : هو كناية عن الصمم .

والمعنى وإذا تتلى على هذا المشتري لهو الحديث آياتنا أي القرآن ولّى وأعرض عنها و هو مستكبر كأن لم يسمعها قطّ كأنه أصمّ فبشره بعذاب أليم .

وقد أعيد إلى من يشتري ضمير الافراد أو لا كما في « يشتري » و « ليضلّ » و « يتخذها » باعتبار اللفظ و ضمير الجمع ثانياً باعتبار المعنى ثم ضمير الافراد باعتبار اللفظ كما في « عليه » و غيره كذا قيل ، و من الممكن أن يكون ضمير « لهم » في الآية السابقة راجعاً إلى مجموع المضلّ و الضالّين المدلول عليهم بالسياق فتكون الضمائر الراجعة إلى « من » مفردة جميعاً .

قوله تعالى : « إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم جنّات النعيم - إلى قوله - العزيز الحكيم » رجوع بعد إنذار ذاك المشتري و تهديده بالعذاب المهين ثم العذاب الأليم إلى تبشير المحسنين و تطيب أنفسهم بجنّة النعيم الخالدة الموعودة من قبله تعالى و وعده الحقّ .

ولما كان غرض من اشترى لهو الحديث أن يلتبس الأمر على من يضلّه بغير علم فيحسب القرآن من الأساطير الباطلة كآساطيره و يهين به و كان لا يعتني بما تتلى عليه

من الآيات مستكبراً وذلك استهانة بالله سبحانه أكد أولاً ما وعده للمحسنين بقوله : « وعد الله حقاً » ثم وصف ثانياً نفسه بالعزّة المطلقة ، فلا يطرد عليه ذلّة وإهانة والحكمة المطلقة فلا يداخل كلامه باطل ولا هزل وخرافة .

ثم وصفه ثالثاً بأنه الذي يدبّر أمر السماء والأرض والنبات والحيوان والإنسان لأنه خالقها فله أن يعد هؤلاء بالجنة وأولئك بالعذاب وهو قوله : « خلق السماوات بغير عمد ترونها » الخ .

قوله تعالى : « خلق السماوات بغير عمد ترونها » الخ تقدم في تفسير قوله تعالى : « الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها » الرعد : ٢ أن قوله : « ترونها » يحتمل أن يكون قيداً توضيحياً والمعنى أنكم ترونها ولا أعمدة لها ، وأن يكون قيداً احترازياً والمعنى خلقها بغير أعمدة مرئية إشعاراً بأن هناك أعمدة غير مرئية .
وقوله : « وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم » أي ألقى فيها جبلاً شامخة لئلا تضطرب بكم وفيه إشعار بأن بين الجبال والزلازل رابطة مستقيمة .
وقوله : « وبث فيها من كل دابة » أي نشر في الأرض من كل حيوان يدب عليها .

وقوله : « وأنزلنا من السماء ماء وأنبتنا فيها من كل زوج كريم » أي وأنزلنا من جهة العلو ماء وهو المطر وأنبتنا فيها شيئاً من كل زوج نباتي شريف فيه منافع وله فوائد ، وفيه إشارة إلى تزوج النبات وقد تقدم الكلام فيه في نظيره .
والالتفات فيها من الغيبة إلى التكلم مع الغير للإشارة إلى كمال العناية بأمره كما قيل .

قوله تعالى : « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين » لما أراهم خلقه وتديره تعالى للسماوات والأرض وما عليها فأثبت به ربوبيته وألوهيته تعالى كلّفهم أن يروا شيئاً من خلق آلهتهم إن كانوا آلهة وأرباباً فإن لم يقدرُوا على إراءة شيء ثبت بذلك وحدانيته تعالى في ألوهيته وربوبيته .
وإنما كلّفهم بإراءة شيء من خلق آلهتهم - وهم يعترفون أن الخلق لله وحده

ولا يسندون إلى آلهتهم خلقاً وإنما ينسبون إليهم التدبير فقط - لأنه نسب إلى الله خلقاً هو بعينه تدبير من غير انفكاك فلو كان لآلهتهم تدبير في العالم كان لهم خلق ما يدبرون أمره وإذ ليس لهم خلق فليس لهم تدبير فلا إله إلا الله ولا رب غيره .
وقد سقت الآية خطاباً من النبي ﷺ لأن نوع هذا الخطاب « فأروني ما ذا خلق الذين من دونه » لا يستقيم من غيره ﷺ .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع : نزل قوله تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث » في النضر بن الحارث بن علقمة بن كلفة بن عبد الدار بن قصي بن كلاب كان يتجرف فيخرج إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم ويحدث بها قريشاً ويقول لهم : إن محمداً يحدثكم بحديث عاد و ثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستمعون حديثه ويتروكون استماع القرآن . عن الكلبي .

أقول : وروى هذا المعنى في الدر المنثور عن البيهقي عن ابن عباس ، ولا يبعد أن يكون ذلك سبب نزول تمام السورة كما تقدمت الإشارة إليه .
وفي المعاني بإسناده عن يحيى بن عباد عن أبي عبد الله عليه السلام قلت : قوله عز وجل « ومن الناس من يشتري لهو الحديث » قال : منه القنا .

أقول : وروى هذا المعنى في الكافي بإسناده عن مهران عنه عليه السلام ، وإسناده عن الوشاء عن الرضا عنه عليه السلام ، وإسناده عن الحسن بن هارون عنه عليه السلام .

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : سمعته يقول : الغنائم أوعده الله عليه النار وتلا هذه الآية : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين » .

وفيه بإسناده عن أبي بصير قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن كسب المغنيات فقال : التي يدخل عليها الرجال حرام والتي تدعى إلى الأعراس ليس به بأس وهو قول الله عز وجل : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » .

وفي المجمع وروى أبوأمامة عن النبي ﷺ قال : لا يحلّ تعليم المغنيات ولا بيعهنّ وأثمانهنّ حرام وقد نزل تصديق ذلك في كتاب الله : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث » الآية .

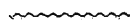
أقول : ورواه في الدر المنثور عن جم غفير من أصحاب الجوامع عن أبيأمامة عنه عليه السلام .

وفيه وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال : هو الطعن في الحق والاستهزاء به وما كان أبوجهل وأصحابه يجيئون به إذ قال : يا معاشر قريش ألا أطمعكم من الزقوم الذي يخوفكم به صاحبكم ؟ ثم أرسل إلى زبد و تمر فقال : هذا هو الزقوم الذي يخوفكم به . قال : ومنه الفنا .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا عن علي بن الحسين قال : ما قدّست أمة فيها البربط .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم » فهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة من بني عبدالدار بن قصي وكان النضر ذارواية لأحاديث الناس وأشعارهم يقول الله عز وجل : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً » الآية .

وفيه عن أبيه عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : قلت له : أخبرني عن قول الله تعالى : « والسماء ذات الجبّك » قال : هي مجبوكة إلى الأرض وشبك بين أصابعه فقلت : كيف تكون مجبوكة إلى الأرض والله يقول : « رفع السماوات بغير عمد ترونها » ؟ فقال : سبحان الله أليس يقول : « بغير عمد ترونها » ؟ فقلت . بلى فقال : فثمّ عمد ولكن لا ترونها .





وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ
وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ
يَا بُنَيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ
حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَ لِوَالِدِكَ
إِلَى الْمَصِيرِ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ
إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنِّي أَنَا تَكَ مِثْقَالِ
حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ
يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ
وَ أَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)
وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ
مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ
الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) .

﴿بيان﴾

في الآيات إشارة إلى إيتاء لقمان الحكمة و نبذة من حكمه و مواعظه لابنه ولم يذكر في القرآن إلا في هذه السورة و يناسب المورد من حيث مقابلة قصته الممتلئة بحكمة

وموعظة لما قص من حديث من كان يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا .

قوله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله » الخ الحكمة على ما يستفاد من موارد استعمالها هي المعرفة العلمية النافعة وهي وسط الاعتدال بين الجهل والجريزة . وقوله : « أن اشكر لي » قيل : هو بتقدير القول أي قلنا : أن اشكر لي . والظاهر أنه تفسير إيتائه الحكمة من غير تقدير القول وذلك أن حقيقة الشكر هي وضع النعم في موضعها الذي ينبغي له بحيث يشير إلى إنعام المنعم ، وإيقاعه كما هو حقه يتوقف على معرفة المنعم ومعرفة نعمه بما هي نعمة وكيفية وضعها موضعه بحيث يحكي عن إنعامه فإيتاؤه الحكمة بعث له إلى الشكر فإيتاء الحكمة أمر بالشكر بالضرورة .

وفي قوله : « أن اشكر الله » التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة وذلك أن التكلم مع الغير من المتكلم إظهار للمعظمة بالتكلم عن قبل نفسه وخدمه وقول أن اشكر لنا على هذا لا يناسب التوحيد في الشكر وهو ظاهر . وقوله : « ومن يشكر فأنا يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد » استغناء منه تعالى أن نفع الشكر إنما يرجع إلى نفس الشاكر والكفر لا يتضرر ربه إلا لنفسه دونه سبحانه ومن يشكر فأنا يشكر لنفسه ولا ينتفع به الله سبحانه لغناه المطلق ومن كفر فأنا يتضرر ربه نفسه إن الله غني لا يؤثر فيه الشكر نفعاً ولا ضرراً حميد محمود على ما أنعم سواء شكر أو كفر .

وفي التعبير عن الشكر بالمضارع الدال على الاستمرار وفي الكفر بالماضي الدال على المرة إشعار بأن الشكر إنما ينفع مع الاستمرار لكن لكفر يتضرر بالمرة منه . قوله تعالى : « وإن قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » عظمة كل عمل بعظمة أثره وعظمة المعصية بعظمة المعصية فإن مؤاخذة العظيم عظيمة فأعظم المعاصي معصية الله لعظمته وكبريائه فوق كل عظمة وكبرياء بأنه الله لا شريك له وأعظم معاصيه معصيته في أنه الله لا شريك له .

وقوله : « إنَّ الشُّركَ اظلمَ عظيمٌ » حيث أُطلقَ عظُمته من غير تقييد بقياسه إلى سائر المعاصي يدلّ على أنَّ له من العظمة ما لا يقدرُ بقدر .

قوله تعالى : « ووصَّينا الإنسانَ بوالديه » إلى آخر الآية اعتراض واقع بين الكلام المنقول عن لقمان وليس من كلام لقمان وإنَّما اطردهنا للدلالة على وجوب شكر الوالدين كوجوب الشكر لله بل هو من شكره تعالى لا انتهائه إلى وصيته وأمره تعالى فشكرهما عبادة له تعالى وعبادته شكره .

وقوله : « حملته أُمُّه وهنَّ على وهنٍ وفصاله في عامين » ذكر بعض ما تحمَّلتْهُ أُمُّه من المحنة والأذى في حملة وتربيته ليكون داعياً له إلى شكرهما وخاصة الأُمَّ .

والوهن الضعف وهو حال بمعنى ذات وهن أو مفعول مطلق والتقدير تهن وهن على وهن ، و الفصال الفطم وترك الإرضاع ومعنى كون الفصال في عامين تحقُّقه بتحقيق العامين فيؤلّ إلى كون الإرضاع عامين وإذاضُمَّ إلى قوله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » الاحقاف : ٤٦ بقي لأقلَّ الحمل سنة أشهر وستكرَّر الإشارة إليه في البحث الروائي التالي .

وقوله : « أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير » تفسير لقوله : « وصَّينا » النخ في أوَّل الآية أي كانت وصيتنا هو أمرنا بشكرهما كما أمرناه بشكر الله وقوله : « إلى المصير » إنذار وتأكيد للأمر بالشكر .

والقول في الالتفات الواقع في الآية في قوله : « أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير » النخ من سياق التكلم مع الغير إلى سياق التكلم وحده كالقول في الالتفات في قوله السابق : « أن اشكر الله » .

قوله تعالى : « وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » إلى آخر الآية . أي إن ألحَّا عليك بالمجاهدة أن تجعل ما ليس لك علم به أو بحقيقته شريكاً لي فلا تطعهما ولا تشرك بي والمراد بكون الشريك المفروض لاعلم به كونه معدوماً مجهولاً مطلقاً لا يتعلق به علم فيؤلّ المعنى لا تشرك بي ما ليس بشيء ، هذا محصل ما ذكره

في الكشف وربما أيدته قوله تعالى: «أَتَنْبِئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ»
يونس ١٨ .

وقيل: «تشارك» بمعنى تكفروا «ما» بمعنى الذي والمعنى وإن جاهدك أن
تكفر بي كفرا لا حجة لك به فلا تطعهما و يؤيده تكرار نفي السلطان على الشريك في
كلامه تعالى كقوله: «ما تعبدون من دونه إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» يوسف: ٤٠ إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله: «وصاحبهما في الدنيا معروفاً» واتبع سبيل من أناب إلى الله الجملتان كالتلخيص
والتوضيح لما تقدم في الآيتين من الوصية بهما والنهي عن إطاعتهم إن جاهدا على
الشرك بالله .

يقول سبحانه: يجب على الإنسان أن يصاحبهما في الأمور الدنيوية غير
الدين الذي هو سبيل الله صحابا معروفاً ومعاشرة متعارفة غير منكرة من رعاية حالهما
بالرفق واللين من غير جفاء وخشونة وتحمل المشاق التي تلحقه من جهتهما فليست
الدنيا إِلَّا أَيْتَاماً معدودة متصرفاً ، وأما الدين فإن كانا ممن أناب إلى الله فلتتبع سبيلهما
وإلا فسبيل غيرهما ممن أناب إلى الله .

ومن هنا يظهر أن قوله: «واتبع سبيل من أناب إلى الله» إيجازاً لطيفاً فهو
يفيد أنهما لو كانا من المنيبين إلى الله فلتتبع سبيلهما وإلا فلا يطاعا ولتتبع سبيل غيرهما
ممن أناب إلى الله .

وقوله: «ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون» أي هذا الذي ذكر ،
تكليفكم في الدنيا ثم ترجعون إلى يوم القيامة فأظهر لكم حقيقة أعمالكم التي
عملتموها في الدنيا فأقضي بينكم على حسب ما تقضيه أعمالكم من خير أو شر .

وبما مر يظهر أن قوله: «في الدنيا» يفيد أو لا قصر المصاحبة بالمعروف في الأمور
الدنيوية دون الدينونة ، وثانياً تهوين أمر الصعبة وأنها ليست إِلَّا في أيام قلائل
فلا كثير ضير في تحمل مشاق خدمتهما ، وثالثاً المقابلة ليوم الرجوع إلى الله المشار إليه
بقوله: «ثم إلى مرجعكم» الخ .

قوله تعالى : « يا بني^١ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله » الخ ذكرُوا أن الضمير في « إنها » للخصلة من الخير والشر^٢ لدلالة السياق على ذلك وهو أيضاً اسم كان و « مثقال حبة » خبره ، والمراد بكونها في صخرة اختفاؤها بالاستقرار في جوف الصخرة الصماء أو في السماوات أو في الأرض ، والمراد بالإتيان بها إحضارها للحساب والجزاء .

كان الفصل السابق من كلامه المنقول راجعاً إلى التوحيد ونفي الشريك وما في هذه الآية فصل ثان في المعاد وفيه حساب الأعمال والمعنى يا بني^٣ إن تكن الخصلة التي عملت من خير أو شر^٤ أخف^٥ الأشياء وأدقها كمثقال حبة من خردل فتكن تلك الخصلة الصغيرة مستقرة في جوف صخرة أو في أي مكان من السماوات والأرض يأت بها الله للحساب والجزاء لأن^٦ الله لطيف ينفذ علمه في أعماق الأشياء ويصل إلى كل خفي^٧ خبير يعلم كنه الموجودات .

قوله تعالى : « يا بني^٨ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » الآية وما بعدها من كلامه راجع إلى نبذة من الأعمال والأخلاق الفاضلة .

فمن الأعمال الصلاة التي هي عمود الدين ويتلوها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن الأخلاق الصبر على ما يصيب من مصيبة .

وقوله : « إن ذلك من عزم الأمور » الإشارة إلى الصبر والإشارة البعيدة للتعظيم والترفع وقول بعضهم : إن الإشارة إلى جميع ما تقدم من الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر ليس في محله لتكرر وعد الصبر من عزم الأمور في كلامه تعالى كقوله : « ولئن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » الشورى : ٤٣ ، وقوله : « إن صبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » آل عمران : ١٨٦ .

والعزم - على ما ذكره الراغب - عقد القلب على إمضاء الأمر وكون الصبر - وهو حبس النفس في الأمر - من العزم إنما هو من حيث إن العقد القلبي مالم ينحل وينقسم ثبت الإنسان على الأمر الذي عقد عليه فالصبر لازم الجدي في العقد والمحافظة عليه وهو

من قدرة النفس وشهامتها .

وقول بعضهم : إن المعنى أن ذلك من عزيمة الله وإيجابه في الأمور بعيد وكذا قول بعضهم : إن العزم هو الجزم وهو لغة هزيل .

قوله تعالى : « ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور » قال الراغب : الصغر ميل في العنق والتصغير إماتته عن النظر كبراً قال : « ولا تصغر خدك للناس » وقال : المرح شدة الفرح والتوسع فيه انتهى . فالمعنى لا تعرض بوجهك عن الناس تكبراً ولا تمش في الأرض مشية من اشتد فرحه إن الله لا يحب كل من تأخذه الخيلاء - وهو التكبر بتخييل الفضيلة - ويكثر من الفخر . وقال بعضهم إن معنى « لا تصغر خدك للناس » لا تلوعنقك لهم تذلاً عند الحاجة وفيه أنه لا يلائمه ذيل الآية .

قوله تعالى : « واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » القصد في الشيء الاعتدال فيه والغض - على ما ذكره الراغب - النقصان من الطرف والصوت ففض الصوت النقص والقصر فيه . والمعنى وخذ بالاعتدال في مشيك وبالنقص والقصر في صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير لمبالغتها في رفعه .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن عبد الله بن سنان قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إن من الكبائر عقوق الوالدين واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وقد روي : أكبر الكبائر الشرك بالله .

في الفقيه في الحقوق المروية عن سيد العابدين عليه السلام : حق الله الأكبر عليك أن تعبد ولا تشرك به شيئاً فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة .

قال : و أما حقّ اُمّك أن تعلم أنّها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحدًا وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحدًا أحدًا ووقتك بجميع جوارحها ، ولم تبال أن تجوع وتطعمك وتعطش وتسقيك ، وتعري وتكسوك ، وتضحي وتظلك ، وتهجر النوم لأجلك ، ووقتك الحرّ والبرد لتكون لها فاءك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه .
و أما حقّ أبيك فإن تعلم أنّه أصلك فإني لك لولاه لم تكن فهمما رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه فاحمد الله واشكره على قدر ذلك ولا قوة إلا بالله .

وفي الكافي بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله من أبر ؟ قال : اُمّك . قال : ثم من ؟ قال : اُمّك قال : ثم من ؟ قال : اُمّك . قال ثم من ؟ قال : أباك .

وفي المناقب : مرّ الحسين بن علي عليه السلام على عبد الرحمان بن عمرو بن العاص فقال عبد الله : من أحبّ أن ينظر إلى أحبّ أهل الأرض إلى أهل السماء فلي نظر إلى هذا المجتاز وما كلمته منذ ليالي صفتين .

فأتى به أبو سعيد الخدري إلى الحسين عليه السلام فقال له الحسين عليه السلام : أتعلم أنّي أحبّ أهل الأرض إلى أهل السماء وتقاتلني وأبي يوم صفتين ؟ والله إنّ أبي لخير منّي . فاستعذر وقال إنّ النبي ﷺ قال لي : أطع أباك . فقال له الحسين عليه السلام أما سمعت قول الله تعالى : « وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » وقال رسول الله ﷺ : إنّما الطاعة بالمعروف ، وقوله : لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وفي الفقيه في ألفاظه صلى الله عليه وآله وسلم الموجزة : لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : سمعته يقول : اتقوا المحقرات من الذنوب فإنّ لها طالباً ، يقول أحدكم أذنب و أستغفر إنّ الله عزّ وجلّ يقول : « سنكتب ما قدّموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين » وقال عزّ وجلّ :

« إنَّها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إنَّ الله لطيف خبير » .

وفيه بإسناده إلى معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أفضل ما يتقرَّب به العباد إلى ربِّهم وأحبَّ ذلك إلى الله عزَّ وجلَّ فقال : ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة . الحديث .

وفيه بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنَّه قال : الصلاة قربان كلِّ تقيٍّ .

وفي المجمع « واصبر على ما أصابك » من المشقة والأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . عن عليٍّ عليه السلام .

وفيه في قوله تعالى : « ولا تصعِّرْ خدَّكَ للناس » أي ولا تمل وجهك من الناس بكلِّ ولا تعرض عمن يكلمك استخفافاً به ، وهذا المعنى قول ابن عباس وأبي عبد الله عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني و ابن عدي وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله : « ولا تصعِّرْ خدَّكَ للناس » قال : لي الشدق .

وفي المجمع في قوله تعالى : « إنَّ أنكر الأصوات لصوت الحمير » وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : هي العطسة المرتفعة القبيحة والرجل يرفع صوته بالحديث رفعا قبيحا إلا أن يكون داعياً أو يقرء القرآن .

أقول : وفي جميع هذه المعاني وخاصة في العقوق روايات كثيرة متظافرة .

﴿ كلام في قصة لقمان ونبذ من حكمه في فصلين ﴾

١ - لم يرد اسم لقمان في كلامه تعالى إلا في سورة لقمان ولم يذكر من قصصه إلا ما في قوله عز من قائل : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله » و قد وردت في قصته وحكمه روايات كثيرة مختلفة ونحن نورد بعض ما كان منها أقرب إلى الاعتبار .
ففي الكافي عن بعض أصحابنا رفعه إلى هشام بن الحكم قال : قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : يا هشام إن الله قال : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » قال : الفهم والعقل .

وفي المجمع روى نافع عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : حقاً أقول لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكير حسن اليقين أحب الله فأحبه ومن عليه بالحكمة .

كان نائماً نصف النهار إذ جاءه نداء : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق ؟ فأجاب الصوت إن خيرني ربّي قبلت العافية ولم أقبل البلاء وإن هو عزم عليّ فسمعاً وطاعة فإني أعلم أنّه إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني .

فقال الملائكة بصوت لا يراهم : لم يا لقمان ؟ قال : لأنّ الحكم أشدّ المنازل وآكدها يغشاه الظلم من كلّ مكان إن وفّوا فبالحريّ أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلاً وفي الآخرة شريفاً خير من أن يكون في الدنيا شريفاً وفي الآخرة ذليلاً ومن تخير الدنيا على الآخرة ففقه الدنيا ولا يصيب الآخرة .
فعجبت الملائكة من حسن منطقته فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه يتكلّم بها ثم كان يوازر داود بحكمته فقال له داود : طوبى لك يا لقمان أعطيت الحكمة وصرفت عنك البلوى .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ أتدرون ما كان لقمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : كان حبشياً .

٤ - وفي تفسير القمي "با سنده عن حماد قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عز وجل ، فقال : أما والله ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال .

ولكنه كان رجلاً قوياً في أمر الله متوراً عا في الله ساكتاً مستكيناً عميق النظر طويل الفكر حديد النظر مستغن بالعبر لم ينم نهارة قط ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال لشدة تستره وعموق نظره وتحفظه في أمره ، ولم يضحك من شيء قط مخافة الإثم ولم يغضب قط ، ولم يمازح إساناً قط ، ولم يفرح بشيء ، أتاه من أمر الدنيا ولا حزن منها على شيء قط وقد نكح من النساء وولد له من الأولاد الكثير وقدّم أكثرهم أفرطاً فما بكى على موت أحد منهم .

ولم يمرّ برجلين يختصمان أو يقتتلان إلاّ أصلح بينهما ولم يعض عنهما حتى تحابا ، ولم يسمع قولاً قط من أحد استحسنه إلاّ سأل عن تفسيره وعمّن أخذه ، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء ، وكان يغشى القضاة والملوك والساطين فيرثي للقضاة ممّا ابتلوا به ، ويرحم الملوك والساطين لغرّتهم بالله وطمأنينتهم في ذلك ، ويعتبر ويتعلّم ما يغلب به نفسه ويجاهد به هواه ويحترز به من الشيطان يداوي قلبه بالفكر ويداوي نفسه بالعبر ، وكان لا يظنّ إلاّ فيما يعنيه فبذلك أوتي الحكمة ومنح العصمة .

وإن الله تبارك وتعالى أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار وهدأت العيون بالقائلة فنادوا لقمان حيث يسمع ولا يراهم فقالوا : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس ؟ فقال لقمان : إن أمرني الله بذلك فالسمع والطاعة لأنّه إن فعل ذلك أعانني عليه وعلمني وعصمني وإن هو خيرني قبلت العافية .

فقات الملائكة : يا لقمان لم ؟ قال : لأنّ الحكم بين الناس بأشدّ المنازل وأكثر فتناً وبلاءً يخذل ولا يعان ويتغشاه الظلم من كل مكان وصاحبه فيه بين أمرين إن أصاب فيه الحقّ فبالحريّ أن يسلم وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلاً ضعيفاً كان أهون عليه في المعاد من أن يكون حكماً سرياً شريفاً ، ومن اختار الدنيا على الآخرة يخسرهما كليهما تزول هذه ولا تدرك تلك .

قال : فتعجب الملائكة من حكمته واستحسن الرحمان منطقه فلما أمسى وأخذ مضجعه من الليل أنزل الله عليه الحكمة فغشاها بها من قرنه إلى قدمه وهو نائم وغطاه بالحكمة غطاء فاستيقظ وهو أحكم الناس في زمانه ، وخرج على الناس ينطق بالحكمة ويثبتها فيها .

قال : فلما أوتي الحكم بالخلافة ولم يقبلها أمر الله عز وجل الملائكة فنادت داود بالخلافة فقبلها ولم يشترط فيها بشرط لقمان فأعطاه الله عز وجل الخلافة في الأرض وابتلي بها غير مرة كل ذلك يهوي في الخطاء يقيه الله ويغفر له ، وكان لقمان يكثر زيارة داود عليه السلام ويعظه بمواعظه وحكمته وفضل علمه ، وكان داود يقول له : طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة وصرفت عنك البليّة وأعطيت داود الخلافة وابتلي بالحكم والفتنة .

ثم قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « وإن قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » قال : فوعظ لقمان ابنه بانثار ^(١) حتى نفطّر وانشق .

وكان فيما وعظه به يا حماد أن قال : يا بني إنك منذ سقطت إلى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة فدار أنت إليها تسير أقرب إليك من دار أنت عنها متباعد . يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ولا تجادلهم فيمنعوك ، وخذ من الدنيا بلاغا ولا ترفضها فتكون عيالا على الناس ، ولا تدخل فيها دخولا يضر بأخرك ، وصم صوما يقطع شهوتك ولا تصم صياما يمنعك من الصلاة فإن الصلاة أحب إلى الله من الصيام .

يا بني إن الدنيا بحر عميق قد هلك فيها عالم كثير فاجعل سفينتك فيها الإيمان واجعل شراعها التوكل ، واجعل زادك فيها تقوى الله فإن نجوت فبرحمة الله وإن هلكت فبذنوبك .

يا بني إن ناديت صغيرا انتفعت به كبيرا ومن عني بالأدب اهتم به ، ومن اهتم به تكلف علمه ومن تكلف علمه اشتد له طلبه ومن اشتد له طلبه أدرك منفعته فاتخذته عادة

(١) بانثار اسم ابنه والنظر والانشاق كناية عن كمال التأثر .

فإنك تخلف في سلفك وينتفع به من خلفك ويرنجيك فيه راغب ، وبخشي صولتك راهب وإياك والكسل عنه بالطلب لغيره فإن غلبت على الدنيا فلا تغلبن على الآخرة وإذافتك طلب العلم في مظانته فقد غلبت على الآخرة واجعل في أيامك ولياليك وساعاتك نصيبا في طلب العلم فإنك لن تجد له تضيقا أشد من تركه ولا تمارين فيه لجوجا ولا تجادلن فقيها ولا تعادلن سلطانا ، ولا تماشين ظلوما ولا تصادقته ولا تواخين فاسقا ولا تصاحبن متسهما واخزن علمك كما تخزن ورقك .

يا بني خف الله عز وجل خوفا لو أنيت القيامة ببر الثقلين خفت أن يعذبك وارح الله رجاء لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر الله لك .

فقال له ابنه : يا أبت كيف أطيق هذا وإنما لي قلب واحد ؟ فقال له لقمان : يا بني لو استخرج قلب المؤمن يوجد فيه نوران نور للخوف ونور للرجاء لو وزنا لما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرة فمن يؤمن بالله يصدق ما قال الله عز وجل ومن يصدق ما قال الله يفعل ما أمر الله ، ومن لم يفعل ما أمر الله لم يصدق ما قال الله فإن هذه الأخلاق يشهد بعضها لبعض .

فمن يؤمن بالله إيمانا صادقا يعمل لله خالصا ناصحا ومن يعمل لله خالصا ناصحا فقد آمن بالله صادقا ومن أطاع الله خافه ، ومن خافه فقد أحبه ، ومن أحبه فقد اتبع أمره ومن اتبع أمره استوجب جنته ومرضاته ، ومن لم يتبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه نعوذ بالله من سخط الله .

يا بني لا تركز إلى الدنيا ولا تشغل قلبك بها فما خلق الله خلقا هو أهون عليه منها ألا ترى أنه لم يجعل نعيمها ثواب المطيعين ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين .

وفي قرب الأسناد : هارون عن ابن صدقة عن جعفر عن أبيه عليه السلام قيل للقمان : ما الذي أجمعت عليه من حكمته ؟ قال : لا أتكلف ما قد كفيته ولا أضيع ما وليته .

وفي البحار عن قصص الأنبياء بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : كان فيما وعظ به لقمان ابنه أن قال : يا بني إن تك في شك من الموت فارفع عن نفسك النوم ولن تستطيع ذلك وإن كنت في شك من البعث فارفع عن نفسك الانتباه ولن تستطيع

ذلك فإنك إذا فكرت في هذا علمت أن نفسك بيد غيرك وإنما النوم بمنزلة الموت وإنما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت وقال : قال لقمان لابنه : يا بني لا تقرب فيكون أبعد لك ولا تبعد فتهان ، كل دابة تحب مثلها وابن^(١) آدم لا يحب مثله . لا تنشر^(٢) بزك إلا عند باغيه وكما ليس بين الكبش والذئب خلّة كذلك ليس بين البار والفاجر خلّة ، من يقرب من الزفت تعلّق به بعضه كذلك من يشارك الفاجر يتعلّم من طرفه ، من يحب المرء يشتم ، ومن يدخل مدخل السوء يتسهم ومن يقارن قرين السوء لا يسلم ، ومن لا يملك لسانه يندم .

وقال : يا بني صاحب مائة ولا تعداد واحدا ، يا بني إنما هو خلاقك وخلقتك فخلاقتك دينك وخلقتك بينك وبين الناس فلا تبغض إليهم وتعلم محاسن الأخلاق . يا بني كن عبدا للأخيار ولا تكن ولدا للأشرار يا بني أد الأمانة تسلم دنياك وآخرك وكن أميناً فإن الله لا يحب الخائنين ، يا بني لا تر الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر .

وفي الكافي بإسناده عن يحيى بن عقبة الأزدي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان فيما وعظ به لقمان لابنه يا بني إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من جمعوا له ، وإنما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل ووعدت عليه أجراً فأوف عملك واستوف أجرك ، ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سمنت فكان حنقها عند سمنها ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها فتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر اخرجها ولا تعمرها فإنك لم تؤمر بعمارها . واعلم أنك ستسأل غدا إذا وقفت بين يدي الله عز وجل عن أربع : شبابك فيما أبليت ، وعمرك فيما أفنيت ، ومالك مما اكتسبته وفيما أنفقته فتأهب لذلك وأعد له جواباً ولا تأس على ما فاتك من الدنيا فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاؤه وكثيرها لا يؤمن بلاؤه فخذ حذرک ، وجد في أمرک ، واكشف الغطاء عن وجهك ، وتعرض لمعروف ربك

(١) أى ان ابن ادم لا يحب أن يكافيه غيره فى مزية من المزايا .

(٢) أى لا تظهر متاعك الا عند طالبيه .

وجدت التوبة في قلبك واكتمش في فراقك قبل أن يقصد قصدك ، ويقضى قضاؤك ، ويحال بينك وبين ما تريد .

وفي البحار عن القصص بإسناده عن حماد عن الصادق عليه السلام قال : قال لقمان : يا بني إيتاك والضجر وسوء الخلق وقلة الصبر فلا يستقيم على هذه الخصال صاحب ، والزم نفسك التؤدة^(١) في أمورك وصبر على مؤنات الإخوان نفسك ، وحسن مع جميع الناس خلقك .

يا بني إن عدمك ما تصل به قرابتك وتفضل به على إخوانك فلا يعد منك حسن الخلق وبسط البشر فإن من أحسن خلقه أحبه الأختيار وجانبه الفجار ، واقنع بقسم الله ليصفو عيشك فإن أردت أن تجمع عز الدنيا فاقطع طمعك مما في أيدي الناس فإنما بلغ الأنبياء والصدّيقون ما بلغوا بقطع طمعهم .

أقول : والأخبار في مواعظه كثيرة اكتفينا منها بما أوردناه إثارة للاختصار .



(١) التؤدة - بضم التاء كهزمة - السكون والرزانة .



أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَ
 اسْتَبْعَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ
 عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٣٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَائُنَا أَوَّلُوا كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى
 عَذَابِ السَّعِيرِ (٣١) وَمَن يَسْلَمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ
 بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٣٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ
 كُفْرُهُ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٣)
 نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٣٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٥)
 لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٣٦) وَلَوْ أَنَّ مَا
 فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ ابْحَرٍ مَا نَفَدَتْ
 كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٧) مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفُسٍ
 وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٣٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
 وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ
 مُّسَمًّى وَإِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣٩) ذَلِكَ بَانَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَإِنَّ

مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ
الْفَلَكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كَأَكْثِلُ
خِتَارٍ كَفُورٍ (٣٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي
وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ
السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ
غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤).

﴿بيان﴾

رجوع إلى ما قبل القصة من آيات الوحداية ونفي الشريك وأدلتها المنتهية إلى
قوله : « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين » .
قوله تعالى : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأصبح
عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » رجوع إلى ما قبل قصة لقمان وهو الدليل على أن الخطاب
للمشركين وإن كان ذيل الآية يشعر بعموم الخطاب .
وعليه فصدر الآية من تتمّة كلام النبي ﷺ وبيّنه بقوله : « هذا خلق الله
فأروني ماذا خلق الذين من دونه » ولا التفات في قوله : « ألم تروا » .
وعلى تقدير كونه من كلامه تعالى ففي قوله : « ألم تروا » التفات من سياق

الغيبه الذي في قوله : « بل الظالمون في ضلال مبين » إلى الخطاب ، و الالتفات في مثل هذه الموارد يكون لاشتداد وجد المتكلم وتأكد غيظه من جهل المخاطبين و تماديهم في غيهم بحيث لا ينفعهم دلالة ولا ينجح فيهم إشارة فيواجهون بذكر ما هو بمرئى منهم ومسمع لعلمهم يتنبهوا عن نومتهم وينتزعوا عن غفلتهم .

وكيف كان فالمراد بتسخير السماوات والأرض للإنسان وهم يرون ذلك ما نشاهده من ارتباط أجزاء الكون بعضها ببعض في نظام عامّ يدبّر أمر العالم عامّة و الإنسان خاصّة لكونه أشرف أجزاء هذا العالم المحسوس بما فيه من الشعور والإرادة فقد سخر الله الكون لأجله .

والتسخير قهر الفاعل في فعله بحيث يفعله على ما يستدعيه القاهر ويريد ك تسخير الكاتب القلم للكتابة و كما يسخر المولى عبده و المخدم خادمه في أن يفعل باختياره و إرادته ما يختاره و يريد المولى و المخدم و الأسباب الكونية كائنة ما كانت تفعل بسببيتها الخاصة ما يريد الله من نظام يدبّر به العالم الإنساني .

ومما مرّ يظهر أن اللام في « لكم » للتعليل الغائي والمعنى لأجلكم و المسخر بالكسر هو الله تعالى دون الإنسان ، وربما احتمل كون اللام للملك و المسخر بالكسر هو الإنسان بمشيئة من الله تعالى كما يشاهد من تقدّم الإنسان بمرور الزمان في تسخير أجزاء الكون واستخدامه لها في سبيل مقاصده لكن لا يلائمه تصدير الكلام بقوله : « ألم تروا » .

وقوله : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » الإسباغ الإتمام والإساع أي أتمّ وأوسع عليكم نعمه ، والنعم جمع نعمة وهو في الأصل بناء النوع وغلب عليه استعماله في ما يلائم الإنسان فيستلذّ منه ، والمراد بالنعم الظاهرة والباطنة بناء على كون الخطاب للمشركين النعم الظاهرة للحسّ كالسمع والبصر وسائر الجوارح و الصحة و العافية و الطيبات من الرزق والنعم الغائبة عن الحسّ كالشعور والإرادة والعقل .

وبناء على عموم الخطاب لجميع الناس الظاهرة من النعم هي ما ظهر للحسّ كما تقدّم وكالدين الذي به ينتظم أمور دنياهم وآخرتهم والباطنة منها كما تقدّم وكالمقامات

المعنوية التي تنال بإخلاص العمل .

وقوله « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » رجوع الخطاب إلى النبي ﷺ على ما كان في السياق السابق ، والمجادلة المخاصمة النظرية بطريق المغالبة ، والمقابلة بين العلم والهدى والكتاب تلوح بأن المراد بالعلم ما هو مكتسب من حجة عقلية ، وبالهدى ما يفيضه الله بالوحي أو الإلهام ، وبالكتاب الكتاب السماوي المنتهي إليه تعالى بالوحي النبوي . ولذلك وصفه بالمنير فهذه طرق ثلاث من العلم لارابع لها .

فمعنى قوله : يجادل في الله بغير كذا وكذا أنه يجادل في وحدانيته تعالى في الربوبية والالهية بغير حجة يصح الركون إليها بل عن تقليد .
قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » الخ ضمائر الجمع راجعة إلى « من » باعتبار المعنى كما أن ضمير الأفراد في الآية السابقة راجع إليه باعتبار اللفظ .

وقوله : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله » في التعبير بما أنزل الله من غير أن يقال : اتبعوا الكتاب أو القرآن إشارة إلى كون الدعوة دعوة ذات حجة لانحكّم فيها لأن نزول الكتاب مؤيد بحجة النبوة فكأنه قيل : و إذا دعوا إلى دين التوحيد الذي يدل عليه الكتاب المقطوع بنزوله من عند الله سبحانه وبعبارة أخرى إذا أُلقي إليهم القول مع الحجة قابلوه بالتحكّم من غير حجة فقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا .

و قوله : « أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير » أي أيتبعون آباءهم و لو كان الشيطان يدعوهم بهذا الاتباع إلى عذاب السعير ؟ فلا استفهام للإنكار لو وصليّة معطوفة على محذوف مثلها والتقدير أيتبعونهم لو لم يدعم الشيطان و لو دعاهم .
ومحصل الكلام أن الاتباع إنما يحسن إذا كانوا على الحق و أمّا لو كانوا على الباطل و كان اتّباعا يدعوهم به إلى الشقاء و عذاب السعير وهو كذلك فإنه اتّباع في عبادة غير الله ولا معبود غيره .

قوله تعالى : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى و إلى الله عاقبة الأمور » استئناف و يحتمل أن يكون حالا من مفعول « يدعوه » وفي معنى الجملة الحالية ضمير عائد إليهم والمعنى أو لو كان الشيطان يدعوه إلى كذا والحال أن من أسلم وجهه إلى الله كذا فقد نجى وأفلح والحال أن عاقبة الأمور ترجع إلى الله فيجب أن يكون هو المعبود .

و إسلام الوجه إلى الله تسليمه له وهو إقبال الإنسان بكلّيته عليه بالعبادة و إعراضه عمّن سواه ، والإحسان الإتيان بالأعمال الصالحة عن إيقان بالآخرة كما فسّره به في أوّل السورة « هدى و رحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » و العروة الوثقى المستمسك الذي لا انفصام له .

والمعنى و من وحد الله و عمل صالحا مع اليقين بالمعاد فهو ناج غير هالك البتة في عاقبة أمره لأنها إلى الله و هو الذي يعده بالنجاة و الفلاح .

و من هنا يظهر أن قوله : « و إلى الله عاقبة الأمور » في مقام التعليل لقوله : « فقد استمسك بالعروة الوثقى » بما أنه استعارة تمثيلية عن النجاة و الفلاح .

قوله تعالى : « و من كفر فلا يحزنك كفره - إلى قوله - إلى عذاب غليظ » تسليّة للنبي ﷺ و تطيب لنفسه أن لا يغلبه الحزن و هم بالآخرة راجعون إليه تعالى فينبئهم بما عملوا أي يظهر لهم حقيقة أعمالهم و تبعاتها وهي النار .

و قوله : « يمتّعهم قليلا ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ » كشف عن حقيقة حالهم ببيان آخر فإنّ البيان السابق « إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا » ربّما أوهم أنهم ماداموا متنعّمين في الدنيا خارجون من قدرة الله ثم إذا ماتوا أو بعثوا دخلوا فيما خرجوا منه فاتقم منهم بالعذاب جيء بهذا البيان للدلالة على أنّهم غير خارجين من التدبير قطّ و إنّما يمتّعهم في الدنيا قليلا ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ فهم مغلوبون مقهورون على كلّ حال و أمرهم إلى الله دائما لن يعجزوا الله في حال التنعّم ولا غيرها .

قوله تعالى : « و لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » إشارة إلى أنّهم مفلطرون على التوحيد معترفون به

من حيث لا يشعرون ، فإنهم إن سئلوا عمن خلق السموات والأرض اعترفوا بأنه الله عز اسمه وإذا كان الخالق هو هو فالمدبر لها هو هو لأن التدبير لا ينفك عن الخلق وإذا كان مدبر الأمر والمنعم الذي يبسط ويقبض ويرجى ويخاف هو فالمعبود هو هو وحده لا شريك له فقد اعترفوا بالوحدة من حيث لا يعلمون .

ولذلك أمره ﷺ أن يحمده الله على اعترافهم من حيث لا يشعرون فقال : « قل الحمد لله » ثم أشار إلى أن أكثرهم لا يعلمون معنى اعترافهم أن الله هو الخالق وما يستلزمه فقال : « بل أكثرهم لا يعلمون ، نعم قليل منهم يعلمون ذلك ولكنهم لا يطاوعون الحق بل يجحدونه وقد أيقنوا به كما قال تعالى : «وجدوا بها واستيقنتها أنفسهم» النمل : ١٤ .

قوله تعالى : « لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني الحميد » لما كان اعترافهم بأن الخالق هو الله سبحانه إنما يثبت التوحد بالربوبية والألوهية إذا كان التدبير والتصرف إليه تعالى و كان نفس الخلق كافيا في استلزامه اكتفى به في تمام الحجة واستحمد النبي ﷺ واستجمل القوم لغفلتهم .

ثم احتج عليه ثانيا من طريق انحصار الملك الحقيقي فيه تعالى لكونه غنيا محمودا مطلقا و تقريره أنه تعالى مبدء كل خلق ومعطي كل كمال فهو واحد لكل ما يحتاج إليه الأشياء فهو غني على الإطلاق إذ لو لم يكن غنيا من جهة من الجهات لم يكن مبدء له معطيا لكماله هذا خلف ، وإذا كان غنيا على الإطلاق كان له ما في السموات والأرض فهو المالك لكل شيء على الإطلاق فله أن يتصرف فيها كيف شاء فكل تدبير و تصرف يقع في العالم فهو له إذ لو كان شيء من التدبير لغيره لاله كان ماله ذلك الغير دونه وإذا كان التدبير والتصرف له تعالى فهو رب العالمين والإله الذي يعبد ويشكر إنعامه وإحسانه .

وهذا هو الذي يشير إليه قوله : « لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني » فقوله : « لله ما في » النخ حجة على وحدانيته وقوله : « إن الله هو الغني » تعليل للملك .

و أمّا قوله « الحميد » أي المحمود في أفعاله فهو مبدء آخر للحجة و ذلك أن الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري و كل جميل في العالم فهو له سبحانه فإليه يعود الثناء فيه فهو حميد على الإطلاق و لو كان شيء من هذا التدبير المتقن الجميل من غيره تعالى من غير انتساب إليه لكان الحمد والثناء إليه لغيره تعالى لاله فلا يكون حميدا على الإطلاق و بالنسبة إلى كل شيء و قد فرض أنه حميد على الإطلاق هذا خلف .

قوله تعالى : « و لو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » الخ « من شجرة » بيان للموصول والشجرة واحد الشجر وتفيد في المقام - وهي في سياق « لو » - الاستغراق أي كل شجرة في الأرض ، والمراد بالبحر مطلق البحر ، وقوله : « يمده » من بعده سبعة أبحر أي يعينه بالانضياف إليه سبعة أمثاله والظاهر أن المراد بالسبعة التكثير دون خصوص هذا العدد والكلمة هي اللفظ الدال على معنى و قد أطلق في كلامه تعالى على الوجود المفاض بأمره تعالى وقد قال : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » يس : ٨٢ ، وقد أطلق على المسيح عليه السلام الكلمة في قوله : « و كلمته ألقاها إلى مريم » النساء : ١٧١ .

فالمعنى ولو جعل جميع أشجار الأرض أقلاما وأخذ البحرو أضيف إليه سبعة أمثاله و جعل المجموع مدادا فكتب كلمات الله - بتبديلها ألفاظا دالة عليها - بتلك الأقلام من ذلك المداد لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات الله لكونها غير متناهية . و من هنا يظهر أن في الكلام إيجازا بالحذف وأن قوله : « إن الله عزيز حكيم » في مقام التعليل والمعنى لأنه تعالى عزيز لا يعزّه ولا يقهره شيء فهذه الكتابة لا ينفد بها ما هو من عنده حكيم لا يفوض التدبير إلى غيره .

والآية متصلة بما قبلها من حيث دلالة على كون تدبير الخلق له سبحانه لا لغيره فسيقت هذه الآية للدلالة على سعة تدبيره وكثرة أوامره التكوينية في الخلق والتدبير إلى حيث ينفد البحر الممدود بسبعة أمثاله لوجعل مدادا و كتبت به أشجار الأرض المجمولة أقلاما قبل أن ينفد أوامره و كلماته .

قوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير »
سوق للكلام إلى إمكان الحشر وخاصة من جهة استبعادهم المعاد لكثرة عدد الموتى
و اختلاطهم بالأرض من غير تمييز بعضهم من بعض .

فقال تعالى : ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة في الإمكان والتأني فإنه
تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولا يعجزه كثرة ولا يتفاوت بالنسبة إليه الواحد والجمع ،
و ذكر الخلق مع البعث للدلالة على عدم الفرق بين البدء والعود من حيث السهولة
والصعوبة بل لا يتصف فعله بالسهولة والصعوبة .

و يشهد لما ذكر إضافة الخلق والبعث إلى ضمير الجمع المخاطب والمراد به
الناس ثم تنظيره بالنفس الواحدة والمعنى ليس خلقكم معاشر الناس على كثرتم ولا
بعثكم إلا كخلق نفس واحدة و بعثها فأنتم على كثرتم والنفس الواحدة سواء لأنه
لو أشكل عليه بعث الجميع على كثرتهم والبعث لجزاء الأعمال فأنما يشكل من جهة
الجهل بمختلف أعمالكم على كثرتها واختلاط بعضها ببعض لكنه ليس بجهل شيئاً منها لأنه
سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم وبعبارة أخرى عليم بأعمالكم من طريق المشاهدة .

و بما مرّ يندفع الاعتراض على الآية بأن المناسب لتعليل كون خلق الكثير و
بعثهم كنفس واحدة أن يعمل بمثل قولنا : إن الله على كل شيء قدير أو قوي عزيز
أو ما يشبه ذلك لا بمثل السميع البصير الذي لا ارتباط له بالخلق والبعث .

و ذلك أن الأشكال التي تعرضت الآية لدفعه هو أن البعث لجزاء الأعمال
وهي على كثرتها واندماج بعضها في بعض كيف تتميز حتى تجزى عليها فالأشكال متوجهة
إلى ما ذكره قبل ثلاث آيات بقوله : « فننبئهم بما عملوا » وقد أُجيب بأنه كيف
يخفى عليه شيء من الأقوال والأعمال و هو سميع بصير لا يشذ عن مشاهدته قول
ولا فعل .

وقد كان ذيل قوله السابق : « فننبئهم بما عملوا » بقوله : « إن الله عليم بذات
الصدور » و هو مبني على أن الجزاء على حسب ما يحمله القلب من الحسنة والسيئة
كما يشير إليه قوله : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » البقرة : ٢٨٤

و جواب عن هذا الاشكال لو وجهه إلى ما تحمله القلوب على كثرتة فيجاب عنه أن الله عليم بذات الصدور ولو وجهه إلى نفس الأعمال الخارجية من الأقوال والأفعال فالجواب عنه بما في هذه الآية التي نحن فيها : إن الله سميع بصير ، فلا إشكال والجواب بوجه نظير ما وقع في قوله تعالى : « قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربّي لا يضل ربّي ولا ينسى » طه : ٥٢ فافهم .

وقد أجابوا عن الاعتراض بأجوبة أخرى غير تامّة من أراد الوقوف عليها فليراجع المطوّلات .

قوله تعالى : « ألم تر أن الله يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل و سخر الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمى » الخ استشهاد لما تقدّم في الآية السابقة من علمه بالأعمال بأنّ التدبير الجاري في نظام الليل والنهار حيث يزيد هذا وينقص ذاك و بالعكس بحسب الفصول المختلفة و بقاع الأرض المتفرقة في نظم ثابت جار على اختلافه ، و كذا التدبير الجاري في الشمس والقمر على اختلاف طلوعهما و غروبهما و اختلاف جريانهما و مسيرهما بحسب الحسّ و كلّ منهما يجري لأجل مسمى ولا اختلال ولا تشوش في النظام الدقيق الذي لهما فهذا كله ممّا يمتنع من غير علم و خبرة من مدبرها .

فالمراد بإيلاج الليل في النهار أخذ الليل في الطول وإشغاله بعض ساعات النهار من قبل و بإيلاج النهار في الليل عكس ذلك ، والمراد بجريان الشمس والقمر المسخرين إلى أجل مسمى انتهاء كلّ وضع من أوضاعهما إلى وقت محدود مقدّر ثمّ عودهما إلى بدءه فمن شاهد هذا النظام الدقيق الجاري و أمعن فيه لم يشكّ في أن مدبره إنما يدبره عن علم لا يخالطه جهل و ليس ذلك عن صدفة و اتفاق .

وقوله : « وأنّ الله بما تعملون خبير » عطف على موضع « أنّ الله يولج » والتقدير ألم تر أنّ الله بما تعملون خبير وذلك لأنّ من شاهد نظام الليل والنهار والشمس والقمر لم يكذب يغفل عن كون صانعه عليما بجلالته أعماله ودقائقها كذا قيل .

وفيه أنّ استنتاج العلم بالأعمال من العلم بالنظام الجاري في الليل والنهار

والشمس والقمر وإن صحّ في نفسه فهو علم حدسيّ لا مصحّح لتسميتها رؤية وهو ظاهر .
ولعلّ المراد من مشاهدة خبرته تعالى بالأعمال أن الإنسان لو أمعن في النظام
الجاري في أعمال نفسه بمأنتها صادرة عن العالم الإنساني موزّعة من جهة إلى الأعمال
الصادرة عن القوى الظاهرة من سمع وبصر وشم وذوق ولمس والصادرة عن القوى الباطنة
المدركة أو الفعالة و من جهة إلى بعض القوى والأدوات أو كلّها ومن جهة إلى جاذبة
ودافعة ومن جهة إلى سني العمر من طفولية ورهاق وشباب وشيب إلى غير ذلك .

ثمّ في ارتباط بعضها ببعض واستخدام بعضها لبعض واهتداء النفس إلى وضع كل
في موضعه الذي يليق به وحركته بهذه القافلة من القوى والأعمال نحو غايتها من الكمال
وسعادتها في المال وتورّطها في ورطات عالم المادة وموطن الزينة والفنّة فمن ناج
أو هالك .

فإذا أمعن في هذا النظام المحيّر للأحلام لم يرتب أنه تقدير قدره ربّه ونظام
نظمه صانعه العليم التقدير ومشاهدة هذا النظام العلميّ العجيب مشاهدة أنّه بما يعملون
خير والله العالم .

قوله تعالى : « ذلك بأنّ الله هو الحقّ » وأنّ ما يدعون من دونه الباطل و
أنّ الله هو العلميّ الكبير ، لما ذكر سبحانه أن منه بدء كلّ شيء فيستند إليه في وجوده
وتدبير أمره وأنّ إليه عود كلّ شيء من غير فرق بين الواحد والكثير وأنّه ليس إلى
من يدعون من دونه خلق ولا أمر ، جمع الجميع تحت بيان واحد جامع فقال مشيراً
إلى ما تقدّم : « ذلك بأنّ الله هو الحقّ » وأنّ ما يدعون من دونه الباطل ، الخ .

توضيحه أنّ الحقّ هو الثابت من جهة ثبوته والباطل يقابل الحقّ فهو اللاتّاب
من جهة عدم ثبوته وقوله : « أنّ الله هو الحقّ » بما فيه من ضمير الفصل وتعريف الخبر
بالآم يفيد القصر أعني حصر المبتدئ في الخبر .

فقلوه : « بأنّ الله هو الحقّ » قصر له تعالى في الثبوت أي هو ثابت لا يشوب
ثبوته بطلان وبعبارة أخرى هو ثابت من جميع الجهات وبعبارة ثالثة هو موجود على

كل تقدير فوجوده مطلق غير مقيّد بقيد ولا مشروط بشرط فوجوده ضروريّ وعدمه ممتنع وغيره من الموجودات الممكنة موجود على تقدير وهو تقدير وجود سببه وهو الوجود المقيّد الذي يوجد بغيره من غير ضرورة في ذاته .

وإذا كان حقيقة الشيء هو ثبوته فهو تعالى حق بذاته وغيره إنّما يحقّ ويتحقّق به . وإذا تأملت هذا المعنى حقّ تأمله وجدت - أو لا - أن الأشياء بأجمعها تستند في وجودها إليه تعالى وأيضاً تستند في النظام الجاري فيها عامّة وفي النظمات الجزئية الجارية في كل نوع من أنواعها وكل فرد من أفرادها إليه تعالى .

و - ثانياً - أن الكمالات الوجودية التي هي صفات الوجود كالعلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والوحدة والخلق والملك والغنى والحمد والخبرة - ممّاعد في الآيات السابقة أولم يعدّ - صفات قائمة به تعالى على حسب ما يليق بساحة كبريائه وعزّ قدسه لأنّها صفات وجودية والوجود قائم به تعالى فهي إمّا عين ذاته كالعلم والقدرة وإمّا صفات خارجة عن ذاته منتزعة عن فعله كالخلق والرزق والرحمة .

و - ثالثاً - أن قبول الشريك في ذاته أو في تدبيره وكل ما يحمل معنى الفقد والنقص مسلوب عنه تعالى وهذه هي الصفات السلبية كنفى الشريك ونفى التعدّد ونفى الجسم والمكان والزمان والجهل والعجز والبطلان والزوال إلى غيرها .

فإن إطلاق وجوده وعدم تقيّده بقيد ينفي عنه كل معنى عديم أي إثبات الوجود مطلقاً فإن مرجع نفي النفي إلى الإثبات .

ولعلّ قوله : « وأنّ الله هو العليّ الكبير » يفيد ثبوت الصفات له بكلتا مرحلتيهما بناء على أن اسم « العليّ » يفيد معنى تنزّهه عن ما لا يليق بساحته فهو مجمع الصفات السلبية والكبير يفيد سعته لكلّ كمال وجوديّ فهو مجمع الصفات الثبوتية .

و أن صدر الآية برهان على ذيلها وذيلها برهان على استجماعه تعالى الصفات الثبوتية والسلبية جميعاً على ما تقدّم تقريره فهو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال فهو الله عزّ اسمه .

وقوله : « وأنّ ما يدعون من دونه الباطل » يجري فيه ما يقابل ما جرى في

قوله : « ذلك بأن الله هو الحق » فالذي يدعونه من الآلهة ليس لهم من الحقيقة شيء ولا إليهم من الخلق والتدبير شيء لأن الشريك في الألوهية والربوبية باطل لاحق فيه وإذ كان باطلا على كل تقدير فلا يستند إليه خلق ولا تدبير مطلقاً .

والحق والعلي والكبير ثلاثة من الأسماء الحسنى وقد تحقق مما تقدم أن الحق في معنى الواجب الوجود وأن العلي من الصفات السلبية والكبير من الصفات الثبوتية قريب المعنى من قولنا : المستجمع لصفات الكمال .

قوله تعالى : « ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته » الخ الباء في « بنعمة الله » للسببية وذكر النعمة كالتوطئة لآخر الآية وفيه تلويح إلى وجوب شكره على نعمته لأن شكر المنعم واجب .

والمعنى ألم تر أن الفلك تجري وتسير في البحر بسبب نعمة الله وهي أسباب جريانها من الريح ورطوبة الماء وغير ذلك .

واحتمل بعضهم أن الباء للتعدية أو المعية والمراد بالنعمة ما تحمله السفن من الطعام وسائر أمتعة الحياة .

وقد تتم الآية بقوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » والصبار الشكور أي كثير الصبر عند الضراء وكثير الشكر عند النعماء كناية عن المؤمن على ما قيل .

قوله تعالى : « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين » الخ قال الراغب : الظلة سحابة تظل وأكثر ما يقال فيما يستوخم ويكره قال : « كأنه ظلة » « عذاب يوم الظلة » انتهى .

و المعنى وإذا غشيهم وأحاط بهم في البحر موج كقطع السحاب انقطعوا إلى الله ودعوه للنجاة حال كونهم مخلصين له الدين أي وفي ذلك دليل على أن فطرته على التوحيد .

وقوله : فلما نجّاهم إلى البر فمنهم مقتصد ، المقتصد سالك القصد أي الطريق المستقيم والمراد به التوحيد الذي دلّهم عليه فطرتهم إذ ذلك ، وفي التعبير بمن التبعية

استقلال عدتهم أي فلمّا نجّى الله سبحانه هؤلاء الداعين بالإخلاص إلى البرّ فقليل منهم المقتصدون .

وقوله : « وما يجحد بآياتنا إلّا كلّ ختار كفور » الختار مبالغة من الختر وهو شدة القدر وفي السياق دليل على الاستكثار والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « يا أيّها الناس اتقوا ربّكم » لمّا ساق الحجج والمواظ الشافية الوافية جمعهم في خاتمتها في خطاب عامّ يدعوهم إلى التقوى وينذرهم بيوم القيامة الذي لا يغني فيه مغن إلّا الإيمان والتقوى .

قال الراغب : الجزء الغنى والكفاية ، وقال : يقال : غررت فلانا أصبت غرته ونلت منه ما أريد والغرّة غفلة في اليقظة والغرار غفلة مع غفوة - إلى أن قال : فالغرور كلّ ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان وقد فسّر بالشيطان إذ هو أخبث الغارّين و بالدنيا لما قيل : الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ انتهى .

فمعنى الآية « يا أيّها الناس اتقوا ربّكم » وهو الله سبحانه « واخشوا يوما » وهو يوم القيامة « لا يجزي » لا يغني « والد عن ولده ولا مولود هو جاز » مغن كاف « عن والده شيئاً إن وعد الله » بالبعث « حقّ » ثابت لا يخلف « فلا تغرّ نكم الحياة الدنيا » بزينتها الغارة « ولا يغرّ نكم بالله الغرور » أي جنس ما يغرّ الإنسان من شؤون الحياة الدنيا أو خصوص الشيطان .

قوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيّ أرض تموت إن الله عليم خبير » الغيث المطر ومعنى جمل الآية ظاهر .

وقد عدّ سبحانه أمورا ثلاثة ممّا تعلق به علمه وهي العلم بالساعة وهو ممّا استأثر الله علمه لنفسه لا يعلمه إلّا هو ويدلّ على القصر قوله : « إن الله عنده علم الساعة » وتنزيل الغيث وعلم ما في الأرحام ويختصّان به تعالى إلّا أن يعلمه غيره .

وعدّ أمرين آخرين يجهل بهما الإنسان وبذلك يجهل كلّ ما سيجري عليه من الحوادث وهو قوله : « ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً » وقوله : « ولا تدري نفس بأيّ

أرض تموت .

وكأن المراد تذكرة أن الله يعلم كل ماديّ وجلّ حتّى مثل الساعة التي لا يتيسّر علمها للخلق وأنتم تجهلون أهمّ ما يهتمكم من العلم فالله يعلم وأنتم لا تعلمون فإياكم أن تشركوا به وتتمرّدوا عن أمره وتعرضوا عن دعوته فتهلكوا ببهلكم .

﴿ بحث روائي ﴾

في كمال الدين بإسناده إلى حماد بن أبي زياد قال : سألت سيدي موسى بن جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » فقال النعمة الظاهرة الإمام الظاهر ، والباطنة الإمام الغائب .
أقول : هو من الجري والآية أعمّ مدلولاً .

وفي تفسير القميّ بإسناده عن جابر قال : قال رجل عند أبي جعفر عليه السلام : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » قال : أمّا النعمة الظاهرة فالنبيّ ﷺ وما جاء به من معرفة الله عزّ وجلّ وتوحيده وأمّا النعمة الباطنة فولايته أهل البيت وعقد مودّتنا الحديث .

أقول : وهو كسابقة .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وأسبغ عليكم » الآية وفي رواية الضحاك عن ابن عباس قال : سألت النبيّ ﷺ عنه فقال : يا ابن عباس أمّا ما ظهر فلا سلام وما سوى الله من خلقك وما أفاض عليك من الرزق وأمّا ما بطن فستر مساوي عملك ولم يفضحك به يا ابن عباس إن الله تعالى يقول : ثلاثة جعلتهنّ للمؤمن ولم يكن له : صلاة المؤمنين عليه من بعد انقطاع عمله ، وجعلت له ثلث ماله أكفّره عنه خطاياهم ، والثالث سترت مساوي عمله ولم أفضحه بشيء منه ولو أبديتها عليه لنبذه أهله فمن سواهم .

أقول : روى ما يقرب منه في الدر المنثور بطرق عن ابن عباس ، والحديث كسابقه من الجري .

وفي التوحيد بإسناده عن عمر بن أذينة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث : وقال رسول الله ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة يعني على المعرفة بأن الله خالقه فذلك قوله عز وجل : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » .
وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ألم ترأن الفلك تجري في البحر بنعمة الله » قال : السفن تجري في البحر بقدرة الله .

وفيه في قوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » قال : الذي يصبر على الفقر والفاقة ويشكر الله عز وجل على جميع أحواله .

وفي المجمع في الآية وفي الحديث الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر .
أقول : وهو مأخوذ من الآية فقد مر أنه كناية عن المؤمن .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « إلا كل ختار كفور » قال الختار الخداع ؛ وفي قوله : « إن وعد الله حق » قال : ذلك القيامة .

وفي إرشاد المفيد من كلام أمير المؤمنين عليه السلام لرجل سمعه يذم الدنيا من غير معرفة بما يجب أن يقول في معناها : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، و دار عافية لمن فهم عنها ، و دار غنى لمن تزود منها ، مسجد أنبياء الله و مهبط وحيه ، و مصلى ملائكته و متجر أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، و ربحوا فيها الجنة فمن زايدها ؟ وقد آذنت بيننا ، و نادت بفراقها ، و نعت نفسها ، فشوقت بسرورها إلى السرور ، و حذرت ببلائها البلاء تخويها و تحذيرا و ترغيبا و ترهيبا .

فيا أيها الدائم للدنيا و المقترب بتغيرها متى غرتك ؟ أم بصارع آباءك في البلى أم بمصارع أمهاتك تحت الثرى ؟ كم علقت بكفئك و مرمت يديك تبتغي لهم الشفاء و استوصفت لهم الأطباء ، و تلتمس لهم الدواء لم تنفعهم بطببك ولم تشفعهم بشفاعتك مثلت بهم الدنيا مصرعك و مضجعك حيث لا ينفعك بكأوك ولا تغني عنك أحباؤك .

وفي النخال عن أبي أسامة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال : ألا أخبركم بخمسة لم يطلع الله عليها أحدا من خلقه ؟ قال : قلت : بلى . قال : إن الله عنده علم الساعة و ينزل الغيث و يعلم ما في الأرحام و ما تدري نفس ما ذا تكسب غدا و ما تدري نفس

بأي أرض تموت إن الله عليم خبير .

أقول : هناك روايات كثيرة جداً عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام تخبر عن مستقبل حالهم وعن زمان موتهم ومكانه وهي تقيّد هذه الرواية وما في معناها من الروايات بالتعليم الإلهي لكن بعض الروايات يأبى التقييد ولا يعبأ بأمرها .
وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة أن رجلاً يقال له الوراث من بني مازن بن حفصة بن قيس غيلان جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد متى قيام الساعة؟ وقد أجدت بلادنا فمتى نخصب؟ وقد تركت امرأتي حبلى فمتى تلد؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ فنزلت هذه الآية .

أقول : الحديث لا يخلو من شيء لعدم انطباق الآية على فقرات السؤال .

وفيه أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : لم يعم على نبيكم ﷺ إلا الخمس من سرائر الغيب هذه الآية في آخر لقمان إلى آخر السورة .



سورة السجدة مكِّيَّة وهي ثلثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأَرَبَ فِيهِ مِنْ
رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لَتُنذِرَ
قَوْمًا مِمَّا أَتَيْهِمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ
مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ
مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ
مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦)
الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ
جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ
رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩)
وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ
رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ
إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُتَجَرِّمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)
وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا
إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة تقرير المبدء والمعاد وإقامة الحجة عليهما ودفع ما يختلج القلوب في ذلك مع إشارة إلى النبوة والكتاب ثم بيان ما يتميز به الفريقان المؤمنون بآيات الله حقاً والفاشقون الخارجون عن نزي العبودية ووعداً ولئك بما هو فوق تصو المتصورين من الثواب وعيد هؤلاء بالانتقام الشديد بأليم العذاب المخلد وأنهم سيذوقون عذاباً أدنى دون العذاب الأكبر وتختتم السورة بتأكيد الوعيد وأمر النبي ﷺ بالانتظار كما هم منتظرون .

وهي مكّية إلا ثلاث آيات نزلت - كما قيل - بالمدينة وهي قوله تعالى : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً » إلى تمام ثلاث آيات .
والذي أوردناه من آياتها يتضمن الفصل الأول من فصلي غرض السورة الذي أشرنا إليه .

قوله تعالى : « تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين » ، أي هذا تنزيل الكتاب ، والتنزيل مصدر بمعنى اسم المفعول وإضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى الموصوف والمعنى هذا هو الكتاب المنزل لاريب فيه .

وقوله : « من رب العالمين » فيه براعة استهلال لما في غرض السورة أن يتعاطى بيانه من الوجدانية والمعاد للذين ينكرهما الوثنية لما مرّ مراراً أنهم لا يقولون رب العالمين بل يشبّون لكل عالم إلهاً وللمجموع الآلهة إلهاً هو الله تعالى عمّا يقولون علواً كبيراً .

قوله تعالى : « أم يقولون افتراء بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك » النخ أم منقطعة والمعنى بل يقولون افتراء القرآن على الله و ليس من عنده فردّه بقوله : « بل هو الحق من ربك لتنذر » النخ .

وقوله : « لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك » قيل : يعني قريشاً فإنهم لم يأتهم نبي قبله ﷺ بخلاف غيرهم من قبائل العرب فإنهم أتاهم بعض الأنبياء كخالد بن

سنان العبسي و حنظلة على ما في الروايات .

وقيل : المراد به أهل الفترة بين عيسى و محمد ﷺ فكانوا كأنهم في غفلة عما لزهم من حق نعم الله وما خلقهم له من العبادة وفيه أن معنى الفترة هو عدم انبعاث نبي له شريعة وكتاب و أما الفترة عن مطلق النبوة فلا نسلم تحققها وخلق جميع الزمان و هو قريب من ستة قرون من النبي مطلقا .

و قوله : « لعلهم يهتدون » غاية رجائية لإرسال الرسول والترجي قائم بالمقام أو بالمخاطب دون المتكلم كما تقدم في نظائره .

قوله تعالى : « الله الذي خلق السماوات والأرض إلى قوله - أفلا تتذكرون تقدم الكلام في تفسير قوله : « خلق السماوات والأرض ثم استوى على العرش » في نظائره من الآيات وتقدم أيضا أن الاستواء على العرش كناية عن مقام تدبير الموجودات بنظام عام إجمالي يحكم على الجميع و لذا أتبع العرش في أغلب ما وقع فيه من الموارد بما فيه معنى التدبير كقوله : « ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار » الأعراف : ٥٤ ، وقوله : « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » يونس : ٣ ، وقوله : « ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض » الحديد : ٤ ، وقوله « ذوالعرش المجيد فعال لما يريد » البروج : ١٦ .

والوجه في ذكر الاستواء على العرش ، بعد ذكر خلق السماوات والأرض أن الكلام في اختصاص الربوبية والالوهية بالله وحده ومجرد استناد الخلق إليه تعالى لا ينفع في إبطال ما يقول به الوثنية شيئا فإنهم لا ينكرون استناد الخلق إليه وحده وإنما يقولون باستناد التدبير وهو الربوبية للعالم إلى آلهتهم ثم اختصاص الالوهية وهي المعبودية بآلهتهم والله تعالى من الشأن أنه رب الأرباب وإله الآلهة .

فكان من الواجب عند إقامة الحجة لإبطال قولهم أن يذكر أمر الخلق ثم يتعقب بأمر التدبير لمكان تلازمهما وعدم انفكاك أحدهما من الآخر حتى يكون موجد الأشياء وخالقها هو الذي يربها و يدبر أمرها فيكون رباً وحده وإلها وحده كما أنه موجد خالق وحده .

و لذلك بعينه ذكر أمر التدبير بعد ذكر الخلقة في الآية التي نحن فيها إذ قيل: « خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع » فالولاية والشفاعة كالا ستواء على العرش من شؤن التدبير .
 وقوله : « ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع » الولي هو الذي يملك تدبير أمر الشيء ومن المعلوم أن أمورنا والشؤون التي تقوم به حياتنا قائمة بالوجود محكومة مدبرة للنظام العام الحاكم في الأشياء عامة وما يخص بنا من نظام خاص ، والنظام أيّاماً كان من لوازم خصوصيات خلق الأشياء والخلقة كيفما كانت مستندة إليه تعالى فهو تعالى ولينا القائم بأمرنا المدبر لشؤوننا وأمورنا كما هو ولي كل شيء كذلك وحده لا شريك له .

والشفيع - على ما تقدم في مباحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب - هو الذي ينضم إلى سبب ناقص فيتم سببته وتأثيره والشفاعة تتميم السبب الناقص في تأثيره وإذا طبقناها على الأسباب والمسببات الخارجية كانت أجزاء الأسباب المركبة وشرائطها بعضها شفيعا لبعض لتتميم حصّة من الأثر منسوبة إليه كما أن كلاً من السحاب والمطر والشمس والظل وغيرها شفيع للنبات .

و إذ كان موجد الأسباب وأجزائها والرابط بينها وبين المسببات هو الله سبحانه فهو الشفيع بالحقيقة الذي يتم نقصها و يقيم صلبها فالله سبحانه هو الشفيع بالحقيقة لا شفيع غيره .

و بيان آخر أدق قد تقدم في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب أن أسماء تعالى الحسنى وسائط بينه و بين خلقه في إيصال الفيض إليهم فهو تعالى يرزقهم مثلاً بما أنه رازق جواد غني رحيم ويشفي المريض بما أنه شاف معاف رؤف رحيم ويهلك الظالمين بما أنه شديد البطش ذو انتقام عزيز وهكذا .

فما من شيء من المخلوقات المركبة الوجود إلا ويتوسط لوجوده عدة من الأسماء الحسنى بعضها فوق بعض وبعضها في عرض بعض وكل ما هو أخص منها يتوسط بين الشيء و بين الأعم منها كما أن الشافي يتوسط بين المريض و بين الرؤف الرحيم والرحيم

يتوسط بينه وبين القدير وهكذا .

والتوسط المذكور في الحقيقة تميم لتأثير السبب فيه وإن شئت فقل هو تقريب للشيء من السبب لفعليته تأثيره و ينتج منه أنه تعالى شفيع ببعض أسمائه عند بعض فهو الشفيع ليس من دونه شفيع في الحقيقة فافهم .

وقد تبين بما مر أن لا إشكال في إطلاق الشفيع عليه تعالى بمعنى كونه شفيعا بنفسه عند نفسه و حقيقته توسط صفة من صفاته الكريمة بين الشيء و صفة من صفاته كما يستعان من سخطه إلى رحمته ومن عدله إلى فضله ، و أما كونه تعالى شفيعا بمعنى شفاعته لشيء عند غيره فهو ممّا لا يجوز البتة .

و القوم لتقريبهم إشكال إطلاق الشفيع عليه تعالى على المعنى الثاني أي بمعنى كونه شفيعا عند غيره اختلفوا في تفسير الآية على أقوال :

فقال بعضهم : إنّ دون في قوله : « مالكم من دونه من ولي » ولا شفيع بمعنى عند و « من دونه » حال من ضمير « لكم » والمعنى مالكم حال كونكم مجاوزين دونه ومن عنده ولي ولا شفيع أي لا ولي لكم ولا شفيع ففيه نفي الولي والشفيع لهم عند الله .

و فيه أنّ دون وإن صحّ كونه بمعنى عند لكن وجود « من » قرينة على أنه بمعنى غير ، ولا معنى لأخذ المجاوزة و رجوع « مالكم من دونه » إلى معنى « مالكم عنده » .

و قال بعضهم : إنّ الشفيع في الآية بمعنى الناصر مجازا و دون بمعنى غير و « من دونه » حال من « ولي » والمعنى مالكم ولي ولا ناصر غيره ، و فيه أنه تجوز من غير موجب .

و قال بعضهم إنّ إطلاق الشفيع هنا من قبيل المشاكلة التقديرية لما أنّ المشركين المندرين كثيرا ما كانوا يقولون في آلهتهم : هؤلاء شفعاؤنا و يزعمون أن كل واحد منهم شفيع لهم والمعنى على هذا لو فرض وقدّر أن الإله ولي شفيع مالكم ولي ولا شفيع غير الله سبحانه .

و قال بعضهم إن دون بمعنى عند والضمير في « من دونه » للعذاب والمعنى ليس لكم من دون عذابه ولي أي قريب ينفعكم ويرد عذابه عنكم ولا شفيع يشفع لكم .

وفيه أن إرجاع الضمير إلى العذاب تحكّم من غير دليل ، ويرد على جميع هذه الوجوه أنها تكلفات ناشئة من أخذ الشفيع غير المشفوع عنده وقد عرفت أن المعنى تحليلي والشفيع والمشفوع عنده واحد .

وقوله : « أفلا تتذكرون » استفهام توبيخي يوبّخهم على استمرارهم على الإعراض عن أدلة العقول حتى يتذكروا أن الملك والتدبير لله سبحانه وهو المعبود بالحق ليس لهم دونه ولي ولا شفيع كما يزعمون ذلك لا لهتهم .

قوله تعالى : « يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون » تتميم لبيان أن تدبير أمر الموجودات قائم به سبحانه وهذا هو القرينة على أن المراد بالأمر في الآية الشأن دون الأمر المقابل للنهي .

و التدبير وضع الشيء في دابر الشيء والإتيان بالأمر بعد الأمر فيرجع إلى إظهار وجود الحوادث واحداً بعد واحد كالسلسلة المتصلة بين السماء والأرض وقد قال تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ ، و قال : « إننا كل شيء خلقناه بقدر » القمر : ٤٩ .

وقوله : « ثم يعرج إليه » بعد قوله : « يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض » لا يخلو من إشعار بأن « يدبّر » مضمّن معنى التنزيل والمعنى يدبّر الأمر منزل أو ينزله مدبراً - من السماء إلى الأرض ولعله الأمر الذي يشير إليه قوله : « فسوّاهن » سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمراً ، حم السجدة : ١٢ .

وفي قوله : « يعرج إليه » إشعار بأن المراد بالسماء مقام القرب الذي تنتهي إليه أزيمة الأمور دون السماء بمعنى جهة العلو أو ناحية من نواحي العالم الجسماني فإن الأمر قد وصف قبل العروج بالنزول فظاهر العروج أنه صعود من الطريق التي نزل منها ولم يذكر هناك إلا علوه السماء وسفل هو الأرض ونزول وعروج فالنزول

من السماء والعروج إلى الله يشعر بأن السماء هو مقام الحضور الذي يصدر منه تدبير الأمر أو أن موطن تدبير الأمر الأرضي هو السماء والله المحيط بكل شيء ينزل التدبير الأرضي من هذا الموطن ولعل هذا هو الأقرب إلى الفهم بالنظر إلى قوله : « و أوحى في كل سماء أمرها » .

وقوله : « في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » معناه على أي حال أنه في ظرف لو طبق على ما في الأرض من زمان الحوادث و مقدار حركتها انطبق على ألف سنة مما نعدّه فإن من المسلم أن الزمان الذي يقدره ما نعدّه من الليل والنهار والشهور والسنين لا يتجاوز العالم الأرضي .

و إن كان المراد بالسماء هو عالم القرب والحضور وهو مما لا سبيل للزمان إليه كان المراد أنه وعاء لو طبق على مقدار حركة الحوادث في الأرض كان مقداره ألف سنة مما تعدون .

و أمّا أن هذا المقدار هل هو مقدار النزول واللبث والعروج أو مقدار مجموع النزول والعروج دون اللبث أو مقدار كل واحد من النزول والعروج أو مقدار نفس العروج فقط بناء على أن « في يوم » قيد لقوله « يعرج إليه » فقط كما وقع في قوله : « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » المعارج : ٣ .

ثم على تقدير كون الظرف قيّدا للعروج هل العروج مطلق عروج الحوادث إلى الله أو العروج يوم القيامة وهو مقدار يوم القيامة و أمّا كونه خمسين ألف سنة فهو بالنسبة إلى الكافر من حيث الشقّة أو أن الألف سنة مقدار مشاهد من مشاهد يوم القيامة وهو خمسون موقفا كل موقف مقداره ألف سنة .

ثم المراد بقوله : « مقداره ألف سنة » هل هو التحديد حقيقة أو المراد مجرد التكثير كما في قوله : « يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة » البقرة : ٩٦ أي يعمّر عمرا طويلا جدا وإن كان هذا الاحتمال بعيدا من السياق .

والآية - كما ترى - تحتل الاحتمالات جميعا ولكل منها وجه والأقرب من بينها إلى الذهن كون « في يوم » قيّدا لقوله « ثم يعرج إليه » و كون المراد بيوم عروج

الأمر مشهدا من خمسين مشهدا من مشاهد يوم القيامة والله أعلم .

قوله تعالى : « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم » تقدم تفسير مفردات الآية ، ومناسبة الأسماء الثلاثة الكريمة للمقام ظاهرة .

قوله تعالى : « الذي أحسن كل شيء خلقه » قال الراغب : الحسن عبارة عن كل مبهج - بصيغة الفاعل - مرغوب فيه وذلك ثلاثة أضرب : مستحسن من جهة العقل ومستحسن من جهة الهوى ومستحسن من جهة الحس . انتهى وهذا تعريف له من جهة خاصته وانقسامه بانقسام الإدراكات الإنسانية .

وحقيقته ملائمة أجزاء الشيء بعضها لبعض والمجموع للغرض والغاية الخارجة منه فحسن الوجه تلاؤم أجزائه من العين والحاجب والأنف والفم وغيرها ، وحسن العدل ملائمته للغرض من الاجتماع المدني وهو نيل كل ذي حق حقه وهكذا .

والتدبير في خلقه الأشياء وكل منها في نفسه متلائم لأجزاء بعضها لبعض والمجموع من وجوده مجهز بما يلزم كما له وسعاده تجهيزا لا أتم ولا أكمل منه يعطي أن كلاً منها حسن في نفسه حسناً لا أتم وأكمل منه بالنظر إلى نفسه .

وأما ما نرى من المساءة والقبح في الأشياء فلا حد أمرين إما لكون الشيء السيئ ذا عنوان عديم يعود إليه المساءة لا لوجوده في نفسه كالظلم والزنا فإن الظلم ليس بسيئاً قبيح بما أنه فعل من الأفعال بل بما أنه مبطل لحق ثابت والزنا ليس بسيئاً قبيح من جهة نفس العمل الخارجي الذي هو مشترك بينه وبين النكاح بل بما أن فيه مخالفة للنهي الشرعي أو للمصلحة الاجتماعية .

أو بقياسه إلى شيء آخر فيعرضه المساءة والقبح من طريق المقايسة كقياس الحنظل إلى البطيخ وقياس الشوك إلى الورد وقياس العقرب إلى الإنسان فإن المساءة إنما تطرأ هذه الأشياء من طريق القياس إلى مقابلاتها ثم قياسها إلى طبعنا ، ويرجع هذا الوجه من المساءة إلى الوجه الأول بالحقيقة .

وكيف كان فالشيء بما أنه موجود مخلوق لا يتصف بالمساءة ويدل عليه الآية « الذي أحسن كل شيء خلقه » إذا انضم إلى قوله : « الله خالق كل شيء » الزمر : ٦٢

فينتجان أو لا أن الخلقه تلازم الحسن فكل مخلوق حسن من حيث هو مخلوق .
و ثانيا أن كل سيئ و قبيح ليس بمخلوق من حيث هو سيئ قبيح كالمعاصي
والسيئات من حيث هي معاص و سيئات والأشياء السيئة من جهة القياس .

قوله تعالى : « و بدء خلق الإنسان من طين » المراد بالإنسان النوع فالمبدؤ
خلقه من طين هو النوع الذي ينتهي أفراده إلى من خلق من طين من غير تناسل من
أب و أم كآدم وزوجه عَلِيَّاهُ والدليل على ذلك قوله بعده : « ثم جعل نسله من سلاله
من ماء مهين » فالنسل الولادة بانفصال المولود عن الوالدين والمقابلة بين بدء الخلق و
بين النسل لا يلائم كون المراد ببدء الخلق بدء خلق الإنسان المخلوق من ماء مهين ، و
لو كان المراد ذلك لكان حق الكلام أن يقال : ثم جعله سلاله من ماء مهين فافهمه .
و قوله : « ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين » السلاله كما في المجمع الصفوة
التي تنسل أي تنزع من غيرها و يسمى ماء الرجل سلاله لانسلاله من صلبه والمهين
من الهون و هو الضعف والحقارة و ثم للتراخي الزماني .

والمعنى ثم جعل ولادته بطريق الانفصال من صفوة من ماء ضعيف أو حقير .
قوله تعالى : « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » التسوية التصوير و تميم العمل
و في قوله : « نفخ فيه من روحه » استعارة بالكناية بتشبيه الروح بالنفس الذي يتنفس
به ثم نفخه في قالب من سواه ، وإضافة الروح إليه تعالى إضافة تشريفية والمعنى ثم
صور الإنسان المبدؤ خلقه من الطين والمجعول نسله من سلاله من ماء مهين و نفخ فيه
من روح شريف منسوب إليه تعالى .

قوله تعالى : « و جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون »
امتنان بنعمة الإدراك الحسي والفكري فالسمع والبصر للمحسوسات والقلوب للفكريات
أعم من الإدراكات الجزئية الخيالية والكليّة العقلية .

و قوله : « قليلا ما تشكرون » أي تشكرون شكرا قليلا والجملة اعتراضية في
محل التوبيخ وقيل الجملة حالية والمعنى جعل لكم الأبصار والأفئدة والحال أنكم
تشكرون قليلا والجملة على أي حال مسوقة للبث والشكوى والتوبيخ .

والالتفات في قوله : « و جعل لكم » الخ من الغيبة إلى خطاب الجمع لتسجيل أن الإِ نعام الإلهي الشامل للجميع يربو على شكرهم فهم قاصرون أو أكثرهم مقصرون .

قوله تعالى : « وقالوا ءإذا ضللنا في الأرض أئننا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون » حجة من منكري البعث مبنية على الاستبعاد . والضلال في الأرض قيل : هو الضيعة كما يقال : ضلّت النعمة أي ضاعت ، وقيل : هو بمعنى الغيبة وكيف كان فمرادهم به أننا إذا متنا وانتشرت أجزاء أبداننا في الأرض وصرنا بحيث لا تميز لأجزاءنا من سائر أجزاء الأرض ولا خبر عنا نفق في خلق جديد ونخلق ثانيا خلقنا الأول ؟ والاستفهام للإِ نكار والخلق الجديد هو البعث .

وقوله : « بل هم بلقاء ربهم كافرون » إضراب عن فحوى قولهم : « ءإذا ضللنا في الأرض » كأنه قيل : إنهم لا يجحدون الخلق الجديد لجحدهم قدرتنا على ذلك أو لسبب آخر بل هم كافرون بالرجوع إلينا ولقائنا ولذا جيء في الجواب عن قولهم بما يدل على الرجوع .

قوله تعالى : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وَّ كل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ، توفي الشيء أخذه تاماً كاملاً كتوفي الحق و توفي الدَّين من المديون . وقوله : « ملك الموت الذي وَّ كل بكم » قيل أي وَّ كل بإِ مَاتكم و قبض أرواحكم والآية مطلقة ظاهرة في أعم من ذلك .

وقد نسب التوفي في الآية إلى ملك الموت ، وفي قوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الزمر : ٤٢ إليه تعالى ، وفي قوله : « حتّى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا » الأنعام : ٦٢ وقوله : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » النحل : ٢٨ إلى الرسل والملائكة نظراً إلى اختلاف مراتب الأسباب فالسبب القريب الملائكة الرسل أعوان ملك الموت وفوقهم ملك الموت الآمر بذلك المجري لأمر الله والله من ورائهم محيط وهو السبب الأعلى و مسبب الأسباب فذلك بوجه كمثّل كتابة الإنسان بالقلم فالقلم كاتب واليد كاتبة والإنسان كاتب .

و قوله : « ثم إلى ربكم ترجعون » هو الرجوع الذي عبر عنه في الآية السابقة باللقاء و موطنه البعث المترتب على التوفى و المتراخي عنه كما يدل عليه العطف بـ « ثم » الدالة على التراخي .

والآية - على أي تقدير - جواب عن الاحتجاج بضلال الموتى في الأرض على نفي البعث و من المعلوم أن إimate ملك الموت لهم ليس يحسم مادة الإشكال فيبقى قوله : « ثم إلى ربكم ترجعون » دعوى خالية عن الدليل في مقابل دعاوهم المدللة و الكلام الإلهي أنزه ساحة أن يتعاطى هذا النوع من المحاجة .

لكنه تعالى أمر رسوله أن يجيب عن حجته المبنية على الاستبعاد بأن حقيقة الموت ليس بطلاننا لكم و ضلالناكم في الأرض بل ملك الموت الموكل بكم يأخذكم ، تأمين كاملين من أجسادكم أي ينزع أرواحكم من أبدانكم بمعنى قطع علاقتها من الأبدان و أرواحكم تمام حقيقتكم فأنتم أي ما يعنى بلفظة « كم » محفوظون لا يضل منكم شيء في الأرض وإنما يضل الأبدان و تتغير من حال إلى حال وقد كانت في معرض التغير من أول كينونتها . ثم إنكم محفوظون حتى ترجعوا إلى ربكم بالبعث و رجوع الأرواح إلى أجسادها .

و بهذا يندفع حجته على نفي المعاد بضلالهم سواء قررت على نحو الاستبعاد أو قررت على أن تلاشي البدن يبطل شخصية الإنسان فيندم و لا معنى لعادة المعدم فإن حقيقة الإنسان هو نفسه التي يحكي عنها بقول « انا » وهي غير البدن و البدن تابع لها في شخصيته وهي لا تلاشي بالموت و لا تندم بل محفوظة في قدرة الله حتى يؤذن في رجوعها إلى ربها للحساب و الجزاء فيبعث على الشريعة التي ذكر الله سبحانه .

و ظهر بما تقدم أو لا وجه اتصال قوله : « قل يتوفاكم » الخ بقوله : « إننا ضللنا في الأرض » الخ و أنه جواب حاسم للإشكال قاطع للشبهة ، وقد أشكل الأمر على بعض من فسر التوفى بمطلق الإimate من غير التفات إلى نكتة التعبير بلفظ التوفى فتكلف في توجيه اتصال الآيتين بما لا يرتضيه العقل السليم .

و ثانياً أن الآية من أوضح الآيات القرآنية الدالة على تجرد النفس بمعنى

كونها غير البدن أو شيء من حالات البدن .

قوله تعالى : « و لو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا و سمعنا فأرجعنا نعمل صالحا إنا موقنون » نكس الرأس إطراره و طأطأته ، والمراد بالمجرمين بقرينة ذيل الآية خصوص المنكرين للمعاد فاللآم فيه لا تخلو من معنى العهد أي هؤلاء الذين يجحدون المعاد و يقولون : « إذا ضللنا في الأرض » الخ .

و في التعبير عن البعث بقوله : « عند ربهم » محاذاة لما تقدم من قوله : « بل هم بلبقاء ربهم كافرون » أي واقفون موقفا من اللقاء لا يسعهم إنكاره ، و قولهم : « أبصرنا و سمعنا » ومساألهم الرجوع للعمل الصالح لما ينجلي لهم أن النجاة في الإيمان والعمل الصالح وقد حصل لهم الإيمان اليقيني و بقي العمل الصالح ولذا يعترفون باليقين و يسألون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا فيتم لهم سببا النجاة .

والمعنى و لو ترى إذ هؤلاء الذين يجرمون بإنكار لقاء الله مطرقوا رؤسهم عند ربهم في موقف اللقاء من الخزي والذل والندم يقولون ربنا أبصرنا بالمشاهدة وسمعنا بالطاعة فأرجعنا نعمل عملا صالحا إنا موقنون والمحصل أنك تراهم يجحدون اللقاء و لو تراهم إذ أحاط بهم الخزي والذل فنكسوا رؤسهم واعترفوا بما ينكرونه اليوم و سألوا العود إلى ههنا ولن يعودوا .

قوله تعالى : « و لو شئنا لآتينا كل نفس هداها » إلى آخر الآية أي لو شئنا أن نعطي كل نفس أعم من المؤمنة والكافرة الهدى الذي يختص بها ويناسبها لأعطيناها لها بأن نشاء من طريق اختيار الكافرو إرادته أن يتلبس بالهدى فيتلبس بها من طريق الاختيار والإرادة كما شئنا في المؤمن كذلك فتلبس بالهدى باختيار منه وإرادة من دون أن ينجر إلى الإلجاء والاضطرار فيبطل التكليف و يلغو الجزاء .

و قوله : « و لكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » أي ولكن هناك قضاء سابق مني محتوم و هو إملاء جهنم من الجنة والناس أجمعين و هو قوله لا بليس لما امتنع من سجدة آدم وقال : « فبعرتك لأعوينتهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » : « فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك و تمت تبعك منهم أجمعين »

ص : ٨٥ ففضى أن يدخل متبعي إبليس العذاب المخلد .

و لازم ذلك أن لا يهديهم لظلمهم و فسقهم بالخروج عن زيّ العبوديّة كما قال : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » « والله لا يهدي القوم الفاسقين » التوبة : ٨٠ . إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم » إلى آخر الآية تفريع على قوله : « و لكن حقّ القول منّي » والنسيان ذهول صورة الشيء عن الذاكرة و يكتنى به عن عدم الاعتناء بما بهم الشيء و هو المراد في الآية .

و المعنى فإذا كان من القضاء إذاقة العذاب لمتبعي إبليس فذوقوا العذاب بسبب عدم اعتنائكم بلقاء هذا اليوم حتّى جحدتموه و لم تعملوا صالحا تثابون به فيه لأنّا لم نعتن بما يهمكم في هذا اليوم من السعادة والنجاة و قوله : « و ذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » تأكيد و توضيح لسابقه أي إنّ الذوق الذي أمرنا به ذوق عذاب الخلد و نسيانهم لقاء يومهم هذا أعمالهم السيئة .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج النحاس عن ابن عباس قال : نزلت سورة السجدة بمكة سوى ثلاث آيات « أفمن كان مؤمنا » إلى تمام الآيات الثلاث .

وفيه أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن عليّ قال : عزائم سجود القرآن ألمّ تنزيل السجدة و حمّ تنزيل السجدة والنجم و اقرء باسم ربك الذي خلق .

و في الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إنّ العزائم أربع : اقرء باسم ربك الذي خلق والنجم و تنزيل السجدة و حمّ السجدة .

و في الدر المنثور أخرج أحمد والطبراني عن الشريد بن سويد قال : أبصر النبي ﷺ رجلا قد أسبل إزاره فقال له : ارفع إزارك فقال : يا رسول الله إنّي أحنف تصطك ركبتاي . قال : ارفع إزارك كلّ خلق الله حسن .

و في الفقيه سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ و جلّ : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » و عن قول الله عزّ و جلّ : « قل يتوفّاكم ملك الموت الذي و كّل بكم »

وعن قول الله عز وجل : « الَّذِينَ يَتَوَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ » ، وَالَّذِينَ يَتَوَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، و عن قول الله عز وجل : « تَوَقَّاهُمْ رَسُولَنَا » ، و عن قوله عز وجل : « وَلَوْ نَرَى إِذِ يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ ، وَقَدْ يَمُوتُ فِي الدُّنْيَا فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ فِي جَمِيعِ الْآفَاقِ مَا لَا يَحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ عز وجل فكيف هذا ؟

فقال : إن الله تبارك وتعالى جعل ملك الموت أعواناً من الملائكة يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشرطة له أعوان من الإِنس يبعثهم في حوائجه فيتوقَّاهم الملائكة ويتوقَّاهم ملك الموت من الملائكة مع ما يقبض هو ، و يتوقَّاهها الله تعالى من ملك الموت .

و في الدار المنثور أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن أبي جعفر محمد بن علي قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل من الأنصار يعود فإذا ملك الموت عند رأسه فقال رسول الله ﷺ : يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن فقال : أبشريا محمد بن علي بكل مؤمن رفيق .

واعلم يا محمد أني لأقبض روح ابن آدم فيصرخ أهله فأقوم في جانب من الدار فأقول : والله مالي من ذنب وإن لي لعودة و عودة الحذر الحذر و ما خلق الله من أهل بيت ولا مدر ولا شعر ولا وبر في بر ولا بحر إلّا و أنا أتصفحتهم في كل يوم وليلة خمس مرّات حتّى أني لأعرف بصغيرهم و كبيرهم منهم بأنفسهم . والله يا محمد إنني لا أقدر أقبض روح بعوضة حتّى يكون الله تبارك و تعالى هو الذي يأمر بقبضه .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « و لو شئنا لآتينا كل نفس هداها » قال : لو شئنا أن نجعلهم كلهم معصومين لقدرنا .

أقول : العصمة لا تنافي الاختيار فلا تنافي بين مضمون الرواية و ما قدّمناه في تفسير الآية .



﴿ كلام فى كينونة الانسان الاول ﴾

تقدم فى تفسير أول سورة النساء كلام فى هذا المعنى وكلامنا هذا كالتكملة له .
قدّمنا هناك أن الآيات القرآنية ظاهرة ظهورة قريباً من الصراحة فى أن البشر
الموجودين اليوم - ونحن منهم - ينتهون بالتناسل إلى زوج أي رجل وامرأة بعينهما
وقد سمّي الرجل فى القرآن بآدم وهما غير متكوّنين من أب وأم بل مخلوقان من
تراب أو طين أو صلصال أو الأرض على اختلاف تعبيرات القرآن .

فهذا هو الذي يفيد الآيات ظهوراً معتدّاً به وإن لم تكن نصّة صريحة لا تقبل
التأويل ولا المسألة من ضروريّات الدين نعم يمكن عدّ انتهاء النسل الحاضر إلى آدم
ضروريّاً من القرآن وأما أن آدم هذا هل أريد به آدم النوعيّ أعني الطبيعة
الإنسانية الفاشية فى الأشخاص أو عدّة معدودة من الأفرادهم أصول النسب والآباء و
الأمّهات الأوّلية أو فرد إنسانيّ واحد بالشخص ؟

وعلى هذا التقدير هل هو فرد من نوع الإنسان تولّد من نوع آخر كالقردة
مثلاً على طريق تطوّر الأنواع وظهور الأكمّل من الكامل والكامل من الناقص وهكذا
أو هو فرد من الإنسان كامل بالكمال الفكريّ تولّد من زوج من الإنسان غير المجهّز
بجهاز التعقل فكان مبدء لظهور النوع الإنسانيّ المجهّز بالتعقل القابل للتكليف
وانفصاله من النوع غير المجهّز بذلك فالبشر الموجودون اليوم نوع كامل من الإنسان
ينتهي أفرادهم إلى الإنسان الأول الكامل الذي تسمّى بآدم وينشعب هذا النوع الكامل
بالتولّد تطوّراً من نوع آخر من الإنسان ناقص فاقدر للتعقل وهو يسير القهقرى فى
أنواع حيوانية مترتبة حتّى ينتهي إلى أبسط الحيوان تجهيزاً وأنقصها كمالاً وإن
أخذنا من هناك سائرين لم نزل ننتقل من ناقص إلى كامل ومن كامل إلى أكمل حتّى
نتهي إلى الإنسان غير المجهّز بالتعقل ثمّ إلى الإنسان الكامل كلّ ذلك فى سلسلة
نسبية متصلة مؤلّفة من آباء وأعقاب .

أو أن سلسلة التوالد والتناسل تنقطع بالاتصال بآدم وزوجه وهما متكوتان من الأرض من غير تولد من أب وأم فليس شيء من هذه الصور ضروريا . وكيف كان فظاهر الآيات القرآنية هو الصورة الأخيرة وهي انتهاء النسل الحاضر إلى آدم وزوجه المتكوتين من الأرض من غير أب وأم .

غير أن الآيات لم تبين كيفية خلق آدم من الأرض وأنه هل عملت في خلقه علل وعوامل خارقة للعادة ؟ وهل تمت خلقته بتكوين إلهي آني من غير مهل فتبدل الجسد المصنوع من طين بدنا عاديا ذاروح إنساني أو أنه عاد إنسانا تاما كاملا في أزمنة معتد بها يتبدل عليه فيها استعداد بعد استعداد وصورة و شكل بعد صورة و شكل حتى تم الاستعداد فنفخ فيه الروح وبالجمله اجتمعت عليه من العلل والشرائط نظير ما تجتمع على النطفة في الرحم .

و من أوضح الدليل عليه قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » آل عمران : ٥٩ فان الآية نزلت جوابا عن احتجاج النصارى على نبوة عيسى بأنه ولد من غير أب بشري ولا ولد إلا بوالد فأبوه هو الله سبحانه فرد في الآية بما محصله أن صفته كصفة آدم حيث خلقه الله من أديم الأرض بغير والديولده فلم لا يقولون بأن آدم ابن الله .

و لو كان المراد بخلقه من تراب انتهاء خلقته كسائر المتكوتين من النطف إلى الأرض كان المعنى أن صفة عيسى ولا أب له كمثل آدم حيث تنتهي خلقته كسائر الناس إلى الأرض و من المعلوم أن لخصوصية لآدم على هذا المعنى حتى يؤخذ و يقاس إليه عيسى فيفسد معنى الآية في نفسه و من حيث الاحتجاج به على النصارى .

و بهذا يظهر دلالة جميع الآيات الدالة على خلق آدم من تراب أو طين أو نحو ذلك ، على المطلوب كقوله : « إني خالق بشر من طين » ص : ٧١ و قوله : « وبدء خلق الإنسان من طين » الم السجدة : ٧ .

وأما قول من قال : إن المراد بآدم هو آدم النوعي دون الشخصي بمعنى الطبيعة الإنسانية الخارجية الفاشية في الأفراد ، و المراد بنبوة الأفراد له تكثير الاشخاص

منه بانضمام القيود إليه وقصة دخوله الجنة وإخراجه منها لمعصيته بإغواء من الشيطان تمثيل تخيلي لمكانته في نفسه ووقوفه موقف القرب ثم كونه في معرض الهبوط باتباع الهوى وطاعة إبليس .

ففيه أنه مدفوع بالآية السابقة وظواهر كثير من الآيات كقوله : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها واثنتان منهما رجالا كثيرا ونساء » النساء : ١ فلو كان المراد بالنفس الواحدة آدم النوعي لم يبق لفرض الزوج لها محل ونظير الآية الآيات التي تفيد أن الله أدخله وزوجه الجنة وأنه وزوجه عصيا لله بالأكلا من الشجرة .

على أن أصل القول بآدم النوعي مبني على قدم الأرض والأنواع المتأصلة ومنها الإنسان وأن أفراد غير متناهية من الجانبين والأصول العلمية تبطل ذلك بتاتا .

وأما القول بكون النسل منتهياً إلى أفراد معدودين كأربعة أزواج مختلفين ببياض اللون وسواده وحمرة صفوته أو أزواج من الإنسان ناشئين بعضهم بالدنيا القديمة وبعضهم بالدنيا الحديثة والأراضي المكشوفة أخيراً فيها بشر قاطنون كأمريكا وأستراليا .

فمدفوع بجميع الآيات الدالة على انتهاء النسل الحاضر إلى آدم وزوجه فإن المراد بآدم فيها إما شخص واحد إنساني وإما الطبيعة الإنسانية الفاشية في الأفراد وهو آدم النوعي وأما الأفراد المعدودون فلا يحتمل لفظ الآيات ذلك البتة .

على أنه مبني على تباين الأصناف الأربعة من الإنسان : البيض والسود والحمرة والصفرة وكون كل من هذه الأصناف نوعاً برأسه ينتهي إلى زوج غير ما ينتهي إليه الآخر أو كون قارات الأرض منفصلاً بعضها عن بعض انفصلاً أبدياً غير مسبوق بالعدم ، وقد ظهر بطلان هذه الفرضيات اليوم بطلاناً كاد يلحقها بالبديهيات .

وأما القول بانتهاء النسل إلى زوج من الإنسان أو مزيد انفصلاً أو انفصلوا من

نوع آخر هو أقرب الأنواع إليه كالفرد مثلا انفصال الأكمل من الكامل تطورا .
ففيه أن الآيات السابقة الدالة على خلق الإنسان الأول من تراب من غير أب
وأم تدفعه .

على أن ما أقيم عليه من الحجّة العلمية قاصر عن إثباته كما سنشير إليه في
الكلام على القول التالي .

وأما القول بانتهاء النسل إلى فردين من الإنسان الكامل بالكمال الفكري
من طريق التولد ثم انشعابهما وانفصالهما بالتطور من نوع آخر من الإنسان غير
الكامل بالكمال الفكري ثم انقراض الأصل وبقاء الفرع المتولد منهما على قاعدة تنازع
البقاء وانتخاب الأصلح .

فيدفعه قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم
قال له كن فيكون » على التقريب المتقدم وما في معناه من الآيات .

على أن الحجّة التي أقيمت على هذا القول قاصرة عن إثباته ، فإنها شواهد
مأخوذة من التشريح التطبيقي وأجنة الحيوان والآثار الحفرية الدالة على التغير
التدرجي في صفات الأنواع وأعضائها وظهور الحيوان تدريجا آخذا من الناقص إلى
الكامل وخلق ما هو أبسط من الحيوان قبل ما هو أشد تركيبا .

و فيه أن ظهور النوع الكامل من حيث التجهيزات الحيوية بعد الناقص زمانا
لا يدل على أزيد من تدرج المادة في استكمالها لقبول الصور الحيوانية المختلفة فهي قد
استعدت لظهور الحياة الكاملة فيها بعد الناقصة والشريقة بعد الخسيسة وأما كون الكامل
من الحيوان منشعبا من الناقص بالتولد والاتصال النسبي فلا ولم يعثر هذا الفحص و
البحث على غزارته و طول زمانه على فرد كامل متولد من فرد نوع آخر على أن
يقف على نفس التولد دون الفرد والفرد .

و ما وجد منها شاهدا على التغير التدرجي فإنما هو تغير في نوع
واحد بالانتقال من صفة لها إلى صفة أخرى لا يخرج بذلك عن نوعيته والمدعى خلاف
ذلك .

فالذي يتسلم أن نشأة الحياة ذات مراتب مختلفة بالكمال والنقص والشرف والخساسة وأعلى مراتبها الحياة الانسانية ثم ما يليها ثم الأمثل فالأمثل وأما أن ذلك من طريق تبدل كل نوع مما يجاوره من النوع الأكمل فلا يفيد هذا الدليل على سبيل الاستنتاج .

نعم يوجب حدسًا ما غير يقيني بذلك فالقول بتبدل الأنواع بالتطور فرضية حدسية تبتني عليها العلوم الطبيعية اليوم ومن الممكن أن يتغير يوما إلى خلافاها بتقدم العلوم وتوسع الأبحاث .

وربما استدل على هذا القول بقوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحا و آل إبراهيم و آل عمران على العالمين » آل عمران : ٣٣ بتقريب أن الاصطفاء هو انتخاب صفوة الشيء وإنما يصدق الانتخاب فيما إذا كان هناك جماعة يختار المصطفى من بينهم و يؤثر عليهم كما اصطفى كل من نوح و آل إبراهيم و آل عمران من بين قومهم ولازم ذلك أن يكون مع آدم قوم غيره فيصطفى من بينهم عليهم ، و ليس إلا البشر الأولي غير المجهز بجهاز التعقل فاصطفى آدم من بينهم فجهز بالعقل فانتقل من مرتبة نوعيتهم إلى مرتبة الإنسان المجهز بالعقل الكامل بالنسبة إليهم ثم نسل وكثر نسله وانقرض الإنسان الأولي الناقص .

وفيه أن « العالمين » في الآية جمع محلى باللام وهو يفيد العموم و يصدق على عامة البشر إلى يوم القيامة فهم مصطفون على جميع المعاصرين لهم والجائين بعدهم كمثل قوله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فما المانع من كون آدم مصطفى مختارا من بين أولاده ما خلا المذكورين منهم في الآية ؟

وعلى تقدير اختصاص الاصطفاء بما بين المعاصرين وعليهم ما هو المانع من كونه مصطفى مختارا من بين أولاده المعاصرين له ولا دلالة في الآية على كون اصطفاؤه أول خلقته قبل ولادة أولاده .

على أن اصطفاء آدم لو كان على الإنسان الأولي كما يذكره المستدل كان ذلك بما أنه مجهز بالعقل وكان ذلك مشتركا بينه وبين بني آدم جميعا على الإنسان الأولي

فكان تخصيص آدم في الآية بالذكر تخصيصاً من غير مخصص .

وربما استدلّ بقوله : « و لقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » الآية الأعراف : ١١ بناء على أن « ثم » تدلّ على التراخي الزمني فقد كان للنوع الإنساني وجود قبل خلق آدم وأمر الملائكة بالسجدة له .

وفيه أن « ثم » في الآية للترتيب الكلامي وهو كثير الورد في كلامه تعالى على أن هناك معنى آخر أشرنا إليه في تفسير الآية في الجزء الثامن من الكتاب .

وربما استدلّ بقوله : « و بدء خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه » الآيات وتقريبه أن الآية الأولى المتعوضة لأول خلق الإنسان تذكر خلقته الأولية من تراب التي يشترك فيها جميع الأفراد ، والآية الثالثة تذكر تسويته ونفخ الروح فيه وبالجمله كماله الإنساني والعطف بـ « ثم » تدلّ على توسط زمان معتد به بين أول خلقه من تراب وبين ظهوره بكماله .

وليس هذا الزمان المتوسط إلا زمان توسط الأنواع الأخرى التي تنتهي بتغيرها التدريجي إلى الإنسان الكامل وخاصة بالنظر إلى تنكّر « سلالة » المفيد للعموم .

وفيه أن قوله : « ثم سواه » عطف على قوله : « بدء » والآيات في مقام بيان ظهور النوع الإنساني بالخلق وأن بدء خلقه وهو خلق آدم كان من طين ثم بدّل سلالة من ماء في ظهور أولاده ثم تمت الخلقة سواء كان فيه أو في أولاده بالتسوية ونفخ الروح .

وهذا معنى صحيح يقبل الانطباق على اللفظ ولا يلزم منه حمل قوله : « ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » على أنواع متوسطة بين الخلق من الطين وبين التسوية ونفخ الروح ، وكون « سلالة » نكرة لا يستلزم العموم فإن إفادة النكرة للعموم إنما هو فيما إذا وقعت في سياق النفي دون الإثبات .

وقد استدلّ بآيات أخرى مربوطة بخلقة الإنسان وآدم بنحو مما مرّ يعلم الجواب عنها بما قدّمناه فلا موجب لنقلها وإطالة الكلام بالجواب عنها .



إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا
 بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ
 يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ
 نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَنْ
 كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَ أَمَّا
 الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا
 فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكَذِّبُونَ (٢٠)
 وَلَتَذِيقُنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)
 وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
 مُنْتَقِمُونَ (٢٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ
 لِقَائِهِ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ (٢٣) وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ آئِمَّةً يَهْدُونَ
 بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ
 بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ
 أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ
فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَ
يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٧) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا
يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ
انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ (٣٠) .

﴿ بيان ﴾

الآيات تفرق بين المؤمنين بحقيقة معنى الإيمان وبين الفاسقين والظالمين و تذكر لكل ما يلزمه من الآثار والتبعات ثم تنذر الظالمين بعذاب الدنيا و تأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بانتظار الفتح و عند ذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » لما ذكر شرطاً من الكلام في الكفار الذين يجحدون لقاءه و يستكبرون في الدنيا عن الإيمان والعمل الصالح أخذ في صفة الذين يؤمنون بآيات ربهم و يخضعون للحق لما ذكروا و عظوا .

فقوله : « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا » حصر للإيمان بحقيقة معناه فيهم و معناه أن علامة التهيؤ للإيمان الحقيقي هو كذا و كذا .

و قوله . « الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا » ذكر سبحانه شيئاً من أوصافهم و شيئاً من أعمالهم أمّا ما هو من أوصافهم فتذللهم لمقام الربوبية و عدم استكبارهم عن الخضوع لله و تسبيحه وحمده و هو قوله : « إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ » أي الدالة على وحدانيته في ربوبيته و ألوهيته و ما يلزمها من المعاد و الدعوة النبوية إلى الإيمان والعمل الصالح « خَرُّوا سُجَّدًا » أي سقطوا على الأرض ساجدين لله تذللًا و استكانة « وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ

ربهم ، أي نزهه مقارنا للثناء الجميل عليه و السجدة والتسبيح والتحميد وإن كانت من الأفعال لكنّها مظاهر لصفة التذلل والخضوع لمقام الربوبية والألوهية و لذا أردفها بصفة تلازمها فقال : « وهم لا يستكبرون » .

قوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا و طمعا و ممّا رزقناهم ينفقون » هذا معرّفهم من حيث أعمالهم كما أن ما في الآية السابقة كان معرّفهم من حيث أوصافهم .

فقوله : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » التجافي التّحنّي والجنوب جمع جنب و هو الشقّ و المضاجع جمع مضجع و هو الفراش و موضع النوم والتجافي عن المضاجع كناية عن ترك النوم .

و قوله : « يدعون ربهم خوفا و طمعا » حال من ضمير جنوبهم والمراد اشتغالهم بدعاء ربهم في جوف الليل حين تنام العيون و تسكن الأنفاس لا خوفا من سخطه تعالى فقط حتّى يغشيهم اليأس من رحمة الله ولا طمعا في ثوابه فقط حتّى يأمنوا غضبه ومكره بل يدعونه خوفا و طمعا فيؤثرون في دعائهم أدب العبوديّة على ما يبعثهم إليه الهدى و هذا التجافي والدعاء ينطبق على النوافل الكليّة .

و قوله : « و ممّا رزقناهم ينفقون » عمل آخر لهم و هو الإنفاق لله و في سبيله . قوله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » تفريع لما لهم من الأوصاف والأعمال يصف ما أعدّ الله لهم من الثواب .

و وقوع نفس وهي نكرة في سياق النفي يفيد العموم ، و إضافة قرّة إلى أعين لا أعينهم تفيد أن فيما أخفي لهم قرّة عين كلّ ذي عين .

والمعنى فلا تعلم نفس من النفوس - أي هو فوق علمهم و تصوّرهم - ما أخفاه الله لهم ممّا تقرّ به عين كلّ ذي عين جزاء في قبال ما كانوا يعملون في الدنيا .

قوله تعالى : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستون » الإيمان سكون علمي خاصّ من النفس بالشيء ولازمه الالتزام العملي بما آمن به والفسق هو الخروج عن الالتزام المذكور من فسقت التمرة إذا خرجت عن قشرها و مآل معناه الخروج عن

زيّ العبوديّة .

والاستفهام في الآية للإِنكار و قوله : « لا يستون » نفى لاستواء الفريقين تأكيداً لما يفيدّه الإِنكار السابق .

قوله تعالى : « أمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنّات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون » المأوى المكان الذي يأوي إليه و يسكن فيه الإنسان والنزل بضمّتين كلّ ما يعدّ للنّازل في بيت من الطعام والشراب ، ثمّ عمّم كما قيل لكلّ عطية ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « و أمّا الذين فسقوا فمأواهم النار » إلى آخر الآية كون النار مأواهم لازمه خلودهم فيها ولذلك عقبه بقوله : « كلّما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها » و قوله : « و قيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذّبون » دليل على أنّ المراد بالذين فسقوا هم منكروا المعاد و خطّابهم و هم في النار بهذا الخطاب شماتة بهم و كثيراً ما كانوا يشتمون في الدنيا بالموّمنين لقولهم بالمعاد .

قوله تعالى : « و ليزيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلّهم يرجعون » لما كان غاية إزافتهم العذاب رجوعهم المرجوّ والرجوع المرجوّ هو الرجوع إلى الله بالتوبة والإِجابة كان المراد بالعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا النازل بهم للتخويف والإِذار ليتوبوا دون عذاب الاستئصال و دون العذاب الذي بعد الموت و حينئذ المراد بالعذاب الأكبر عذاب يوم القيامة .

والمعنى أقسم لنذيقنّهم من العذاب الأدنى أي الأقرب مثل السنين والأمراض والقتل و نحو ذلك قبل العذاب الأكبر يوم القيامة لعلّهم يرجعون إلينا بالتوبة من شركهم وجحودهم .

قيل : سمّي عذاب الدنيا أدنى و لم يقل : الأصغر ، حتّى يقابل الأكبر لأنّ المقام مقام الإِذار و التخويف ولا يناسبه عدّ العذاب أصغر وكذا لم يقل دون العذاب الأبعد حتّى يقابل العذاب الأدنى لعدم ملائمته مقام التخويف .

قوله تعالى : « و من أظلم ممّن ذكر بآيات ربّه ثمّ أعرض عنها إنّنا من المجرمين

منتقمون ، كآته في مقام التعليل لما تقدم من عذابهم بالعذاب الأكبر بما أنهم مكذبون فعلمه بأنهم ظالمون أشد الظلم بالإعراض عن الآيات بعد التذكرة فيكونون مجرمين والله منتقم منهم .

فقوله : « ومن أظلم » الخ تعليل لعذابهم بأنهم ظالمون أشد الظلم ثم قوله : « إنا من المجرمين منتقمون » تعليل لعذاب الظالمين بأنهم مجرمون والعذاب انتقام منهم ، والله منتقم من المجرمين .

قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل » المراد بالكتاب التوراة والمرية الشك والريب .

وقد اختلفوا في مرجع الضمير في قوله : « من لقائه » ومعنى الكلمة ف قيل : الضمير لموسى وهو مفعول اللقاء والتقدير فلا تكن في مرية من لقاءك موسى وقد لقيه ليلة المعراج كما وردت به الروايات فإن كانت السورة نازلة بعد المعراج فهو تذكرة لما قد وقع وإن كانت نازلة فهو وعد منه تعالى للنبي ﷺ أنه سيراه .

وقيل : الضمير لموسى والمعنى فلا تكن في مرية من لقاءك موسى يوم القيامة . وقيل : الضمير للكتاب والتقدير فلا تكن في مرية من لقاء موسى الكتاب . وقيل : التقدير من لقاءك الكتاب أو من لقاء الكتاب إيتاك .

وقيل : الضمير لما لقي موسى من الأذى من قومه والمعنى فلا تكن في مرية من لقاء الأذى كما لقيه موسى من قومه وأنت خير بأن الطبع السليم لا يقبل شياً من هذه الوجوه - على أنها لا تفي لبيان وجه اتصال الآية بما قبلها .

ومن الممكن - والله أعلم - أن يرجع ضمير لقائه إليه تعالى والمراد بلقائه البعث بعناية أنه يوم يحضرون لربهم لا حجاب بينه وبينهم كما تقدم ، وقد عبر عنه باللقاء قبل عدة آيات في قوله : « بل هم بلقاء ربهم كافرون » ثم عبر عنه بما في معناه في قوله : « ناكسوا رؤسهم عند ربهم » .

فيكون المعنى : ولقد آتينا موسى الكتاب كما آتيناك القرآن فلا تكن في مرية من البعث الذي ينطق به القرآن بالشك في نفس القرآن وقد أيد نزول القرآن

عليه عليه السلام بنزول التوراة على موسى في مواضع من القرآن ، و يؤيده قوله بعد : « و جعلناه هدى لبني إسرائيل و جعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا » الخ .

و يمكن أن يكون المراد بلقائه الانقطاع التام إليه تعالى عند وحي القرآن أو بعضه كما في بعض الروايات ، فيكون رجوعاً إلى ما في صدر السورة من قوله : « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » و ذيل الآية أشد تأكيداً لهذا الوجه من سابقه والله أعلم .

و قوله : « و جعلناه هدى لبني إسرائيل » أي هادياً فالمصدر بمعنى اسم الفاعل أو بمعناه المصدرى مبالغة .

قوله تعالى : « و جعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا و كانوا بآياتنا يوقنون » أي و جعلنا من بني إسرائيل أئمة يهدون الناس بأمرنا و إنما نصبناهم أئمة هداة للناس حين صبروا في الدين و كانوا قبل ذلك موقنين بآياتنا .

و قد تقدم البحث عن معنى الإمامة و هداية الإمام بأمر الله في تفسير قوله : « قال إني جاعلك للناس إماماً » البقرة : ١٢٣ ، و قوله « و جعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » الأنبياء : ٧٣ ، و غير ذلك من الموارد المناسبة .

و قد تضمنت هاتان الآيتان من الرحمة المنبسطة بالتوراة أنها هدى في نفسه يهدي من اتبعه إلى الحق ، و أنها أنشأت في حجر تربيتها أناساً اجتباهم الله للإمامة فصاروا يهدون بأمره فهي مباركة للعمل بها و مباركة بعد العمل .

قوله تعالى : « إن ربك يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » يريد اختلافهم في الدين و إنما كان ذلك بغياً بينهم كما يذكره في مواضع من كلامه كقوله : « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب - إلى أن قال - فما اختلفوا إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » الجاثية : ١٧ . فالمراد بقوله : « يفصل بينهم » القضاء الفاصل بين الحق والباطل والمحق والمبطل والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « أولم يهدلهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم »

النخ العطف على محذوف كأنه قيل : ألم يبين لهم كذاو كذا أولم يهد لهم النخ والهداية بمعنى التبيين أو هو مضمن معنى التبيين ولذا عدّي باللام .

وقوله : « كم أهلكنا من قبلهم من القرون » مشير إلى الفاعل قائم مقامه والمعنى أولم يبين لهم كثرة من أهلكنا من القرون والحال أنهم يمشون في مساكنهم .
وقوله : « إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون » المراد بالسمع سمع المواعظ المؤدّي إلى طاعة الحق وقبوله .

قوله تعالى : « أولم يروا أننا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم » النخ قال في المجمع السوق الحث على السير من ساقه يسوقه وقال : الجرز الأرض اليابسة التي ليس فيها نبات لانقطاع الأمطار عنها . انتهى والزرع مصدر في الأصل والمراد به هنا المزروع .

والآية تذكر آية أخرى من آيات الله سبحانه تدل على حسن تدبيره للأشياء وخاصة ذوي الحياة منها كالأنعام والإنسان ، والمراد بسوق الماء إلى الأرض الخالية من النبات سوق السحب الحاملة للأمطار إليها ، ففي نزول ماء المطر منها حياة الأرض وخروج الزرع وغذاء الإنسان والأنعام التي يستخرجها ويربّيها لمقاصد حياته .

وقوله : « أفلا يبصرون » تنبيه وتوبيخ وتخصيص هذه الآية بالابصار والآية السابقة بالسمع لما أن العلم باهلاك الأمم الماضية إنما هو بالأخبار التي تنال من طريق السمع وأما العلم بسوق الأمطار إلى الأرض الجرز وإخراج الزرع وغذاء الأنعام والإنسان فالطريق إليه حاسة البصر .

قوله تعالى : « و يقولون متى هذا الفتح - إلى قوله - ولا هم ينظرون » قال الراغب : الفتح إزالة الإغلاق والإشكال - إلى أن قال - وفتح القضية فتاحا فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها قال : ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين انتهى .

وقد تقدّم في الآيات السابقة ممّا يصدق عليه الفتح بمعنى الفصل أمران أحدهما

فصل بينهم يوم القيامة ، و الآخر إذاقة العذاب الأدنى أو الانتقام منهم في الدنيا ولذا فسر الفتح بعضهم بيوم القيامة فيكون معنى قولهم : متى هذا الفتح إن كنتم صادقين هو معنى قولهم المحكي " كراماً في كلامه تعالى : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .
و فسرهم بعضهم بيوم بدر فإنه لم ينفع الذين قتلوا من المشركين إيمانهم بعد القتل .

و ذكر بعضهم أن المراد به فتح مكة ولا يلائمة الجواب المذكور في قوله : « قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون » إلا أن يقول قائل إن إيمانهم يومئذ - وقد عاندوا الحق - قاتلوا النبي ﷺ سنين و جاهدوا في إطفاء نور الله - لم يكن إيماناً إلا نفاقاً من غير أن يدخل في قلوبهم وينتفع به نفوسهم وقد ألزموا بالإيمان ولم ينظروا .

و يمكن أن يكون المراد هو القضاء بين النبي ﷺ و بين الأمة ويكون ذلك في آخر الزمان كما تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله : « و لكل أمة رسول » الآية يونس : ٤٧ .

و كيف كان فالمراد بالآيتين استعجال المشركين بالفتح والجواب أنه فتح لا ينفع حال الذين كفروا إيمانهم لأنه ظرف لا ينفع نفساً إيمانها ولا أن العذاب يمهلهم و ينظرهم .

قوله تعالى : « فأعرض عنهم و انتظر إنهم منتظرون » أمر بالإعراض عنهم و انتظار الفتح كما أنهم ينتظرون وإنما كانوا منتظرين موته أو قتله ﷺ و بالجملة انقطاع دابر دعوته الحق فلينتظر هو كما هم ينتظرون حتى يظهر الله الحق على الباطل والمحق على المبطل .

و من هذا السياق يظهر أن المراد بالفتح الفتح الدنيوي .

﴿بحث روائي﴾

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » قال : هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير و يكسل الكبير .

أقول : و رواها أيضا فيه بطرق أخرى موصولة وموقوفة ، و روى صدر الحديث الشيخ في أماليه بالإسناد عن الصادق عليه السلام في الآية ولفظه كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة .

و في الكافي بإسناده عن سليمان بن خالد عن أبي جعفر عليه السلام قال : ألا أخبرك بالإسلام أصله وفرعه و ذروة سنامه ؟ قلت : بلى جعلت فداك . قال : أما أصله فالصلاة و فرعه الزكاة و ذروة سنامه الجهاد .

ثم قال : إن شئت أخبرتك بأبواب الخير . قلت : نعم جعلت فداك . قال : الصوم جنة والصدقة تذهب بالخطيئة و قيام الرجل في جوف الليل يذكر الله ثم قرأ : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » .

أقول : و روى هذا المعنى في المحاسن بإسناده عن علي بن عبد العزيز عن الصادق عليه السلام و في المجمع عن الواحدي بالإسناد عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ و رواه في الدر المنثور عن الترمذي والنسائي و ابن ماجه وغيرهم عن معاذ عنه صلى الله عليه وسلم .

و في الدر المنثور أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : ذكر لنا رسول الله قيام الليل ففاضت عيناه حتى تحادرت دموعه فقال : تتجافى جنوبهم عن المضاجع . و فيه أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و مسلم والطبراني و ابن جرير والحاكم و صحيحه و ابن مردويه و محمد بن نصر في كتاب الصلاة من طريق أبي صخر عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يصف الجنة حتى انتهى .

ثم قال : فيها ما لآعين رأت ولأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قرء «تجافى جنوبهم عن المضاجع» الآيةتين .

وفي المجمع و روي عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال : ما من حسنة إلا ولها ثواب مبين في القرآن إلا صلاة الليل فإن الله عز اسمه لم يبين ثوابها لعظم خطرها قال : « فلا تعلم نفس » الآية .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن عبدالرحمان بن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن أبي عبدالله عليه السلام قال : ما من عمل حسن يعمل به العبد إلا وله ثواب في القرآن إلا صلاة الليل فإن الله عز وجل لم يبين ثوابها لعظيم خطره عنده فقال جل ذكره : « تجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون - إلى قوله - يعملون » .

ثم قال : إن الله عز وجل كرامة في عباده المؤمنين في كل يوم جمعة فإذا كان يوم الجمعة بعث الله إلى المؤمن ملكا معه حلتان فينتهي إلى باب الجنة فيقول : استأذنوا لي على فلان فيقال له هذا رسول ربك على الباب فيقول لأزواجه : أي شيء تريد علي أحسن ؟ فيقلن يا سيدنا والذي أباحك الجنة ما رأينا عليك أحسن من هذا الذي قد بعث إليك ربك فيتزر بواحدة و يتعطف بالأخرى فلا يمر بشيء إلا أضاء له حتى ينتهي إلى الموعد .

فإذا اجتمعوا تجلّى لهم الرب تبارك و تعالى فإذا نظروا إليه أي إلى رحمته خروا سجدوا فيقول : عبادي ارفعوا رؤوسكم ليس هنا يوم سجود ولا عبادة قد رفعت عنكم المؤنة فيقولون : يا ربنا وأي شيء أفضل مما أعطيتنا ؟ أعطيتنا الجنة فيقول : لكم مثل ما في أيديكم سبعين مرة .

فيرجع المؤمن في كل جمعة بسبعين ضعفا مثل ما في يديه و هو قوله : « ولدينا مزيد » و هو يوم الجمعة إن ليلا ليلة غراء و يومها يوم أزهرو فأكثرنا من التسبيح و التهليل والتكبير والثناء على الله عز وجل والصلاة على رسول الله ﷺ .

قال : فيمر المؤمن فلا يمر بشيء إلا أضاء له حتى ينتهي إلى أزواجه فيقلن :

والذي أباحنا الجنة ياسيدنا ما رأيناك أحسن منك الساعة . فيقول : إنني نظرت إلى نور ربّي - إلى أن قال - : قلت جعلت فداك زدني . فقال : إن الله تعالى خلق جنّة بيده ولم يرها عين ولم يطلع عليها مخلوق يفتحها الربّ كلّ صباح فيقول : ازدادي ريحا ازدادي طيبا و هو قول الله : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

أقول : ذيل الرواية تفسير لصدرها و قوله : أي إلى رحمة ربّه . من كلام الراوي .

و في الكافي بإسناده عن عبد الله بن ميمون القدّاح عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من أطعم مؤمنا حتّى يشبعه لم يدر أحد من خلق الله جلّ و عزّ ماله من الأجر في الآخرة لا ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل إلا الله ربّ العالمين .

وفي تفسير القميّ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستون » قال : إن عليّ بن أبي طالب والوليد بن عقبة بن أبي معيط تشاجرا فقال الفاسق وليد بن عقبة : أنا والله أبسط منك لسانا وأحدّ منك سنانا وأمثل منك جنوا في الكتيبة فقال عليّ عليه السلام : اسكت إنما أنت فاسق فأنزّل الله « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستون » .

أقول : و رواه في المجمع عن الواحدي عن ابن عباس وفي الدر المنثور عن كتاب الأثغاني والواحدّي و ابن عديّ و ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عنه و أيضا عن ابن إسحاق و ابن جرير عن عطاء بن يسار و عن ابن أبي حاتم عن السدي عنه و أيضا عن ابن أبي حاتم عن ابن أبي ليلى مثله .

و في الاحتجاج عن الحسن بن عليّ عليه السلام في حديث يحتاج فيه رجالا عند معاوية : و أمّا أنت يا وليد بن عقبة فواللهما ألومك أن تبغض عليّا وقد جلدك في الخمر ثمانين جلدة و قتل أباك صبرا بيده يوم بدر أم كيف تسبّه وقد سمّاه الله مؤمنا في عشر آيات من القرآن و سمّاه فاسقا و هو قول الله عزّ وجلّ : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستون » .

و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي إدريس الخولاني قال : سألت عبادة بن الصامت عن قول الله : « و لنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » فقال : سألت رسول الله ﷺ عنها فقال : هي المصائب و الأسقام و الأنصاب عذاب للمسرف في الدنيا دون عذاب الآخرة قلت : يا رسول الله فما هي لنا ؟ قال : زكاة و طهور .

و في المجمع في الرواية عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليه السلام : أن العذاب الأدنى الدابة والدجال .



(سورة الأحزاب مدنية و هي ثلث و سبعون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ
كَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ
مَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ الْمُؤْمِنِينَ تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ
أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤)
ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاخْوَانُكُمْ
فِي الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا
تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ
مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي
كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ
مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ
مِيثَاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَىٰ وَ عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ وَ
أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا أَلِيمًا (٨)

﴿ بيان ﴾

تتضمن السورة تفاريق من المعارف والأحكام والقصص والعبر والمواعظ وفيها قصة غزوة الخندق وإشارة إلى قصة بني القريظة من اليهود ، وسياق آياتها يشهد بأنها مما نزلت بالمدينة .

قوله تعالى : « يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً » أمر للنبي ﷺ بتقوى الله وفيه تمهيد للنهي الذي بعده « ولا تطع الكافرين والمنافقين » .

وفي سياق النهي - وقد جمع فيه بين الكافرين والمنافقين ونهى عن إطاعتهم - كشف عن أن الكافرين كانوا يسألونه أمراً لا يرضيه الله سبحانه و كان المنافقون يؤيدونهم في مسألتهم ويلحون ، أمراً كان الله سبحانه بعلمه وحكمته قد قضى بخلافه وقد نزل الوحي الإلهي بخلافه ، أمراً خطيراً لا يؤمن مساعدة الأسباب على خلافه إلا أن يشاء الله فحذر النبي ﷺ عن إجابتهم إلى ملتصقهم وأمر بمتابعة ما أوحى الله إليه والتوكل عليه .

وبهذا يتأكد ما ورد في أسباب النزول أن عدة من صناديد قريش بعد وقعة أحد دخلوا المدينة بأمان من النبي ﷺ وسألوا النبي ﷺ أن يتركهم وآلهتهم فيتركوه وإليه فنزلت الآيات ولم يجبههم النبي ﷺ إلى ذلك وسيأتي في البحث الروائي التالي .
وبما تقدم ظهر وجه تذييل الآية بقوله : « إن الله كان عليماً حكيماً » وكذا تعقيب الآية بالآيتين بعدها .

قوله تعالى : « واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً » الآية عامة في حد نفسها لكنها من حيث وقوعها في سياق النهي تأمر النبي ﷺ باتباع ما نزل به الوحي فيما يسأله الكافرون والمنافقون واتباعه إجراءه عملاً بدليل قوله : « إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

قوله تعالى : « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً » الآية كآية السابقة في

أنها عامّة في حدّ نفسها ، لكنّها لوقوعها في سياق النهي السابق تدلّ على الأمر بالتوكّل على الله فيما يأمره به الوحي وتشعر بأنّه أمر صعب المنال بالنظر إلى الأسباب الظاهرية لا يسلم القلب معه من عارضة المخافة والاضطراب إلّا التوكّل على الله سبحانه فإنّه السبب الوحيد الذي لا يغلبه سبب مخالف

قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » كناية عن امتناع الجمع بين المتنافيين في الاعتقاد فإنّ القلب الواحد أي النفس الواحدة لا يسع اعتقادين متنافيين ورأيين متناقضين فإن كان هناك متنافيان فهما لقلبين وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه فالرجل الواحد لا يسعه أن يعتقد المتنافيين ويصدق بالمتناقضين وقوله : « في جوفه » يفيد زيادة التقرير كقوله : « ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » الحج : ٤٦ .

قيل : الجملة توطئة و تمهيد كالتعليل لما يتلوها من إلغاء أمر الظهار و التبني فإنّ في الظهار جعل الزوجة بمنزلة الأمّ و في التبني و الدعاء جعل ولد الغير ولدا لنفسه والجمع بين الزوجية والأمومة وكذا الجمع بين بنوة الغير وبنوة نفسه جمع بين المتنافيين ولا يجتمعان إلّا في قلبين وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

ولا يبعد أن تكون الجملة في مقام التعليل لقوله السابق : « لا تطع الكافرين و المنافقين » و اتّبع ما يوحى إليك من ربك ، فإنّ طاعة الله و ولايته و طاعة الكفار و المنافقين و ولايتهم متنافيتان متباينتان كالنوحيد و الشرك لا يجتمعان في القلب الواحد وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

قوله تعالى : « وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهنّ أمّهاتكم » كان الرجل في الجاهلية يقول لزوجته أنت منّي كظهر أمّي أو ظهرك عليّ كظهر أمّي فيشبهه ظهرها بظهر أمّه وكان يسمّى ذلك ظهاراً وبعد طلاقها ، وقد ألغاه الإسلام .

فمفاد الآية أن الله لم يجعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهنّ بقول ظهرك عليّ كظهر أمّي أمّهات لكم وإن لم يجعل ذلك فلا أثر لهذا القول والجعل تشريعي .

قوله تعالى : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » الأدعياء جمع دعيّ و هو المتخذ

ولدا المدعو ابنا وقد كان الدعاء والتبني دائراً بينهم في الجاهلية وكذا بين الأمم الراقية يومئذ كالروم وفارس وكانوا يرتبون على الدعى أحكام الولد الصلبى من التوارث وحرمة الازدواج وغيرهما وقد ألغاه الإسلام .

فمفاد الآية أن الله لم يجعل الذين تدعونهم لأنفسكم أبناء لكم بحيث يجري فيهم ما يجري في الأبناء الصليبيين .

قوله تعالى : « ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق » و هو يهدي السبيل « الإشارة بقوله : « ذلكم » إلى ما تقدم من الظهار والدعاء أو إلى الدعاء فقط و هو الأظهر و يؤيده اختصاص الآية التالية بحكم الدعاء فحسب .

و قوله : « قولكم بأفواهكم » أي إن نسبة الدعى إلى أنفسكم ليس إلّا قولاً تقولونه بأفواهكم ليس له أثر وراء ذلك فهو كناية عن انتفاء الأثر كما في قوله : « كلاً إنها كلمة هو قائلها » المؤمنون : ١٠٠ .

و قوله : « والله يقول الحق » و هو يهدي السبيل « معنى كون قوله : هو الحق أنه إن أخبر عن شيء كان الواقع مطابقاً لما أخبر به و إن أنشأ حكماً ترتب عليه آثاره و طابقتة المصلحة الواقعية .

و معنى هدايته السبيل أنه يحمل من هداه على سبيل الحق التي فيها الخير و السعادة و في الجملتين تلويح إلى أن دعوا أقوالكم وخذوا بقوله .

قوله تعالى : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » إلى آخر الآية . اللام في « لآبائهم » للاختصاص أي ادعوهم و هم مخصوصون بآبائهم أي انسبوهم إلى آبائهم و قوله : « هو أقسط عند الله » الضمير إلى المصدر المفهوم من قوله : « ادعوهم » نظير قوله : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » و « أقسط » صيغة تفضيل من القسط بمعنى العدل . و المعنى انسبوهم إلى آبائهم - إذا دعوتهم - لأن الدعاء لآبائهم أعدل عند الله .

و قوله : « فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين و مواليكم » المراد بعدم علمهم آباءهم عدم معرفتهم بأعيانهم ، و الموالى هم الأولياء والمعنى وإن لم تعرفوا

آباءهم فلا تنسبوهم إلى غير آبائهم بل ادعوهم بالأخوة والولاية الدينية .

و قوله : « ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم ، أي لا ذنب لكم في الذي أخطأتم به لسهو أو نسيان فدعوتهم لغير آبائهم و لكن الذي تعمّدته قلوبكم ذنب أو ولكن تعمّد قلوبكم بذلك فيه الذنب .

و قوله : « و كان الله غفورا رحيمًا » راجع إلى ما أخطىء به .

قوله تعالى : « النبي » أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم « أنفس المؤمنين هم المؤمنون فمعنى كون النبي أولى بهم من أنفسهم أنه أولى بهم منهم ومعنى الأولوية هو رجحان الجانب إذا دار الأمر بينه وبين ما هو أولى منه فالحاصل أن ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ والكلاءة والمحبة والكرامة واستجابة الدعوة وإنفاذ الإرادة فالنبي أولى بذلك من نفسه و لودار الأمر بين النبي و بين نفسه في شيء من ذلك كان جانب النبي أرجح من جانب نفسه .

ففيما إذا توجه شيء من المخاطر إلى نفس النبي فليقه المؤمن بنفسه و يفده نفسه وليكن النبي أحب إليه من نفسه وأكرم عنده من نفسه و لو دعت نفسه إلى شيء والنبي إلى خلافه أو أرادت نفسه منه شيئاً وأراد النبي خلافه كان المتعين استجابة النبي ﷺ وطاعته و تقديمه على نفسه .

و كذا النبي ﷺ أولى بهم فيما يتعلق بالأمور الدنيوية أو الدينية كل ذلك لمكان الإطلاق في قوله : « النبي » أولى بالمؤمنين من أنفسهم .

و من هنا يظهر ضعف ما قيل : إن المراد أنه أولى بهم في الدعوة فإذا دعاهم إلى شيء ودعاهم أنفسهم إلى خلافه كان عليهم أن يطيعوه ويعصوا أنفسهم فتكون الآية في معنى قوله : « وأطيعوا الرسول » النساء : ٥٩ و قوله : « و ما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » النساء : ٦٤ و ما أشبه ذلك من الآيات و هو مدفوع بالإطلاق .

و كذا ما قيل : إن المراد أن حكمه فيهم أنفذ من حكم بعضهم على بعض كما في قوله : « فسلموا على أنفسكم » النور : ٦١ و يؤل إلى أن ولايته على المؤمنين فوق

ولاية بعضهم على بعض المدلول عليه بقوله : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض »
براءة : ٧١ .

و فيه أن السياق لا يساعد عليه .

وقوله « وأزواجه أمهاتهم » جعل تشريعي أي إنهن منهم بمنزلة أمهاتهم في
وجوب تعظيمهن و حرمة نكاحهن بعد النبي ﷺ كما سيأتي التصريح به في قوله :
« ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا » .

فالتنزيل إنما هو في بعض آثار الأمومة لا في جميع الآثار كالتوارث بينهم و
بين المؤمنين والنظر في وجوههن كالأُمَّهات و حرمة بناتهن على المؤمنين لصيرورتهن
أخوات لهم و كصيرورة آبائهن و أمهاتهم أجداداً وجدّات و إخوتهن و أخواتهن
أخوالا و أخالات للمؤمنين .

قوله تعالى : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين
والمهاجرين » الخ الأرحام جمع رحم و هي العضو الذي يحمل النطفة حتى تصير جنينا
فيتولّد و إذ كانت القرابة النسبية لازمة الانتهاء إلى رحم واحدة عبّر عن القرابة بالرحم
فسمّي ذوا القرابة أولى الأرحام .

والمراد بكون أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض ، الأولوية في التوارث ، و
قوله : « في كتاب الله » المراد به اللّوح المحفوظ أو القرآن أو السورة ، و قوله : « من
المؤمنين والمهاجرين » مفضل عليه والمراد بالمؤمنين غير المهاجرين منهم و المعنى و
ذوا القرابة بعضهم أولى ببعض من المهاجرين وسائر المؤمنين الذين كانوا يرثون بالمواخاة
الدينية وهذه الأولوية في كتاب الله و ربّما احتمل كون قوله : « من المؤمنين والمهاجرين »
بيانا لقوله : « وأولو الأرحام » .

و الآية ناسخة لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاتة في
الدين .

و قوله : « لا تفعلوا إلى أوليائكم معروفاء » الاستثناء منقطع ، والمراد بفعل المعروف
إلى الأولياء الوصيّة لهم بشيء من التركة ، وقد حدّ شرعا بثلث المال فما دونه وقوله

« كان ذلك في الكتاب مسطورا » أي حكم فعل المعروف بالوصية مسطور في اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة .

قوله تعالى : « و إذ أخذنا من النبيين ميثاقهم و منك و من نوح و إبراهيم و موسى و عيسى بن مريم و أخذنا منهم ميثاقا غليظا » إضافة الميثاق إلى ضمير النبيين دليل على أن المراد بالميثاق ميثاق خاص بهم كما أن ذكرهم بوصف النبوة مشعر بذلك فالميثاق المأخوذ من النبيين ميثاق خاص من حيث إنهم نبوتون و هو غير الميثاق المأخوذ من عامة البشر الذي يشير إليه في قوله : « و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذربتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » الأعراف : ١٧٢ . و قد ذكر أخذ الميثاق من النبيين في موضع آخر و هو قوله : « و إذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب و حكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرته قال ءأقررتم و أخذتم على ذلك إصري قالوا أقررنا » آل عمران : ٨١ . والآية المبحوث عنها و إن لم تبين ما هو الميثاق المأخوذ منهم و إن كانت فيها إشارة إلى أنه أمر متعلق بالنبوة لكن يمكن أن يستفاد من آية آل عمران أن الميثاق مأخوذ على وحدة الكلمة في الدين وعدم الاختلاف فيه كما في قوله : « و إن هذه أممتكم أمة واحدة و أنا ربكم فاعبدون ، الأنبياء : ٩٢ ، و قوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا و ما أوحينا إليك و ما وصينا به إبراهيم و موسى و عيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » الشورى : ١٣ .

و قد ذكر النبيين بلفظ عام يشمل الجميع ثم سمي خمسة منهم بأسمائهم بالعطف عليهم فقال : « و منك و من نوح و إبراهيم و موسى و عيسى بن مريم » و معنى العطف إخراجهم من بينهم و تخصيصهم بالذكر كأنه قيل : و إذ أخذنا الميثاق منكم أيها الخمسة و من باقي النبيين .

و لم يخصهم بالذكر على هذا النمط إلا لعظمة شأنهم و رفعة مكانهم فإنهم أولوا عزم و أصحاب شرائع و كتب و قد عدتهم على ترتيب زمانهم : نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى بن مريم عليه السلام لكن قد تم ذكر النبي ﷺ و هو آخرهم زمانا لفضله و شرفه و تقدّمه

على الجميع .

و قوله : « و أخذنا منهم ميثاقا غليظا » تأكيد و تغليظ للميثاق نظير قوله : « فلما جاء أمرنا نجينا هودا و الذين آمنوا معه برحمة منا و نجيناهم من عذاب غليظ » هود : ٥٨ .

قوله تعالى : « ليسأل الصادقين عن صدقهم و أعد للكافرين عذابا أليما » اللام في « ليسأل » للتعليل أو للغاية و هو متعلق بمحذوف يدل عليه قوله : « و إذ أخذنا » و قوله : « و أعد » معطوف على ذلك المحذوف ، و التقدير فعل ذلك أي أخذ الميثاق ليتمهد له سؤال الصادقين عن صدقهم و أعد للكافرين عذابا أليما .
و لم يقل : وليعد للكافرين عذابا ، إشارة أن عذابهم ليس من العلل الغائية لأخذ الميثاق و إنما النقص من ناحيتهم و الخلف من قبلهم .

و أما سؤال الصادقين عن صدقهم فقليل : المراد بالصادقين الأنبياء و سؤالهم عن صدقهم هو سؤالهم يوم القيامة عما جاءت به أممهم و كأنه مأخوذ من قوله تعالى : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ما ذا أجبتكم » المائدة : ١٠٩ .

و قيل : المراد سؤال الصادقين في توحيد الله و عدله و الشرائع عن صدقهم أي عما كانوا يقولون فيه ، و قيل : المراد سؤال الصادقين في أقوالهم عن صدقهم في أفعالهم و قيل المراد سؤال الصادقين عما قصدوا بصدقهم أهو وجه الله أو غيره ؟ إلى غير ذلك من الوجوه وهي كما ترى .

و التأمل فيما يفيد قوله : « ليسأل الصادقين عن صدقهم » يرشد إلى خلاف ما ذكروه ففرق بين قولنا : سألت الغني عن غناه و سألت العالم عن علمه و بين قولنا سألت زيدا عن ماله أو عن علمه فالمتبادر من الأول أني طالبتة أن يظهر غناه و أن يظهر علمه و من الأخير أني طالبتة أن يخبرني هل له مال أو هل له علم ؟ أو يصف لي ماله من المال أو من العلم .

و على هذا فمعنى سؤال الصادقين عن صدقهم مطالبتهم أن يظهر ما في باطنهم من الصدق في مرتبة القول و الفعل و هو عملهم الصالح في الدنيا فالمراد بسؤال الصادقين

عن صدقهم توجيه التكليف على حسب الميثاق إليهم ليظهر منهم صدقهم المستبطن في نفوسهم وهذا في الدنيا لا في الآخرة فأخذ الميثاق في نشأة أخرى قبل الدنيا كما يدل عليه آيات الذكر "وإن أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى" الآيات .

وبالجملة آيتان من الآيات المنبئة عن عالم الذر والمأخوذ فيه الميثاق وتذكر أن أخذ الميثاق من الأنبياء ﷺ وترتب شأنهم وعملهم في الدنيا على ذلك في ضمن ترتب صدق كل صادق على الميثاق المأخوذ منه .

ولم كان هذا التعميم ذكر عاقبة أمر الكافرين مع أنهم ليسوا من قبيل النبيين والكلام في الميثاق المأخوذ منهم فكأنه قيل : أخذنا ميثاقا غليظا من النبيين أن تتفق كلمتهم على دين واحد يبلغونه ليسأل الصادقين ويطالبهم بالتكليف والهداية إظهار صدقهم في الاعتقاد والعمل ففعلوا فقد ر لهم الثواب وأعد للكافرين عذابا أليما .

و من هنا يظهر وجه الالتفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة في قوله : « ليسأل الصادقين » الخ وذلك لأن الميثاق على عبادته وحده لا شريك له وإن كان أخذه منه تعالى بوساطة من الملائكة المصحح لقوله : « أخذنا » « وأخذنا » فالمطالب لصدق الصادقين والمعد لعذاب الكافرين بالحقيقة هو تعالى وحده ليعبد وحده فتدبر .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « يا أيها النبي اتق الله » الآيات نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور السلمي قدموا المدينة ونزلوا على عبدالله بن أبي بعد غزوة أحد بأمان من رسول الله ﷺ ليكلّموه فقاموا وقام معهم عبدالله بن أبي وعبدالله بن سعيد بن أبي سرح وطعمة بن أبييرق فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : يا محمد ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل : إن لها شفاعا لمن عبدها وندعك وربك. فشق ذلك على رسول الله ﷺ فقال عمر بن

الخطاب : ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم فقال : إني أعطيتهم الأمان وأمر فأخرجوا من المدينة و نزلت الآية « ولا تطع الكافرين » من أهل مكة أبا سفيان و أبا الأور و عكرمة « والمنافقين » ابن أبي و ابن سعيد و طعمة .

اقول : و روى إجمال القصة في الدر المنثور عن ابن جرير عن ابن عباس ، وروي أسباب أخر لنزول الآيات لكنها أجنبية غير ملائمة لسياق الآيات فأضربنا عنها . و في تفسير القمي في قوله تعالى : « و ما جعل أدياءكم أبناءكم » حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان سبب ذلك أن رسول الله لما تزوج بخديجة بنت خويلد خرج إلى سوق عكاظ في تجارة و رأى زيدا يباع و رآه غلاما كيتسا حصينا فاشتراه فلما نبى رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام فأسلم و كان يدعى زيد مولى محمد .

فلما بلغ حارثة بن شراحيل الكلبي خبر ولده زيد قدم مكة و كان رجلا جليلا فأتى أبا طالب فقال : يا أبا طالب إن ابني وقع عليه السبي و بلغني أنه صار إلى ابن أخيك تسأله إمّا أن يبيعه و إمّا أن يفاديه و إمّا أن يعتقه .

فكلم أبو طالب رسول الله ﷺ فقال رسول الله هو حر فليذهب حيث شاء فقام حارثة فأخذ بيد زيد فقال له : يا بني الحق بشرك و حسبك فقال زيد لست أفارق رسول الله فقال له أبوه فتدع حسبك و نسبك و تكون عبداً لقريش ؟ فقال زيد : لست أفارق رسول الله ما دمت حياً فغضب أبوه فقال : يا معشر قريش اشهدوا أنني قد برئت منه و ليس هو ابني فقال رسول الله ﷺ اشهدوا أن زيدا ابني أرثه و يرثني . فكان زيد يدعى ابن محمد و كان رسول الله ﷺ يحبّه وسمّاه زيد الحب .

فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة تزوجه زينب بنت جحش و أبطأ عنه يوماً فأتى رسول الله منزله يسأل عنه فإذا زينب جالسة وسط حجرتها يستحق طيها بفهرها فدفع رسول الله الباب و نظر إليها و كانت جميلة حسنة فقال : سبحان الله رب النور و تبارك الله أحسن الخالقين ثم رجع رسول الله ﷺ إلى منزله و وقعت زينب في قلبه موقعا عجيبا .

و جاء زيد إلى منزله فأخبرته زينب بما قال رسول الله فقال لها زيد : هل لك أن أطلقك حتى يتزوج بك رسول الله ؟ فقالت : أخشى أن تطلقني ولا يتزوجني رسول الله . فجاء زيد إلى رسول الله فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله أخبرني زينب بكذا وكذا فهل لك أن أطلقها حتى تتزوجها ؟ فقال له رسول الله : لا اذهب و اتق الله و أمسك عليك زوجك ، ثم حكى الله فقال : « أمسك عليك زوجك و اتق الله و تخفي في نفسك ما الله مبديه و تخشى الناس و الله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجنا بها - إلى قوله - و كان أمر الله مفعولا ، فزوجته الله من فوق عرشه .

فقال المنافقون : يحرم علينا نساء أبنائنا و يزوج امرأة ابنه زيد فأنزل الله في هذا د و ما جعل أدعياءكم أبناءكم - إلى قوله - يهدي السبيل .

اقول : و روى قريباً منه مع اختلاف ما في الدر المنثور عن ابن مردويه عن ابن عباس .

و في الدر المنثور أخرج أحمد و أبوداود و ابن مردويه عن جابر عن النبي ﷺ أنه كان يقول : أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فأيتما رجل مات و ترك ديناً فإلي ، و من ترك مالاً فهو لورثته .

اقول : و في معناه روايات أخر من طرق الشيعة و أهل السنة .

و فيه أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و النسائي عن بريدة قال : غزوت مع عليّ اليماني فرأيت منه جفوة فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت علياً فتمنقسته فرأيت وجه رسول الله ﷺ تغير و قال : يا بريدة أأنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : من كنت مولاه فعليّ مولاه .

و في الاحتجاج عن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب في حديث طويل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم . من كنت أولى به من نفسه فأنت أولى به من نفسه و عليّ بن أبي طالب في البيت .

اقول : و رواه في الكافي بإسناده عن جعفر عنه ﷺ و الأحاديث في هذا المعنى من طرق الفريقين فوق حد الإحصاء .

وفي الكافي بإسناده عن حنان قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : أي شيء للموالي؟ فقال : ليس لهم من الميراث إلا ما قال الله عز وجل : « إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا » .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قيل : يا رسول الله متى أخذ ميثاقلك؟ قال : و آدم بين الروح والجسد .

أقول : وهو بلفظه مروى بطرق مختلفة عنه عليه السلام ومعناه كون الميثاق مأخوذاً في نشأة غير هذه النشأة وقبلها .





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩)
إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ
الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ
وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ
يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ
إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَتَوَلَّى
وَدَخَلَ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآئِيهَا وَمَا تَلْبَثُوا فِيهَا إِلَّا
يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّبَارَ وَ
كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَّنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ
أَوْ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ
مِّنَ اللَّهِ إِنِ ارَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْمٍ مِّنْ
دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعُوقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ
لَاخَوَانِهِمْ هَلْهُمُ الْيَنَاءُ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ

فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوِائِهِمْ بِأَدُونِ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَ أَوْثَقَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَ أَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) .

﴿ بيان ﴾

قصة غزوة الخندق وما عقبها من أمر بني قريظة ووجه اتصالها بما قبلها ما فيها من ذكر حفظ العهد و نقضه .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود الخ تذكر للمؤمنين بما أنعم عليهم أيام الخندق بنصرهم و صرف جنود المشركين عنهم وقد كانوا جنودا مجندة من شعوب و قبائل شتى كغطفان و قريش والأحباش و كنانة و يهود بني قريظة و النضير أحاطوا بهم من فوقهم و من أسفل منهم فسلط الله عليهم الريح و أنزل ملائكة يخذلونهم .

وهو قوله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ » ظرف للنعمة أو لثبوتها « جاءكم جنود » من طوائف كل واحدة منهم جند كغطفان و قريش وغيرهما « فأرسلنا » بيان للنعمة و هو الإرسال المتفرع على مجيئهم « عليهم ريحا » و هي الصبا و كانت باردة في ليال شامية « و جنودا لم تروها » و هي الملائكة لخدلان المشركين « و كان الله بما تعملون بصيرا » .

قوله تعالى : « إذ جاؤكم من فوقكم و من أسفل منكم » الخ الجاؤون من فوقهم و هو الجانب الشرقي للمدينة غطفان و يهود بني قريظة و بني النضير و الجاؤون من أسفل منهم و هو الجانب الغربي لها قريش و من انضم إليهم من الأحباش و كنانة فقوله : « إذ جاؤكم من فوقكم و من أسفل منكم » عطف بيان لقوله : « إذ جاءكم جنود » .

و قوله : « إذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر » عطف بيان آخر لقوله « إذ جاءكم » الخ و زيع الأبصار ميلها و القلوب هي الأنفس و الحناجر جمع حنجرو هو جوف الحلقوم .

و الوصفان أعني زيع الأبصار و بلوغ القلوب الحناجر كنايةتان عن كمال

غشيان الخوف لهم حتى حوّلهم إلى حال المحتضر الذي يزيغ بصره و تبلغ روحه الحلقوم .

و قوله : « وتظنون بالله الظنونا » أي يظن المنافقون و الذين في قلوبهم مرض الظنون فبعضهم يقول : « إن الكفار سيغلبون و يستولون على المدينة ، و بعضهم يقول : إن الإسلام سينمحق و الدين سيضيع ، و بعضهم يقول : إن الجاهلية ستعود كما كانت ، و بعضهم يقول : إن الله غرّهم و رسوله إلى غير ذلك من الظنون .

قوله تعالى : « هنالك ابتلي المؤمنون و زلزلوا زلزالاً شديداً » هنالك إشارة بعيدة إلى زمان أو مكان والمراد الإشارة إلى زمان مجيء الجنود و كان شديداً عليهم لغاية بعيدة ، و الابتلاء الامتحان ، و الزلزلة و الزلزال الاضطراب ، و الشدة القوة و تختلفان في أن الغالب على الشدة أن تكون محسوسا بخلاف القوة قيل : و لذلك يطلق القوي عليه تعالى دون الشديد .

والمعنى في ذلك الزمان الشديد امتحن المؤمنون و اضطربوا باخوفاً اضطراباً شديداً . قوله تعالى : « و إذ يقول المنافقون و الذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله و رسوله إلا غرورا » الذين في قلوبهم مرض هم ضعفاء الإيمان من المؤمنين و هم غير المنافقين الذين يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر ، و إنما سمّي المنافقون الرسول لمكان إظهارهم الإسلام .

و الغرور حمل الإنسان على الشرّ بإراءته في صورة الخير و الاغترار احتماله له قال الراغب : يقال : غررت فلانا أصبت غرته و نلت منه ما أريد و الغرة - بكسر الغين - غفلة في اليقظة . انتهى .

و الوعد الذي يعدّونه غرورا من الله و رسوله لهم بقرينة المقام هو وعد الفتح و ظهور الإسلام على الدين كلّهُ و قد تكرر في كلامه تعالى كما ورد أن المنافقين قالوا : يعدنا عهد أن يفتح مدائن كسرى و قيصر و نحن لا نأمن أن نذهب إلى الخلاء . قوله تعالى : « و إذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » يثرب اسم المدينة قبل الإسلام ثم غلب عليه اسم مدينة الرسول بعد الهجرة ثم المدينة ،

والمقام بضم الميم الإقامة وقولهم : لا مقام لكم فارجعوا أي لا وجه لإقامتكم ههنا
 قبال جنود المشركين فالغلبة لهم لا محالة فارجعوا ثم أتبعه بحكاية ما قاله آخرون فقال
 عاطفا على قوله : قالت طائفة : « ويستأن فریق منهم » أي من المنافقين والذين في قلوبهم
 مرض « النبي » في الرجوع « يقولون » استئذنا « إن بيوتنا عورة » أي فيها خلل
 لا يأمن صاحبها دخول السارق و زحف العدو « و ما هي بعورة إن يريدون » أي ما
 يريدون بقولهم هذا « إلا فرارا » .

قوله تعالى : « ولودخلت عليهم من أفطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها
 إلا يسيراً » ضمائر الجمع للمنافقين والمرضى القلوب والضمير في « دخلت » للبيوت و
 معنى دخلت عليهم دخل الجنود البيوت حالكونه دخولا عليهم ، والأفطار جمع قطر و
 هو الجانب ، و المراد بالفتنة بقرينة المقام الردة والرجعة من الدين والمراد بسؤالها
 طلبها منهم ، والتلبث التأخر .

والمعنى و لو دخل جنود المشركين بيوتهم من جوانبها و هم فيها ثم طلبوا منهم
 أن يرددوا عن الدين لأعطوهم مسؤولهم و ما تأخروا بالردة إلا يسيراً من الزمان بمقدار
 الطلب و السؤال أي إنهم يقيمون على الدين مادام الرخاء فإذا هجمت عليهم الشدة
 والبأس لم يلبثوا دون أن يرجعوا .

قوله تعالى : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأديار و كان عهد الله
 مسؤولاً ، اللّام للقسم ، و قوله : « لا يولّون الأديار » أي لا يفرّون عن القتال و هو بيان
 للعهد و لعل المراد بعهدهم من قبل هو بيعتهم بالإيمان بالله ورسوله و ما جاء بهرسوله
 و مما جاء به : الجهاد الذي يحرم الفرار فيه و معنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا
 تمتعون إلا قليلاً » إن لا بدّ لكل نفس من الموت لأجل مقضي محتوم لا يتأخر عنه
 ساعة ولا يتقدم عليه فالفرار لا يؤثر في تأخير الأجل شيئاً .

و قوله : « وإذا لا تمتعون إلا قليلاً » أي و إن نفعكم الفرار فتمتعتم بتأخر
 الأجل فرضاً لا يكون ذلك التمتع إلا تمتعاً قليلاً أو في زمان قليل لكونه مقطوع

الآخر لامحالة .

قوله تعالى : « قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » كانت الآية السابقة تنبيهاً لهم على أن حياة الإنسان مقضي مؤجل لا ينفع معه فرار من الزحف و في هذه الآية تنبيه على أن الشر والخير تابعان لإرادة الله محض لا يمنع عن نفوذها سبب من الأسباب ولا يعصم الإنسان منها أحد فالحزم إيكال الأمر إلى إرادته تعالى والقرار على أمره بالتوكل عليه .

ولما كانت قلوبهم مرضى أو مشغولة بكفر مستبطن عدل عن أمر النبي ﷺ بتكليمهم إلى تكليم نفسه فقال : « ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

قوله تعالى : « قد يعلم الله المعوقين منكم - إلى قوله - يسيراً » التعويق التثبيط والصرف ، و«لم» اسم فعل بمعنى أقبل ، ولا يثنى ولا يجمع في لغة الحجاز ، والبأس الشدة والحرب ، وأشحة جمع شحيح بمعنى البخيل ، والذي يغشى عليه هو الذي أخذته الغشوة فغابت حواسه وأخذت عيناه تدوران ، والسلق بالفتح فالسكون الضرب والطعن .

ومعنى الآيتين أن الله يعلم الذين يشبطون منكم الناس ويصرفونهم عن القتال وهم المنافقون ويعلم الذين يقولون من المنافقين لاخوانهم من المنافقين أضعفة الإيمان تعالوا وأقبلوا ولا يحضرون الحرب إلا قليلاً بخلاء عليكم بنفوسهم .

فاذا جاء الخوف بظهور مخائل القتال تراهم ينظرون إليك من الخوف نظراً لا إرادة لهم فيه ولا استقرار فيه لا عينهم تدور أعينهم كالمغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف ضربوكم وطعنوكم بالسنة حداد قاطعة حالكونهم بخلاء على الخير الذي نلتموه . أولئك لم يؤمنوا ولم يستقر الإيمان في قلوبهم وإن أظهروه في ألسنتهم فأبطل الله أعمالهم وأحبطها وكان ذلك على الله يسيراً .

قوله تعالى : « يحسبون الأحزاب لم يذهبوا » إلى آخر الآية أي يظنون من شدة الخوف أن الأحزاب - وهم جنود المشركين المتحزبون على النبي ﷺ - لم

يذهبوا بعد « و إن يأت الأحزاب » مرة ثانية بعد ذهابهم وتركهم المدينة « يودوا » و يحبوا « أنتم بادون » أي خارجون من المدينة إلى البدو « في الأعراب يسألون عن أنبائكم » و أخبركم « و لو كانوا فيكم » ولم يخرجوا منها بادين « ما قاتلوا إلا قليلا » أي ولا كثير فائدة في لزومهم إيتاكم و كونهم معكم فإنهم لن يقاتلوا إلا قليلا لا يعتد به .

قوله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ذكر الله كثيرا » الأسوة القدوة وهي الاقتداء والاتباع ، وقوله : « في رسول الله » أي في مورد رسول الله والأسوة التي في موردته هي تأسيهم به و اتباعهم له والتعبير بقوله « لقد كان لكم » الدال على الاستقرار والاستمرار في الماضي إشارة إلى كونه تكليفا ثابتا مستمرا .

والمعنى و من حكم رسالة الرسول و إيمانكم به أن تتأسوا به في قوله و فعله و أنتم ترون ما يقاسيه في جنب الله و حضوره في القتال و جهاده في الله حق جهاده . و في الكشف : فإن قلت : فما حقيقة قوله : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » ؟ و قرئ أسوة بالضم . قلت : فيه وجهان : أحدهما أنه في نفسه أسوة حسنة أي قدوة و هو الموصى أي المقتدى به كما نقول : في البيضة عشرون منة حديد أي هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد . و الثاني أن فيه خصلة من حقها أن يؤتى بها و تتبع وهي المواساة بنفسه انتهى و أول الوجهين قريب مما قد مناه .

و قوله : « لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ذكر الله كثيرا » بدل من ضمير الخطاب في « لكم » للدلالة على أن التأسي برسول الله ﷺ خصلة جميلة زاكية لا يتصف بها كل من تسمى بالايمان ، وإنما يتصف بها جمع ممن تلبس بحقيقة الايمان فكان يرجو الله واليوم الآخر أي تعلق قلبه بالله فأمن به وتعلق قلبه باليوم الآخر فعمل صالحا و مع ذلك ذكر الله كثيرا فكان لا يغفل عن ربه فتأسى بالنبي في أفعاله و أعماله .

و قيل : قوله : « لمن كان » الخ صلة لقوله : « حسنة » أو صفة له للمنع عن الإبدال من ضمير الخطاب و مآل الوجوه الثلاثة بحسب المعنى واحد .

قوله تعالى : « و لما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وصف لحال المؤمنين لما شاهدوا الأحزاب و نزول جيوشهم حول المدينة فكان ذلك سبب رشدهم و تبصّرهم في الإيمان و تصديقهم لله و لرسوله على خلاف ما ظهر من المنافقين و الذين في قلوبهم مرض من الارتباب و سبىء القول ، و بذلك يظهر أن المراد بالمؤمنين المخلصون لا إيمانهم بالله ورسوله .

و قوله : « قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله » الإشارة بهذا إلى ما شاهدوه مجرّداً عن سائر الخصوصيات كما في قوله : « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربّي » الأ نعام : ٧٨ .

و الوعد الذي أشاروا إليه قيل : هو ما كان رسول الله ﷺ قد وعدهم أن الأحزاب سيتظاهرون عليهم فلما شاهدوهم تبين لهم أن ذلك هو الذي وعدهم .

و قيل إنهم كانوا قد سمعوا قوله تعالى في سورة البقرة : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء و زلزلوا حتى يقول الرسول و الذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » البقرة : ٢١٤ فتحققوا أنهم سيصيبهم ما أصاب الأنبياء و المؤمنين بهم من الشدة و المحنة التي تزلزل القلوب و تدهش النفوس فلما رأوا الأحزاب أيقنوا أنه من الوعد الموعود و أن الله سينصرهم على عدوهم .

و الحق هو الجمع بين الوجهين نظرا إلى جمعهم بين الله ورسوله في الوعد إن قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله .

و قوله : « و صدق الله ورسوله » شهادة منهم على صدق الوعد . و قوله : « وما زادهم إلا إيمانا و تسليما » أي إيمانا بالله ورسوله و تسليماً لأمر الله بنصرة دينه و الجهاد في سبيله .

قوله تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فممنهم من قضى نجبه و منهم من ينتظر و ما بدّلوا تبديلاً » قال الراغب : النحب النذر المحكوم بوجوبه يقال : قضى فلان نجبه أي وفى بنذره قال تعالى : « فممنهم من قضى نجبه و منهم من ينتظر »

و يعبر بذلك عن مات كفولهم قضى أجله و استوفى أكله و قضى من الدنيا حاجته انتهى .

و قوله : « صدقوا ما عاهدوا الله عليه » أي حققوا صدقهم فيما عاهدوه أن لا يفرّوا إذا لا قوا العدو ، و يشهد على أن المراد بالعهد ذلك أن في الآية مجازاة لقوله السابق في المنافقين و الضعفاء الإيمان : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأديبار » كما أن في الآية السابقة مجازاة لما ذكر سابقا من ارتياب القوم و عدم تسليمهم لأمر الله .

و قوله : « فمنهم من قضى نحبه » الخ أي منهم من قضى أجله بموت أو قتل في سبيل الله و منهم من ينتظر ذلك و ما بدّلوا شيئا مما كانوا عليه من قول أو عهد تبديلا .
قوله تعالى : « ليجزي الله الصادقين بصدقهم و يعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيمًا » اللام للغاية و ما تتضمنه الآية غاية لجميع من تقدّم ذكرهم من المنافقين و المؤمنين .

فقوله : « ليجزي الله الصادقين بصدقهم » المراد بالصادقين المؤمنون وقد ذكر صدقهم قبل ، والباء في « بصدقهم » للسببية أي ليجزي المؤمنون الذين صدقوا عهدهم بسبب صدقهم .

و قوله : « و يعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم » أي و ليعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم و ذلك فيما لو لم يتوبوا أو يتوب عليهم إن تابوا إن الله كان غفورا رحيمًا .

و في الآية من حيث كونها بيان غاية نكتة لطيفة هي أن المعاصي ربّما كانت مقدّمة للسعادة و المغفرة لا بما أنتها معاص بل لكونها سائقة للنفس من الظلمة و الشقوة إلى حيث تنوحش النفس و تنبّه فتتوب إلى ربّها و تنتزع عن معاصيها و ذنوبها فيتوب الله عليها في الغاية .

قوله تعالى : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا و كفى الله المؤمنين القتال و كان الله قويا عزيزا » الغيظ الغمّ و الحنق و المراد بالخير ما كان بعده

الكفار خيرا و هو الظفر بالنبي ﷺ والمؤمنين .

والمعنى ورد الله الذين كفروا مع غمهم وحنقهم والحال أنهم لم ينالوا ما كانوا يتمنونوه وكفى الله المؤمنين القتال فلم يقاتلوا و كان الله قويا على ما يريد عزيزا لا يقلب .

قوله تعالى : « و أنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم - إلى قوله - قديرا » المظاهرة المعاونة ، والصياصي جمع صيصية وهي الحصن الذي يمنع به ولعلّ التعبير بالإزالة دون الإخراج لأن المتحصنين يصعدون بروج الحصون ويشرفون منها و من أعالي الجدران على أعدائهم في خارجها ومحاصريهم .

والمعنى « و أنزل الذين ظاهروهم » أي عاونوا المشركين وهم بنو قريظة « من أهل الكتاب » وهم اليهود « من صياصيمهم » وحصونهم « وقذف » وألقى « في قلوبهم الرعب » والخوف « فريقا تقتلون » وهم الرجال « وتأسرون فريقا » وهم الذراري والنساء « وأورثكم » أي وملككم بعدهم « أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها » وهي أرض خيبر أو الأرض التي أفاء الله مما لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، و أمّا تفسيرها بأنها كل أرض ستفتح إلى يوم القيامة أو أرض مكة أو أرض الروم وفارس فلا يلائمه سياق الآيتين « و كان الله على كل شيء قديرا » .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع ذكر محمد بن كعب القرظي وغيره من أصحاب السير قالوا : كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب في جماعة من بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعواهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم عليهم حتى نستأصلهم .

فقلت لهم قريش : يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول فديننا خير أم دين محمد ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه فأنتم أولى بالحق منه فهم الذين أنزل الله فيهم « ألم تر

إلى الَّذِينَ أُوتُوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت و يقولون للَّذِينَ كَفَرُوا هؤلاء أهدى من الَّذِينَ آمَنُوا سبيلاً - إلى قوله - و كفى بجهنم سعيراً ، فسر قريشا ما قالوا و نشطوا لما دعوهم إليه فأجمعوا لذلك و اتعدوا له .

ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤا غطفان فدعواهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وآله و أخبروهم أنهم سيكونون عليه و أن قريشا قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم .

فخرجت قريش و قائدهم أبو سفيان بن حرب ، و خرجت غطفان و قائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر في فزارة والحارث بن عوف في بني مرة و مسعر بن جبلة الأشجعي فيمن تابعه من الأشجع وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد فأقبل طليحة فيمن اتبعه من بني أسد و هما حليفان أسد و غطفان وكتب قريش إلى رجال من بني سليم فأقبل أبو الأعرور السلمي فيمن اتبعه من بني سليم مدداً لقريش .

فلما علم بذلك رسول الله ﷺ ضرب الخندق على المدينة و كان الذي أشار إليه سلمان الفارسي و كان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ و هو يومئذ حر قال : يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله و المسلمون حتى أحكموه .

فمما ظهر من دلائل النبوة في حفر الخندق ما رواه أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني قال حدثني أبي عن أبيه قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب أربعين ذراعاً بين عشرة فاختلف المهاجرون و الأنصار في سلمان الفارسي و كان رجلاً قوياً فقال الأنصار : سلمان منّا وقال المهاجرون : سلمان منّا فقال رسول الله ﷺ : سلمان منّا أهل البيت .

قال عمرو بن عوف : فكنت أنا و سلمان وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرن وستة من الأنصار نقطع أربعين ذراعاً ، فحفرنا حتى إذا بلغنا الثرى أخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة فكسرت حديدنا و شقت علينا فقلنا : يا سلمان ارق إلى رسول الله ﷺ فأخبره عن الصخرة فإمّا أن نعدل عنها فإن المعدل قريب و

إِذَا أَن يَأْمُرْنَا بِهِ فَأَنَّا لَا نَحْبُ أَنْ نَجَاوِزَ خَطَّهُ فَرَقَى سَلْمَانُ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهُوَ مُضْرِبٌ عَلَيْهِ قَبْةٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ خَرَجْتَ صَخْرَةً بِيضَاءَ مِنَ الْخَنْدَقِ مَدَوْرَةً فَكَسَرْتَ حَدِيدَنَا وَشَقَّتَ عَلَيْنَا حَتَّى مَا يَحْكُ فِيهَا قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ فَمَرْنَا فِيهَا بِأَمْرِكَ فَهَيَّطَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ سَلْمَانَ فِي الْخَنْدَقِ وَأَخَذَ الْمَعُولَ وَضَرَبَ بِهَا ضَرْبَةً فَلَمَعَتْ مِنْهَا بَرْقَةٌ أَضَاءَتْ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا يَعْنِي لَابَتِي الْمَدِينَةِ حَتَّى لَكَانَ مُصْبَاحًا فِي جَوْفِ لَيْلٍ مَظْلَمٍ فَكَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَكْبِيرَةً فَتَحَ فَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ ثُمَّ ضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَلَمَعَتْ بَرْقَةٌ أُخْرَى ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ الثَّلَاثَةَ فَلَمَعَتْ بَرْقَةٌ أُخْرَى .

فَقَالَ سَلْمَانُ : يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا الَّذِي أَرَى ؟ فَقَالَ : أُمَّا الْأَوَّلَى فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْيَمْنَ وَأُمَّا الثَّانِيَةَ فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ وَالْمَغْرِبَ وَأُمَّا الثَّلَاثَةَ فَإِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الْمَشْرِقَ فَاسْتَبَشَرَ الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ وَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ مَوْعِدٌ صَادِقٌ .

قَالَ : وَطَلَعَتِ الْأَحْزَابُ فَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ : هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَقَالَ الْمُنَافِقُونَ : أَلَا نَعْبُجُونَ ؟ يَحْدُثُكُمْ وَيَعِدُكُمْ الْبَاطِلُ وَيُخْبِرُكُمْ أَنَّهُ يَبْصُرُ فِي يَثْرَبٍ قُصُورَ الْحَيْرَةِ وَمَدَائِنَ كَسْرَى وَأَنَّهَا تَفْتَحُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ تَحْفَرُونَ الْخَنْدَقَ وَلَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَبْرَزُوا^(١) .

وَمِمَّا ظَهَرَ فِيهِ أَيْضًا مِنْ آيَاتِ النُّبُوَّةِ مَا رَوَاهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ بِالإِسْنَادِ عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَيْمَنِ الْمَخْزُومِيِّ قَالَ حَدَّثَنِي أَيْمَنُ الْمَخْزُومِيُّ قَالَ : سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : كُنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفَرُ الْخَنْدَقَ فَعَرَضَتْ فِيهِ كَدِيَّةٌ وَهِيَ الْجَبَلُ فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ كَدِيَّةً عَرَضَتْ فِيهِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَشَوْا عَلَيْهَا مَاءً ثُمَّ قَامَ وَأَتَاهَا وَبَطْنَهُ مَعْصُوبٍ الْحَجَرِ^(٢) مِنَ الْجُوعِ فَأَخَذَ الْمَعُولَ أَوَّامِسْحَاةً فَسَمَّى ثَلَاثًا ثُمَّ ضَرَبَ فَعَادَتْ كَثِييًّا^(٣) أَهِيلَ فَقُلْتُ لَهُ : أِذْنُ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَى الْمَنْزِلِ فَفَعَلَ فَقُلْتُ لِلْمَرْأَةِ هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ ؟

(١) أَي تَقْضُوا حَاجَتَكُمْ بِالتَّخْلِى .

(٢) الْحَجَرُ حِضْنُ الْإِنْسَانِ وَهُوَ مَا دُونَ الْإِبْطِ إِلَى الْكَشْحِ .

(٣) أَي تَلَا مِنْ الرَّمْلِ .

فقلت : عندي صاع من شعير وعناق^(١) فطحن الشعير فمجننته وذبحت العناق وسلختها و خلّيت بين المرأة و بين ذلك .

ثم أتيت رسول الله ﷺ فجلست عنده ساعة ثم قلت : ائذن لي يا رسول الله ففعل فأتيت المرأة فإذا العجين واللحم قد أمكنا فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت : إن عندنا طعيما لنا فقم يا رسول الله أنت ورجلان من أصحابك فقال : وكم هو ؟ فقلت : صاع من شعير و عناق فقال للمسلمين جميعا : قوموا إلى جابر فقاموا فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله فقلت : جاء بالخلق إلى صاع شعير و عناق .

فدخلت على المرأة و قلت : قد افتضحت جاءك رسول الله ﷺ بالخلق أجمعين فقلت : هل كان سألك كم طعامك ؟ قلت : نعم . فقلت : الله و رسوله أعلم قد أخبرناه ما عندنا فكشفت عني غمّا شديدا .

فدخل رسول الله ﷺ فقال : خذي ودعيني من اللحم فجعل رسول الله ﷺ يشرذ و يفرق اللحم ثم يحم هذا و يحم هذا فما زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين و يعود التنوير والقدر أملاً ما كانا .

ثم قال رسول الله ﷺ : كلي و اهدي فلم نزل نأكل و نهدي قومنا أجمع وأورده البخاري في الصحيح .

قالوا : ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بين الجرف^(٢) والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم و من تابعهم من بني كنانة و أهل تهامة ، وأقبلت غطفان و من تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد ، وخرج رسول الله ﷺ و المسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع^(٣) في ثلاثة آلاف من المسلمين ف ضرب هناك عسكره والخندق بينه و بين القوم وأمر بالذاري والنساء فرفعوا في الآطام^(٤) .

(١) الاثنى من اولاد المعز .

(٢) مكان خارج المدينة .

(٣) جبل بالمدينة .

(٤) حصون لاهل المدينة .

و خرج عدو الله حيي بن أخطب النضيري حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب بني قريظة و كان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه و عاهده على ذلك فلما سمع كعب صوت ابن أخطب أغلق دونه حصنه . فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه يا كعب افتح لي فقال : ويحك يا حيي إياك رجل مشؤم ، إني قد عاهدت محمدًا و لست بناقض ما بيني و بينه ، ولم أرمه إلا و فاء و صدقا . قال : ويحك افتح لي حتى أكلمك . قال : ما أنا بفاعل . قال : إن أغلقت دوني إلا على جشيشة تكره أن آكل منها معك .

فأحفظ^(١) الرجل ففتح له فقال : ويحك يا كعب جئت بك بعز الدهر و ببحرطام^(٢) جئت بك بقريش على قادتها و ساداتها و بغطفان على ساداتها و قادتها قد عاهدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدًا و من معه . فقال كعب : جئتني والله بذل الدهر ببجهم^(٣) قد اهرق ماءه يرعد و يبرق و ليس فيه شيء فدعني و محمدًا و ما أنا عليه فلم أر من محمد إلا صدقا و وفاء .

فلم يزل حيي بكعب يقتل منه في الذروة^(٤) و الغارب حتى سمح له على أن أعطاه عهدا و ميثاقا لئن رجعت قريش و غطفان و لم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب عهده و برىء مما كان عليه فيما بينه و بين رسول الله صلى الله عليه و آله .

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ بعث سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس أحد بني عبد الأشهل و هو يومئذ سيد الأوس و سعد بن عبادة أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج و هو يومئذ سيد الخزرج و معهما عبد الله بن رواحة و خوات بن جبير فقال : انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان

(١) أحفظ الرجل أغضبه .

(٢) الطام البحر العظيم

(٣) السحاب الذي لا ماء فيه .

(٤) الذروة و الغارب أعلى الشيء و أصله مثل ماخوذ من قتل ذروة البعير المصعب

و غاربه لوضع الخطام في أنفه .

حقاً فالحنو لنا لحننا نعرفه ولا تفتسوا أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس .

و خرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبت مما بلغهم عنهم . قالوا : لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد فشاتمهم سعد بن عباد و شاتموه وقال سعد بن معاذ دع عنك مشاتمهم فإن ما بيننا وبينهم أعظم من المشاتمة .

ثم أقبلوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا : عضل والقارة - لغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ بن عدي وأصحابه أصحاب الرجيع - فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين ، وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن وظهر النفاق من بعض المنافقين .

فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون عليه بضعا وعشرين ليلة لم يكن بينهم قتال إلا الرمي بالنبال إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود أخو بني عامر بن لوي وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطّاب وهبيرة بن أبي وهب و نوفل بن عبد الله قد تلبسوا للقتال و خرجوا على خيولهم حتى مرّوا بمنازل بني كنانة فقالوا : نهيتوا للحرب يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان ؟

ثم أقبلوا تعنق^(١) بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق فقالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ثم تيمّموا مكانا ضيقا من الخندق ف ضربوا خيولهم فاقتحموا فجالت بهم في السبخة بين الخندق و سلع و خرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التي منها اقتحموا وأقبلت الفرسان نحوهم .

و كان عمرو بن عبدود فارس قريش و كان قد قاتل يوم بدر حتى ارتث وأثبتته الجراح ولم يشهد أحدا فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مشهده ، و كان يعدّ بألف فارس و كان يسمّي فارس ليليل لأنّه أقبل في ركب من قريش حتى إذا كانوا يليليل و هو واد قريب من بدر عرضت لهم بنو بكر في عدد فقال لأصحابه : امضوا فمضوا فقام في وجوه بني بكر حتى منهم أن يصلوا إليه فعرف بذلك .

(١) أعنق به فرسه ساربه سيرا واسعا فيحيا مسيطرا ممتدا .

و كان اسم الموضع الذي حفر فيه الخندق المذاد و كان أول من طفره عمرو وأصحابه فقيل في ذلك :

عمرو بن عبد كان أول فارس
جزع المذاع وكان فارس يليل
و ذكر ابن إسحاق أن عمرو بن عبدود كان ينادي من يبارز ؟ فقام علي و هو
مقنع في الحديد فقال : أنا له يا نبي الله فقال إنه عمرو واجلس . ونادى عمرو : أأرجل ؟
و هو يؤنبهم و يقول : أين جئتمكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها ؟ فقام علي
فقال : أنا له يا رسول الله . ثم نادى الثالثة فقال :

و لقد بححت عن النداء
بجمعكم هل من مبارز
و وقفت إذ جبن المشجع
موقف البطل المناجز
إن السماحة والشجاعة في
الفتى خير الغرائز
فقام علي فقال : يا رسول الله أنا له فقال : إنه عمرو فقال و إن كان عمرا فاستأذن
رسول الله فأذن له رسول الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : فمشى إليه و هو يقول :

لا تعجلن فقد أنا
ك مجيب صوتك غير عاجز
ذوينة و بصيرة
والصدق منجي كل فائز
إنني لأرجو أن أقيم
عليك ناحية الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى
ذكرها عند الهزاهز

قال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا علي . قال : ابن عبد مناف ؟ قال : أنا علي
بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . فقال غيرك يا ابن أخي من أعمامك
من هو أسن منك فأنسي أكره أن أهرق دمك . فتال علي : لكنني والله ما أكره أن
أهرق دمك فغضب و نزل و سل سيفه كأنه شعلة نار ثم أقبل نحو علي مغضبا فاستقبله
علي بدرقه^(١) فضربه عمرو بالدرقة فقد ها و أثبت فيها السيف و أصاب رأسه فشجته
و ضربه علي على حبل العاتق فسقط .

(١) الدرقة الجنة .

و في رواية حذيفة : و تسيّف عليّ رجليه بالسيف من أسفل فوقع على قفاه و نارت بينهما عجاجة فسمع عليّ يكبر فقال رسول الله ﷺ : قتله والذي نفسي بيده فكان أول من ابتدر العجاج عمر بن الخطاب و قال : يا رسول الله قتله فجزّ عليّ رأسه و أقبل نحو رسول الله ﷺ و وجهه يتهلل .

قال حذيفة : فقال النبي ﷺ : أبشريا عليّ فلو وزن اليوم عملك بعمل أمة محمد لرجح عملك بعملهم و ذلك أنّه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلّا وقد دخله و هن بقتل عمرو ، و لم يبق بيت من بيوت المسلمين إلّا وقد دخله عزّ بقتل عمرو .

و عن الحاكم أبي القاسم أيضا بالاسناد عن سفيان الثوري عن زبيد الثاني عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال : كن يقرء « و كفى الله المؤمنين القتال بعلي » .

و خرج أصحابه منهزمين حتى طفرت خيولهم الخندق و تبادر المسلمون فوجدوا نوفل بن عبد العزّي جوف الخندق فجعلوا يرمونه بالحجارة فقال لهم : قتلة أجمل من هذه ينزل بعضكم أقاتله فقتله الزبير بن العوام و ذكر ابن إسحاق : أن عليّا طعنه في ترقوته حتى أخرجهما من مرافقه فمات في الخندق .

و بعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترّون جيفته بعشرة آلاف فقال النبي ﷺ هو لكم لا تأكل ثمن الموتى ، و ذكر عليّ أبايأنا منها :

نصر الحجارة من سفاقة رأيه	و نصرت ربّ محمد بصواب
فضربته و تركته متجذّلا	كالجذع بين دكادك و رواب
و عففت عن أثوابه و لو أنني	كنت المقطر بزني أثوابي

قال ابن إسحاق : و رمى حنان بن قيس بن العرفة سعد بن معاذ بسهم و قال : خذها و أنا ابن العرفة فقطع أكله فقال سعد : عرف الله وجهك في النار اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها فإنّه لا قوم أحبّ إليّ أن أجاهد من قوم آذوا رسولك و كذبوه و أخرجوه ، و إن كنت وضعت الحرب بيننا و بينهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة .

قال : وجاء نعيم بن مسعود الأشجعيّ إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله

إني قد أسلمت ولم يعلم بي أحد من قومي فمرني بأمرك فقال لرسول الله ﷺ : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإنما الحرب خدعة .

فانطلق نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة فقال لهم إني لكم صديق والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة إن البلد ببلدكم وبه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم وإنما قريش وغطفان بلادهم غيرها وإنما جاؤا حتى نزلوا معكم فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وخلقوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به فلا تقاتلوا حتى تأخذوا رهناء من أشرافهم تستوثقون به أن لا يبرجوا حتى يناجزوا محمدًا . فقالوا له : قد أشرت برأى .

ثم ذهب فأتى أباسفيان وأشراف قريش فقال : يا معشر قريش إنكم قد عرفتم ودّي إياكم وفراقي محمدًا ودينه وإني قد جئتنكم بنصيحة فاكموا عليّ . فقالوا : نفعل ما أنت عندنا بمتهم . قال : تعلمون أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد فبعثوا إليه أنه لا يرضيك عنا إلا أن نأخذ من القوم رهنا من أشرافهم وندفعهم إليك فتضرب أعناقهم ثم تكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك . فقال : بلى فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفرا من رجالكم فلا تعطوهم رجلا واحدا واحذروا .

ثم جاء غطفان و قال : يا معشر غطفان إني رجل منكم ، ثم قال لهم ما قال لقريش .

فلما أصبح أبوسفيان و ذلك يوم السبت في شوال سنة خمس من الهجرة بعث إليهم أبوسفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش أن أباسفيان يقول لكم : يا معشر اليهود إن الكراع والخف قد هلكا وإننا لسنا بدار مقام فاخرجوا إلى محمد حتى نناجزه .

فبعثوا إليه أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهناء من رجالكم نستوثق بهم لا نذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمدًا .

فقال أبوسفيان : والله لقد حذرنا هذا نعيم فبعث إليهم أبوسفيان : إننا لا نعطيكم رجلا واحدا فإن شئتم أن تخرجوا و تقاتلوا وإن شئتم فاقعدوا ، فقالت اليهود : هذا

والله الذي قال لنا نعيم . فبعضوا إليهم إننا والله لا نقاتل حتى تعطونا رهنا ، وخذل الله بينهم وبعث سبحانه عليهم الريح في ليل شانية باردة شديدة البرد حتى انصرفوا راجعين .

قال محمد بن كعب قال حذيفة بن اليمان : والله لقد رأيتنا يوم الخندق وبنا من الجهد والجوع والخوف ما لا يعلمه إلا الله وقام رسول الله ﷺ يصلي ما شاء الله من الليل ثم قال : أأرجل يأتينا بخبر القوم يجعله الله رفيقي في الجنة . قال حذيفة : فوالله ما قام منا أحد مما بنا من الجوع والجهد والجوع ، فلمّا لم يبق أحد دعاني فلم أجد بداً من إجابته . قلت : لبيك قال : اذهب فجاء بخبر القوم ولا تحدثن شيئاً حتى ترجع .

قال : وأتيت القوم فإذا ريح الله وجنوده تفعل بهم ما تفعل ما يستمسك لهم بناء ولا تثبت لهم نار ولا يطمئن لهم قدر فأنتي كذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله ثم قال : يا معشر قريش لينظر أحدكم من جلسه ؟ قال حذيفة : فبدأت بالذي عن يميني فقلت : من أنت ؟ قال : أنا فلان .

ثم عاد أبو سفيان براحلته فقال : يا معشر قريش والله ما أنتم بدار مقام هلك الخف والحافر وأخلفتنا بنو قريظة وهذه الريح لا يستمسك لنا معها شيء ثم عجّل فركب راحلته وإنّها لمعقولة ما حلّ عقابها إلا بعد ما ركبها .

قال : قلت في نفسي : لورميت عدو الله وقتلته كنت قد صنعت شيئاً فوترت قوسي ثم وضعت السهم في كبد القوس وأنا أريد أن أرميه فأقتله فذكرت قول رسول الله ﷺ لا تحدثن شيئاً حتى ترجع . قال فحططت القوس ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي فلمّا سمع حسّي فرّج بين رجليه فدخلت تحته ، وأرسل علي طائفة من ^(١) مرطه فركع وسجد ثم قال : ما الخبر ؟ فأخبرته .

وعن سليمان بن صرد قال : قال رسول الله ﷺ حين أجلى عنه الأحزاب : الان فغروهم ولا يغزونا فكان كما قال ، فلم يغزهم قريش بعد ذلك وكان هو يغزوهم حتى

(١) كساء من صوف ونحوه يؤتزر به .

فتح الله عليهم مكة .

أقول : هذا ما أورده الطبرسي في مجمع البيان من القصة أوردها ملخصاً وروى القمي في تفسيره قريباً منه وأورده في الدر المنثور في روايات متفرقة .

وفي المجمع أيضاً روى الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : لما انصرف النبي ﷺ عن الخندق ووضع عنه اللأمة واغتسل واستحم تبدى له جبرائيل فقال : عذيرك من محارب ألا أراك أن قد وضعت عنك اللأمة وما وضعناها بعد .

فوثب رسول الله ﷺ فزعا فعزم على الناس أن لا يصلوا صلاة العصر حتى يأتوا قريظة فلبس الناس السلاح فلم يأتوا بني قريظة حتى غربت الشمس واختصم الناس فقال بعضهم : إن رسول الله عزم علينا أن لا نصلي حتى نأتي قريظة فإمّا نحن في عزمة رسول الله ﷺ فليس علينا إثم ، وصلى طائفة من الناس احتساباً وترك طائفة منهم الصلاة حتى غربت الشمس فصلّوها حين جاؤا بني قريظة احتساباً فلم يعنف رسول الله ﷺ واحداً من الفريقين .

وذكر عروة أنه بعث علي بن أبي طالب على المقدم ودفع إليه اللواء وأمره أن ينطلق حتى يقف بهم على حصن بني قريظة ففعل وخرج رسول الله ﷺ على آثارهم فمر على مجلس من الأنصار في بني غنم ينتظرون رسول الله ﷺ فزعموا أنه قال : مر بكم الفارس آتفا فقالوا : مر بنا دحية الكلبي على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج فقال رسول الله ﷺ : ليس ذلك بدحية ولكنه جبرائيل أرسل إلى بني قريظة لينزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب .

قالوا : وسار علي حتى إذا دنا من الحصن سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق فقال : يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث . قال : أظنك سمعت لي منهم أذى ؟ فقال : نعم يا رسول الله فقال : لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً ، فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال : يا إخوة القردة والخنازير ! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته ؟ فقالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولاً .

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وكان حيي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت قريش وغطفان فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد : يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ماترون وإني عارض عليكم خلافاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم . قالوا : ماهن ؟

قال : نبايع هذا الرجل ونصدق فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دماءكم وأموالكم ونساءكم . قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره .

قال : فإذا أبيت على هذا فاهلكوا فلفقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد رجالاتنا بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلاً يهملنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً يهملنا وإن ظهر لنجدن النساء والأبناء . فقالوا : نقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير في العيش بعدهم .

قال : فإن أبيت على هذه فإن الليلة ليلة السبت وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمّنوا فيها فانزلوا فعلنا نصيب منهم غرّة . فقالوا : نفسد سبتنا ؟ ونحدث فيها ما أحدث من كان قبلنا فأصابهم ما قد علمت من المسخ ؟ فقال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً .

قال الزهري : وقال رسول الله ﷺ حين سأله أن يحكم فيهم رجلاً : اختاروا من شئتم من أصحابي ، فاختاروا سعد بن معاذ فرضي بذلك رسول الله ﷺ فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فأمر رسول الله ﷺ بسلاحهم فجعل في قبته وأمر بهم فكتفوا وأوثقوا وجعلوا في دار أسامة وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فجاء به فحكم فيهم بأن يقتل مقاتلوهم ونسبى ذراريهم ونساءهم وتغنم أموالهم وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار وقال للأنصار : إنكم ذوعقار وليس للمهاجرين عقار ، فكبر رسول الله ﷺ وقال لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل وفي بعض الروايات : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة - وأرقعة جمع رقيع اسم سماء الدنيا .

فقتل رسول الله ﷺ مقاتليهم ، وكانوا فيما زعموا ستمائة مقاتل وقيل : قتل منهم أربعمائة وخمسين رجلا وسبى سبعمائة وخمسين ، وروي أنهم قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ ارسلنا : يا كعب ما ترى يصنع بنا ؟ فقال كعب : أفي كل موطن تقولون ؟ ألا ترون أن الداعي لا ينزع ومن يذهب منكم لا يرجع هو والله القتل .

وأني بحبي بن أخطب عدو الله عليه حلة فاخيتة قدشقها عليه من كل ناحية كموضع الأذنان لثلاث يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بجبل ، فلما بصر برسول الله ﷺ فقال : أما والله ما ملئت نفسي على عداوتك ولكنك من يخذل الله يخذل ثم قال : يا أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب الله وقدره ملحمة كتبت على بني إسرائيل ثم جلس ف ضرب عنقه .

ثم قسم رسول الله ﷺ نساءهم وأبناءهم وأموالهم على المسلمين وبعث بسبايا منهم إلى نجد مع سعد بن زيد الأنصاري فابتاع بهم خيلا وسلاحا قالوا : فلما انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فرجعه رسول الله ﷺ إلى خيمته التي ضربت عليه في المسجد .

وروي عن جابر بن عبد الله قال : جاء جبرائيل إلى رسول الله ﷺ فقال : من هذا العبد الصالح الذي مات فتحت له أبواب السماء وتحرك له العرش فخرج رسول الله ﷺ فاذا سعد بن معاذ قد قبض .

أقول : وروى القصة القمي في تفسيره مفصلة وفيه : فأخرج كعب بن أسيد مجموعة يداه إلى عنقه فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال له : يا كعب أما نفعت وصية ابن الحواس الحبر الذكي الذي قدم عليكم من الشام فقال : تركت الخمر والخمير وجئت إلى البؤس والتمور لنبي يبعث مخرجه بمكة ومهاجرته في هذه البحيرة يجتزي بالكسيرات والتميرات ، ويركب الحمار العربي ، في عينيه حمرة ، وبين كتفيه خاتم النبوة يضع سيفه على عاتقه ، لا يبالي من لاقى منكم ، يبلغ سلطانه منقطع الخف والحافر فقال قد كان ذلك يا عجل ولولا أن اليهود يعيرونني أنني جزعت عند القتل لآمنت

بك وصدقتك ولكنني على دين اليهود عليه أحيا وعليه أموت . فقال رسول الله ﷺ :
قدّموه واضربوا عنقه فضربت .

وفيه أيضا فقتلهم رسول الله ﷺ في البردين بالغداة والعشي في ثلاثة أيام
وكان يقول : اسقوهم العذب وأطعموهم الطيب وأحسنوا أسرارهم حتى قتلهم كلهم
فأنزل الله عز وجل فيهم : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبيهم -
إلى قوله - وكان الله على كل شيء قديرا » .

وفي المجمع : روى أبو القاسم الحسكاني عن عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن
علي بن أبي طالب قال : فينا نزلت « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فأنا والله المنتظر
ما بدلت تبديلا .





يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)
يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ
ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَاعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)
يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ
وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ
وَاطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِمَاتِ
وَالْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْقَانِتِينَ وَ الْقَانِتَاتِ وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقَاتِ
وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِرَاتِ وَ الْخَاشِعِينَ وَ الْخَاشِعَاتِ وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقَاتِ
وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِمَاتِ وَ الْحَافِظِينَ قُرُوجَهُنَّ وَ الْحَافِظَاتِ وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ
كَثِيرًا وَ الذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُنَّ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)

﴿ بيان ﴾

آيات راجعة إلى أزواج النبي ﷺ تأمره أو لا أن ينبتهن أن ليس لهن من الدنيا وزينتها إلا العفاف والكفاف إن اخترن زوجية النبي ﷺ ثم تخاطبهن ثانياً أنهن واقفات في موقف صعب على ما فيه من العلو والشرف فإن اتقين الله يؤتين أجرهن مرتين وإن أتبن بفاحشة مبينة يضاعف لهن العذاب ضعفين ويأمرهن بالعفة ولزوم بيوتهن من غير تبرج والصلاة والزكاة وذكر ما يتلى في بيوتهن من الآيات والحكمة ثم يعد مطلق الصالحين من الرجال والنساء وعداً بالمغفرة والأجر العظيم .

قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك ، إلى تمام الآيتين سياق الآيتين يلوح أن أزواج النبي أو بعضهن كانت لا ترضي ما في عيشتهن في بيت النبي ﷺ من الضيق والضنك فاشتكت إليه ذلك واقترحت عليه أن يسعدهن في الحياة بالتوسعة فيها وإيتائهن من زينتها .

فأمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يخيرهن بين أن يفارقنه ولهن ما يردن وبين أن يبقين عنده ولهن ما هن عليه من الوضع الموجود .

وقد رد أمرهن بين أن يردن الحياة الدنيا وزينتها وبين أن يردن الله ورسوله والدار الآخرة ، وهذا الترديد يدل أو لا أن الجمع بين سعة العيش وصفائها بالتمتع من الحياة وزينتها وزوجية النبي ﷺ والعيشة في بيته مما لا يجتمعان .

وثانياً أن كلاً من طرفي الترديد مقيّد بما يقابل الآخر والمراد بإرادة الحياة الدنيا وزينتها جعلها هي الأصل سواء أريدت الآخرة أولم يرد ، والمراد بإرادة الحياة الآخرة جعلها هي الأصل في تعلق القلب بها سواء توسّعت معها الحياة الدنيا ونيلت الزينة وصفاء العيش أو لم يكن شيء من ذلك .

ثم الجزء أعني نتيجة اختيارهن كلاً من طرفي الترديد مختلف فلهن على تقدير اختيارهن الحياة الدنيا وزينتها بمفارقة النبي ﷺ أن يطلّقهن ويمتعهن

جمعاء من مال الدنيا ، و على تقدير بقائهن على زوجة النبي ﷺ و اختيار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها الأجر العظيم عند الله لكن لا مطلقاً بشرط الإحسان والعمل الصالح .

و يتبين بذلك أن ليس لزوجة النبي ﷺ من حيث هي زوجة كرامة عند الله سبحانه و إنما الكرامة لزواجه المقارنة للإحسان والتقوى و لذلك لما ذكرنا يا علو منزلتهن قيده أيضاً بالتقوى فقال : « لستن كأحد من النساء إن اتقين » و هذا كقوله في النبي وأصحابه : « محمد رسول الله و الذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً - إلى أن قال - وعد الله الذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات أجراً عظيماً ، حيث مدحهم عامة بظواهر أعمالهم أو لأنهم قيد وعدهم الأجر العظيم بالإيمان والعمل الصالح .

و بالجملة فإطلاق قوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » الحجرات ١٠ على حاله غير منتقض بكمالة أخرى بسبب أو نسب أو غير ذلك .

فقوله : « يا أيها النبي قل لأزواجك » أمر النبي ﷺ أن يبلغ الآيتين أزواجه و لازمه أن يطلقهن ويمتنعن إن اخترن الشق الأول ويبقين على زوجته إن اخترن الله و رسوله و الدار الآخرة .

و قوله : « إن كنتن » تردن الحياة الدنيا وزينتها ، إرادة الحياة الدنيا وزينتها كناية بقرينة المقابلة عن اختيارها و تعلق القلب بتمتعاتها و الإقبال عليها والإعراض عن الآخرة .

و قوله : « فتعالين أمتعن » و أستر حكن سراحاً جميلاً ، قال في الكشف : أصل تعال أن يقوله من في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطاً ثم كثرت حتى استوت في استعماله الأمكنة ، و معنى تعالين أقبلن بإرادتك و اختيار كن لأحد أمرين و لم يرد نهوضهن بأنفسهن كما تقول : أقبل يخاصمني و ذهب يكلمني و قام يهدني انتهى .

و التمتع إعطاؤهن عند التطليق ما لا يتمتن به والتسريح هو التطليق والسراح

الجميل هو الطلاق من غير خصومة و مشاجرة بين الزوجين .

و في الآية أبحاث فقهية أوردها المفسرون والحق أن ما تتضمنه من الأحكام الشخصية خاصة بالنبي ﷺ ولا دليل من جهة لفظها على شموله لغيره و تفصيل القول في الفقه .

و قوله : « و إن كنتن تردن الله ورسوله و الدار الآخرة » قد تقدم أن المقابلة بن هذه الجملة و بين قوله « إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها » النخ تقيّد كلاّ منهما بخلاف الأخرى و عدمها فمعنى الجملة و إن كنتن تردن و تخترن طاعة الله و رسوله و سعادة الدار الآخرة مع الصبر على ضيق العيش و الحرمان من زينة الحياة الدنيا وهي مع ذلك كناية عن البقاء في زوجية النبي ﷺ والصبر على ضيق العيش و إلا لم يصح اشتراط الإحسان في الأجر الموعود و هو ظاهر .

فالمعنى و إن كنتن تردن و تخترن البقاء على زوجية النبي ﷺ والصبر على ضيق العيش فإن الله هيباً لكنّ أجر عظيم بشرط أن تكن محسنات في أعمالكنّ مضافاً إلى إرادتكنّ الله ورسوله و الدار الآخرة فإن لم تكن محسنات لم يكن لكنّ إلا خسران الدنيا والآخرة جميعاً .

قوله تعالى : « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين » النخ عدل عن مخاطبة النبي ﷺ فيهنّ إلى مخاطبتهنّ أنفسهنّ لتسجيل مالهنّ من التكليف و زيادة التوكيد ، والآية والتي بعدها تقرير و توضيح بنحو لما يستفاد من قوله : « فإن الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً » إثباتاً و نفياً .

فقوله : « من يأت منكنّ بفاحشة مبينة » الفاحشة الفعل البالغة في الشناعة و القبح و هي الكبيرة كإبذاء النبي ﷺ والافتراء والغيبة و غير ذلك والمبينة هي الظاهرة .

و قوله : « يضاعف لها العذاب ضعفين » أي حالكونه ضعفين والضعفان المثلان و يؤيد هذا المعنى قوله في جانب الثواب بعد : « نؤتها أجراً مرتين » فلا يعبأ بما قيل إن المراد بمضاعفة العذاب ضعفين تعذيبهم بثلاثة أمثاله بتقريب أن مضاعفة العذاب

زيادته وإذا زيد على العذاب ضعفه صار المجموع ثلاثة أمثاله .

وختم الآية بقوله : « و كان ذلك على الله يسيراً » للإشارة إلى أنه لا مانع من ذلك من كرامة الزوجية ونحوها إذ لا كرامة إلا للتقوى وزوجية النبي ﷺ إنما تؤثر الأثر الجميل إذا قارن التقوى وأما مع المعصية فلا تزيد إلا بعداً ووبالاً .
قوله تعالى : « ومن يقنت منكن لله ورسوله ويعمل صالحاً نؤتيها أجرها مرتين » الخ القنوت الخضوع وقيل : الطاعة وقيل : لزوم الطاعة مع الخضوع ، والاعتدال
التهيئة ، و الرزق الكريم مصداقه الجنة .

و المعنى ومن يخضع منكن لله ورسوله أو لزم طاعة الله ورسوله مع الخضوع ويعمل عملاً صالحاً نعطيها أجرها مرتين أي ضعفين وهياً لها رزقاً كريماً وهي الجنة .
و الالتفات من الغيبة إلى التكلم بالغير في قوله : « نؤتيها » و « أعتدنا » للإيدان
بالقرب والكرامة ، خلاف البعد والخزي المفهوم من قوله : « يضاعف لها العذاب ضعفين » .

قوله تعالى : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض » الخ الآية تنفي مساواتهن لسائر النساء إن اتقين
و ترفع منزلتهن على غيرهن ثم تذكر أشياء من النهي والأمر متفرعة على كونهن
لسن كسائر النساء كما يدل عليه قوله : فلا تخضعن بالقول و قرن ولا تبرجن الخ
وهي خصال مشتركة بين نساء النبي ﷺ و سائر النساء .

فتصدير الكلام بقوله : « لستن كأحد من النساء إن اتقيتن » ثم تفرع هذه
التكاليف المشتركة عليه ، يفيد تأكد هذه التكاليف عليهن كأنه قيل : لستن كغيركن
فيجب عليكن أن تبالغن في امتثال هذه التكاليف و تحتطن في دين الله أكثر من سائر
النساء .

و تؤيد بل تدل على تأكد تكليفهن مضاعفة جزائهن خيراً و شراً كما دللت
عليها الآية السابقة فإن مضاعفة الجزاء لا تنفك عن تأكد التكليف .

و قوله : « فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض » بعدما بين علو

منزلتهنّ و رفعة قدرهنّ لمكانهنّ من النبي ﷺ و شرط في ذلك التقوى فيسنّ أن فضيلتهنّ بالتقوى لا بالاتصال بالنبي ﷺ نهاهنّ عن الخضوع في القول و هو ترفيق الكلام و تليينه مع الرجال بحيث يدعو إلى الريبة و تثير الشهوة فيقطع الذي في قلبه مرض و هو فقدانه قوة الإيمان التي تردعه عن الميل إلى الفحشاء .

و قوله : « و قلن قولا معروفا » أي كلاما معمولاً مستقيماً يعرفه الشرع والعرف الإسلاميّ و هو القول الذي لا يشير بلحنه إلى أزيد من مدلوله معرّى عن الإيماء إلى فساد و ريبة .

قوله تعالى : « و قرن في بيوتكنّ ولا تبرّجن تبرّج الجاهليّة الأولى . إلى قوله . و أطعن الله و رسوله » « قرن » من قرّ يقرّ إذا ثبت وأصله اقررن حذفت إحدى الراءين أو من قاريقار إذا اجتمع كناية عن ثباتهنّ في بيوتهنّ و لزومهنّ لها ، و التبرّج الظهور للناس كظهور البروج لناظريها . والجاهليّة الأولى الجاهليّة قبل البعثة فالمراد الجاهليّة القديمة ، و قول بعضهم : إنّ المراد به زمان ما بين آدم و نوح عليه السلام ثمان مائة سنة ، و قول آخريّن إنّها ما بين إدريس و نوح ، و قول آخريّن زمان داود و سليمان و قول آخريّن أنّه زمان ولادة إبراهيم ، و قول آخريّن أنّه زمان الفترة بين عيسى عليه السلام و محمد ﷺ أقوال لا دليل يدلّ عليها .

و قوله : « و أقمن الصلاة و آتين الزكاة و أطعن الله و رسوله » أمر باحتثال الأمر الدينيّة وقد أفرد الصلاة و الزكاة بالذكر من بينها لكونهما ركنين في العبادات و المعاملات ثمّ جمع الجميع في قوله : « و أطعن الله و رسوله » .

و طاعة الله هي امتثال تكليفه الشرعيّة و طاعة رسوله فيما يأمر به وينهى بالولاية المجمولة له من عند الله كما قال : « النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

قوله تعالى : « إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيراً » كلمة « إنّما » تدلّ على حصر الإرادة في إذهاب الرجس و التطهير و كلمة أهل البيت سواء كان لمجرد الاختصاص أو مدحاً أو نداء يدلّ على اختصاص إذهاب الرجس و التطهير بالمخاطبين بقوله : « عنكم » ففي الآية في الحقيقة قصران قصر الإرادة

في إذهاب الرجس والتطهير و قصر إذهاب الرجس والتطهير في أهل البيت .
 و ليس المراد بأهل البيت نساء النبي خاصة لمكان الخطاب الذي في قوله :
 « عنكم » و لم يقل : عنكن فإما أن يكون الخطاب لهن و لغيرهن كما قيل إن
 المراد بأهل البيت أهل البيت الحرام و هم المتقون لقوله تعالى : « إن أوليائهم إلا
 المتقون ، أو أهل مسجد رسول الله ﷺ أو أهل بيت النبي ﷺ و هم الذين يصدق
 عليهم عرفاً أهل بيته من أزواجه و أقربائه و هم آل عباس و آل عقيل و آل جعفر و آل
 علي أو النبي ﷺ و أزواجه ، ولعل هذا هو المراد مما نسب إلى عكرمة و عروة
 أنها في أزواج النبي ﷺ خاصة .

أو يكون الخطاب لغيرهن كما قيل : إنهم أقرباء النبي من آل عباس و آل
 عقيل و آل جعفر و آل علي .

و على أي حال فالمراد بإذهاب الرجس و التطهير مجرد التقوى الديني
 بالاجتناب عن النواهي و امتثال الأوامر فيكون المعنى أن الله لا ينتفع بتوجيه هذه
 التكليف إليكم و إنما يريد إذهاب الرجس عنكم و تطهيركم على حد قوله : « ما يريد
 الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم و يتم نعمته عليكم ، المائدة : ٦
 وهذا المعنى لا يلائم شيئاً من معاني أهل البيت السابقة لمنافاته البيئنة للاختصاص المفهوم
 من أهل البيت لعمومه لعامة المسلمين المكلفين بأحكام الدين .

وإن كان المراد بإذهاب الرجس و التطهير التقوى الشديد البالغ و يكون المعنى
 أن هذا التشديد في التكليف المتوجّهة إليكن أزواج النبي و تضعيف الثواب والعقاب
 ليس لينتفع الله سبحانه به بل ليذهب عنكم الرجس و يطهركم و يكون من تعميم الخطاب
 لهن و لغيرهن بعد تخصيصه بهن فهذا المعنى لا يلائم كون الخطاب خاصاً بغيرهن وهو
 ظاهر و لأعموم الخطاب لهن و لغيرهن فإن الغير لا يشار كهن في تشديد التكليف و
 تضعيف الثواب و العقاب .

لا يقال : لم لا يجوز أن يكون الخطاب على هذا التقدير متوجّهاً إليهن مع
 النبي ﷺ و تكليفه شديد كتكليفهن .

لأنه يقال : إنه ﷺ مؤيد بعصمة من الله وهي موهبة إلهية غير مكتسبة بالعمل فلامعنى لجعل تشديد التكليف و تضعيف الجزاء بالنسبة إليه مقدمة أوسيا لحصول التقوى الشديد له امتنانا عليه على ما يعطيه سياق الآية ولذلك لم يصرح بكون الخطاب متوجهاً إليهن مع النبي ﷺ فقط أحد من المفسرين وإنما احتملناه لتصحیح قول من قال : إن الآية خاصة بأزواج النبي ﷺ .

وإن كان المراد إذهاب الرجس والتطهير بإرادته تعالى ذلك مطلقاً لا بتوجيه مطلق التكليف ولا بتوجيه التكليف الشديد بل بإرادة مطلقة لإذهاب الرجس والتطهير لأهل البيت خاصة بما هم أهل البيت كان هذا المعنى منافياً لتقييد كرامتهن بالتقوى سواء كان المراد بالإرادة الإرادة التشريعية أو التكوينية .

وبهذا الذي تقدم يتأيد ماورد في أسباب النزول أن الآية نزلت في النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسين ﷺ خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم .

وهي روايات جمعة تزيد على سبعين حديثاً يربو ماورد منها من طرق أهل السنة على ماورد منها من طرق الشيعة فقد روتها أهل السنة بطرق كثيرة عن أم سلمة وعائشة وأبي سعيد الخدري وسعد ووائل بن الأسقع وأبي الحمراء وابن عباس و ثوبان مولى النبي و عبدالله بن جعفر و علي و الحسن بن علي ؑ في قريب من أربعين طريقاً .

وروتها الشيعة عن علي والسجاد والباقر والصادق والرضا ؑ وأم سلمة و أبي ذر وأبي ليلى وأبي الأسود الدؤلي وعمرو بن ميمون الأودي وسعد بن أبي وقاص في بضع وثلاثين طريقاً .

فإن قيل : إن الروايات إنما تدل على شمول الآية لعلي وفاطمة والحسين ؑ ولا ينافي ذلك شمولها لأزواج النبي ﷺ كما يفيد وقوع الآية في سياق خطابهن . قلنا : إن كثيراً من هذه الروايات وخاصة ما رويت عن أم سلمة - وفي بيتها نزلت الآية - تصرح باختصاصها بهم وعدم شمولها لأزواج النبي ﷺ وسيجيء الروايات وفيها الصحاح .

فإن قيل : هذا مدفوع بنص الكتاب على شمولها لهن كوقوع الآية في سياق خطابهن .

قلنا : إنما الشأن كل الشأن في اتصال الآية بما قبلها من الآيات فهذه الأحاديث على كثرتها البالغة ناصّة في نزول الآية وحدها ، ولم يرد حتى في رواية واحدة نزول هذه الآية في ضمن آيات نساء النبي ولا ذكره أحد حتى القائل باختصاص الآية بأزواج النبي كما ينسب إلى عكرمة وعروة فالآية لم تكن بحسب النزول جزء من آيات نساء النبي ولا متصلة بها وإنما وضعت بينها إمّا بأمر من النبي ﷺ أو عند التأليف بعد الرحلة ، ويؤيده أن آية « وقرن في بيوتكن » على انسجامها و اتصالها لو قدر ارتفاع آية التطهير من بين جملها ، فموقع آية التطهير من آية « وقرن في بيوتكن » كموقع آية « اليوم يشئ الذين كفروا » من آية « محرمات الأكل من سورة المائدة وقد تقدّم الكلام في ذلك في الجزء الخامس من الكتاب .

وبالبناء على ما تقدّم تصير لفظة أهل البيت اسماً خاصاً - في عرف القرآن - بهؤلاء الخمسة وهم النبي وعلي وفاطمة والحسنان عليهم الصلاة والسلام لا يطلق على غيرهم ، ولو كان من أقربائه الأقربين وإن صح بحسب العرف العام إطلاقه عليهم . والرجس بالكسر فالسكون صفة من الرجاسة وهي القذارة والقذارة هيئة في النفس توجب التجنب والتنفر منها ، وتكون بحسب ظاهر الشيء كرجاسة الخنزير قال تعالى : « أولحم خنزير فإنه رجس » الأنعام : ١٤٥ وبحسب باطنه - وهو الرجاسة والقذارة المعنوية - كالشرك والكفرواثر العمل السيئ قال تعالى : « وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » التوبة : ١٢٥ وقال : « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » الأنعام : ١٢٥ .

وأياً ما كان فهو إدراك نفساني وأثر شعوري من تعلّق القلب بالاعتقاد الباطل أو العمل السيئ وإذهاب الرجس - واللام فيه للجنس - إزالة كل هيئة خبيثة في النفس تخطئ حق الاعتقاد والعمل فتطبق على العصمة الإلهية التي هي صورة

علمية نفسانية تحفظ الإنسان من باطل الاعتقاد وسيء العمل .
على أنك عرفت أن "إرادة التقوى أو التشديد في التكليف لانتلائم اختصاص الخطاب في الآية بأهل البيت ، وعرفت أيضا أن "إرادة ذلك لانتاسب مقام النبي ﷺ من العصمة .

فمن المتعنين حمل إذهاب الرجس في الآية على العصمة ويكون المراد بالتطهير في قوله : « ويطهرهم تطهيرا » .. وقد أكد بالمصدر -إزالة أثر الرجس بإيراد ما يقابله بعد إذهاب أصله ومن المعلوم أن ما يقابل الاعتقاد الباطل هو الاعتقاد الحق فتطهيرهم هو تجهيزهم بإدراك الحق في الاعتقاد والعمل ، ويكون المراد بالإرادة أيضا غير الإرادة التشريعية لما عرفت أن الإرادة التشريعية التي هي توجيه التكليف إلى المكلف لانتلائم المقام أصلا .

والمعنى أن الله سبحانه مستمر إرادته أن يخصكم بموهبة العصمة بإذهاب الاعتقاد الباطل وأثر العمل السيئ عنكم أهل البيت وإيراد ما يزيل أثر ذلك عليكم وهي العصمة .

قوله تعالى : « واذكروا ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا » ظاهر السياق أن المراد بالذكر ما يقابل النسيان إذهاب المناسب لسياق التأكيد والتشديد الذي في الآيات فيكون بمنزلة الوصية بعد الوصية بامتثال ما وجه إليهن من التكليف ، وفي قوله : « في بيوتكن » تأكيد آخر .

والمعنى واحفظن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة وليكن منكن في بال حتى لا تغفلن ولا تخطئين مما خط لكم من المسير .

و أما قول بعضهم : إن المراد واشكروا الله إذ صيركن في بيوت يتلى فيهن القرآن والسنة فبعيد من السياق وخاصة بالنظر إلى قوله في ذيل الآية : « إن الله كان لطيفا خبيرا » .

قوله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » الخ الإسلام لا يفرق بين الرجال والنساء في التلبس بكرامة الدين وقد أشار سبحانه إلى ذلك

إجمالاً في مثل قوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، الحجرات : ١٣ ، ثم صرّح به في مثل قوله : « أَتَنِي لَا أُضِيعَ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى » آل عمران : ١٩٥ ، ثم صرّح به تفصيلاً في هذه الآية .

فقوله : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » المقابلة بين الإسلام والإيمان تفيد مغايرتهما نوعاً من المغايرة والذي يستفاد منه نحو مغايرتهما قوله تعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ - إِلَى أَنْ قَالَ - إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » الحجرات : ١٥ يفيد أولاً أن الإسلام هو تسليم الدين بحسب العمل وظاهر الجوارح والإيمان أمر قلبي . وثانياً أن الإيمان الذي هو أمر قلبي اعتقاد وإذعان باطني بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح .

فالإسلام هو التسليم العملي للدين بإتيان عامة التكليف والمسلمون والمسلمات هم المسلمون لذلك والإيمان هو عقد القلب على الدين ، بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح والمؤمنون والمؤمنات هم الذين عقدوا قلوبهم على الدين بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح فكل مؤمن مسلم ولا عكس .

وقوله : « وَالْقَاتِنِينَ وَالْقَاتِنَاتِ » القنوت على ما قيل لزوم الطاعة مع الخضوع وقوله : « وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ » الصدق مطابقة ما يخبر به الإنسان أو يظهره ، للواقع . فهم صادقون في دعواهم صادقون في قولهم صادقون في وعدهم .

وقوله : « وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ » فهم متلبسون بالصبر عند المصيبة والنائبة وبالصبر على الطاعة وبالصبر عن المعصية ، وقوله : « وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ » الخشوع تذلل باطني بالقلب كما أن الخشوع تذلل ظاهري بالجوارح .

وقوله : « وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ » والصدقة إنفاق المال في سبيل الله ومنه الزكاة الواجبة ، وقوله : « وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ » بالصوم الواجب والمندوب ، وقوله : « وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ » أي لفروجهن وذلك بالتجنب عن غير ما أحل الله

لهم ، وقوله : « والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » أي الله كثيرا حذف لظهوره وهم الذين يكثرون من ذكر الله بلسانهم وجنانهم ويشمل الصلاة والحج .
 وقوله : « أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » التذكير للتعظيم .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك » كان سبب نزولها أنه لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة خيبر وأصاب كنز آل أبي الحقيق قلن أزواجه أعطينا ما أصبت فقال لهن رسول الله ﷺ قسمته بين المسلمين على ما أمر الله عز وجل فغضبن من ذلك ، وقلن : لعلك ترى أنك إن طلقتنا أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوجونا ؟

فأنف الله عز وجل لرسوله فأمره أن يعزلهن فاعتزلهن رسول الله ﷺ في مشربة أم إبراهيم تسعة وعشرين يوما حتى حضن وطهرن ثم أنزل الله عز وجل هذه الآية وهي آية التخيير فقال : « يا أيها النبي قل لأزواجك - إلى قوله - أجرا عظيما » فقامت أم سلمة أول من قامت فقالت : قد اخترت الله ورسوله فقمين كلهن فعانقنه وقلن مثل ذلك الحديث .

اقول : وروي ما يقرب من ذلك من طرق أهل السنة وفيها أن أول من اختارت الله ورسوله منهن عائشة .

وفي الكافي بإسناده عن داود بن سرحان عن أبي عبد الله عليه السلام أن زينب بنت جحش قالت : يرى رسول الله ﷺ إن خلّى سبيلنا أن لا نجد زوجا غيره وقد كان اعتزل نساء تسعة وعشرين ليلة فلما قالت زينب الذي قالت بعث الله جبرئيل إلى محمد صلى الله عليه وآله فقال : « قل لأزواجك » الآيتين كليهما فقلن : بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة .

وفيه بإسناده عن عيص بن القاسم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن رجل خيّر امرأته فاختارت نفسها بانت ؟ قال : لا . إنما هذا شيء كان لرسول الله صلى الله عليه وآله خاصة أمر بذلك ففعل ، و لو اخترن أنفسهن لطلّقهن وهو قول الله عز وجل : « قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسر حكن سراحا جميلا » .

وفي المجمع روى الواحدي بالإسناد عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله جالسا مع حفصة فتشاجرا بينهما فقال لها : هل لك أن أجعل بيني وبينك رجلا ؟ قالت : نعم .

فأرسل إلى عمر فلما أن دخل عليهما قال لها : تكلمي ، فقالت : يا رسول الله تكلم ولا تقل إلّا حقاً فرفع عمر يده فوجأ وجهها ثم رفع يده فوجأ وجهها .

فقال له النبي صلى الله عليه وآله : كف فقال عمر : يا عدوة الله النبي لا يقول إلّا حقاً والذي بعثه بالحق لولا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتني فقام النبي صلى الله عليه وآله فصعد إلى غرفة فمكث فيها شهرا لا يقرب شيئا من نسائه يتغدى ويتعشى فيها فأنزل الله تعالى هذه الآيات .

وفي النخال عن الصادق عليه السلام قال : تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله بخمس عشرة امرأة ودخل بثلاث عشر امرأة منهن ، وقبض عن تسع فأما اللتان لم يدخل بهما فعمرة وسنا . وأما الثلاث عشرة اللاتي دخل بهن فأولهن خديجة بنت خويلد ثم سودة بنت زمعة ثم أم سلمة واسمها هند بنت أبي أمية ثم أم عبد الله عائشة بنت أبي بكر ثم حفصة بنت عمر ثم زينب بنت خزيمة بن الحارث ثم المساكين ، ثم زينب بنت جحش ثم أم حبيب رملة بنت أبي سفيان ثم ميمونة بنت الحارث ثم زينب بنت عميس ثم جويرية بنت الحارث ثم صفية بنت حيي بن أخطب والتي وهبت نفسها للنبي خولة بنت حكيم السلمى .

وكان له سريتان يقسم لهما مع أزواجه مارية القبطية وربحانة الخندفية .

و التسع اللاتي قبض عنهن عائشة و حفصة و أم سلمة و زينب بنت جحش و ميمونة بنت الحارث و أم حبيب بنت أبي سفيان و جويرية و سودة و صفية . و أفضلهن خديجة بنت خويلد ثم أم سلمة ثم ميمونة .

و في المجمع في قوله : « يا نساء النبي من يأت منكن » الآيتين روى محمد بن أبي عمير عن إبراهيم بن عبد الحميد عن علي بن عبد الله بن الحسين عن أبيه عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال رجل : إنكم أهل بيت مغفور لكم . قال : فغضب و قال : نحن أخرى أن يجري فينا ما أجرى الله في أزواج النبي من أن تكون كما نقول إننا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر و لمسيئنا ضعفين من العذاب .

و في تفسير القمي مسنداً عن أبي عبد الله عن أبيه عليه السلام في هذه الآية « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » قال : أي ستكون جاهلية أخرى .

أقول : و هو استفادة لطيفة .

و في الدر المنثور أخرج الطبراني عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة : اثبني بزوجه و ابنيه فجاءت بهم فألقى رسول الله ﷺ عليهم كساء فديكاً ثم وضع يده عليهم ثم قال : اللهم إن هؤلاء أهل محمد - وفي لفظ آل محمد - فاجعل صلواتك و بركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

قالت أم سلمة : فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي و قال : إنك على خير .

أقول : و رواه في غاية المرام عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه بإسناده عن أم سلمة .

و فيه أخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت : نزلت هذه الآية في بيتي « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيراً » و في البيت سبعة جبريل و ميكائيل و علي و فاطمة و الحسن و الحسين و أنا على باب البيت . قلت : يا رسول الله أأنت من أهل البيت ؟ قال : إنك على خير إنك من أزواج النبي .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة زوج النبي أن رسول الله ﷺ كان بيئتها على منامة له عليه كساء خيبري فجاءت فاطمة بيئمة فيها خزيرة فقال رسول الله ﷺ : ادعي زوجك وابنيك حسنا وحسنا فدعتهم فبينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله ﷺ « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

فأخذ النبي ﷺ بفضلة إزاره فغشاهم إياها ثم أخرج يده من الكساء وأومأ بها إلى السماء ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، قالها ثلاث مرات .

قالت أم سلمة : فأدخلت رأسي في السترفقلت : يا رسول الله وأنا معكم ؟ فقال : إنك إلى خير مرتين .

أقول : و روى الحديث في غاية المرام عن عبد الله بن أحمد بن حنبل بثلاث طرق عن أم سلمة وكذا عن تفسير الثعلبي .

وفيه أخرج ابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال : كان يوم أم سلمة أم المؤمنين فنزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بهذه الآية « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » قال : فدعا رسول الله ﷺ بحسن وحسين وفاطمة وعلي فضمهم إليه ونشر عليهم الثوب ، والحجاب على أم سلمة مضروب ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا قالت أم سلمة : فأنا معهم يا نبي الله ؟ قال : أنت على مكانك وإنك على خير .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نزلت هذه الآية في خمسة في وفي علي وفاطمة وحسن وحسين « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

أقول : و رواه أيضا في غاية المرام عن الثعلبي في تفسيره .

وفيه أخرج الترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه

و ابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة قالت : في بيتي نزلت : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت » وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجعلهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال : هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

وفي غاية المرام عن الحميدي قال : الرابع والستون من المتفق عليه من الصحيحين عن البخاري و مسلم من مسند عائشة عن مصعب بن شيبة عن صفية بنت شيبة عن عائشة قالت : خرج النبي صلى الله عليه وسلم ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا .

أقول : والحديث مروي عنها بطرق مختلفة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : لما دخل علي بفاطمة جاء النبي صلى الله عليه وسلم أربعين صباحا إلى بابها يقول : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته الصلاة رحمة الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا أنا حرب لمن حاربتم أنا سلم لمن سالمتم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : شهدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا » .

أقول : و رواه أيضا عن الطبراني عن أبي الحمراء و لفظه رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي باب علي و فاطمة ستة أشهر فيقول : « إنما يريد الله » الآية ، و أيضا عن ابن جرير و ابن مردويه عن أبي الحمراء و لفظه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج إلى صلاة الغداة إلا أتني

إلى باب عليّ فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال : الصلاة الصلاة إنّما يريد الله ليذهب ، الآية .

و رواه أيضا عن ابن أبي شيبّة وأحمد والترمذيّ وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبرانيّ والحاكم وصحّحه وابن مردويه عن أنس و لفظه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمرّ بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول : الصلاة يا أهل البيت الصلاة إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا .

أقول : و الروايات في هذه المعاني من طرق أهل السنّة كثيرة وكذا من طرق الشيعة و من أراد الاطلاع عليها فليراجع غاية المرام للبحرانيّ والعبقات .

و في غاية المرام عن الحمويّين باسناده عن يزيد بن حيّان قال : دخلنا على زيد بن أرقم فقال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ألا إنّني تركت فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله عزّ وجلّ من اتبعه كان على هدى ومن تركه كان على ضلالة ثمّ أهل بيتي اذّكرهم الله في أهل بيتي ثلاث مرّات .

قلنا : من أهل بيته نساؤه ؟ قال : لا أهل بيته عصبة الذين حرّموا الصدقة بعده آل عليّ وآل عباس وآل جعفر وآل عقيل .

و فيه أيضا عن مسلم في صحيحه باسناده عن يزيد بن حيّان عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : إنّني تارك فيكم الثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة فقلنا : من أهل بيته نساؤه ؟ قال لا أيم الله إنّ المرأة تكون مع الرجل العصر ثمّ الدهر ثمّ يطلقها فترجع إلى أهلها و قومها . أهل بيته أصله وعصبة الذين حرّموا الصدقة بعده .

أقول : فسرّ البيت بالنسب كما يطلق عرفا على هذا المعنى يقال : بيوتات العرب بمعنى الأنساب لكن الروايات السابقة عن أمّ سلمة وغيرها تدفع هذا المعنى و تفسّر أهل البيت بعليّ و فاطمة و ابنهما عليّ .

و في المجمع قال مقاتل بن حيّان : لما رجعت أسماء بنت ميس من الحبشة مع

زوجها جعفر بن أبي طالب دخلت على نساء رسول الله ﷺ فقالت : هل نزل فينا شيء من القرآن ؟ قلن : لا .

فأتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن النساء لفي خيبة وخسار فقال صلى الله عليه وآله : ومم ذلك ؟ قالت : لأنهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال فأنزل الله تعالى هذه الآية « إن المسلمين والمسلمات ، الخ . أقول : و في روايات أخر أن القائلة هي أم سلمة .





وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَالًّا مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَانْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لَكِنْ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠).

﴿بيان﴾

الآيات أعني قوله : « و إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِلَى قَوْلِهِ - وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » في قصة تزوج رسول الله ﷺ بزوجه مولاة زيد الذي كان قد اتخذه ابنا ، ولا يبعد أن تكون الآية الأولى أعني قوله : « و مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ » الآية مرتبطة بالآيات التالية كالتوطئة لها .

قوله تعالى : « و مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ

لهم الخيرة من أمرهم » الخ يشهد السياق على أن المراد بالقضاء هو القضاء التشريعي دون التكويني فقضاء الله تعالى حكمه التشريعي في شيء مما يرجع إلى أعمال العباد أو تصرفه في شأن من شؤونهم بواسطة رسول من رسله ، و قضاء رسوله هو الثاني من القسمين و هو التصرف في شأن من شؤون الناس بالولاية التي جعلها الله تعالى له بمثل قوله : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

فقضاؤه ﷺ قضاء منه بولايته و قضاء من الله سبحانه لأنه الجاعل لولايته المنفذ أمره ، ويشهد سياق قوله : « إذا قضى الله ورسوله أمرا » حيث جعل الأمر الواحد متعلقا لقضاء الله ورسوله معا ، على أن المراد بالقضاء التصرف في شؤون الناس دون الجعل التشريعي المختص بالله .

و قوله : « و ما كان لمؤمن و لا مؤمنة » أي ما صحح ولا يحق لأحد من المؤمنين والمؤمنات أن يثبت لهم الاختيار من أمرهم بحيث يختارون ما شاؤا و قوله : « إذا قضى الله ورسوله أمرا » ظرف لنفي الاختيار .

و ضميرا الجمع في قوله : « لهم الخيرة من أمرهم » للمؤمن والمؤمنة المراد بهما جميع المؤمنين والمؤمنات لوقوعهما في حيز النفي ووضع الظاهر موضع المضمحل حيث قيل : « من أمرهم » ولم يقل : أن يكون لهم الخيرة فيه للدلالة على منشأ توهم الخيرة و هو انتساب الأمر إليهم .

و المعنى ليس لأحد من المؤمنين والمؤمنات إذا قضى الله ورسوله بالتصرف في أمر من أمورهم أن يثبت لهم الاختيار من جهته لانتسابه إليهم وكونه أمرا من أمورهم فيختاروا منه غير ما قضى الله ورسوله بل عليهم أن يتبعوا إرادة الله ورسوله .

والآية عامة لكنّها لوقوعها في سياق الآيات التالية يمكن أن تكون كالتمهيد لما سيجيء من قوله : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » الآية حيث يلوح منه أن بعضهم كان قد اعترض على تزوج النبي ﷺ بزوج زيد و تعييره بأنها كانت زوج ابنة المدعوله بالتبني و سيجيء في البحث الروائي بعض ما يتعلق بالمقام .

قوله تعالى : « و إن تقول للمذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك

و اتق الله ، إلى آخر الآية المراد بهذا الذي أنعم الله عليه و أنعم النبي عليه زيد بن حارثة الذي كان عبداً للنبي ﷺ ثم حرره و اتخذهُ ابناله و كان تحت زينب بنت جحش بنت عمّة النبي ﷺ أتى زيد النبي فاستشاره في طلاق زينب فنهاه النبي صلى الله عليه و آله عن الطلاق ثم طلقها زيد فتزوجها النبي ﷺ و نزلت الآيات .

فقوله : « أنعم الله عليه » أي بالهداية إلى الإيمان و تحبيبه إلى النبي ﷺ و قوله : « و أنعمت عليه » أي بالإحسان إليه و تحريره و تخصيصه بنفسك ، و قوله : « أمسك عليك زوجك و اتق الله » كناية عن الكف عن تطليقها ، ولا يخلو من إشعار بإصرار زيد على تطليقها .

و قوله : « و تخفي في نفسك ما الله مبديه » أي مظهره « و تخشى الناس والله أحق أن تخشاه » ذيل الآيات أعني قوله : « الذين يبلغون رسالات الله ولا يخشون أحداً إلا الله » دليل على أن خشية الله ﷻ الناس لم تكن خشية على نفسه بل كان خشية في الله فأخفى في نفسه ما أخفاه استشعاراً منه أنه لو أظهره عابه الناس و طعن فيه بعض من في قلبه مرض فآثر ذلك أثراً سيئاً في إيمان العامة ، و هذا الخوف - كما ترى - ليس خوفاً مذموماً بل خوف في الله هو في الحقيقة خوف من الله سبحانه .

فقوله : « و تخشى الناس والله أحق أن تخشاه » الظاهر في نوع من العتاب ردع عن نوع من خشية الله وهي خشية عن طريق الناس و هداية إلى نوع آخر من خشية تعالى و أنه كان من الحري أن يخشى الله دون الناس ولا يخفي ما في نفسه ما الله مبديه و هذا نعم الشاهد على أن الله كان قد فرض له أن يتزوج زوج زيد الذي كان تبنياً ليرفع بذلك الحرج عن المؤمنين في التزوج بأزواج الأعداء وهو ﷺ كان يخفيه في نفسه إلى حين مخافة سوء أثره في الناس فأمنه الله ذلك بعتابه عليه نظير ما تقدم في قوله تعالى : « يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك - إلى قوله - والله يعصمك من الناس » الآية .

فظاهر العتاب الذي يلوح من قوله : « و تخشى الناس والله أحق أن تخشاه »

عسوق لانتصاره و تأييد أمره قبال طعن الطاعنين ممن في قلوبهم مرض نظير ما تقدم في قوله : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا و تعلم الكاذبين » التوبة : ٤٣ .

و من الدليل على أنه انتصار و تأييد في صورة العتاب قوله بعد : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » حيث أخبر عن تزويجه إياها كأنه أمر خارج عن إرادة النبي ﷺ و اختياره ثم قوله : « و كان أمر الله مفعولا » .

فقوله : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » متفرع على ما تقدم من قوله : « و تخفي في نفسك ما الله مبديه » و قضاء الوطر منها كناية عن الدخول و التمتع ، و قوله : « لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم لما قضوا منهن وطرا » تعليل للتزويج و مصلحة للحكم ، و قوله : « و كان أمر الله مفعولا » مشير إلى تحقق الوقوع و تأكيد للحكم .

و من ذلك يظهر أن الذي كان النبي ﷺ يخفيه في نفسه هو ما فرض الله له أن يتزوجها لاهواها وحبته الشديد لها وهي بعد مزوجة كما ذكره جمع من المفسرين و اعتذروا عنه بأنها حالة جبليّة لا يكاد يسلم منها البشرفان فيه أو لا منع أن يكون بحيث لا يقوى عليه التربية الإلهيّة و ثانياً أنه لا معنى حينئذ للعتاب على كتمانته و إخفائه في نفسه فلا مجوز في الإسلام لذكر حلائل الناس و التشبّب بهن .

قوله تعالى : « ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له » الخ الفرض هو التعمين و الإسهام يقال : فرض له كذا أي عيّن له و أسهمه به و قيل : هو في المقام بمعنى الإباحة و التجويز ، و الحرج الكلفة والضيق ، و المراد بنفي الحرج نفي سببه و هو المنع عما فرض له .

والمعنى ما كان على النبي من منع فيما عيّن الله له أو أباح الله له حتى يكون عليه حرج في ذلك .

و قوله : « سنة الله في الذين خلوا من قبل » اسم موضوع موضع المصدر فيكون

مفعولا مطلقا والتقدير سن الله ذلك سنة ، والمراد بالذين خلوا من قبلهم الأنبياء و
الرسل الماضون بقرينة قوله بعد : «الذين يبلغون رسالات الله» الخ .

وقوله : «وكان أمر الله قدراً مقدوراً» أي يقدر من عنده لكل واحد ما يلائم
حاله ويناسبها والأنبياء لم يمنعوها مما قدره الله وأباحه لغيرهم حتى يمنع النبي
صلى الله عليه وآله وسلم من بعض ما قدر وأُبيح .

قوله تعالى : «الذين يبلغون رسالات الله» يخشونه ولا يخشون أحداً إلا
الله» الخ الموصول بيان للموصول المتقدم أعني قوله : «الذين خلوا من قبل» .

والخشية هي تأثير خاص للقلب عن المكروه وربما ينسب إلى السبب الذي
يتوقع منه المكروه يقال : خشيت أن يفعل بي فلان كذا أو خشيت فلانا أن يفعل بي
كذا ، والأنبياء يخشون الله ولا يخشون أحداً غيره لأنه لا مؤثر في الوجود عندهم
إلا الله .

وهذا غير الخوف الذي هو توقع المكروه بحيث يترتب عليه الانتقاء عملاً
سواء كان معه تأثير قلبي أو لا فإنه أمر عملي ربما ينسب إلى الأنبياء كقوله حكاية
عن موسى عليه السلام : «فقررت منكم لما خفتكم» الشعراء : ٢١ وقوله في النبي صلى الله عليه وآله :
«وإما تخافن من قوم خيانة» الأنفال : ٥٨ وهذا هو الأصل في معنى الخوف والخشية
وربما استعملا كالمترادفين .

ومما تقدم يظهر أن الخشية منفية عن الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم مطلقا وإن كان سياق
قوله : «يبلغون رسالات الله ويخشونه» الخ يلوح إلى أن المنفي هو الخشية في تبليغ
الرسالة . على أن جميع أفعال الأنبياء كأقوالهم من باب التبليغ فالخشية في أمر التبليغ
مستوعبة لجميع أعمالهم .

وقوله : «وكفى بالله حسيبا» أي محاسبا يحاسب على الصغيرة والكبيرة فيجب
أن يخشى ولا يخشى غيره .

قوله تعالى : «ما كان عهداً أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين»

النخ لا شك في أن الآية مسوقة لدفع اعتراضهم على النبي ﷺ بأنه تزوج زوج ابنه و محصل الدفع أنه ليس أبا زيد ولا أبا أحد من الرجال الموجودين في زمن الخطاب حتى يكون تزوجه بزوج أحدهم بعدهم تزوجا بزواج ابنه فالخطاب في قوله : « من رجالكم » للناس الموجودين في زمن نزول الآية ، والمراد بالرجال ما يقابل النساء والولدان و نفى الأبوة نفى تكويني لا تشريعي ولا تتضمن الجملة شيئا من التشريع .

والمعنى ليس محمد ﷺ أبا أحد من هؤلاء الرجال الذين هم رجالكم حتى يكون تزوجه بزوج أحدهم بعدهم تزوجا منه بزواج ابنه و زيد أحد هؤلاء الرجال فتزوجه بعد تطبيقه ليس تزوجا بزواج الابن حقيقة و أمّا تبنيه زيدا فإنه لا يترتب عليه شيء من آثار الأبوة والبنوة و ما جعل أدعياءكم أبناءكم .

و أمّا القاسم والطيب والظاهر^(١) و إبراهيم فإنهم أبناءه حقيقة لكنهم ماتوا قبل أن يبلغوا فلم يكونوا رجالا حتى ينتقض الآية و كذا الحسن والحسين و هما ابنا رسول الله فإن النبي ﷺ قبض قبل أن يبلغا حد الرجال .

و مما تقدم ظهر أن الآية لا تقتضي نفى أبوته ﷺ للقاسم والطيب والظاهر و إبراهيم و كذا للحسين لما عرفت أنها خاصة بالرجال الموجودين في زمن النزول على نعت الرجولية .

وقوله : « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الخاتم بفتح التاء ما يختم به كالطابع والقالب بمعنى ما يطبع به وما يقلب به والمراد بكونه خاتم النبيين أن النبوة اختتمت به ﷺ فلا نبي بعده .

وقد عرفت فيما مر معنى الرسالة والنبوة وأن الرسول هو الذي يحمل رسالة من الله إلى الناس و النبي هو الذي يحمل بآ الغيب الذي هو الدين و حقائقه و لازم ذلك أن يرتفع الرسالة بارتفاع النبوة فإن الرسالة من أنباء الغيب فإذا انقطعت هذه

(١) هذا على ما هو المعروف و قال بعضهم : ان الطيب و الظاهر لقبان للقاسم .

الأنبياء انقطعت الرسالة .

و من هنا يظهر أن كونه صلى الله عليه وآله خاتم النبيين يستلزم كونه خاتماً للرسول .

وفي الآية إيماء إلى أن ارتباطه ﷺ وتعلقه بكم تعلق الرسالة والنبوة وأن ما فعله كان بأمر من الله سبحانه .

وقوله : « و كان الله بكل شيء عليم » أي ما بينه لكم إنما كان بعلمه .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت : أنا خير منه حسباً وكانت امرأة فيها حدة فأنزل الله « و ما كان لمؤمن ولا مؤمنة » الآية كلها .

أقول : وفي معناها روايات أخر .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول امرأة هاجرت من النساء فوهبت نفسها للنبي ﷺ فزوجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالت إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده فنزلت .

أقول : والروايتان أشبه بالتطبيق منهما بسبب النزول .

و في العمود في باب مجلس الرضا عليه السلام عند المأمون مع أصحاب الملل في حديث يجيب فيه عن مسألة علي بن الجهم في عصمة الأنبياء :

قال : و أما محمد ﷺ و قول الله عز وجل : « و تخفي في نفسك ما الله مبديه و تخشى الناس والله أحق أن تخشاه » فإن الله عز وجل عرف نبيه ﷺ أسماء أزواجه في دار الدنيا وأسماء أزواجه في الآخرة وأنهن أمهات المؤمنين وأحد من سمي له زينب بنت جحش وهي يومئذ تحت زيد بن حارثة فأخفى ﷺ اسمها في نفسه ولم يده لكيلاً يقول أحد من المنافقين : إنه قال في امرأة في بيت رجل : أنها أحد أزواجه

من أمّات المؤمنين و خشي قول المنافقين .

قال الله عزّ وجلّ : « و تخشى الناس و الله أحقّ أن تخشاه » يعنى في نفسك .

الحديث .

أقول : وروى ما يقرب منه فيه عنه عليه السلام في جواب مسألة المأمون عنه في عصمة

الأنبياء .

و في المجمع في قوله تعالى : « و تخفى في نفسك ما الله مبديه » قيل : إنّ الذي أخفاه في نفسه هو أنّ الله سبحانه أعلمه أنّها ستكون من أزواجه و أنّ زيداً سيطلقها فلما جاء زيد و قال له : أريد أن أطلق زينب قال له : أمسك عليك زوجك فقال سبحانه : لم قلت : أمسك عليك زوجك و قد أعلمتك أنّها ستكون من أزواجك ؟ و روي ذلك عن عليّ بن الحسين عليه السلام .

و في الدر المنثور أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخاري و الترمذي و ابن المنذر و الحاكم و ابن مردويه و البيهقي في سننه عن أنس قال : جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فجعل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول : اتق الله و أمسك عليك زوجك فنزلت : « و تخفى في نفسك ما الله مبديه » .

قال أنس : فلو كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كاتماً شيئاً لكتّم هذه الآية ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم الحديث .

أقول : و الروايات كثيرة في المقام و إن كان كثير منها لا يخلو من شيء و في الروايات : ما أولم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على امرأة من نسائه ما أولم على زينب ذبح شاة و أطعم الناس الخبز و اللحم ، و في الروايات أنّها كانت تفتخر على سائر نساء النبيّ بثلاث أنّ جدّها وجدّ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم واحد فإنّها كانت بنت أُميمة بنت عبدالمطلب عمّة النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم و أنّ الذي زوجها منه هو الله سبحانه وأنّ السفير جبريل .

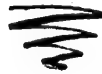
و في المجمع في قوله تعالى : « ولكن رسول الله و خاتم النبيّين » : وصحّ الحديث عن جابر بن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم قال : إنّما مثلي في الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها و حسنّها إلّا موضع لبنة فكان من دخلها و نظر إليها فقال : ما أحسنها إلّا

موضع هذه اللبنة . قال ﷺ : فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما .

أقول : وروى هذا المعنى غيرهما كالترمذي والنسائي وأحمد وابن مردويه عن غير جابر كأبي سعيد وأبي هريرة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن الأثير في المصاحف عن أبي عبد الرحمن السلمي

قال : كنت أقرئ الحسن والحسين فمر بي علي بن أبي طالب وأنا أقرئهما فقال لي : أقرئهما وخاتم النبيين بفتح التاء .





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ
يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَاعِدُ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا جَعَلْنَاكَ
شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا
مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧)
وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذْيَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى
بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) .

﴿ بَيَان ﴾

آيات تدعو المؤمنين إلى الذكر والتسبيح وتبشّرهم وتعدّهم الوعد الجميل
و تخاطب النبي ﷺ بصفاته الكريمة وتأمّره أن يبشّر المؤمنين ولا يطع الكافرين
و المنافقين ، ويمكن أن يكون القبيلان مختلفين في النزول زمانا .
قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا » الذكر ما يقابل
النسيان وهو توجيه الإدراك نحو المذكور وأما التلقّظ بما يدلّ عليه من أسمائه وصفاته
فهو بعض مصاديق الذكر .

قوله تعالى : « وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » التسبيح هو التنزيه وهو مثل الذكر
لا يتوقّف على اللفظ وإن كان التلقّظ بمثل سبحان الله بعض مصاديق التسبيح .

والبكرة أول النهار والأصيل آخره بعد العصر وتقييد التسبيح بالبكرة والأصيل لما فيهما من تحول الأحوال فيناسب تسبيحه وتنزيهه من التغير والتحول وكل نقص طار ، ويمكن أن يكون البكرة والأصيل معاكنية عن الدوام كالليل والنهار في قوله : « يسبحون له بالليل والنهار » حم السجدة : ٣٨ .

قوله تعالى : « هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور » المعنى الجامع للصلاة على ما يستفاد من موارد استعمالها هو الانعطاف فيختلف باختلاف ما نسب إليه ولذلك قيل : إن الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ومن الناس الدعاء لكن الذي نسب من الصلاة إلى الله سبحانه في القرآن هو الصلاة بمعنى الرحمة الخاصة بالمؤمنين وهي التي تترتب عليها سعادة العقبى والفلاح المؤبد ولذلك علل تصليته عليهم بقوله : « ليخرجكم من الظلمات إلى النور » كان بالمؤمنين رحيمًا .

وقد رتب سبحانه في كلامه على نسيانهم له نسيانه لهم وعلى ذكرهم له ذكره لهم فقال : « نسوا الله فنسيهم » التوبة : ٦٧ وقال : « فاذكروني أذكركم » البقرة : ١٥٢ وتصليته عليهم ذكر منه لهم بالرحمة فإن ذكروه كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا صلى عليهم كثيرا وغشيم بالنور وأبعدهم من الظلمات .

ومن هنا يظهر أن قوله : « هو الذي يصلي عليكم » الخ في مقام التعليل لقوله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا » وفيد التعليل أنكم إن ذكرتم الله كثيرا ذكركم برحمته كثيرا وبالغ في إخراجكم من الظلمات إلى النور ويستفاد منه أن الظلمات إنما هي ظلمات النسيان والغفلة والنور نور الذكر .

وقوله : « و كان بالمؤمنين رحيمًا » وضع الظاهر موضع المضمر ، أعني قوله : « بالمؤمنين » ولم يقل : و كان بكم رحيمًا ، ليدل به على سبب الرحمة وهو وصف الإيمان .

قوله تعالى : « تحييتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما » ظاهر السياق أن « تحييتهم » مصدر مضاف إلى المفعول أي إنهم يحيون - بالبناء للمفعول - يوم

يلقون ربهم من عند ربهم ومن ملائكته بالسلام أي إنهم يوم اللقاء في أمن و سلام لا يصيبهم مكروه ولا يمسهم عذاب.

وقوله : « وأعدّ لهم أجراً كريماً » أي وهباً الله لهم ثواباً جزيلاً .

قوله تعالى : « يا أيها النبي إنا جعلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً » شهادته ﷺ على الأعمال يتحملها في هذه النشأة ويؤدّيها يوم القيامة ، وقد تقدّم في قوله : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » البقرة : ١١٢ وغيره من آيات الشهادة أنه ﷺ شهيد الشهداء .

و كونه مبشراً و نذيراً تبشيره المؤمنين المطيعين لله و رسوله بثواب الله و الجنة وإذاره الكافرين والعاصين بعذاب الله والنار .

قوله تعالى : « وداعياً إلى الله بأذنه و سراجاً منيراً » دعوته إلى الله هي دعوته الناس إلى الإيمان بالله وحده ولازمه الإيمان بدين الله و تقيّد الدعوة بأذن الله يجعلها مساوقة للبعثة .

و كونه ﷺ سراجاً منيراً هو كونه بحيث يهتدي به الناس إلى سعادتهم و ينجون من ظلمات الشقاء والضلالة فهو من الاستعارة و قول بعضهم : إن المراد بالسراج المنير القرآن و التقدير ذاسراج منير تكلف من غير موجب .

قوله تعالى : « و بشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً » الفضل من العطاء ما كان من غير استحقاق ممّن يأخذه وقد وصف الله عطاءه فقال : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الانعام : ١٦٠ ، و قال : « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ فبيّن أنّه يعطي من الثواب ما لا يقابل العمل وهو الفضل ولا دليل في الآية يدل على اختصاصه بالآخرة .

قوله تعالى : « ولا تطع الكافرين والمنافقين و دع أذاهم و توكل على الله » النح تقدّم معنى طاعة الكافرين و المنافقين في أوّل السورة .

و قوله : « و دع أذاهم » أي اترك ما يؤذونك بالإعراض عنه و عدم الاشتغال به والدليل على هذا المعنى قوله : « و توكل على الله » أي لا تستقل بنفسك في دفع

أناهم بل اجعل الله وكيلا في ذلك ، كفى بالله وكيلا .

﴿بحث روائي﴾

في الكافي بإسناده عن ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما من شيء إلا وله حد ينتهي إليه إلا الذكر فليس له حد ينتهي إليه فرض الله عز وجل الفرائض فمن أدامها فهو حد من شهر رمضان فمن صامه فهو حد من الحج فمن حج فهو حد من إلا الذكر فإن الله عز وجل لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حد ينتهي إليه ثم تلا : يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا ، فقال : لم يجعل الله له حد ينتهي إليه .

قال : و كان أبي كثير الذكر لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله و آكل معه الطعام وإنه ليذكر الله ولقد كان يحدث القوم ما يشغله ذلك عن ذكر الله و كنت أرى لسانه لازقا بحنكه يقول : لا إله إلا الله .

و كان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس و يأمر بالقراءة من كان يقرأ منا و من كان لا يقرأ منا أمره بالذكر ، و البيت الذي يقرأ فيه القرآن و يذكر الله عز وجل فيه يكثر بركته و يحضره الملائكة و يهجره الشياطين و يضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب لأهل الأرض و البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله يقل بركته و يهجره الملائكة و يحضره الشياطين .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ألا أخبركم بخير أعمالكم أرفعها في درجاتكم و أزكاها عند مليكم و خير لكم من الدينار و الدرهم و خير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلوهم و يقتلوكم ؟ فقالوا : بلى . قال : ذكر الله عز وجل كثيرا .

ثم قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال : من خير أهل المسجد ؟ فقال : أكثرهم لله ذكرا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من أعطى لسانا ذاكرا فقد أعطى خير الدنيا والآخرة . وقال في قوله تعالى : « ولا تمنن تستكثر » قال : لا تستكثر ما عملت من خير لله .

و فيه بإسناده عن أبي المغيرة رفعه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : من ذكر الله في السرّ فقد ذكر الله كثيرا إن المنافقين كانوا يذكرون الله علانية ولا يذكرونه في السرّ فقال الله عزّ وجلّ : « يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » .
أقول : وهو استفادة لطيفة .

و في الخصال عن زيد الشحام قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : ما ابتلي المؤمن بشيء أشدّ عليه من ثلاث خصال يحرمها قيل : وما هي ؟ قال : المواساة في ذات يده و الإيصال من نفسه ، و ذكر الله كثيرا . أما إنّي لأقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وإن كان منه ولكن ذكر الله عندما أحلّ له و ذكر الله عند ما حرّم عليه .
و في الدرّ المنثور أخرج أحمد والترمذي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سئل أيّ العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال : الذاكرون الله كثيرا . قلت : يا رسول الله و من الغايزي في سبيل الله ؟ قال : لو ضرب بسيفه في الكفار و المشركين حتّى ينكسرو يختضب دما لكان الذاكرون الله أفضل درجة منه .

و في العلل بإسناده عن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن جدّه الحسن بن عليّ عليه السلام قال : جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله أعلمهم فيما سأله فقال : لا شيء سميت محمدا و أحمد و أبا القاسم و بشيرا و نذيرا وداعيا ؟ فقال صلى الله عليه وآله : أمّا الداعي فإنّي أدعو الناس إلى دين ربّي عزّ وجلّ و أمّا النذير فإنّي أُنذّر بالنار من عصاني و أمّا البشير فإنّي أبشّر بالجنة من أطاعني الحديث .

و في تفسير القميّ في قوله : « يا أيّها النبيّ » إنّنا أرسلناك - إلى قوله - ودع أذاهم و توكل على الله و كفى بالله وكيلا » أنّها نزلت بمكة قبل الهجرة بخمس سنين .





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَ بَنَاتِ عَمِّكَ وَ بَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَ بَنَاتِ خَالَاتِكَ وَ بَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسُهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) تَرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ وَ مَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ عَنِهُنَّ وَ لَا يَحْزَنَ وَ يَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرِينَ إِنِيهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ

وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ
وَقُلُوبِهِنَّ وَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ
مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ
فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا
أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ
وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥)
إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ
وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي
الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ
وَ الْمُؤْمِنَاتِ بَغِيرَ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَ إِثْمًا مُبِينًا (٥٨) يَا
أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَ بَنَاتِكَ وَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ
جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩)
لَعَنَ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمَرْجِفُونَ فِي
الْمَدِينَةِ لِنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا
تَقُوا أَخْذُوا وَ قَتَلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ
وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢) .

﴿ بيان ﴾

تتضمن الآيات أحكاماً متفرقة بعضها خاصة بالنبي ﷺ وأزواجه وبعضها عامة.
 قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل
 أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها فتمسوهن » و « سر حوهن » سراحاً جليلاً
 المراد بنكاحهن العقد عليهن بالنكاح ، و بالمس الدخول ، و بالتمتع إعطاؤهن شيئاً
 من المال يناسب شأنهن وحالهن والتسريح بالجميل لإطلاقهن من غير خصومة وخشونة.
 والمعنى إذا طلقتموهن النساء بعد النكاح وقبل الدخول فلا عدة لهن للطلاق ويجب
 تمتيعهن بشيء من المال و السراح الجميل .

و الآية مطلقة تشمل ما إذا فرض لهن فريضة المهر وما إذا لم يفرض فيقيدها
 قوله : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ،
 البقرة : ٢٣٧ و تبقى حجة فيما لم يفرض لهن فريضة .

قوله تعالى : « يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ،
 إلى آخر الآية يذكر سبحانه لنبيه ﷺ بالإحلال سبعة أصناف من النساء : الصنف
 الأول ما في قوله : « أزواجك اللاتي آتيت أجورهن » والمراد بالأجور المهور ، والثاني
 ما في قوله : « و ما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك » أي من يملكه من الإماء الراجعة
 إليه من الغنائم والأفان ، و تقييد ملك اليمين بكونه مما أفاء الله عليه كتقييد الأزواج
 بقوله : « اللاتي آتيت أجورهن » للتوضيح لا للاحتراز .

والثالث والرابع ما في قوله : « و بنات عمك و بنات عماتك » قيل يعني نساء
 قريش ، و الخامس والسادس ما في قوله : « و بنات خالك و بنات خالاتك » قيل : يعني
 نساء بني زهرة ، وقوله : « اللاتي هاجرن معك » قال في المجموع هذا إنما كان قبل تحليل
 غير المهاجرات ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل .

و السابع ما في قوله : « و امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي
 أن يستنكحها » وهي المرأة المسلمة التي بذلت نفسها للنبي ﷺ بمعنى أن ترضى أن

يتزوج بها من غير صداق ومهر فإن الله أحلها له إن أراد أن يستنكحها ، وقوله : « خالصة لك من دون المؤمنين » إيذان بأن هذا الحكم - أي حلية المرأة للرجل ببذل النفس - من خصائصه لا يجري في المؤمنين ، وقوله بعده : « قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم » تقرير لحكم الاختصاص .

وقوله : « لكيلا يكون عليك حرج » تعليل لقوله في صدر الآية : « إنا أحللنا لك » أولا في ذيلها من حكم الاختصاص والأول أظهر وقد ختمت الآية بالمغفرة والرحمة .

قوله تعالى : « ترجى من تشاء منهم » و تؤي إليك من تشاء » الخ الإرجاء التأخير والتباعد وهو كناية عن الرد والإبواء الإسكان في المكان وهو كناية عن القبول والضم إليه .

و السياق يدل على أن المراد به أنه ﷺ على خيرة من قبول من وهبت نفسها له أوردته .

وقوله : « ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك » الابتغاء هو الطلب أي ومن طلبتها من اللاتي عزلتها ولم تقبلها فلا إثم عليك ولا لوم أي يجوز لك أن تضم إليك من عزلتها ورددتها من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لك بعد العزل والرد .

و يمكن أن يكون إشارة إلى أن له ﷺ أن يقسم بين نسائه و أن يترك القسم فيؤخر من يشاء منهم ويقدم من يشاء ويعزل بعضهن من القسم فلا يقسم لها أو يبتغيها فيقسم لها بعد العزل وهو أوفق لقوله بعده : « ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى - أي أقرب - أن تقر أعينهن - أي يسرن - ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن » والله يعلم ما في قلوبكم ، و ذلك لسرور المتقدمة بما قسمت له و رجاء المتأخرة أن تتقدم بعد .

وقوله : « إن الله كان عليما حلِيمًا » أي يعلم مصالح عباده ولا يعاجل في العقوبة . وفي الآية أقوال مختلفة أخر والذي أوردناه هو الأوفق لوقوعها في سياق سابقتها متصلة بها وبه وردت الأخبار عن أئمة أهل البيت ﷺ كما سيجيء .

قوله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن » النح ظاهر الآية لو فرضت مستقلة في نفسها غير متصلة بما قبلها تحريم النساء له ﷺ إلا من خيرهن فاخترن الله ونفي جواز التبدل بهن يؤيد ذلك . لكن لو فرضت متصلة بما قبلها وهو قوله : « إنا أحللتنا لك » النح كان مدلولها تحريم ما عدا المعدودات وهي الأصناف الستة التي تقدمت .

وفي بعض الروايات عن بعض أئمة أهل البيت ﷺ أن المراد بالآية محرمات النساء المعدودة في قوله : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » الآية النساء : ٢٣ . فقوله : « لا يحل لك النساء من بعد » أي من بعد اللاتي اخترن الله ورسوله وهي التسعة على المعنى الأول أو من بعد من عددناه في قولنا : « إنا أحللتنا لك » على المعنى الثاني أو من بعد المحللات وهي المحرمات على المعنى الثالث .

وقوله : « ولا أن تبدل بهن من أزواج » أي أن تطلق بعضهن وتزوج مكانها من غيرهن ، وقوله : « إلا ما ملكت يمينك » يعني الإماء وهو استثناء من قوله في صدر الآية : « لا يحل لك النساء » .

وقوله : « و كان الله على كل شيء رقيبا » معناه ظاهر وفيه تحذير عن المخالفة . قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم - إلى قوله - من الحق » بيان لأدب الدخول في بيوت النبي ﷺ ، وقوله : « إلا أن يؤذن لكم » استثناء من النهي ، وقوله : « إلى طعام » متعلق بالاذن ، وقوله : « غير ناظرين إناه » أي غير منتظرين لورود إناه الطعام بأن تدخلوا من قبل فتطيلوا المكث في انتظار الطعام ويبينه قوله : « و لكن إذا دعيتم فادخلوا وإذا طعمتم - أي أكلتم - فاتشروا » وقوله : « ولا مستأنسين لحديث » عطف على قوله : « غير ناظرين إناه » وهو حال بعد حال أي غير ما كثر في حال انتظار الإناه قبل الطعام ولا في حال الاستئناس لحديث بعد الطعام .

وقوله : « إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم » تعليل للنهي أي لا تمكثوا كذلك لأن مكثكم ذلك كان يتأذى منه النبي فيستحيي منكم أن يسألكم

الخروج وقوله : « والله لا يستحيى من الحق » أي من بيان الحق لكم وهو ذكر تاذيبه والتأديب بالأدب اللائق .

قوله تعالى : « وإذا سألتهم عن متاعا فاسألوهم » من وراء حجاب ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهم ، ضمير « هن » لأزواج النبي ﷺ و سؤالهن متاعاً كناية عن تكليمهن لحاجة أي إذا مست الحاجة إلى تكليمكم أزواج النبي ﷺ فكلّموهن من وراء حجاب ، وقوله : « ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهم » بيان لمصلحة الحكم .

قوله تعالى : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا » النخ أي ليس لكم إيذاؤه بمخالفة ما أمرتم في نسائه وفي غير ذلك ، وليس لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم أي نكاحكم أزواجه من بعده كان عند الله عظيماً ، وفي الآية إشعار بأن بعضهم ذكر ما يشير إلى نكاحهم أزواجه بعده وهو كذلك كما سيأتي في البحث الروائي الآتي .

قوله تعالى : « إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً » معناه ظاهر وهو في الحقيقة تنبيه تهديدي لمن كان يؤذي النبي ﷺ أو يذكر نكاح أزواجه من بعده .

قوله تعالى : « لاجنّاح عليهن في آبائهن » إلى آخر الآية ضمير « عليهن » لنساء النبي ﷺ ، والآية في معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب وقد استثنى الآباء والأبناء والإخوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات وهؤلاء محارم ، قيل : ولم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم من الممكن أن يصفوهم لأبنائهم .

واستثنى أيضاً نساءهن وإضافة النساء إلى ضميرهن يلوّح إلى أن المراد النساء المؤمنات دون الكوافر كما مر في قوله تعالى : « أو نسائهن » النور : ٣١ واستثنى أيضاً ماملكت أيمانهن من العبيد والإماء .

وقوله : « واتقن الله إن الله كان على كل شيء شهيدا » فيه تأكيد الحكم وخاصة من جهة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في « اتقن الله » .

قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلّوا

عليه وسلموا تسليماً قد تقدم أن أصل الصلاة الانعطاف فصلاته تعالى انعطافه عليه بالرحمة انعطافاً مطلقاً لم يقيد في الآية بشيء دون شيء وكذلك صلاة الملائكة عليه انعطاف عليه بالتزكية والاستغفار وهي من المؤمنين الدعاء بالرحمة .

وفي ذكر صلاته تعالى وصلاة ملائكته عليه قبل أمر المؤمنين بالصلاة عليه دلالة على أن في صلاة المؤمنين له اتباعاً لله سبحانه وملائكته وتأكيذاً للنهي الآتي . وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن طريق صلاة المؤمنين أن يسألوا الله تعالى أن يصلي عليه وآله .

قوله تعالى : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً » من المعلوم أن الله سبحانه منزّه عن أن يناله الأذى وكل ما فيه وصمة النقص والهوان فذكره مع الرسول وتثريبه في إيذائه تشريف للرسول وإشارة إلى أن من قصد رسوله بسوء فقد قصده أيضاً بالسوء إذ ليس للرسول بما أنه رسول إلا ربه فمن قصده فقد قصد ربه .

وقد أوعدهم باللعن في الدنيا والآخرة واللعن هو الإبعاد من الرحمة والرحمة الخاصة بالمؤمنين هي الهداية إلى الاعتقاد الحق وحقيقة الإيمان ويتبعه العمل الصالح فلا إبعاد من الرحمة في الدنيا تحريمه عليه جزاءاً لعمله فيرجع إلى طبع القلوب كما قال : « لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية » المائدة : ١٣ ، وقال : « ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » النساء : ٤٦ وقال . « أولئك الذين لعنهم الله فأصمّتهم وأعمى أبصارهم » سورة محمد : ٢٣ .

وأما اللعن في الآخرة فهو الإبعاد من رحمة القرب فيها وقد قال تعالى : « كلاًّ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » المطففين : ١٥ .

ثم أوعدهم بأنه أعد لهم - أي في الآخرة - عذاباً مهيناً ووصف العذاب بالمهين لأنهم يقصدون باستكبارهم في الدنيا إهانة الله ورسوله فقبلوا في الآخرة بعذاب يهينهم .

قوله تعالى : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا

بهتاناً وإثماً مبيناً ، تفيد إيدائهم بغير ما اكتسبوا لأن إيداءهم بما اكتسبوا كما في القصص والحد والتعزير لا إثم فيه .

وأما إيدائهم بغير ما اكتسبوا ومن دون استحقاق فيعد سبحانه احتمالاً للبهتان والإثم المبين والبهتان هو الكذب على الغير يواجهه به ووجه كون الإيداء من غير اكتساب بهتاناً أن المؤذي إنما يؤذيه لسبب عنده يعد جرماً له يقول : لم قال كذا ؟ لم فعل كذا ؟ وليس بجرم فيبته عند الإيداء بنسبة الجرم إليه مواجهة وليس بجرم . وكونه إثماً مبيناً لأن الافتراء والبهتان مما يدرك العقل كونه إثماً من غير حاجة إلى ورود النهي عنهما شرعاً .

قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » الخ الجلابيب جمع جلباب وهو ثوب تشتمل به المرأة فيغطي جميع بدنها أو الخمار الذي تغطي به رأسها ووجهها .

وقوله : « يدنين عليهن من جلابيبهن » أي يتسترن بها فلا تظهر جيوبهن وصدرهن للنظرين .

و قوله : « ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » أي ستر جميع البدن أقرب إلى أن يعرفن أنهن أهل السر والصلاح فلا يؤذين أي لا يؤذينهن أهل الفسق بالتعرض لهن . وقيل : المعنى ذلك أقرب من أن يعرفن أنهن مسلمات حرائر فلا يتعرض لهن بحسبان أنهن إماء أو من غير المسلمات من الكتائيات أو غيرهن والأول أقرب .

قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم » الخ الانتهاء عن الشيء الامتناع والكف عنه ، والإرجاف إشاعة الباطل للاغتمام به وإلقاء الاضطراب بسببه ، والإغراء بالفعل التحريض عليه . والمعنى أقسم لئن لم يكف المنافقون والذين في قلوبهم مرض عن الإفساد والذين يشيعون الأخبار الكاذبة في المدينة لإلقاء الاضطراب بين المسلمين لنحرقنك عليهم ثم لا يجاورونك في المدينة بسبب نفيهم عنها إلا زمناً قليلاً وهو ما بين صدور الأمر وفعليته إجرائه .

قوله تعالى : «ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً» الثقف إدراك الشيء و الظفر به ، والجملة حال من المنافقين ومن عطف عليهم أي حال كونهم ملعونين أينما وجدوا أخذوا و بولغ في قتلهم فعمتهم القتل .

قوله تعالى : « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » السنة هي الطريقة المعمولة التي تجري بطبيعتها غالباً أو دائماً .

يقول سبحانه هذا النكال الذي أوعدنا به المنافقين و من يحذو حذوهم من النفي و القتل الذريع هي سنة الله التي جرت في الماضين فكلما بالغ قوم في الإفساد و إلقاء الاضطراب بين الناس و تمادوا و طغوا في ذلك أخذناهم كذلك و لن تجد لسنة الله تبديلاً فتجري فيكم كما جرت في الأمم من قبلكم .

﴿ بحث روائي ﴾

في الفقيه روى عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل : « ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعهن » و سرحوهن سراحاً جميلاً » قال : متعهن أي أجملوهن بما قدرتم عليه من معروف فأنهن يرجعن بكأة و وحشة وهم عظيم و شماتة من أعدائهن فإن الله كريم يستحي و يحب أهل الحياء إن أكرمكم أشدكم إكراماً لحلائلهم .

و في الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام في رجل طلق امرأته قبل أن يدخل بها . قال : عليه نصف المهر إن كان فرض لها شيئاً و إن لم يكن فرض لها فليمتعها على نحو ما يمتع به مثلها من النساء .

أقول : و الروايات في هذا المعنى كثيرة و هي مبنية على تخصيص الآية بآية البقرة كما تقدم في تفسير الآية .

و في الدر المنثور أخرج عبد بن حميد عن حبيب بن ثابت قال : جاء رجل إلى علي بن الحسين سأل عن رجل قال : إن تزوجت فلانة فهي طالق قال : ليس

بشيء بدء الله بالنكاح قبل الطلاق فقال : « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن » .

أقول : ورواه في المجمع عن حبيب بن ثابت عنه عليه السلام .

و فيه أخرج ابن ماجه وابن مردويه عن المسور بن مخرمة عن النبي صلى الله عليه وآله قال : لا طلاق قبل نكاح ولا عتق قبل ملك .

أقول : وروى مثله عن جابر وعائشة عنه عليه السلام .

و في الكافي بإسناده عن الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام وبإسناده عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عز وجل : « يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك ، كم أحل له من النساء ؟ قال : ما شاء من شيء .

و فيه بإسناده عن الحلبي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قلت : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج » ؟ فقال : لرسول الله صلى الله عليه وآله أن ينكح ما شاء من بنات عمته و بنات عماته و بنات خاله و بنات خالاته و أزواجه اللاتي هاجرن معه . و أحل له أن ينكح من عرض المؤمنين بغير مهر وهي الهبة ولا تحل الهبة إلا لرسول الله صلى الله عليه وآله فأما لغير رسول الله فلا يصلح نكاح إلا بمهر وذلك معنى قوله تعالى : « و امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي » .

و في الدر المنثور أخرج ابن سعد وابن أبي شعبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر و الطبراني عن علي بن الحسين في قوله : « و امرأة مؤمنة » هي أم شريك الأزدية التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله .

أقول : و روي أنها خولة بنت الحكيم و أنها ليلي بنت الخطيم و أنها ميمونة و الظاهر أن الواهبة نفسها عدة من النساء .

و في الكافي مسندا عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال : جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت : يا رسول الله إن المرأة لا تخطب الزوج وأنا امرأة أيم لازوج لي منذهر ولا ولد فهل لك من حاجة ؟ فإن تك فقد وهبت نفسي لك إن قبلتني . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله خير اودعها .

ثم قال : يا أخت الأنصار جزاكم الله عن رسول الله خيرا فقد نصرني رجالكم ورغبت في نساؤكم فقالت لها حفصة : ما أقول حياءك و أجراؤك وأنهمك للرجال فقال رسول الله : كفتي عنها يا حفصة فإنها خير منك رغبت في رسول الله ولمنتها وعبتها .

ثم قال للمرأة : انصري رحمك الله فقد أوجب الله لك الجنة لرغبتك في وتعرضك لمحبتتي و سروري وسيايتك أمري إن شاء الله فأنزل الله عز وجل « و امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين » قال : فأحل الله عز وجل هبة المرأة نفسها لرسول الله ﷺ ولا يحل ذلك لغيره .

وفي المجمع وقيل : إنها لما وهبت نفسها للنبي ﷺ قالت عائشة : ما بال النساء يبذلن أنفسهن بلامهر ؟ فنزلت الآية فقالت عائشة : ما أرى الله إلا يسارع في هواك فقال رسول الله ﷺ : فإني إن أطعت الله سارع في هواك .

و في المجمع في قوله تعالى : « ترجي من تشاء منهمن وتؤي إليك من تشاء » قال أبو جعفر و أبو عبد الله ﷺ : من أرحى لم ينكح و من آوى فقد نكح .

وفي الكافي بإسناده عن الحضرمي عن أبي جعفر ﷺ في قول الله عز وجل : « لا يحل لك النساء من بعد » فقال : إنما عني به لا يحل لك النساء التي حرّم الله عليك في هذه الآية « حرمت عليكم أمهاتكم و بناتكم و أخواتكم و عماتكم و خالاتكم » إلى آخرها . ولو كان الأمر كما يقولون كان قد أحل لكم ما لم يحل له لأن أحدكم يستبدل كلما أراد ولكن الأمر ليس كما يقولون إن الله عز وجل أحل لنبيه ﷺ أن ينكح من النساء ما أراد إلا ما حرّم في هذه الآية في سورة النساء .

و في الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن المنذر و ابن أبي حاتم من طريق علي بن زيد عن الحسن في قوله : « ولا أن تبدل بهن من أزواج » قال : قصره الله على نسائه التسع اللاتي مات عنهن .

قال علي فأخبرت علي بن الحسين فقال : لو شاء تزوج غيرهن و لفظ عبد بن حميد : فقال : بل كان له أيضا أن يتزوج غيرهن .

و في تفسير القمي : و أمّا قوله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا

بيوت النبي ﷺ إلا أن يؤذن لكم ، فإنه لما أن تزوج رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش و كان يحبها فأولم و دعا أصحابه فكان أصحابه إذا أكلوا يحبون أن يتحدّثوا عند رسول الله ﷺ ، وكان يحب أن يخلو مع زینب فأنزل الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ إلا أن يؤذن لكم ، وذلك أنهم كانوا يدخلون بلا إذن فقال عز وجل : « إلا أن يؤذن لكم - إلى قوله - من وراء حجاب » .

أقول : وروي تفصيل القصة عن أنس بطرق مختلفة .

و في الدر المنثور أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان قال : نزل حجاب رسول الله ﷺ على نسائه في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة .

أقول : ورواها أيضاً ابن سعد عن أنس وفيه أن السنة كانت مبةً بنبي رسول الله ﷺ

بزینب .

و فيه في قوله تعالى : « وما كان لكم أن تؤذوا » الآية أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال : أیحببنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا ؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن نساء من بعده فنزلت الآية .

أقول : و قد وردت بذلك عدة من الروايات و في بعضها أنه كان يريد عائشة و أم سلمة .

و في ثواب الأعمال عن أبي المغرا عن أبي الحسن عليه السلام في حديث قال : قلت : ما معنى صلاة الله و صلاة ملائكته و صلاة المؤمن ؟ قال : صلاة الله رحمة من الله ، و صلاة الملائكة تزكية منهم له ، و صلاة المؤمنين دعاء منهم له .

و في الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائة قال : صلّوا على محمد و آل محمد فإن الله تعالى يقبل دعاءكم عند ذكر محمد و دعاءكم و حفظكم إياه إذا قرأتم « إن الله و ملائكته يصلّون على النبي » فصلّوا عليه في الصلاة كنتم أو في غيرها .

و في الدر المنثور أخرج عبد الرزاق و ابن أبي شيبة و أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و أبو داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجه و ابن مردويه عن كعب بن عجرة قال : قال رجل : يا رسول الله أمّا السلام عليك فقد علمناه فكيف

الصلاة عليك؟ قال : قل : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

أقول : وقد أورد ثمان عشرة حديثاً غير هذه الرواية تدل على نشر يك آل النبي معه في الصلاة روتها أصحاب السنن والجوامع عن عدة من الصحابة منهم ابن عباس وطلحة و أبوسعيد الخدري وأبو هريرة وأبو مسعود الأنصاري وبريدة وابن مسعود وكعب بن عجرة وعلي عليه السلام وأما روايات الشيعة فهي فوق حد الإحصاء . وفيه أخرج أحمد والترمذي عن الحسين بن علي أن رسول الله ﷺ قال : البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » فإنه كان سبب نزولها أن النساء كن يخرجن إلى المسجد يصلين خلف رسول الله ﷺ فإذا كان الليل وخرجن إلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة يقعد الشباب لهن في طريقهن فيؤذونهن وبتعرضون لهن فأنزل الله « يا أيها النبي » الآية .

وفي الدر المنثور أخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وأبوداود وابن المنذر و ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية « يدنين عليهن من جلابيبهن » خرج نساء الأنصار كأن علي رؤسهن الغربان من أكسية سود يلبسها . وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون » نزلت في قوم منافقين كانوا في المدينة يرجفون برسول الله ﷺ إذا خرج في بعض غزواته يقولون : قتل وأسرفيغتم المسلمون لذلك ويشكون إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل في ذلك « لئن لم ينته - إلى قوله - إلا قليلا » أي نأمرك بإخراجهم من المدينة إلا قليلا . « ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : « ملعونين » فوجبت عليهم اللعنة بعد اللعنة بقول الله .





يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ
 تَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ
 سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥)
 يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَآطَعْنَا
 الرَّسُولَ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصَلَّوْنَا
 السَّبِيلَ (٦٦) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا
 وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ
 قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ
 مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ
 عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ
 حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
 وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
 وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣) .

﴿بيان﴾

آيات تذكر شأن الساعة وبعض ما يجري على الكفار من عذابها وتأمّر المؤمنين بالقول السديد وتعدّم عليه وعدا جميلا ثم تختتم السورة بذكر الأمانة .

قوله تعالى : « يسألك الناس عن الساعة قل إنّما علمها عند الله و ما يدريك لعلّ الساعة تكون قريبا » تنكر الآية سؤال الناس عن الساعة و إنّما كانوا يريدون أن يقدّر لهم زمن وقوعها و أنّها قريبة أو بعيدة كما يؤمّي إليه التعبير عنها بالساعة فأمر أن يجيبهم بقصر العلم بها في الله سبحانه و على ذلك جرت الحال كلّما ذكرت في القرآن .

و قوله : « و ما يدريك لعلّ الساعة تكون قريبا » زيادة في الإبهام و ليعلموا أن النبي ﷺ مثل غيره في عدم العلم بها و ليس من السّر الذي أسره إليه وستره من الناس .

قوله تعالى : « إنّ الله لعن الكافرين و أعدّ لهم سعيرا » لعن الكفار إبعادهم من الرحمة ، والإعداد التهيئة ، والسعير النار التي اُشعلت فالتهمت ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا » الفرق بين الولي و النصير أن الولي يلي بنفسه تمام الأمر والمولى عليه بمعزل والنصير يعين المنصور على بعض الأمر و هو إتمامه فالولي يتولّى الأمر كلّه والنصير يتصدّى بعضه ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « يوم تقلّب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله و أطعنا الرسولا » تقلّب وجوههم في النار نحوّلها لحال بعد حال تقتصر وتُسود و تكون كاللحة أو انتقالها من جهة إلى جهة لتكون أبلغ في مسّ العذاب كما يفعل باللحم المشوي .

و قولهم : « يا ليتنا أطعنا الله و أطعنا الرسولا » كلام منهم على وجه التحسّر و التمتني .

قوله تعالى : « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا و كبراءنا فأضلونا السبيلا »
السادة جمع سيّد و هو - على ما في المجمع - المالك المعظم الذي يملك تدبير السواد
الأعظم و هو الجمع الأكثر ، والكبراء جميع كبير و لعل المراد به الكبير سنّا فالعامّة
تطيع و تقلّد أحد رجلين إمّا سيّد القوم وإمّا أسنهم .

قوله تعالى : « ربنا آتتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » الضعنان
المثلاثان وإنّما سألوا لهم ضعفي العذاب لأنّهم ضلّوا في أنفسهم وأضلّوا غيرهم ، و لذلك
أيضا سألوا لهم اللعن الكبير .

قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّاه الله
مما قالوا و كان عند الله وجيها » نهى عن أن يكونوا كبعض بني إسرائيل فيعاملوا نبيّهم
بمثل ما عامل به بنو إسرائيل من الإيذاء و ليس المراد مطلق الإيذاء بقول أو فعل
وإن كان منهيّا عنه بل قوله : « فبرّاه الله » يشهد بأنّه كان إيذاء من قبيل التهمة والافتراء
المحوج في رفعه إلى التبرئة و التنزيه .

و لعلّ السكوت عن ذكر ما آذوا به موسى عليه السلام يؤيد ما ورد في الحديث أنّهم
قالوا : ليس لموسى ما للرجال فبرّاه الله من قولهم و سيوافيك .

و أوجه ما قيل في إيذائهم النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه إشارة إلى قصّة زيد و زينب ، و
إن يكن كذلك فمن إيذائه صلى الله عليه وآله ما في كثير من روايات القصّة من سردها على نحو
لا يناسب ساحة قدسه .

و قوله : « و كان عند الله وجيها » أيّذا جاء و منزلة و الجملة مضافا إلى اشتغالها
على التبرئة إجمالا تعلّل تبرّته تعالى له وللآية و ما بعدها نوع اتصال بالآيات الناهية
عن إيذاء النبيّ صلى الله عليه وآله .

قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا اتقوا الله و قولوا قولا سديدا » السديد
من السداد و هو الإصابة والرشاد فالسديد من القول ما يجتمع فيه مطابقة الواقع و
عدم كونه لغوا أو ذا فائدة غير مشروعة كالنميّة و غير ذلك فعلى المؤمن أن يختبر صدق
ما يتكلّم به و أن لا يكون لغوا أو يفسد به إصلاح .

قوله تعالى : « يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » رتب على ملازمة القول السديد إصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب وذلك أن النفس إذا لازمت القول السديد انقطعت عن كذب القول و لغو الحديث والكلام الذي يترتب عليه فساد ، و برسوخ هذه الصفة فيها تنقطع طبعاً عن الفحشاء والمنكر واللغو في الفعل وعند ذلك يصلح أعمال الإنسان فيندم بالطبع على ماضيته من عمره في موبقات الذنوب إن كان قد ابتلى بشيء من ذلك وكفى بالندم توبة .

و يحفظه الله فيما بقي من عمره عن اقتحام المهلكات وإن رام شيئاً من صفائر الذنوب غفره الله له فقد قال تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » النساء : ٣١ فملازمة القول السديد تسوق الإنسان إلى صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب بإذن الله .

و قوله : « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما » وعد جميل على الإنسان بجميع الأعمال الصالحة والاجتناب عن جميع المناهي بترتيب الفوز العظيم على طاعة الله ورسوله .

و بذلك تختتم السورة في معناها في الحقيقة لأن طاعة الله ورسوله هي الكلمة الجامعة بين جميع الأحكام السابقة من واجبات ومحرمات والآياتان التاليتان كلتاهم لمعنى هذه الآية .

قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا - إلى قوله - غفور رحيم » الأمانة - أياماً كانت - شيء يودع عند الغير ليحتفظ عليه ثم يردّه إلى من أودعه فهذه الأمانة المذكورة في الآية شيء ائتمن الله الإنسان عليه ليحفظ على سلامته واستقامته ثم يردّه إليه سبحانه كما أودعه .

و يستفاد من قوله : « ليعذب الله المنافقين والمنافقات » الخ أنه أمر يترتب على حمله النفاق والشرك والإيمان فينقسم حاملوه باختلاف كيفية حملهم إلى منافق ومشرک ومؤمن .

فهو لا محالة أمر مرتبط بالدين الحق الذي يحصل بالتلبس به وعدم التلبس به النفاق والشرك والإيمان .

فهل هو الاعتقاد الحق والشهادة على توحده تعالى ، أو مجموع الاعتقاد والعمل بمعنى أخذ الدين الحق بتفاصيله مع الغض عن العمل به ، أو التلبس بالعمل به أو الكمال الحاصل للإنسان من جهة التلبس بواحد من هذه الأمور .

و ليست هي الأول أعني التوحيد فإن السماوات والأرض وغيرهما من شيء توحده تعالى وتسبح بحمده وقد قال تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، أسرى : ٢٢ والآية تصرح بإثباتها عنه .

و ليست هي الثاني أعني الدين الحق بتفاصيله فإن الآية تصرح بحمل الإنسان كائناً من كان من مؤمن وغيره له و من البين أن أكثر من لا يؤمن لا يحمله ولا علم له به ، و بهذا يظهر أنها ليست بالثالث و هو التلبس بالعمل بالدين الحق تفصيلاً . و ليست هي الكمال الحاصل له بالتلبس بالتوحيد فإن السماوات والأرض وغيرهما ناطقة بالتوحيد فعلاً متلبسة به .

و ليست هي الكمال الحاصل من أخذ دين الحق والعلم به إذ لا يترتب على نفس الاعتقاد الحق والعلم بالتكاليف الدينية نفاق ولا شرك ولا إيمان ولا يستعقب سعادة ولا شقاء وإنما يترتب الأثر على الالتزام بالاعتقاد الحق والتلبس بالعمل .

فبقي أنها الكمال الحاصل له من جهة التلبس بالاعتقاد والعمل الصالح و سلوك سبيل الكمال بالارتقاء من حضيض المادة إلى أوج الإخلاص الذي هو أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره فيتولى هو سبحانه تدبير أمره و هو الولاية الإلهية .

فالمراد بالأمانة الولاية الإلهية و بعرضها على هذه الأشياء اعتبارها مقيسة إليها والمراد بحملها والإباء عنه وجود استعدادها وصلاحيّة التلبس بها وعدمه و هذا المعنى هو القابل لأن ينطبق على الآية فالسماوات والأرض والجبال على ما فيها من العظمة والشدّة والقوّة فائدة لاستعداد حصولها فيها و هو المراد بإثباتها عن حملها و إشفاقهنّ منها .

لكنّ الإنسان الظلوم الجهول لم يَأْب ولم يشفق من ثقلها و عظم خطرها فحملها على ما بها من الثقل و عظم الخطر فتعقّب ذلك أن انقسم الإنسان من جهة حفظ الأمانة و عدمه بالخيانة إلى منافق ومُشرك و مؤمن بخلاف السماوات والأرض والجبال فما منها إلّا مؤمن مطيع .

فان قلت : ما بال الحكيم العليم حمل على هذا المخلوق الظلوم الجهول حملاً لا يتحمّله لثقله و عظم خطره السماوات و الأرض والجبال على عظمتها و شدّتها و قوتها و هو يعلم أنّه أضعف من أن يطيق حمله و إنّما حمله على قبولها ظلمه و جهله وأجرأه عليه غروره و غفلته عن عواقب الأمور فما تحمّله الأمانة باستدعائه لها ظلماً و جهلاً إلّا كتقليد مجنون ولاية عامّة يأبى قبولها العقلاء و يشفقون منها يستدعيها المجنون لفساد عقله و عدم استقامة فكره .

قلت : الظلم و الجهل في الإنسان و إن كانا بوجه ملاك اللّوم والعتاب فهما بعينهما مصحّح حمله الأمانة و الولاية الإلهيّة فإنّ الظلم و الجهل إنّما يتّصف بهما من كان من شأنه الاتّصاف بالعدل والعلم فالجبال مثلاً لا تتّصف بالظلم و الجهل فلا يقال : جبل ظالم أو جاهل لعدم صحّة اتّصافه بالعدل والعلم وكذلك السماوات و الأرض لا يحمل عليها الظلم و الجهل لعدم صحّة اتّصافها بالعدل والعلم بخلاف الإنسان .

و الأمانة المذكورة في الآية و هي الولاية الإلهيّة و كمال صفة العبوديّة إنّما تتحصّل بالعلم بالله والعمل الصالح الذي هو العدل و إنّما يتّصف بهذين الوصفين أعني العلم و العدل الموضوع القابل للجهل والظلم فكون الإنسان في حدّ نفسه و بحسب طبعه ظلوماً جهولاً هو المصحّح لحمل الأمانة الإلهيّة فافهم ذلك .

فمعنى الآيتين^(١) يناظر بوجه معنى قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثمّ رددناه أسفل سافلين إلّا الذين آمنوا و عملوا الصالحات فلم أجّر غير ممنون »
التين : ٤ .

فقوله تعالى : « إنّنا عرضنا الأمانة » أي الولاية الإلهيّة والاستكمال بحقائق

(١) فالاية الاولى تحاذى الاولى والثانية تحاذى الثانية والثالثة .

الدين الحق" علما وعملا وعرضها هو اعتبارها مقيسة إلى هذه الأشياء .

و قوله : « على السماوات والأرض والجبال » أي هذه المخلوقات العظيمة التي خلقها أعظم من خلق الإنسان كما قال : « لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس » المؤمن : ٥٧ ، وقوله : « فأبين أن يحملنها وأشفقن منها » إياها عن حملها وإشفاقها منها عدم اشتغالها على صلاحية التلبس وتجافيتها عن قبولها وفي التعبير بالحمل إيماء إلى أنها ثقيلة ثقلا لا يحتملها السماوات والأرض والجبال .

وقوله : « وحملها الإنسان » أي اشتمل على صلاحيتها والتهيؤ للتلبس بها على ضعفه وصغر حجمه « إنه كان ظلوما جهولا » أي ظالما لنفسه جاهلا بما تعقبه هذه الأمانة لو خانها من وخيم العاقبة والهلاك الدائم .

و بمعنى أدق " لكون الإنسان خاليا بحسب نفسه عن العدل والعلم قابلا للتلبس بما يقاض عليه من ذلك والارتقاء من حضيض الظلم والجهل إلى أوج العدل والعلم . والظلم والجهول وصفان من الظلم والجهل معناهما من كان من شأنه الظلم والجهل نظير قولنا : فرس شמוש ودابة جموح وهاء ظهور أي من شأنها ذلك كما قاله الرازي " أومعناهما المبالغة في الظلم والجهل كما ذكر غيره والمعنى مستقيم كيفما كانا .

وقوله : « ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات » اللام للغاية أي كانت عاقبة هذا الحمل أن يعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات وذلك أن " الخائن للأمانة يتظاهر في الأغلب بالصلاح والأمانة وهو النفاق و قليلا ما يتظاهر بالخيانة لها ولعل " اعتبار هذا المعنى هو الموجب لتقديم المنافقين والمنافقات في الآية على المشركين والمشركات .

وقوله : « ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما » عطف على « يعذب » أي وكان عاقبة ذلك أن يتوب الله على المؤمنين والمؤمنات والتوبة من الله هي رجوعه إلى عبده بالرحمة فيرجع إلى الإنسان إذا آمن به ولم يخن بالرحمة ويتولّى أمره وهو ولي المؤمنين فيهديه إليه بالستر على ظلمه وجهله وتحليته بالعلم النافع والعمل الصالح لأنه غفور رحيم .

فان قلت : ما هو المانع من جعل الأمانة بمعنى التكليف وهو الدين الحق وكون الحمل بمعنى الاستعداد والصلاحية والإيلاء هو فقدده والعرض هو اعتبار القياس فيجري فيه حينئذ جميع ما تقدم في بيان الانطباق على الآية .

قلت : نعم لكن التكليف إنما هو مطلوب لكونه مقدمة لحصول الولاية الإلهية و تحقق صفة العبودية الكاملة فهي المعروضة بالحقيقة والمطلوبة لنفسها .

والالتفات في قوله : « ليعذب الله » من التكلم إلى الغيبة والإتيان باسم الجلالة للدلالة على أن عواقب الأمور إلى الله سبحانه لأنه الله .

ووضع الظاهر موضع المضمرة في قوله : « ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات » للإشعار بكمال العناية في حقهم والاهتمام بأمرهم .

ولهم في تفسير الأمانة المذكورة في الآية أقوال مختلفة :

ف قيل المراد بها التكليف الموجبة طاعتها دخول الجنة ومعصيتها دخول النار و المراد بعرضها على السماوات والأرض والجبال اعتبارها بالنسبة إلى استعدادها وإبائها عن حملها وإشفاقهن منها عدم استعدادهن لها ، و حمل الإنسان لها استعدادها والكلام جار مجرى التمثيل .

و قيل : المراد بها العقل الذي هو ملاك التكليف ومناط الثواب والعقاب .

وقيل : هي قول لا إله إلا الله .

و قيل : هي الأعضاء فالعين أمانة من الله يجب حفظها وعدم استعمالها إلا فيما يرضيه الله تعالى ، وكذلك السمع واليد والرجل والفرج واللسان .

وقيل : المراد بها أمانات الناس والوفاء بالعهود .

و قيل : المراد بها معرفة الله بما فيها وهذا أقرب الأقوال من الحق يرجع بتقريب ما إلى ما قد منا .

و كذلك اختلف في معنى عرض الأمانة عليها على أقوال :

منها أن العرض بمعناه الحقيقي غير أن المراد بالسماوات والأرض والجبال أهلها فعرضت على أهل السماء من الملائكة وبين لهم أن في خيانتها الإثم العظيم

فأبوها و خافوا حملها و عرض على الإنسان فلم يمتنع .
 ومنها أنه بمعناه الحقيقي " وذلك أن الله لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهماً
 وقال لها : إنني فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعني فيها وناراً لمن عصاني فيها فقلن :
 نحن مسخرات لما خلقتنا لانحتمل فريضة ولا نبغي ثواباً ولا عقاباً ولما خلق آدم عرض
 عليه ذلك فاحتمله وكان ظلوماً لنفسه جهولاً بخامة عاقبته .
 و منها أن المراد بالعرض المعارضة والمقابلة ومحصل الكلام أننا قابلنا بهذه
 الأمانة السماوات والأرض والجبال فكانت هذه أرجح وأنقل منها .
 ومنها أن الكلام جار مجرى الفرض والتقدير والمعنى أننا لو قد رنا أن للسماوات
 والأرض والجبال فهماً وعرضنا عليها هذه الأمانة لأبين حملها وأشققن منها لكن
 الإنسان تحمّلها .
 وبالمرجعة إلى ما قد مناه يظهرهما في كل من هذه الأقوال من جهات الضعف و
 الوهن فلا تغفل .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : ولا يلعن
 الله مؤمناً قال الله عز وجل : « إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً
 لا يجدون ولياً ولا نصيراً » .

و في تفسير القمّي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أن بني إسرائيل
 كانوا يقولون : ليس لموسى ما للرجال ، و كان موسى إذا أراد الاغتسال ذهب إلى موضع
 لا يراه فيه أحد فكان يوماً يغتسل على شط نهر وقد وضع ثيابه على صخرة فأمر الله الصخرة
 فنباعدت عنه حتى نظر بنو إسرائيل إليه فعلموا أن ليس كما قالوا فأنزل الله يا أيها
 الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ، الآية .

وفي المجمع : واختلفوا فيما أُوذي به موسى على أقوال :
 أحدها أن موسى و هارون صعدا الجبل فمات هارون فقالت بنو إسرائيل : أنت

قتلته فأمر الله الملائكة فحملته حتى مرّوا به على بني إسرائيل و تكلمت الملائكة بموته حتى عرفوا أنه قدمات و برّاه الله من ذلك عن عليّ و ابن عباس .

و ثابها أن موسى كان حياءً ستيرا يغتسل وحده فقالوا : ما يستمرنا إلا لعب في جلده إما برص و إما أدرة فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر فمرّ الحجر بثوبه فطلبه موسى فرآه بنو إسرائيل عرياناً كأن حسن الرجال خلقا فبرّاه الله ممّا قالوا . رواه أبو هريرة مرفوعاً .

أقول : وروى الرواية الأولى في الدر المنثور أيضاً عن ابن مسعود والثانية أيضاً عن أنس و ابن عباس .

و في الدر المنثور أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال : ما جلس رسول الله ﷺ على هذا المنبر قط إلا تلا هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و قولوا قولاً سديداً » .

أقول : وروى ما يقرب منه أيضاً عن عائشة و أبي موسى الأشعري و عروة . وفي نهج البلاغة : ثم أداء الأمانة فقد خاب من ليس من أهلها إنها عرضت على السماوات المبنية و الأرض المدحوة و الجبال ذات الطول المنصوبة فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم منها ولوا تمتنع شيء بطول أو عرض أو قوة أو عز لا تمتنع ولكن أشفقن من العقوبة و عقلن ما جهل من هو أضعف منهن وهو الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً . وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن ميمون عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « إنا عرضنا الأمانة » الآية قال : هي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام .

أقول : المراد بولاية أمير المؤمنين عليه السلام ما كان هو أوّل فاتح لبابه من هذه الأمة وهو كون الإنسان بحيث يتولّى الله سبحانه أمره بمجاهدته فيه بإخلاص العبودية له دون الولاية بمعنى المحبة أو بمعنى الإمامة وإن كان ظاهر بعض الروايات ذلك بنوع من الجري والانطباق .



سورة سبأ مكّية وهي أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلْجِ
فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ
الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَأَتَاتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي
لَتَأْتِيََنَّكُمْ عَالِمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (٥)
وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي
إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُوكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
يَنْبَغُكُمْ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفَتَرَىٰ عَلَى
اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ
الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ نَاشِئَهَا خِيفٌ بِهِمْ وَالْأَرْضُ أَوْ نَسُفُ عَلَيْهِمْ كَسْفًا مِنَ السَّمَاءِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) .

﴿بيان﴾

تكلم السورة حول الأصول الثلاثة أعني الوحداية والنبوّة والبعث فتذكرها وتذكر ما لمنكريها من الاعتراض فيها والشبه التي ألقوها ثم تدفعها بوجوه الدفع من حكمة وموعظة ومجادلة حسنة ونهتّم ببيان أمر البعث أكثر من غيره فتذكره في مفتتح الكلام ثم تعود إليه عودة بعد عودة إلى مختتمه .

وهي مكّنة بشهادة مقاصد آياتها على ذلك .

قوله تعالى : الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض « الخ المطلوب بيان البعث والجزاء بياناً لا يعتريه شك بالإشارة إلى الحجّة التي ينقطع بها الخصم والأساس الذي يقوم عليه ذلك أمران أحدهما عموم ملكه تعالى لكل شيء من كل جهة حتى يصح له أي تصرف أراد فيها من إبداء ورزق وإماتة وإحياء بالأعادة وجزاء وثانيهما كمال علمه تعالى بالأشياء من جميع جهاتها علماً لا يطرء عليه غروب وزوال حتى يعيد كل من أراد ويجزيه على ما علم من أعماله خيراً أو شراً .

وقد أُشير إلى أوّل الأمرين في الآية الأولى التي نحن فيها وإلى الثانية في الآية الثانية وبذلك يظهر أن الآيتين تمهيد لما في الآية الثالثة والرابعة .

فقوله : « الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض » ثناء عليه على ملكه المنبسط على كل شيء بحيث له أن يتصرف في كل شيء بما شاء وأراد .

وقوله : « وله الحمد في الآخرة » تخصيص الحمد بالآخرة لما أن الجملة الأولى تتضمن الحمد في الدنيا فإن النظام المشهود في السماوات والأرض نظام دنيوي كما يشهد به قوله تعالى : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات » إبراهيم ٤٨ .

وقوله : « وهو الحكيم الخبير » ختم الآية بالاسمين الكريمين للدلالة على أن تصرفه في نظام الدنيا ثم تعقيبه بنظام الآخرة مبني على الحكمة والخبرة فبحكمته عقّب الدنيا بالآخرة وإلا لفت الخلقة وبطلت ولم يتميّز المحسن من المسيء كما قال : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً - إلى أن قال - أم نجعل الذين آمنوا

وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، ص : ٢٨ وبخبرته يحشرهم ولا يغادر منهم أحداً ويجزي كل نفس بما كسبت .

و الخير من أسماء الله الحسنى مأخوذ من الخبرة وهي العلم بالجزئيات فهو أخص من العليم .

قوله تعالى : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » الولوج مقابل الخروج والعروج مقابل النزول وكأن العلم بالولوج والخروج والنزول والعروج كناية عن علمه بحركة كل متحرك و فعله واختتام الآية بقوله : « وهو الرحيم الغفور » كأن فيه إشارة إلى أن له رحمة ثابتة ومغفرة ستصيب قوماً بإيمانهم .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب » الخ يذكر إنكارهم لإتيان الساعة وهي يوم القيامة وهم ينكرونه مع ظهور عموم ملكه وعلمه بكل شيء ولا مورد للارتياح في إتيانها مع ذلك كما تقدم فضلاً عن إنكار إتيانها ولذلك أمر النبي ﷺ أن يجيب عن قولهم بقوله : « قل بلى وربى لتأتينكم أي الساعة » .

ولما كان السبب العمدة في إنكارهم هو اختلاط الأشياء ومنها أبدان الأموات بعضها ببعض و تبدل صورها تبدلاً بعد تبدل بحيث لا خبر عن أعيانها فيمتنع إعادتها من دون تمييز بعضها من بعض أشار إلى دفع ذلك بقوله : « عالم الغيب لا يعزب » أي لا يفوت « عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض » .

وقوله : « ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » تعميم لعلمه لكل شيء وفيه مع ذلك إشارة إلى أن للأشياء كائنة ما كانت ثبوتاً في كتاب مبين لا تتغير ولا تبدل وإن زالت رسومها عن صفحة الكون وقد تقدم بعض الكلام في الكتاب المبين في سورة الأنعام وغيرها .

قوله تعالى : « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم » الآم في « ليجزي » للتعليل وهو متعلق بقوله : « لتأتينكم » وفي قوله : « لهم »

مغفرة ورزق كريم « نوع محاذاة لقوله السابق : « وهو الرحيم الغفور » .

و في الآية بيان أحد السببين لقيام الساعة وهو أن يجزي الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والرزق الكريم وهو الجنة بما فيها والسبب الآخر ما يشير إليه قوله : « والذين سعوا في آياتنا معاجزين » الخ .

قوله تعالى : « والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم » السمي الجذ في المشي و المعاجزة المبالغة في الإعجاز و قيل : المسابقة و الكلام مبني على الاستعارة بالكناية كأن الآيات مسافة يسرون فيها سيرا حثيثا ليعجزوا الله و يسبقوه والرجز كالرجس القذر ولعل المراد به العمل السيئ فيكون إشارة إلى تبدل العمل عذابا أليما عليهم أوسببا لعذابهم ، وقيل : الرجز هوسية العذاب .

و في الآية تعريض للكفار الذين يصرّون على إنكار البعث .

قوله تعالى : « و يرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق » الموصول الأول فاعل يرى والموصول الثاني مفعوله الأول والحق مفعوله الثاني والمراد بالذين أوتوا العلم العلماء بالله و بآياته ، و بالذي أنزل إليه القرآن النازل إليه صلى الله عليه و آله .

وجملة « ويرى » الخ استئناف متعرّض لقوله السابق « وقال الذين كفروا » أحوال من فاعل كفروا والمعنى أولئك يقولون : لا تأتينا الساعة و ينكرونها جهلا و العلماء بالله و آياته يرون أن هذا القرآن النازل إليك المخبر بأن الساعة آتية هو الحق . و قوله : « ويهدي إلى صراط العزيز الحميد » معطوف على الحق أي و يرون القرآن يهدي إلى صراط من هو عزيز لا يغلب على ما يريد محمود يشئ على جميع أفعاله لأنه لا يفعل مع عزته إلا الجميل و هو الله سبحانه ، و في التوصيف بالعزيز الحميد مقابلة لما وصفهم به في قوله : « الذين سعوا في آياتنا معاجزين » .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد » كلام منهم وارد مورد الاستهزاء يعرفون فيه النبي صلى الله عليه و آله بعضهم لبعض بالقول بالمعاد .

والتمزيق التقطيع و التفريق ، و كونهم في خلق جديد استقراهم فيه أي تجديد خلقتهم بإحيائهم بعد موتهم ووجودهم ثانيا بعد عدهم ، و قوله : « إذا مَرَقْتُمْ » ظرف لقوله : « إنكم لفي خلق جديد » .

والمعنى و قال الذين كفروا بعضهم لبعض على طريق الاستهزاء بالنبي ﷺ لا نذاره إيمانهم بالبعث والجزاء : هل ندلكم على رجل والمراد به النبي ﷺ ينبئكم و يخبركم أنكم ستستقرّون في خلق جديد و يتجدّد لكم الوجود إذا فرقت أبدانكم كلّ التفريق و قطعت بحيث لا يتميز شيء منها من شيء .

قوله تعالى : « أقرى على الله كذبا أم به جنّة » النح الاستفهام للتعجيب فإنّ القول ببعث الأجساد بعد فنائها عجيب عندهم لا يقول به عاقل إلّا لتلبس الأمر على الناس وإضلالهم لينال بعض ما عندهم وإلّا فكيف يلبس فيه الأمر على عاقل ، ولهذا ردّوا الأمر بين الافتراء والجنّة في الاستفهام والمعنى أهو عاقل يكذب على الله افتراء عليه بالقول بالبعث أم به نوع جنون يتفوّه بما بداله من غير فكر مستقيم .

و قوله : « بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » ردّ لقولهم وإضراب عن التردد الذي أتوا به مستفهمين و محصله أن ذلك ليس افتراء على الله ولا جنون فيه بل هؤلاء الكفار مستقرّون في عذاب سيظهر لهم وقد أبعدهم ذلك عن الحق فكأنوا في ضلال بعيد لا يسعهم مع ذلك أن يعقلوا الحق و يدعنوا به .

و وضع الموصول موضع الضمير في قوله : « بل الذين لا يؤمنون بالآخرة » للدلالة على أن علّة وقوعهم فيما وقعوا فيه من العذاب والضلال عدم إيمانهم بالآخرة .

قوله تعالى : « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم و ما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء » النح وعظ وإنذار لهم باستعظام ما اجترأوا عليه من تكذيب آيات الله والاستهزاء برسوله فالمراد بقوله : « ما بين أيديهم و ما خلفهم من السماء والأرض » إحاطة السماء والأرض بهم من بين أيديهم و من خلفهم فأينما نظروا وجدوا سماء تظلمهم و أرضا تقلهم لا مفرّ لهم عنهما .

و قوله : « إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء » أي إن

أحاط بهم الأرض والسماء وهما مدبرتان بتدبيرنا منقادتان مسخرتان لنا إن نشأ نخسف بهم الأرض فنهلكهم أو نسقط عليهم قطعة من السماء فنهلكهم فما لهم لا ينتهون عن هذه الأقاويل ؟

وقوله : « إن في ذلك لآية لكل عبد منيب » أي فيما ذكر من إحاطة السماء والأرض وكونهما مدبرتين لله سبحانه إن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء لآية لكل عبد منيب راجع إلى ربه بالطاعة ، فهو لاء لا يستهينون بهذه الأمور ولا يجترؤون على تكذيب هذه الآيات إلا لكونهم مستكبرين عاتين لا يريدون إنابة إلى ربهم ورجوعاً إلى طاعته .





وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّاسُ لَهُ
الْحَدِيدُ (١٠) أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلَسْلِمْنَا الرِّيحَ غَدُوَهَا شَهْرًا وَرَوَاحُهَا شَهْرًا
وَأَسْلَمْنَا لَهُ الْغَمَامَ وَالطَّيْرَ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن
يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُنْزِلْهُ مِنَ الْعَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ
مِنَ مَحَارِبَ وَ تَمَاثِيلَ وَ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ
دَاوُدَ شُكْرًا وَ قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ
مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ أَلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَاتِهِ فَلَمَّا خَرَ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ
أَن لَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) لَقَدْ
كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ
رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبِّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ سِيلَ الْعَرَمِ وَ بَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىٰ أَكُلٍ خَمْطٍ وَ
أَثَلٍ وَ شَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَ هَلْ
نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا
فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَ قَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيَرُوا فِيهَا لِيَالِي وَ أَيَّامًا

آمَنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّيهِ الْآخِرَةَ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَ رَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ (٢١) .

﴿ بيان ﴾

نشير الآيات إلى نبذة من قصص داود و سليمان إذ آتاهما الله من فضله إذ أنعم على داود بتسخير الجبال والطير معه وتليين الحديد له ، و سخر لسليمان الريح غدوًا و شهرواوحها شهر و سخر الجن يعملون له ما يشاء من محارِب و تماثيل و غيرها و أمرهما بالعمل الصالح شكرًا و كانا عبيدين شكورين .

ثم إلى قصة سباء حيث أنعم عليهم بجنتين عن اليمين و الشمال ليعيشوا فيها عيشًا رغدًا فكفروا بالنعمة و أعرضوا عن الشكر فأرسل عليهم سيل العرم و بدل جنتيهم جنتين دون ذلك و قد كان عمر بلادهم فكفروا فجعلهم أحاديث و مزقهم كل ممزق كل ذلك لكفرهم بالنعمة و إعراضهم عن الشكر ولا يجازي إلا الكفور .

و وجه اتصال القصص على ما تقدم من حديث البعث أن الله هو المدبّر لأُمُور عباده و هم مغمورون في أنواع نعمه و للمنعم على المنعم عليه الشكر على نعمته و عليه أن يميّز بين الشاكر لنعمته و الكافر بها و إذلا ميز في هذه النشأة فهناك نشأة أخرى يميّز فيها الفريقان فالبعث لا مفرّ عنه .

قوله تعالى : « و لقد آتينا داود منا فضلًا يا جبال أوبي معه والطير و أُنزلنا الحديد » الفضل العطية و التأويب الترجيع من الأوب بمعنى الرجوع و المراد به ترجيع

الصوت بالتسبيح بدليل قوله فيه في موضع آخر: «إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ» والإشراق والطيور محشورة كل له أو آب ، ص : ١٩ . والطيور معطوف على محل الجبال ومنه يظهر فساد قول بعضهم : أن الأوب بمعنى السير وأن الجبال كانت تسير معه حينما سار .

و قوله « يا جبال أوّبي معه والطيور » بيان للفضل الذي أوتي داود و قد وضع فيه الخطاب الذي خوطبت به الجبال والطيور فسخرتاه موضع نفس التسخير الذي هو العطية و هو من قبيل وضع السبب موضع المسبب والمعنى سخرنا الجبال له تؤوب معه والطيور ، وهذا هو المتحصل من تسخير الجبال والطيور له كما يشير إليه قوله : « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ » والإشراق والطيور محشورة كل له أو آب ، ص : ١٩ .

و قوله : « و أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ » أي وجعلناه ليناً له على ما به من الصلابة . قوله تعالى : « أن اعمل سابقات و قدر في السرد » النخ السابقات جمع سابعة وهي الدرع الواسعة ، والسرد نسج الدرع ، و تقديره الاقتصاد فيه بحيث تناسب حلقة أي اعمل دروعاً واسعة و اجعلها متناسبة الحلق ، و جملة « أن اعمل » النخ نوع تفسير لآلة الحديد له .

و قوله : « و اعملوا صالحاً إِنِّي بما تعملون بصير » معنى الجملة في نفسها ظاهر وهي لوقوعها في سياق بيان إيتاء الفضل و وعد النعم تفيد معنى الأمر بالشكر كأنه قيل : « و قلنا اشكر النعم أنت وقومك بالعمل الصالح .

قوله تعالى : « و لسليمان الريح غدوّها شهرو رواحها شهر » النخ أي و سخرنا لسليمان الريح مسير غدوّ تلك الريح - و هو أوّل النهار إلى الظهر - مسير شهر و رواح تلك الريح - و هو من الظهر إلى آخر النهار - مسير شهر أي إنها تسير في يوم مسير شهرين .

و قوله : « و أسلنا له عين القطر » الإسالة إفعال من السيلان بمعنى الجريان

والقطر النحاس أي وأذنباله القطر فسالت كالعين الجارية .

قوله : « و من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه » أي و جمع من الجن -
بدليل قوله بعد : « يعملون له » - يعمل بين يديه بإذن ربه مسخرين له « و من
يزغ » أي ينحرف « عن أمرنا » و لم يطع سليمان « نذقه من عذاب السعير » ظاهر
السياق أن المراد به عذاب النار في الدنيا دون الآخرة ، و في لفظ الآية دلالة على أن
المسخر له كان بعض الجن لاجميعهم .

قوله تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب و تماثيل و جفان كالجواب و
قدور راسيات » الخ المحاريب جمع محراب وهو مكان إقامة الصلاة والعبادة ، و التماثيل
جمع تمثال و هي الصورة المجسمة من الشيء و الجفان جمع جفنة و هي صحيفة الطعام
و الجوابي جمع جابية الحوض الذي يجبي أي يجمع فيه الماء ، و القدور جمع قدر و
هو ما يطبخ فيه الطعام ، و الراسيات الثابتات و المراد بكون القدور راسيات كونها ثابتات
في أمكنتها لا يزلن عنها اعظمها .

و قوله : « اعملوا آل داود شكرا » خطاب لسليمان وسائر من معه من آل داود أن
يعملوا و يعبدوا الله شكرا له ، و قوله : « و قليل من عبادي الشكور » أي الشاكر لله شكرا
بعد شكر و الجملة إمّا في مقام ترفيع مقام أهل الشكر بأن المتمكّنين في هذا المقام
قليلون و هم الأحدثون من الناس ، و إمّا في مقام التعليل كأنه قيل : إنهم قليل
فكثروا عدتهم .

قوله تعالى : « فلمّا قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل
منسأته » المراد بدابة الأرض الأروسة على ماوردت به الروايات و المنسأة العصا و قوله :
« فلمّا خرّ تبينّت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » الخرو
السقوط على الأرض .

و يستفاد من السياق أنه ﷺ لما قبض كان متكئاً على عصاه فبقي على تلك الحال
قائماً متكئاً على عصاه زماناً لا يعلم بموته إنس ولا جن فبعث الله عز وجل أرضة فأخذت

في أكل منسأته حتى إذا أكلت انكسرت العصا وسقط سليمان على الأرض فعملوا عند ذلك بموته وتبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان المستور عنهم وما لبثوا هذا المقدار من الزمان - وهو من حين قبضه إلى خروجه - في العذاب المهين المذل لهم .

قوله تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين و شمال » الخ سبأ العرب العاربة باليمن سموا .. كما قيل - باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، و قوله : « عن يمين وشمال » أي عن يمين مسكنهم وشماله .

وقوله : « كلوا من رزق ربكم » أمر بالأكل من الجنتين وهو كناية عن رزقهم منهما ، ثم بالشكر له على نعمته و رزقه و قوله : « بلدة طيبة و رب غفور » أي بلدة ملائمة صالحة للمقام و رب كثير الغفران لا يؤاخذكم بسيئاتكم .

قوله تعالى : « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم و بدّلناهم بجنّتهم جنتين ذواتي أكل خمط و أثل و شيء من سدر قليل » العرم المسناة التي تحبس الماء و قيل : المطر الشديد و قيل غير ذلك ، و الأكل بضمّتين كل ثمرة مأكولة ، و الخمط - على ما قيل - كل نبت أخذ طعما من المرارة ، و الأثل الطرفاء و قيل : شجر يشبهها أعظم منها لائثرة له ، و السدر معروف ، و الأثل و شيء معطوفان على « أكل » لأعلى خمط .

و المعنى فأعرضوا أي قوم سبأ عن الشكر الذي أمروا به فجازيناهم و أرسلنا عليهم سيل العرم فأغرق بلادهم وذهب بجنّتهم و بدّلناهم بجنّتهم جنتين ذواتي ثمرة مرة و ذواتي طرفاء و شيء قليل من السدر .

قوله تعالى : « ذلك جزيناهم بما كفروا و هل نجازي إلاّ الكفور » ذلك إشارة إلى ما ذكر من إرسال السيل و تبديل الجنتين و محله النصب مفعولا ثانيا لجزيناهم و الفرق بين الجزاء و المجازاة - كما قيل - أن المجازاة لا تستعمل إلاّ في الشر و الجزاء أعم .

و المعنى جزينا سبأ ذلك الجزاء بسبب كفرهم و إعراضهم عن الشكر - أوفي مقابلة

ذلك - ولا تجازي بالسوء إلا من كان كثير الكفران لأنعم الله .

قوله تعالى : « وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ، الخ ضمير « بينهم » لسبأ ، والكلام مسوق لبيان تنمة قصتهم المطلوب ذكرها وهو عطف على قوله : « كان لسبأ » والمراد بالقرى التي باركنا فيها القرى الشامية ، والمراد بكون القرى ظاهرة كونها متقاربة يرى بعضها من بعض .

وقوله : « وقد رنا فيها السير » أي جعلنا السير فيها على نسبة مقدرة متناسبة غير مختلفة فالنسبة بين واحدة منها وما يليها كالنسبة بين ما يليها وما يليه ، وقوله : « سيروا فيها ليالي وأياما آمنين » على تقدير القول أي وقلنا : سيروا في هذه القرى على أمن إن شئتم ليالي وإن شئتم أياما والمراد قررنا فيها الأمن يسرون فيها متى ماشاؤا من غير خوف وقلق .

قوله تعالى : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم » الخ أي أنعمنا عليهم ما أنعمنا من وفور الفواكه وقرب المنازل وأمن الطرق وسهولة السيور و رغد العيش فملكو ذلك وسئموه وقالوا : ربنا باعد بين أسفارنا أي اجعل أسفارنا ذوات مسافات بعيدة نركب فيها الرواحل ونقطع المفاوز والبوادي وهذا بغى منهم وكفران كما طلبت بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى .

وبالجملة أتم الله نعمه عليهم في السفر بقرب المنازل وأمن الطرق ووفور النعمة كما أتم نعمه عليهم في الحضر وأراد منهم الشكر على ذلك فكفروا بنعمه في السفر كما كفروا بها في الحضر ، فأسرع الله في إسعاف ما اقترحوه فخرّب بلادهم وفرّق جمعهم وشتّت شملهم .

فقوله : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا » اقتراح ضمنى لتخريب بلادهم ، وقوله : « وظلموا أنفسهم » أي بالمعاصي .

وقوله : « فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » أي أزلنا أعيانهم وآثارهم فلم يبق منهم إلا أحاديث يحدث بها فيما يحدث فعادوا أسماء لا مسمى لهم إلا في وهم المتوهم وخيال المتخيل وفرقناهم كل تفرّق فلم يبق من أجزاء وجودهم جزآن

مجتمعان إلا فرقنا بينهما فصاروا كسدى لاشبح له بعد ما كانوا مجتمعاً ذاقوة و شوكة حتى ضرب بهم المثل « تفرقوا أيادي سبا » .

وقوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » أي في هذا الذي ذكر من قصتهم لآيات لكل من كثر صبره في جنب الله وكثر شكره لنعمه التي لا تحصى يستدل بتلك الآيات على أن على الإنسان أن يعبد ربه شكراً لنعمه وأن وراءه يوماً يبعث فيه ويجزى بعمله .

قوله تعالى : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعه إلا فريقاً من المؤمنين » أي حقق إبليس عليهم ظنه أو وجد ظنه صادقاً عليهم إذ قال لربه : « لا غوينهم ولا ضلنهم » « ولا تجد أكثرهم شاكرين » وقوله : « فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين » بيان لتصديقه ظنه .

ومنه يظهر أن ضمير الجمع في « عليهم » ههنا وكذا في الآية التالية لعامة الناس لالسبب خاصة وإن كانت الآية منطبقة عليهم .

قوله تعالى : « وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك » ظاهر السياق أن المراد أنهم لم يتبعوه عن سلطان له عليهم يضطرهم إلى اتباعه حتى يكونوا معذورين بل إنما اتبعوه عن سوء اختيارهم فهم يختارون اتباعه فينسلط عليهم لأنه يتسلط فيتبعونه قال تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم من سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » الحجر : ٤٢ ، وقال حاكياً عن إبليس يوم القيامة : « وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم » إبراهيم : ٢٢ .

ومنشأ اتباعهم له ريب وشك في قلوبهم من الآخرة يظهر منهم بظهور أثره الذي هو الاتباع لإبليس فإنه سبحانه لا إبليس أن يتسلط عليهم من طريق اختيارهم هذا المقدار من التسلط ليمتاز به أهل الشك في الآخرة من أهل الإيمان به ولا يرفع ذلك مسؤوليتهم في اتباعه لكونه عن اختيار منهم .

فقوله : « وما كان له عليهم من سلطان » نفى لكل سلطان وقوله : « إلا لنعلم » أي لنميز « من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك » استثناء لسلطانه عليهم من طريق اتباعهم له عن اختيار منهم ، وقد رضع فيه الغاية موضع ذي الغاية أي التمييز المذكور موضع التسلط من طريق الاتباع الاختياري .

وتقييد الايمان والشك بالآخرة في الآية لمكان أن الرادع الوحيد عن المعصية والداعي إلى الطاعة هو الايمان بالآخرة دون الايمان بالله ورسوله لولا الآخرة كما قال تعالى : « إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ص : ٢٦ .

وقوله : « وربك على كل شيء حفيظ » أي عالم علما لا يفوته المعلوم بنسيان أو سهو أو غير ذلك وفيه تحذير عن الكفران والمعصية وإنذار لأهل الكفر والمعصية .

﴿ بحث روائي ﴾

في كمال الدين بإسناده إلى هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام في حديث يذكر فيه قصة داود عليه السلام قال : إنه خرج يقرأ الزبور وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلا أجابه .

وفي تفسير القمي قوله عز وجل : « أن اعمل سابقات » قال : الدروع « وقد ر في السرد » قال : المسامير التي في الحلقة ، وقوله عز وجل : « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر » قال : كانت الريح تحمل كرسي سليمان فتسير به في الغداة مسيرة شهر وبالعشي مسيرة شهر .

وفي الكافي بإسناده عن داود بن الحصين وعن أبان بن عثمان عن الفضل أبي العباس قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب » قال : ماهي تماثيل الرجال والنساء ولكنّها تماثيل الشجر وشبهه . وفيه عن بعض أصحابنا مرفوعا عن هشام بن الحكم قال : قال أبو الحسن

موسى بن جعفر عليه السلام : يا هشام ثمّ مدح الله القلّة فقال : « و قليل من عبادي الشكور » .

أقول : وقد وقع هذا المعنى في عدّة روايات و هو ينطبق على أحد المعنيين المتقدمين في ذيل الآية .

وفي العلل بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال : أمر سليمان بن داود الجن فضعوا له قبة من قوارير فيبنا هو متكئ على عصاه في القبة ينظر إلى الجن كيف ينظرون إليه إذحاث منه التفاته فإذا رجل معه في القبة قال له : من أنت ؟ قال : أنا الذي لا أقبل الرشا ولاأهاب الملوك أناملك الموت . فقبضه وهو قائم متكئ على عصاه في القبة والجن ينظرون إليه .

قال : فمكثوا سنة يدأبون له حتّى بعث الله عزّ وجلّ الأرضة فأكلت منسأته وهي العصا فلما خرّ تبسّنت الجنّ أن لوكانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين الحديث .

أقول : وبقاؤه عليه السلام على حال القيام متكئاً على عصاه سنة واردة في عدّة من روايات الشيعة وأهل السنة .

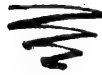
وفي المجمع في الحديث عن فروة بن مسيك قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن سبأ أ رجل هو أم امرأة ؟ فقال : هو رجل من العرب ولد عشرة تيامن منهم ستة وتشاء أربعة فأما الذين تيامنوا فالأزد وكندة ومذحج والأشعرون و أنماروحمير فقال رجل من القوم : ما أنمار ؟ قال : الذين منهم خثعم وبجيلة . وأما الذين تشاءموا فعاملة وجذام ولخم وغسان .

أقول : و رواه في الدرّ المنثور عن عدّة من أرباب الجوامع والسنن عنه صلى الله عليه وآله والمراد بالتيامن والتشاءم السكونة باليمن والشام .

وفي الكافي بإسناده عن سدير قال : سأله رجل أباعبده الله صلى الله عليه وآله عن قول الله عزّ وجلّ « قالوا ربّنا بعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم » الآية فقال : هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر بعضهم إلى بعض وأنهار جارية و أموال ظاهرة فكفروا نعم الله عزّ وجلّ

وغيّروا ما بأنفسهم من عافية الله فغيّر الله ما بهم من نعمه والله لا يغيّر ما يقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم فأرسل الله عليهم سيل العرم ففرّق قراهم وخرّب ديارهم وذهب بأموالهم وأبدلهم مكان جنّاتهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ثمّ قال : «ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور» .

أقول : وورد في عدّة من الروايات أنّ القرى التي بارك الله فيها هم أهل بيت النبي ﷺ والقرى الظاهرة هم الوسائط بينهم وبين الناس من حملة أحاديثهم وغيرهم ، وهو من بطن القرآن وليس من التفسير في شيء .





قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْقَالَ ذَرَّةً فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ ادَّعَيْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠).

﴿بيان﴾

آيات مقررّة للتوحيد واحتجاجات حوله .

قوله تعالى : « قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْقَالَ ذَرَّةً » إلى آخر الآية أمر النبي ﷺ أن يحتج على إبطال ألوهية آلهتهم بعدم قدرتهم على استجابة الدعاء فقوله : « قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ » أي ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ آلهة من دُونِ اللَّهِ - فمفعولا « زعمت » محذوفان لدلالة السياق عليهما - و دعاؤهم هو

مسألتهم شيئاً من الحوائج .

وقوله : « لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض » واقع موقع الجواب كأنه قيل : فماذا يكون إذا دعوهم ؟ فقيل : لا يستجيبون لهم بشيء لأنهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، ولو ملكوا لاستجابوا ولا تتم الربوبية والألوهية إلا بأن يملك الرب ، وإليه شياً مما يحتاج إليه الإنسان فيملكه له وينعم عليه به فيستحق بإزائه العبادة شكراً له فيعبد أما إذا لم يملك شيئاً فلا يكون رباً ولا إلهاً .

وقوله : « وما لهم فيهما من شرك » كان الملك المنفي في الجملة السابقة « لا يملكون » الخ الملك المطلق المنبسط على الجميع والمنفي في هذه الجملة الملك المحدود المتبعض الذي ينبسط على البعض دون الكل إما مشاعاً أو مفروضاً ، لكن المشركين ما كانوا يقولون بالملك المشترك بينهم وبين الله سبحانه مشاعاً بل كانوا يقولون بملك كل من آلهتهم لنوع من الخلقة أو بعض منها وأما الله سبحانه فهو رب الأرباب وإله الآلهة . وعلى هذا كان من الواجب أن يستجيب آلهتهم إذا دعوا فيما يملكونه من الخلقة وعدم استجابتهم كاشف عن عدم ربوبيتهم وألوهيتهم .

وقوله : « وما له منهم من ظهير » أي ليس لله سبحانه منهم كلاً أو بعضاً من معين يعينه فيما يفرض فيه عجزه عن القيام بأمر تديره إذ لو كان له منهم ظهير يظهره على التدبير كان مالكا فيستجيب إذا دعي فيما هو ظهير بالنسبة إليه وإذ ليس فليس .

فتبين مما تقدم أن احتجاج الآية على نفي الملك بانتفاء استجابتهم دعاء الداعي يجري في جميع الصور الثلاث وهي ملكهم لما في السماوات وما في الأرض مطلقاً وملكهم على وجه الشركة مع الله سبحانه وكونهم أو بعضهم ظهيراً لله سبحانه .

قوله تعالى : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » المشركون كانوا يقولون بشفاعة آلهتهم كما حكاها الله سبحانه عنهم بقوله : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » يونس : ١٨ وليس مرادهم بالشفاعة شفاعة يوم القيامة التي يثبتها القرآن الكريم فإنهم ما كانوا يقولون بالمعاد بل الشفاعة في الدنيا لعبادهم عند الله سبحانه ليسعدهم بقضاء حوائجهم

وإصلاح شؤونهم بتوسط آلهتهم .

وإن كانت الآلهة مخلوقين لله مملوكين له من كل وجه فلا يملكون الشفاعة من عند أنفسهم مستقلين بها إلا أن يملكهم الله سبحانه ذلك وهو الإذن لهم في أن يشفعوا فأصل شفاعتهم لوشفعوا بإذن الله سبحانه .

وقوله : « إلا لمن أذن له » يحتمل أن يكون اللام في « لمن » لام الملك والمراد بمن أذن له الشافع من الملائكة والمعنى لا تنفع الشفاعة إلا أن يملكه الشافع بالإذن من الله وأن يكون لام التعليل والمراد بمن أذن له المشفوع له والمعنى لا تنفع الشفاعة إلا للأجل من أذن له من المشفوع لهم قال في الكشف : وهذا يعني الوجه الثاني وجه لطيف وهو الوجه . انتهى .

وهو الوجه فإن الملائكة على ما يستفاد من كلامه تعالى وسائط لا نفاذ الأمر الإلهي وإجرائه قال تعالى : « لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ وقال : « جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة » فاطر : ١ ، والوساطة المذكورة من الشفاعة كما تقدم في مباحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب .

فالملائكة جميعاً شفعاء لكن لا في كل أمر ولكل أحد بل في أمر أذن الله فيه و لمن أذن له فنفي شفاعتهم إلا مع الإذن يناسب المشفوع لهم دون الشفعاء فالآية في معنى قوله تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » الأنبياء : ٢٨ لا في معنى قوله : « ما من شفيع إلا من بعد إذنه » يونس : ٣ .

قوله تعالى : « حتى إذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير » التفريع إزالة الفرع وكشفه وضائر الجمع - على ما يعطيه السياق - للشفعاء وهم الملائكة .

ولازم قوله : « حتى إذا فرغ عن قلوبهم » - وهو غاية - أن يكون هناك أمر مغيب بها وهو كون قلوبهم في فرع ممتد في انتظار أمر الله سبحانه حتى يرتفع بصدور الأمر منه فالآية في معنى قوله تعالى : « والله يسجد - إلى أن قال - والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » النحل : ٥٠ فالفرع هو

التأثر و الانقباض من الخوف و هو المراد بسجدهم تذللًا من خوف ربهم من فوقهم .
وبذلك يظهر أن المراد بفزعهم حتى يفزع عنهم أن التذلل غشي قلوبهم وهو
تذللهم من حيث أنهم أسباب و شفعاء في نفوذ الأمر الإلهي و وقوعه على ما صدر
وكما أريد ، وكشف هذا التذلل هو تلقّيهم الأمر الإلهي و اشتغالهم بالعمل كأَنهم
بحيث لا يظهر من وجودهم إلا فعلهم و طاعتهم لله فيما أمرهم به و أنه لا واسطة بين الله
سبحانه و بين الفعل إلا أمره فافهم ذلك .

و إنما نسب الفزع و التفريع إلى قلوبهم للدلالة على أنهم ذاهلون منصرفون
عن أنفسهم و عن كل شيء إلا ربهم وهم على هذه الحالة لا يشعرون بشيء غيره حتى
إذا كشف الفزع عن قلوبهم عند صدور الأمر الإلهي بلامهل و لا تخلف فليس الأمر
بحيث يعطل أو يتأخر عن الوقوع قال تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن
فيكون » يس : ٨٢ فاستفاد من الآية نظراً إلى هذا المعنى أنهم في فزع حتى إذا
أزيل فزعهم بصدور الأمر الإلهي .

وقوله : « قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق » يدل على أنهم طوائف كثيرون
يسأل بعضهم بعضاً عن الأمر الإلهي بعد صدوره وانكشف الفزع عن قلوب السائلين .
ويتبين منه أن كشف الفزع ونزول الأمر إلى بعضهم أسبق منه إلى بعض آخر
فإن لازم السؤال أن يكون المسؤول عالماً بما سئل عنه قبل السائل .

فلهم مراتب مختلفة و مقامات متفاوتة بعضها فوق بعض تتلقى الدانية منها الأمر
الإلهي من العالية من غير تخلف ولامهلة وهو طاعة الداني منهم للعالي كما يستفاد
ذلك أيضاً بالتدبر في قوله تعالى : « وما منّا إلاّ له مقام معلوم » الصافات : ١٦٤ وقوله
في وصف الروح الأمين : « ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين » التكوين : ٢١ .
فبينهم مطاع و مطيع و لا طاعة مع ذلك إلاّ لله سبحانه لأن المطاع منهم لاشأن
له إلا إيصال ما وصل إليه من الأمر الإلهي إلى مطيعه الذي دونه ، ويمكن أن يستفاد
ذلك من توصيف القول بالحق في قوله : « قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق » أي قال
القول الثابت الذي لا سبيل للبطلان و التبدل إليه .

و ما أَلطف ختم الآية بقوله تعالى : « وهو العليّ الكبير » أي هو العليّ الذي
دونه كل شيء والكبير الذي يصغر عنده كل شيء فليس للملائكة المكرمين إلا تلقى
قوله الحق وامثاله و طاعته كما يريد .

فقد تحصل من الآية الكريمة أن الملائكة فزعون في أنفسهم متذللون في ذواتهم
زاهلون عن كل شيء إلا عن ربهم محدقون إلى ساحة العظمة و الكبرياء في انتظار
صدور الأمر حتى يكشف عن قلوبهم الفزع بصدور الأمر ونزوله وهم مع ذلك طوائف
مختلفة ذوو مقامات متفاوتة علواً ودنواً يتوسط كل عال في إيصال الأمر النازل إلى
من هو دونه .

فهم مع كونهم شفعاء وأسباباً متوسطة لا يشفعون ولا يتوسطون في حدوث حادث
من حوادث الخلق والتدبير إلا بأذن خاص من ربهم في حدوثه فيتحملون الأمر النازل
إليهم حتى يحققوه في الكون من غير أن يستقلوا من أنفسهم في شيء أو يستبدوا برأي
ومن كان هذا شأنه لا يشعر بشيء إلا طاعة ربه فيما يأمره به كيف يكون رباً مستقلاً في
أمره مفوضاً إليه التدبير يعطي ما يشاء و يمنع ما يشاء ؟
وفي الآية أقوال مختلفة آخر :

منها أن ضمير « قلوبهم » و « قالوا » الثاني للمشركين دون الملائكة و ضمير
« قالوا » الأول للملائكة والمعنى حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين وقت الفزع
قالت الملائكة لهم : ماذا قال ربكم ؟ قالت المشركون لهم : الحق فيعرفون بما أنكروه
في الدنيا .

و منها أن ضمير « قلوبهم » للملائكة والمراد أن الملائكة الموكّلين بالأعمال
إذا صعدوا بأعمال العباد إلى السماء و لهم زجل و صوت عظيم خشيت الملائكة أنها
الساعة فيفزعون ويخرون سجداً لله سبحانه حتى إذا كشف عن قلوبهم الفزع و علموا
أنه ليس الأمر كذلك فسألوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق .

و منها أن الله لما بعث النبي ﷺ بعد فترة بينه وبين عيسى عليه السلام لم ينزل فيها
شيء من الوحي أنزل الله سبحانه جبريل بالوحي فلما نزل ظننت الملائكة أنه نزل

بشيء من أمر الساعة فصعقوا لذلك فجعل جبريل يمر "بكل" سماء و يكشف الفرع عن الملائكة الساكنين فيها فرفعوا رؤسهم وقال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق أي الوحي .

ومنها أن الضمير للملائكة والمراد أن الله سبحانه إذا أوحى إلى بعض الملائكة غشي على الملائكة عند سماع الوحي و يصعقون و يخرون سجداً للآية العظيمة فإذا فرغ عن قلوبهم سألت الملائكة ذلك الملك الذي أوحى إليه ماذا قال ربك ؟ أو سألت بعضهم بعضاً ذا قال ربكم ؟ فيعلمون أن الأمر في غيرهم .

و أنت بعد التدبر في الآية الكريمة والتأمل فيما قد مناه تعلم وجه الضعف في هذه الأقوال و أن شيئاً منها على تقدير صحته في نفسه لا يصلح تفسيراً لها .

قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله » الخ احتجاج آخر على المشركين من جهة الرزق الذي هو الملاك العمدة في اتخاذهم الآلهة فإنهم يتعللون في عبادتهم الآلهة بأنها ترضيهم فيوسعون لهم في رزقهم فيسعدون بذلك .

فأمر النبي ﷺ أن يسألهم من يرزقهم من السموات والأرض ؟ والجواب عنه أنه الله سبحانه لأن الرزق خلق في نفسه ولا خالق - حتى عند المشركين - إلا الله عز اسمه لكنهم يستنكفون عن الاعتراف به بالسنتهم وإن أذعنت به قلوبهم ولذلك أمر أن ينوبهم في الجواب فقال : « قل الله » .

وقوله : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » تتممة قول النبي ﷺ وهذا القول بعد إلقاء الحجة القاطعة و وضوح الحق في مسألة الألوهية مبني على سلوك طريق الإصاف ، ومفاده أن كل قول إما هدى أو ضلال لثالث لهما نفيًا وإثباتًا ونحن وأنتم على قولين مختلفين لا يجتمعان فإما أن نكون نحن على هدى وأنتم في ضلال وإما أن تكونوا أنتم على هدى ونحن في ضلال فانظروا بعين الإصاف إلى ما أُلقي إليكم من الحجة وميزوا المهدي من الضال والمحقق من المبطّل .

و اختلاف التعبير في قوله : « على هدى » و « في ضلال » بلفظة على وفي - كما قيل - للإشارة إلى أن المهتدي كأنه مستعل على منار يتطلع على السبيل و غايتها

التي فيها سعادته والضالّ منغمّر في ظلمة لا يدري أين يضع قدمه و إلى أين يسير وماذا يراد به ؟

قوله تعالى : « قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون » أي إن العمل وخاصة عمل الشر لا يتعدّى عن عامله ولا يلحق وباله إلآ به فلا يسأل عنه غيره فلا تسألون عما أجرمنا بل نحن المسؤولون عنه ولا نسأل عما تعملون بل أنتم المسؤولون .

و هذا تمهيد لما في الآية التالية من حديث الجمع والفتح فإنّ الطائفتين إذا اختلفا في الأعمال خيرا وشرّا كان من الواجب أن يفتح بينهما ويتميّز كلّ من الأخرى حتّى يلحق به جزاء عمله من خير أو شرّ أو سعادة أو شقاء و الذي يفتح و يميّز هو الربّ تعالى .

و في التعبير عن عمل أنفسهم بالإجرام و في ناحية المشركين بقوله : « تعملون » ولم يقل تجرمون أخذ بحسن الأدب في المناظرة .

قوله تعالى : « قل يجمع بيننا ربنا ثمّ يفتح بيننا بالحقّ » وهو الفتح العليم، لما كان من الواجب أن يلحق بكلّ من المحسن والمسيء جزاء عمله وكان لازمه التميّز بينهما بالجمع ثمّ الفرق كان ذلك شأن مدبّر الأمر و هو الربّ أمر نبيّه ﷺ أن يذكرهم أنّ الذي يجمع بين الجميع ثمّ يفتح بينهم بالحقّ هو الله فهو ربّ هؤلاء و أوّلئك فإنّه هو الفتح العليم يفتح بين كلّ شيئين بالخلق و التدبير فيتميّز بذلك الشيء من الشيء كما قال : « أنّ السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » الأنبياء : ٣٠ و هو العليم بكلّ شيء .

فالآية تثبت البعث لتمييز المحسن من المسيء أو لا ثمّ انحصار التميّز والجزاء في جانبه تعالى بانحصار الربوبية فيه و يبطل بذلك ربوبية من اتخذوه من الأرباب . والفتح من أسماء الله الحسنى والفتح إيجاد الفصل بين شيئين لفائدة ترتّب عليه كفتح الباب للدخول بإيجاد الفصل بين مصراعيه والفتح بين الشيئين لتميّز كلّ منهما عن الآخر بذاته وصفاته وأفعاله .

قوله تعالى : « قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلاًّ بل هو الله العزيز الحكيم »

أمر آخر للنبي ﷺ أن يسألهم أن يروه آلهتهم حتى يختبر هل فيهم الصفات الضرورية للإله المستحق للعبادة من الاستقلال بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر ؟ وهذا معنى قوله : « أروني الذين ألحقتم به شركاء » أي ألحقتموهم به شركاء له . ثم ردع بنفسه وقال : كلاً لا يكونون شركاء له لأنهم إنما أن يروه الأصنام بما أنها معبودة لهم معدودة آلهتهم وهي أجسام ميتة خالية عن الحياة والعلم والقدرة وإما أن يروه أرباب هذه الأصنام وهم الملائكة وغيرهم يجعل الأصنام تماثيل مشيرة إليهم وهم وإن لم يخلوا عن حياة وعلم وقدرة إلا أن مآلهم من صفات الكمال مفاضة عليهم من الله سبحانه لاستقلالهم في شيء من هذه الصفات ولا في الأفعال المتفرعة عليها فأين الاستقلال في التدبير الذي يدعون أنه مفوض إليهم ؟ فالوجود الواجب بكماله اللامتناهي يمنع أن يكون في خلقه من يشاركه في شيء من كماله . اللهم إلا أن يدعوا أنه شاركهم في بعض ماله من الشؤون لتدبير خلقه من غير صلاحية لهم ذاتية وهذا ينافي بحكمته تعالى .

وقد أشير إلى هذه الحجة بقوله : « بل هو الله العزيز الحكيم » فإن عزته تعالى - وهو منع جانبه أن يعدو إلى حريم كماله عادل لكونه لا يحد بحد - تمنع أن يشاركه في شيء من صفات كماله كالربوبية والألوهية المنتهيتين إلى الذات أحد غيره هذا لو كانت الشركة عن صلاحية ذاتية من الشريك ولو كانت عن إرادة جزافية منه من غير صلاحية حقيقة من الشريك فالحكمة الإلهية تمنع ذلك .

وقد نبين بذلك أن الآية متضمنة لحجة قاطعة برهانية فأحسن التدبر فيها . قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » قال الراغب في المفردات : الكف الكف الإنسان وهي ما بها يقبض ويبسط وكففته أصبت كفته ، وكففته أصبته بالكف ودفعته بها وتغورف الكف بالدفع على أي وجه كان بالكف كان أو غيرها حتى قيل : رجل مكفوف لمن قبض بصره ، وقوله : وما أرسلناك إلا كافة للناس أي كافة لهم عن المعاصي والهيا فيه للمبالغة كقولهم : راوية وعالمة ونسابة . انتهى .

ويؤيد هذا المعنى توصيفه ﷺ بالبشير والنذير فقوله : «بشيرا ونذيرا» حالان
بيّنان صفته لقوله : «كافة للناس» .

و ربّما قيل : إن التقدير وما أرسلناك إلا إرساله كافة للناس ولا يخلو من
تكلف وبعد .

و أمّا كون كافة بمعنى جميعاً وحالا من الناس والمعنى وما أرسلناك إلا للناس
جميعا فهم يمنعون عن تقدّم الحال على صاحبه المجرور .

واعلم أن منطوق الآية وإن كان راجعا إلى النبوة وفيها انتقال من الكلام في
التوحيد إلى الكلام في النبوة على حدّ الآيات التالية لكن في مدلولها حجة أخرى
على التوحيد وذلك أن الرسالة من لوازم الربوبية التي شأنها تدبير الناس في طريق
سعادتهم ومسيرهم إلى غايات وجودهم فعموم رسالته ﷺ وهو رسول الله تعالى لارسل
غيره دليل على أن الربوبية منحصرة في الله سبحانه فلو كان هناك ربّ غيره لجاءهم
رسوله ولم يعمّ رسالة النبي ﷺ أو عمّتهم واحتاجوا معه إلى غيره ، وهذا معنى قول
عليّ عليه السلام - على ما روي - لو كان لربك شريك لأتتك رسله .

و يؤيده ما في ذيل الآية من قوله : « و لكن أكثر الناس لا يعلمون » فإن
دلالة انحصار الرسالة في رسل الله على انحصار الربوبية في الله عزّ اسمه أمسّ بجهل الناس
من كونه ﷺ رسولا كافا لهم عن المعاصي بشيرا ونذيرا .

فمفاد الآية على هذا : لا يمكنهم أن يتركوا شريكه و الحال أننا لم نرسلك إلا
كافا لجميع الناس بشيرا ونذيرا ولو كان لهم إله غيرنا لم يسع لنا أن نرسلك إليهم وهم
عباد لإله آخر و الله أعلم .

قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » سؤال عن وقت الجمع
و الفتح و هو البعث فالآية متصلة بقوله السابق : « قل يجمع بيننا ربنا » الآية
و هذا أيضا من شواهد ما قدّمنا من المعنى لقوله : « وما أرسلناك إلا كافة » وإلا كانت
هذه الآية والتي بعدها متخلّلتين بين قوله : « وما أرسلناك » الآية والآيات التالية
المتعرّضة لمسألة النبوة .

قوله تعالى : « قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون » أمر منه تعالى أن يجيبهم بأن لهم ميعاد يوم مقضي محتوم لا يتخلف عن الوقوع فهو واقع قطعاً ولا يختلف وقت وقوعه البتة أي إن الله وعده وعدا لا يخلفه إلا أن وقت وقوعه مستور لا يعلمه إلا الله سبحانه .

و ما قيل : إن المراد به يوم الموت غير سديد فإنهم لم يسألوا إلا عما تقدم وعده وهو يوم الجمع والفتح و الجمع ثم الفتح من خصائص يوم القيامة دون يوم الموت .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « حتى إذا فرغ من قولهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق » وهو العلي الكبير ، و ذلك أن أهل السماوات لم يسمعوا وحيًا فيما بين أن بعث عيسى بن مريم إلى أن بعث محمد عليه السلام فلما بعث الله جبرئيل إلى محمد سمع أهل السماوات صوت وحي القرآن كوقع الحديد على الصفا فصعق أهل السماوات .

فلما فرغ من الوحي انحدر جبرئيل كلما مر بأهل سماء فرغ عن قولهم يقول : كشف عن قلوبهم ، فقال بعض لبعض : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلي الكبير .

أقول : و روي مثله من طرق أهل السنة موصولا و موقوفا عن النبي صلى الله عليه وآله و مدلول الرواية على أي حال مصداق من مصاديق الآية ولا تصلح لتفسيرها البتة . و في الدر المنثور عن ابن مردويه عن ابن عباس و في المجمع عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي : بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود وإنما كان النبي يبعث إلى قومه ، و نصرت بالرعب يرعب مني عدوي على مسيرة شهر ، و أطعمت المغنم ، و جعلت لي الأرض مسجدا و طهورا ، و أعطيت الشفاعة فادخرتها لأمتي إلى يوم القيامة وهي إن شاء الله نائلة من لا يشرك بالله شيئا .

أقول : و روى أيضا هذا المعنى عن ابن المنذر عن أبي هريرة عنه رضي الله عنه.

و الرواية معارضة لماورد مستفيضا أن نوحا كان مبعوثا إلى الناس كافة وذكر في بعضها إبراهيم عليه السلام وفي بعضها أن أولي العزم كلهم مبعوثون إلى الدنيا كافة، وتخالف أيضا عموم الشفاعة للأنبياء المستفاد من عدة من الروايات وقد قال تعالى : «ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون» الزخرف : ٨٦ ، وقد شهد القرآن بأن المسيح عليه السلام من الشهداء قال تعالى : «ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا» النساء : ١٥٩ .

و الروايات من طرق العامة والخاصة كثيرة في عموم رسالته للناس كافة و ظاهر كثير منها أخذ «كافة» في قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس ، حالامن للناس» قد تم عليه ويمنعه البصريون من النجاة ويجوز الكوفيون .





وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْجَعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١)
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنْحُنَّ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهَدَى بَعْدَ
إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ
لَهُ أَنْدَادًا وَاسْرُوا الدَّامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ
الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي
قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا
نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ
وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الْضَّعْفُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ (٣٧)
وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)
قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ

مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ
 يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ
 وَلِينَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)
 فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا
 عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ (٤٢) وَ إِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
 بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ
 وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا أَفْكٌ مَقْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
 إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا
 أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا
 مَعَهَا وَمَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ
 بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ
 جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ
 مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧)
 قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدِئُ الْبَاطِلُ
 وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا
 يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) وَ لَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوتَ وَ

أَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَ قَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ
 مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ
 بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ
 إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤).

﴿بيان﴾

فصل آخر من آيات السورة تتكلم في أمر النبوة و ما يرجع إليها و ما يقول
 المشركون فيها و تتخلص في خلالها بما يجري عليهم يوم الموت أو يوم القيامة ، و قد
 اتصلت بقوله في الفصل السابق : « و ما أرسلناك إلا كافة للناس » الآية و قد عرفت
 أن الآية كالبرزخ بين الفصلين تذكر الرسالة و تجعلها دليلا على التوحيد .

قوله تعالى : « و قال الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَ لَآ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ »
 المراد بِالَّذِينَ كَفَرُوا المشركون و المراد بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ الكتب السماوية من التوراة
 و الإنجيل و ذلك أن المشركين و هم الوثنيون ليسوا قائلين بالنبوة و يتبعها الكتاب
 السماوي .

و قول بعضهم : « إن المراد بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ هو أمر الآخرة » مما لا دليل
 يساعده ، و قد أكثر القرآن الكريم من التعبير عن التوراة و الإنجيل بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
 و من الخطاء قول بعضهم : إن المراد بِالَّذِينَ كَفَرُوا هم اليهود .

قوله تعالى : « و لو ترى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ » الخ الظاهر أن
 اللام في « الظالمون » للمعبد و هذه الآية و الآياتان بعدها تشير إلى أن وبال هذا الكفر
 - و أساسه ضلال أئمة الكفر و إضلالهم تابعيهم - سيلحق بهم و سيندمون عليه ولن
 ينفعهم الندم .

فقوله : « و لو ترى ، خطاب للنبي ﷺ إذ هم بمعزل عن فهم الخطاب » إذ الظالمون ، وهم الكافرون بكتب الله ورسله ، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر «موقوفون عند ربهم» للحساب و الجزاء يوم القيامة « يرجع بعضهم إلى بعض القول » أي يتحاورون ويتراجعون في الكلام متخاصمين « يقول الذين استضعفوا » بيان لرجوع بعضهم إلى بعض في القول والمستضعفون الأتباع الذين استضعفتهم المتبوعون « للذين استكبروا » وهم الأئمة القادة «لولا أنتم لكنتم مؤمنين» يريدون أنكم أجبرتمونا على الكفر وحلتم بيننا وبين الإيمان .

« قال الذين استكبروا للذين استضعفوا » جوابا عن قولهم ردّا لما اتهموهم به من الإكراه والإكراه « أنحن صددناكم » الاستفهام للإيثار أي «أنحن صرفناكم» عن الهدى بعد إذ جاءكم « فبلوغيه إليكم بالدعوة النبوية أقوى الدليل على أنالهم نحل بينه وبينكم وكنتم مختارين في الإيمان به و الكفر » بل كنتم مجرمين « متلبسين بالإجرام مستمرين عليه فأجرتهم بالكفر به لما جاءكم من غير أن تجبركم عليه فكفركم منكم ونحن براء منه .

« و قال الذين استضعفوا للذين استكبروا » ردّا لقولهم ودعواهم البراءة « بل مكر الليل والنهار » أي مكركم بالليل والنهار حملنا على الكفر «إن» كنتم «تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا» وأمثالا من الآلهة أي إنكم لم تزالوا في الدنيا تمكرون الليل والنهار وتخطون الخطط لتستضعفونا وتأمروا علينا فتحملونا على طاعتكم فيما تريدون ، فلم نشعر إلا ونحن مضطرون على الائتمار بأمركم إذ تأمرونا بالكفر والشرك .

« وأسروا » وأخفوا « الندامة لما رأوا العذاب » وشاهدوا أن لامناص ، وإخفاؤهم الندامة يوم القيامة - وهو يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء - نظير كذبهم على الله وإنكارهم الشرك بالله و حلفهم لله كاذبين كل ذلك من قبيل ظهور ملكاتهم الرذيلة التي رسخت في نفوسهم فقد كانوا يسرون الندامة في الدنيا خوفا من شماتة الأعداء وكذلك يفعلون يوم القيامة مع ظهور ما أسروا واليوم يوم تبلى السرائر كما يكذبون

بمقتضى ملكة الكذب مع ظهور أنهم كاذبون في قولهم .

ثم ذكر سبحانه أخذهم للعذاب فقال: «وجعلنا الأغلال» والسلاسل «في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون» فصارت أعمالهم أغلالا في أعناقهم تحبسهم في العذاب .

قوله تعالى: «وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون» المترفون اسم مفعول من الإتراف وهو الزيادة في التمتع ، وفيه إشعار بأن الإتراف يفضي إلى الاستكبار على الحق كما تفيد الآية اللاحقة .

قوله تعالى: «وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين» ضمير الجمع للمترفين ، ومن شأن الإتراف والترفع والتقلب في نعم الدنيا أن يتعلق قلب الإنسان بها ويستعظمها فيرى السعادة فيها سواء وافق الحق أم خالفه فلا يذكر إلا ظاهر الحياة وينسى ما وراءه .

ولذا حكى سبحانه عنهم ذلك إن قالوا: «نحن أكثر أموالا وأولادا» فلا سعادة إلا فيها ولا شقوة معها «وما نحن بمعذبين» في آخرة ، ولم ينفوا العذاب إلا للغفلة والانصراف عما وراء كثرة الأموال والأولاد فاذ كانت هي السعادة والفلاح فحسب بالعذاب في فقدانها ولا عذاب معها .

وهنا وجه آخر وهو أنهم لغرورهم بما رزقوا به من المال والولد ظنوا أن لهم كرامة على الله سبحانه وهم على كرامتهم عليه ماداموا والمعنى أنا ذوو كرامة على الله بما أوتينا من كثرة الأموال والأولاد ونحن على كرامتنا فما نحن بمعذبين لو كان هناك عذاب .

فتكون الآية في معنى قوله: «ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى» حم السجدة : ٥٠ .

قوله تعالى: «قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون» الآية وما يتلوها إلى تمام أربع آيات جواب عن قولهم: «نحن أكثر أموالا»

الخ وقد أُجيب عنه بوجهين أحدهما أن أمر الرزق من الأموال والأولاد سعة وضيقا بيد الله على ما تستدعيه الحكمة والمصلحة وهما من الأسباب لأمشية الإنسان وللكرامة له على الله فربما بسط في رزق مؤمن أو كافر أو عاقل ذي حزم أو أحمق خفيف العقل وربما بسط على واحد ثم قدرله . فلا دلالة في الإنفاق على سعادة أو كرامة .

و هذا معنى قوله : « قل إن ربّي » نسبة إلى نفسه لأنهم لم يكونوا يرون الله رباً لأنفسهم والرزق من شؤون الربوبية « يبسطه أي يوسع » الرزق لمن يشاء « من عباده بحسب الحكمة والمصلحة » و يقدر « أي يضيق » ولكن أكثر الناس لا يعلمون « فينسبونه مالم يؤتوه إلى الأسباب الظاهرية الاتفاقية ثم إذا أوتوه نسبوه إلى حزمهم وحسن تدبيرهم أنفسهم وكفى به دليلاً على الحق .

قوله تعالى : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّ بكم عندنا زلفى » إلى آخر الآيتين هذا هو الجواب الثاني عن قولهم : « نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » ومحصله أن انتفاء العذاب المترتب على القرب من الله لا يترتب على الأموال والأولاد إذ لا توجب الأموال والأولاد قرباً وزلفى من الله حتى ينتفي معها العذاب الإلهي فوضع تقريب المال في الآية موضع انتفاء العذاب من قبيل وضع السبب موضع المسبب .

و هذا معنى قوله : « وما أموالكم ولا أولادكم » التي تعتمدون عليها في السعادة و انتفاء عذاب الله « بالتي » أي بالجماعة التي « تقرّ بكم عندنا زلفى » أي تقرباً . « إلا من آمن وعمل صالحاً » في ماله وولده بأن أنفق من أمواله في سبيل الله وبث الإيمان والعمل الصالح في أولاده بتربية دينية « فأولئك لهم جزاء الضعف » لعلمه من إضافة الموصوف إلى الصفة أي الجزاء المضاعف من جهة أنهم اهتدوا وهدوا و أيضاً من جهة تضعيف الحسنات إلى عشر أضعافها وزيادة « وهم في الغرفات » أي في القباب العالية « آمنون » من العذاب فمأهمل بمعذبين .

« والذين يسعون في آياتنا معاجزين » أي يجدون في آياتنا وهم يريدون

أن يعجزونا - أو أن يسبقونا - « أولئك في العذاب محضرون » وإن كثرت أموالهم وأولادهم .

وفي قوله : « وما أموالكم ولا أولادكم » الخ انتقال إلى خطاب عامة الناس من الكفار وغيرهم والوجه فيه أن ما ذكره من الحكم حكم الأموال والأولاد سواء في ذلك المؤمن والكافر فالمال والولد إنما يؤثران أثرهما الجميل إذا كان هناك إيمان وعمل صالح فيهما وإلا فلا يزيدان إلا وبالاً .

قوله تعالى : « قل إن ربِّي يسبط الرزق لمن يشاء ويقدر وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » قال في مجمع البيان : يقال : أخلف الله له وعليه إذا أبدل له ما ذهب عنه . انتهى .

سياق الآية يدل على أن المراد بالإنفاق فيها الإِنفاق في وجوه البرِّ والمراد بيان أن هذا النحو من الإنفاق لا يضيع عند الله بل يخلفه ويرزق بدله .

فقوله في صدر الآية : « قل إن ربِّي يسبط الرزق لمن يشاء ويقدر » للإشارة إلى أن أمر الرزق في سعته وضيقه إلى الله سبحانه لا ينقص بالإنفاق ولا يزيد بالامسآك ثم قال : « وما أنفقتم من شيء » قليلاً كان أو كثيراً وأياً ما كان من المال « فهو يخلفه » ويرزقكم بدله إما في الدنيا وإما في الآخرة « وهو خير الرازقين » فإنه يرزق جوداً ورزق غيره معاملة في الحقيقة ومعوضة ، ولأنه الرازق في الحقيقة وغيره ممن يسمى رازقاً واسطة لوصول الرزق .

قوله تعالى : « و يوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون » المراد بهم جميعاً بشهادة السياق العابدون والمعبودون جميعاً .

وقوله : « ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون » ليس سؤال استخبار عن أصل عبادتهم لهم ولو كان كذلك لم يسمعهم إنكارها لأنهم عبدوهم في الدنيا وقد أنكروها كما في الآية التالية بل المراد السؤال عن رضاهم بعبادتهم على حد قوله تعالى لعيسى بن مريم : « ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » .

والغرض من السؤال تبكيك المشركين وإقناطهم من نصرة الملائكة وشفاعتهم لهم وقد عبدوهم في الدنيا لذلك .

قوله تعالى : « قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن » أكثرهم بهم مؤمنون ، أخذت الملائكة في جوابهم عن سؤاله تعالى بجوامع الأدب فنزّهه سبحانه أو لا تنزيها مطلقا فيه تنزيهه من أن يعبدوا من دونه ثم نفوا رضاهم بعبادة المشركين لهم لكن لا بالتصريح بنفي الرضا بالعبادة ولا بالتفوّه بعبادتهم صونا لاساحة المخاطبة عما يقرع السمع بذلك و لو تصوّرا لاتصديقا بل أجابوا بقصر ولايتهم فيه تعالى ونفيها عنهم ليدل على نفي الرضا بعبادتهم لهم على طريق الكناية فإن الرضا بعبادتهم لازمه الموالاته بينهم و الموالاته بينهم تنافي قصر الولاية في الله سبحانه فإذا انحصرت الولاية فيه تعالى لم تكن موالاته وإذا لم تكن موالاته لم يكن رضا .

ثم قالوا على ما حكاه الله سبحانه : « بل كانوا يعبدون الجن » أكثرهم بهم مؤمنون ، والجن هم الطائفة الثانية من الطوائف الثلاث التي يعبدهم الوثنيون و هم الملائكة والجن و القدّيسون من البشر ، و الأقدم في استحقاق العبادة عندهم هم الطائفتان الأوليان و الطائفة الثالثة ملحقة بهما بعد الكمال و إن كانوا أفضل منهما .

والإضراب في قولهم : « بل كانوا يعبدون الجن » يدل على أن الجن كانوا على رضى من عبادتهم لهم .

وهؤلاء من الجن هم الذين يعدّهم الوثنيون مبادئ الشرور في العالم فيعبدونهم اتقاء من شرورهم كما يعبدون الملائكة طمعا في خيراتهم لما أنتم مباد للخيرات لا كما قيل : إن المراد بالجن إبليس وذريته وقبيله ومعنى عبادتهم لهم طاعتهم فيما دعوهم إليه من عبادة الملائكة أو مطلق المعاصي ، ويردّه ما وقع في الآية من التعبير بلفظ الإيمان دون الطاعة ولما قيل : إنهم كانوا يتمثلون لهم ويخيّلون لهم أنتم الملائكة فيعبدونهم ، و لا ما قيل : إنهم كانوا يدخلون أجواف الأصنام إذا عبت فيعبدون بعبادتها .

ولعل الوجه في نسبة الايمان بهم إلى أكثرهم دون جميعهم أن أكثرهم يعبدون الآلهة اتقاء من طروق الشر من قبلهم ومبادئ الشر عندهم مطلقا الجن لا كما قيل : إن المراد بالأكثر الكل وهو مبني على تفسير العبادة بمعنى الطاعة وقد عرفت ما فيه .

قوله تعالى : فالיום لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون « نوع تفريع على تبرئ الملائكة منهم وقد بين تبرئ عامة المتبوعين من تابعيهم والتابعين من متبوعيهم في مواضع كقوله تعالى : « ويوم القيامة يكفرون بشرككم فاطر : ١٤ ، وقوله : « ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا » العنكبوت : ٢٥ . ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كنتم يعبد آباؤكم » الخ خطابهم هذا لعامتهم بعد استماع الآيات تنبيه لهم على الجد في التمسك بدين آبائهم وتحريض لهم عليه ﷺ ، وفي توصيف الآيات بالبينات نوع عتبي كأنه قيل : إذا تتلى عليهم هذه الآيات وهي بيّنة لا ريب فيها فبدلاً من أن يدعوا عامتهم إلى اتباعها حشّوهم على الإصرار على تقليد آبائهم وحرّضوهم عليه - وفي إضافة الآباء إلى ضمير « كم » مبالغة في التحريض والإثارة .

وقوله : « وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى » معطوف على « قالوا » أي وقالوا مشيراً إلى الآيات البينات إشارة تحقير : ليس هذا إلا كلاماً مصرفاً عن وجهه مكذوباً به على الله ، بدلاً من أن يقولوا : إنها آيات بينات نازلة من عند الله تعالى - وقد أشاروا إلى الآيات البينات بهذا دلالة على أنهم لم يفهموا منها إلا أنها شيء ما لا أزيد من ذلك .

ثم غير سبحانه السياق وقال : « وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين » و مجيء الحق لهم بلوغه وظهوره لهم ، والأخذ بوصف الكفر للإشعار بالتعليل والمعنى والذين كفروا بعنهم الكفر إلى أن يقولوا للحق الصريح الذي بلغهم وظهر لهم هذا سحر ظاهر سحرته وبطلانه .

و أكد إصرارهم على دحض الحق "باتّباع الهوى من غير دليل يدلّ عليه بقوله:
 « وما آتيناهم من كتب يدرسونها و ما أرسلنا إليهم قبلك من نذير » و الجملة حالّة
 أي وعدّ الذين كفروا - أي كفّار قريش - الحقّ الصريح الظاهر لهم سحرامينا والحال
 أننا لم نعطيهم كتباً يدرسونها حتّى يميّزوا بها الحقّ من الباطل ولم نرسل إليهم قبلك
 من رسول ينذرهم و يبيّن لهم ذلك فيقولوا استناداً إلى الكتاب الإلهي أو إلى قول
 الرسول النذير : إنّه حقّ أو باطل .

قوله تعالى : « و كذب الذين من قبلهم و ما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا
 رسلي فكيف كان نكير » ضميراً الجمع الأول و الثاني لكفّار قريش و من يتلوهم
 و الثالث و الرابع للذين من قبلهم ، والمعشار العشر والنكير الإنكار والمراد به في الآية
 لازمه و هو الأخذ بالعذاب .

و المعنى وكذب بالحقّ من الآيات الذين كانوا من قبل كفّار قريش من الأمم الماضية
 ولم يبلغ كفّار قريش عشر ما آتيناهم من القوة والشدة فكذب أو لك الأقسام رسلي
 فكيف كان أخذي بالعذاب و ما أهون أمر قريش . و الالتفات في الآية إلى التكلم
 لاستعظام الجرم و تهويل المؤاخذه .

قوله تعالى : « قل إنّما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثمّ تتفكروا
 بصاحبكم من جنّة » المراد بالموعظة الوصيّة كناية أو تضميناً ، وقوله : « أن تقوموا لله »
 أي تنهضوا لأجل الله و لوجهه الكريم ، وقوله : « مثنى وفرادى » أي اثنين اثنين
 و واحداً واحداً كناية عن التفرّق و تجنّب التجمّع والفوغاء فإنّ الفوغاء لاشعور لها
 ولا فكر وكثيراً ما تميت الحقّ وتحبي الباطل .

وقوله : « ما بصاحبكم من جنّة » استئناف و « ما » نافية ويشهد بذلك قوله بعد:
 « إنّ هو إلّا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » ويمكن أن يكون « ما » استفهاميّة أو
 موصولة و « من جنّة » بياناً له .

و المراد بصاحبكم النبي ﷺ نفسه و الوجه في التعبير به تذكيرهم بصحبته

الممتدة لهم أربعين سنة من حين ولادته إلى حين بعثته ليتذكروا أنهم لم يعهدوا منه اختلالاً في فكر أو خفة في رأي أو أي شيء يوهم أن به جنونا .

و المعنى قل لهم : إنما أوصيكم بالعظة أن تنهضوا و تنتصّبوا الوجه الله متفرّقين حتى يصفو فكركم ويستقيم رأيكم اثنين اثنين و واحداً واحداً و تفكّروا في أمري فقد صاحبكم طول عمري على سداد من الرأي و صدق و أمانة ليس في من جنّة . ما أنا إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد في يوم القيامة فأنا ناصح لكم غير خائن .

قوله تعالى : « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم » الخ كناية عن عدم سؤال أجر على الدعوة فإنّه إذا وهبهم كل ما سأله من أجر فليس له عليهم أجر مسؤول و لازمه أن لا يسألهم و هذا تطيب لنفوسهم أن لا يتهموه بأنّه جعل الدعوة ذريعة إلى نيل مال أو جاه .

ثمّ تمّم القول بقوله : « إن أجري إلّا على الله وهو على كل شيء شهيد » لئلا يردّ عليه قوله بأنّه دعوى غير مسموعة فإنّ الإنسان لا يروم عملاً بغير غاية فدفعه بأنّ لعمله أجراً لكنّه على الله لا عليكم وهو يشهد عملي وهو على كل شيء شهيد .

قوله تعالى : « قل إن ربّي يقذف بالحقّ علام الغيوب » القذف الرمي ، و قوله : « علام الغيوب » خبر بعد خبر أو خبر لمبتدأ محذوف و هو الضمير الراجع إليه تعالى .

و مقتضى سياق الآيات السابقة أن المراد بالحقّ المقذوف القرآن النازل إليه بالوحي من عنده تعالى الذي هو قول فصل بحقّ الحقّ و يبطل الباطل فهو الحقّ المقذوف إليه ﷺ من عند علام الغيوب فيدمغ الباطل و يزهرقه قال تعالى : « بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » الأنبياء : ١٨ ، و قال : « قل جاء الحقّ و زهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » أسرى : ٨١ .

قوله تعالى : « قل جاء الحقّ و ما يبدي الباطل و ما يعيد » المراد بمجيء

الحقّ على ما تهدي إليه الآية السابقة نزول القرآن المبطل بحججه القاطعة وبراهينه الساطعة لكلّ باطل من أصله .

وقوله : « وما يبدىء الباطل وما يعيد » أي ما يظهر أمراً ابتدائياً جديداً بعد مجيء الحقّ وما يعيد أمراً كان قد أظهره من قبل إظهاراً ثانياً بنحو الإعادة فهو كناية عن بطلان الباطل وسقوطه عن الأثر من أصله بالحقّ الذي هو القرآن .

قوله تعالى : « قل إن ضللت فإني أنا الضالّ على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربّي إنّهُ سميع قريب » بيان لأنّ الحقّ الذي هو الوحي فإنّه عرفه حقاً مطلقاً فالحقّ إذاً كان حقاً من كلّ جهة لم يخطئ في إصابة الواقع في جهة من الجهات وإلاّ كان باطلاً من تلك الجهة فالوحي يهدي ولا يخطئ، البتّة .

ولذا قال تأكيداً لما تقدّم : « قل إن ضللت » وفرض منّي ضلال « فإني أنا الضالّ » مستقراً ذلك الضلال « على نفسي » فإنّ للإنسان من نفسه أن يضلّ « وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربّي » فوحيه حقّ لا يحتمل ضلالاً ولا يؤثر إلّا الهدى .

وقد علّل الكلام بقوله : « إنّهُ سميع قريب » للدلالة على أنّه يسمع الدعوة ولا يحجبها عنها حاجب البعد وقد مهّد له قبلاً وصفه تعالى في قذف الحقّ بأنّه علام الغيوب فلا يغيب عنه أمر يخلّ بأمره ويمنع نفوذ مشيئته هداية الناس بالوحي قال تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عدداً » الجن : ٢٨ .

قوله تعالى : « ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب » ظاهر السياق السابق ويشعر به قوله الآتي : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياهم من قبل » أنّ الآيات الأربع وصف حال مشركي قريش ومن يلحق بهم حال الموت . فقوله : « ولو ترى إذ فرعوا » أي حين فرع هؤلاء المشركون عند الموت « فلا فوت » أي لا يفوتون الله بهرب أو تحصن أو أيّ حائل آخر .

وقوله : « وأُخذوا من مكان قريب » كناية عن عدم فصل بينهم وبين من يأخذهم وقد عبر بقوله : « أُخذوا » مبنياً للمفعول ليستند الأخذ إليه سبحانه ، وقد وصف نفسه بأنه قريب ، وكشف عن معنى قرب به بقوله : « ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون » الواقعة : ٨٥ ، و أزيد منه في قوله : « ونحن أقرب إليكم من جبل الوريد » ق : ١٦ و أزيد منه في قوله : « أن الله يحول بين المرء وقلبه » الأنفال : ٢٤ فيبين أنه أقرب إلى الإنسان من نفسه وهذا الموقف هو المرصاد الذي ذكره في قوله : « إن ربك بالمرصاد » الفجر : ١٤ فكيف يتصور فوت الإنسان منه وهو أقرب إليه من نفسه ؟ أومن ملائكته المكرمين الذين يأخذون الأمر منه تعالى من غير حاجب يحجبهم عنه أو واسط يتوسط بينه وبينهم .

فقوله : « وأُخذوا من مكان قريب » نوع تمثيل لقربه تعالى من الإنسان بحسب مائتصوره من معنى القرب لاحتباسنا في سجن الزمان والمكان وأنسنا بالأمور المادية وإلا فالأمر أعظم من ذلك .

قوله تعالى : « وقالوا آمنا به وأنتى لهم التناوش من مكان بعيد » التناوش التناول وضمير « به » للقرآن على ما يعطيه السياق .

و المراد بكونهم في مكان بعيد أنهم في عالم الآخرة وهي دار تعيين الجزاء وهي أبعد ما يكون من عالم الدنيا التي هي دار العمل وموطن الاكتساب بالاختيار وقد تبدل الغيب شهادة لهم والشهادة غيبا كما تشير إليه الآية التالية .

قوله تعالى : « وقد كفروا به من قبل و يقذفون بالغيب من مكان بعيد » حال من الضمير في « وأنتى لهم التناوش » والمراد بقوله : « و يقذفون بالغيب من مكان بعيد » رميهم عالم الآخرة وهم في الدنيا بالظنون مع عدم علمهم به وكونه غائبا عن حواسهم إذ كانوا يقولون : لا بعث ولاجنة ولا نار ، وقيل : المراد به رميهم النبي ﷺ بالسحر والكذب والافتراء والشعر .

و العناية في إطلاق المكان البعيد على الدنيا بالنسبة إلى الآخرة نظيرة إطلاقه على الآخرة بالنسبة إلى الدنيا وقد تقدمت الإشارة إليه .

و معنى الآيتين : وقال المشركون حينما أخذوا آمنًا بالحق الذي هو القرآن و أنتى لهم تناول الإيمان به - إيمانًا يفيد النجاة - من مكان بعيد وهو الآخرة والحال أنهم كفروا به من قبل في الدنيا وهم ينفون أمور الآخرة بالظنون والأوهام من مكان بعيد وهو الدنيا .

قوله تعالى : « وحيل بينهم و بين ما يشتهون كما فعل بأشياهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب » ظاهر السياق أن المراد بما يشتهون اللذائذ المادية الدنيوية التي يحال بينهم وبينها بالموت ، و المراد بأشياهم من قبل أشباههم من الأمم الماضية أو موافقوهم في المذهب ، و قوله : « إنهم كانوا في شك مريب » تعليل لقوله : « كما فعل » الخ .

و المعنى وقعت الحيلولة بين المشركين المأخوذين و بين ما يشتهون من ملاذ الدنيا كما فعل ذلك بأشباههم من مشركي الأمم الدارجة من قبلهم إنهم كانوا في شك مريب من الحق أو من الآخرة فيقذفونها بالغيب .

واعلم أن ما قد مناه من الكلام في هذه الآيات الأربع مبني على ما يعطيه ظاهر السياق و قد استفاضت الروايات من طرق الشيعة و أهل السنة أن الآيات ناظرة إلى خسف جيش السفينائي بالبيداء وهو من علائهم ظهور المهدي عليه السلام المتصلة به فعلى تقدير نزول الآيات في ذلك يكون ما قد مناه من المعنى من باب جري الآيات فيه .



﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » قال :
يسروا الندامة في النار إذا رأوا ولي الله فقيل : يا بن رسول الله وما يغنيهم إسرارهم
الندامة وهم في العذاب ؟ قال : يكرهون شماعة الأعداء .

أقول : ورواه أيضا عن أبي عبد الله عليه السلام .

وفيه وذكر رجل عند أبي عبد الله عليه السلام الأغنياء ووقع فيهم فقال أبو عبد الله عليه السلام :
اسكت فإن الغني إذا كان وصولا لرحمه بارأبا خوأنه أضعف الله له الأجر ضعفين لأن الله
يقول : « وما أموالكم ولا أولادكم بالثمن تقر بكم عندنا لئلا من آمن وعمل صالحا
فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون .

وفي أمالي الشيخ بإسناده إلى أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يقول فيه : حتى
إذا كان يوم القيامة حسب لهم ثم أعطاهم بكل واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف
قال الله عز وجل : « جزاء من ربك عطاء حسبا » وقال : « أولئك لهم جزاء الضعف
بما عملوا وهم في الغرفات آمنون » .

وفي الكافي بإسناده عن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله :
من صدّق بالخلف جاد بالعطية .

وفيه بإسناده عن سماعة عن أبي الحسن عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من
أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول إن لكل يوم نحسا فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة ثم قال :
اقرؤا مواضع الخلف فإنني سمعت الله يقول : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » إذا لم
ينفقوا كيف يخلف ؟

وفي تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى :

« قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم » وذلك أن رسول الله ﷺ سأل قومه أن يودوا أقاربه ولا يؤذونهم . وأما قوله : « فهو لكم » يقول : نوابه لكم .

و في الدر المنثور في قوله تعالى : « ولو ترى إذ فرعوا » الآية أخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ يخرج رجل يقال له السفيناني في عمق دمشق وعامة من يتبعه من كلب فيقتل حتى يبقربطون النساء ويقتل الصبيان فيجمع لهم قيس فيقتلها حتى لا يمنع ذنب تلعة و يخرج رجل من أهل بيتي فيبلغ السفيناني فيبعث إليه جندا من جنده فيهزمهم فيسير إليه السفيناني بمن معه حتى إذا صار ببدياء من الأرض خسف بهم فلا ينجو منهم إلا المخبر منهم .

أقول : و الرواية مستفيضة من طرق أهل السنة مختصرة أو مفصلة و قدروها من طرق مختلفة عن ابن عباس و ابن مسعود وحذيفة و أبي هريرة وجد عمرو بن شعيب و أم سلمة و صفية و عائشة و حفصة أزواج النبي ﷺ و نفيرة امرأة القمقاع و عن سعيد ابن جبير موقوفا .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت » حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي خالد الكلبلي قال : قال أبو جعفر عليه السلام والله لكأنني أنظر إلى القائم عليه السلام وقد أسند ظهره إلى الحجر ثم ينشده الله حقه ثم يقول : يا أيها الناس من يحاجني في الله فأنا أولى بالله . أيها الناس من يحاجني بآدم فأنا أولى بآدم . أيها الناس من يحاجني في نوح فأنا أولى بنوح . أيها الناس من يحاجني بآدم فأنا أولى بآدم . أيها الناس من يحاجني بموسى فأنا أولى بموسى . أيها الناس من يحاجني بعيسى فأنا أولى بعيسى . أيها الناس من يحاجني بمحمد فأنا أولى بمحمد . أيها الناس من يحاجني بكتاب الله فأنا أولى بكتاب الله .

ثم ينتهي إلى المقام فيصلّي ركعتين وينشده الله حقه ثم قال أبو جعفر عليه السلام : هو والله المضطر في كتاب الله في قوله : « آمن يجب المضطر » إذا دعاه و يكشف سوء و يجعلكم خلفاء الأرض .

فيكون أول من يبايعه جبرئيل ثم الثلاث مائة و الثلاثة عشر فمن كان ابتلي

بالمسير وافى ومن لم يتبل بالمسير فقد عن فراشه وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام : هم المفقودون عن فرشهم وذلك قول الله : « فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا » قال : الخيرات الولاية وقال في موضع آخر : « ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة » وهم أصحاب القائم عليه السلام يجتمعون والله إليه في ساعة واحدة .

فإذا جاء إلى البیداء يخرج إليه جيش السفیانی " فیامر الله عز وجل الأرض فیاخذ بأقدامهم وهو قوله عز وجل : « ولو ترى إذ فرعوا فلا فوتوا أخذوا من مكان قريب وقالوا آمنا به » یعنی بالقائم من آل محمد عليه السلام « وأنتی لهم التناوش من مكان بعيد وحیل بینهم و بین ما یشتبهون » یعنی أن لا یعدوا « كما فعل بأشیاعهم » یعنی من كان قبلهم من المكذبین هلکوا « من قبل إنهم كانوا فی شک مریب » .

تم والحمد لله .



رقم الآيات	موضوع البحث	نوع البحث	رقم الصحيفة
سورة القصص ٢٩-٤٢	كلام حول قصص موسى وهارون <small>عليهما السلام</small> في فصول ١ - منزلة موسى عند الله وموقفه العبودي ٢ - قصص موسى في القرآن ٣ - منزلة هارون عند الله وموقفه العبودي ٤ - قصة موسى في التوراة الحاضرة	قرآني وتاريخي	٤٠ د ٤١ ٤٣ ٤٤
سورة الروم ٢٧-٣٩	كلام في معنى كون الدين فطريا في أربعة فصول		١٩٨
سورة لقمان ١٢-١٩	كلام في قصة لقمان ونبذ من حكمه في فصلين	قرآني ودوائي	٢٣٣
سورة السجدة ١-١٤	كلام في كينونة الإنسان الأولى	مختلط	٢٤٩

الصفحة السطر الخطاء	الصواب	الصفحة السطر الخطاء	الصواب
٢٢٥ ٥ و هنا و هنا		٣ ١ وليعلم وليعلم	
٢٢٦ ٢٠ الكن لكفر لكن الكفر		٧ ١٦ والفرن والفرق	
٢٤٥ ٤ والثناء اليه والثناء		٢٣ ٨ بينهما بينهما	
٢٤٥ ١٧ هو هي		٤٨ ١٦ كتاب كتابي	
٢٤٩ ١٧ تسمى تسمى		٦٠ ٢٣ لخوفهم لخوفهم أن	
٢٧١ ٢١ قارات قارات		٦٣ ١٢ من الاحضار الاحضار	
٢٧٨ ١٣ وليذيقنهم ولنديقنهم		٦٦ ١٣ عن من	
٢٧٩ ١٢ نازلة نازلة قبله		٨٣ ١٣ كما كما أن	
٣٠٢ ١٢ واضطربونا واضطربوا		١٠٧ ٢ اعمالهم اعمالهم	
٣٠٧ ١٤ المؤمنون المؤمنين		١١٦ ١٦ بينكم بينكم	
٣١٤ ٣ المذاع المذاد		١٢٢ ٢٠ الرحمان الرحمان: ٣٣	
٣٢٤ ٥ يعمل يعمل		١٣١ ٨ وقال - ١٣ زائد	
٣٣١ ١٩ لكم لكن		١٣٨ ٨ المملوك المملوك له	
٣٤٢ ٢ حالكولهم حالكونهم		د ٢٠ اليه اليه	
٣٤٨ ٥ تنكر تنكر		١٤٠ ١٧ اتيانا اتيانا	
٣٧٧ ٦ عالم عالم		١٤٢ ١٣ بالذكر الذكر	
٣٧٨ ١١ غروب غروب		١٦١ ١٩ قريب قريباً	
٣٨٢ ٢ فنهلكم فنهلكم		١٦٣ ٢٣ يصدق يصدق	
٣٨٩ ٧ فاتبعه فاتبعوه		١٦٤ ١٣ عن من	
٤١٣ ١٥ تتفكروا تتفكروا ما		١٧٢ ٦ للعالمين للعالمين	
٤١٩ ٢ يؤذونهم يؤذوهم		١٧٤ ١٠ من القيام عن القيام	
		١٨٠ ٩ شيء شيئاً	